Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعمال خالدة
٥



توماس مان

آل بودنبروك ٢

ترجمة
محمود ابراهيم الدسوقي

مراجعة
عبد الرحمن بدوي

توماس مان

آل بودنبروك ٢

ولد توماس مان في لوبيك سنة ١٨٧٥ في أسرة من الأسر الخاصة بمدينة لوبيك وعاش كاتباً حراً في ميونيخ. فلما تولى النازيون حكم ألمانيا في سنة ١٩٣٣ هجر بلاده إلى سويسرة، ثم عنّ له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٣٩ فأقام فيها إلى سنة ١٩٥٢ بولاية كاليفورنيا. ثم عاد إلى سويسرة وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل في سنة ١٩٥٥. وقد حصل فوق جائزة نوبل على جائزة جوته في سنة ١٩٤٩.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعمال خالدة

٥

آل بودنبروك

توماس مان

(الجزء الثاني)

مراجعة

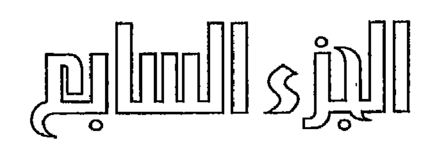
د. عبد الرحمن بدوي

ترجمة

محمود ابراهيم الدسوقي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

تعميد!... تعميد في الشارع العريض .

كل شيء تمثّلته مدام بيرمانيدر أيام الحمل وهي حالمة ، كان حاضراً ، كل شيء ، فالخادم كانت تكلل بالقشدة المضروبة أقداحاً كثيرة ملأى بالشكولاته الساخنة الملتهبة كانت قائمة فوق المائدة في حجرة الطعام ، مستأنية لايسمع لها ركز يمكن أن يزعج الاحتفال القائم هناك في القاعة . وكانت الأقداح متراصة على صينية شاي مستديرة هائلة ذات مقبضين ذهبيين على شكل المحار... بينما كان الخادم أنطون يقطع فطيرة شامخة قطعاً ، والآنسة يونجمان ترتب الحلوى والأزهار اليانعة في جفان الحلوى الفضية ، تميل برأسها على كتفها بعناية ، وتباعد بين اصبعيها الصغيرين وبين البقية...

عمّا قريب تدور هذه الأطايب على السادة والسيدات حين يستقر بهم المقام في حجرة الجلوس والصالون ولعلها تكفي ، ذلك أن الأسرة كانت مجتمعة في دائرة أوسع ، وإن لم تكن في أوسع دائرة إذ تربط الأسرة بآل كستنماكر عن طريق أوڤرديك بعض القرابة ، وترتبط عن طريق أولئك بآل مولندروف وهلم جرا! . وقد كان من المحال أن ترسم في ذلك حدوداً!... غير أن آل أوڤرديك كانوا ممثلين . وكان يمثلهم رأسهم الدكتور كاسبار أوفرديك محافظ المدينة الحاكم الذي تجاوز الثمانين من العمر .

وقد جاء بمركبته وصعد الدرج متوكئاً على عكازه ، مستنداً الى ذراع توماس بودنبروك ، وقد زاد وجوده من هيبة الاحتفال... وكان الاحتفال في الحق جديراً بكل وقار!

ذلك أنه كان هناك في القاعة أمام منضدة مكسوة على غرار الهيكل مزدانة بالأزهار يعظ خلفها قسيس شاب يرتدي حلة سوداء وبنيقة ناصعة منشاة تشبه حجر الطاحون ،

شخص طويل القامة قوي البنية غني اللباس بالأحمر والذهبي شبعان ريان يحمل على ذراعيه الممتلئتين شيئاً صغييراً غارقاً في الدنتيلا وشرائط الأطلس... وريشاً! وسليلاً! من آل بودنبروك! فهل يفهم المرء معنى هذا ؟

هل يدرك المرء الغبطة الكمينة التي صاحبت الخبر من الشارع العريض الى شارع منج لمّا نطقت الكلمة الأولى الخافتة ذات المعنى ؟ هل يدرك الحماسة الصامتة التي عانقت بها مدام بيرمانيدر عند سماعها الخبر أمها وأخاها - وفي شيء من الاحتياط - زوجته ؟ والآن إذ يحل الربيع ، ربيع سنة ١٨٦١ ، يولد الطفل ويتلقى السر المقدّس بالتعميد ، الطفل الذي عقدت عليه هذه الآمال الكبيرة من أمد طويل وطال الحديث عنه ، وكان ينتظر من سنين طويلة ويشتاق اليه ، الطفل الذي توسلوا الى الله أن يهبهم إياه ، وعذبوا الدكتور جرابو في سبيله... لقد جاء ، وكان خافياً كل الخفاء عن الأنظار .

إن يديه الصغيرتين تعبثان بالجدائل الذهبية المتدلية من خصر القابلة ، والرأس الذي تغطيه طاقية من الدنتيلا مزدانة باللون الأزرق السماوي ، يستقر فوق الوسادة مجانباً بعض الشيء ، متحولاً عن القس لايلتفت اليه ، بل ترمش عيناه في القاعة فاحصة كما يفعل الكبار العقلاء أو تكادان ، ناظرتين الى الأقرباء . في هاتين العينين اللتين ترسل جفونهما أهداباً طويلة جداً حالت الزرقة الصافية التي لحدقة الأب واللون العسلي الذي لحدقة الأم فأضحت عسلية ذهبية وضاءة لاتعنيها حدود ، متبدلة مع الضوء بيد أن الموق على كلا الجانبين عند منبت الأنف كان عميقاً تحوطه ظلال مائلة الى الزرقة . ومن شأن هذا أن يكسب الوجه الصغير الذي لم يكتمل بعد شيئاً مميزاً قبل الأوان لايوائم ابن الأربعة أسابيع على خير وجه ؟ لكن لعل إرادة الله أن لايكون في هذا مكروه ؟ ذلك أن وجه الأم التي تتمتع بصحة جيدة كان على هذا النحو... والأمر سيان : فهو يعيش ، وكونه غلاماً قد كان من أربعة أسابيع مضت باعثاً على الغبطة حقاً .

إنه يعيش ويمكن أن يحدث غير ذلك . فلن ينسى القنصل أبداً ضغطة اليد التي ضغط بها الدكتور جرابو على يده قبل أربعة أسابيع لحظة أن استطاع مغادرة الأم والوليد قائلاً : «احمد الله ياصديقي العزيز ، فلم يكن باقياً عليه كثير...» ولم يجرؤ القنصل على سؤاله عن ذلك الذي لم يكن باقياً عليه كثير ، ونفى عن هذه الدنيا في سكون ملحوظ كان يمكن أن يخرج منها كما خرجت ابنة أنتونيا الثانية... لكنه كان يعرف أنه مرت بالأم والولد من أربعة أسابيع مضت ساعة عصيبة فانحنى سعيداً عطوفاً على جيردا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي كانت الى جانب القنصلة وأمامه مستندة الى كرسي بذراعين يتعامد حذاؤهما اللامع فوق حشية من المخمل .

وكانت ماتزال شاحبة اللون ، جميلة في شحوبها جمالاً غريباً ، بشعرها الغزير القاتم الحمرة وعينيها الملغزتين اللتين كانتا تستقران على الواعظ وفيهما شيء بعينه من السحر المقنع . وكان السيد أندرياس برنجزهايم الراعي المريمي الذي ارتقى بعد موت الشيخ كولنج المفاجيء الى قس أول وهو في سن الشباب ـ كان يشبك يديه متلاصقتين لذقنه البارز في ورع ، ويحمل شعراً أشقر قصير الخصل ووجهاً حليقاً ناعماً بادي العظام يتبدل مظهره بين التزمت والتهلل ، ويبدر مسرحياً شيئاً ما ، وهو من اقليم فرانكونيا حيث كان يرعى خلال بضع سنوات عشيرة لوثرية صغيرة تعيش وسط كثالكة أقحاح ، قد باتت لهجته العامية ، بتوخيه منطقاً نقياً مؤثراً ، أسلوباً في الكلام فريداً للغاية يتميز بأحرف علة مديدة أو مؤكدة على حين بغتة «وراء» متلاحقة عند الأسنان...

وهو يحمد الله بصوت خافت مفوه أو قوي ، وتنصت اليه الأسرة : مدام بيرمانيدر في جد بالغ يخفي غبطتها وكبرياءها ، وايريكا جرينليش وقد باتت في الخامسة عشرة تقريباً فتاة قوية ذات ضفيرة مثبتة في أعلى ولون وردي هو لون بشرة والدها ، وكريستيان الذي وصل في صباح اليوم من هامبورج يقلب عينيه الغائرتين من ناحية الى أخرى... والقس تيبورتيوس الذي كان يضع عثنوني لحيته العارضية الطويلة الرفيعة فوق كتفيه ، وتتسع عيناه الصغيرتان الرماديتان هنا وهناك بصورة لاتخطر بالبال وتكبران شيئاً فشيئاً ثمّ تجحظان وتكادان تخرجان...وكلارا التي كانت تجيل نظرها في المكان في تجهم وجد وصرامة ، وترفع يدها أحياناً الى رأسها الذي كان يؤلمها... وقد أحضرا لآل بودنبروك هدية فاخرة هي دب قوي ، ناهض ، محشو ، بُني ، فاغراً فاه ، اصطاده قريب للقسيس في مكان ما في قلب الروسيا وأصبح الآن يقف في الردهة وبين مخلبيه صفحة لبطاقات الزيارة .

وآل كروجر يزورهم يورجن موظف البريد المقيم في رستوك ، وهو إنسان هادىء الطبع ، بسيط اللباس . أما أين يقيم يعقوب فلا يعرف أحد سوى أمه المولودة باسم أوفرديك والسيدة الضعيفة التي تبيع الفضيات خفية لترسل الى الإبن المحروم من الميراث نقوداً... كذلك سيدات بودنبروك كنّ حاضرات ، جد مغتبطات بحادث الأسرة السعيد الذي لم يمنع فيفي مع ذلك من أن تلاحظ أن منظر الطفل أدنى الى أن يدل على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرض . وهذا أمر لم يكن بد من أن تؤكده القنصلة المولودة باسم شتيڤنج وفردريكا وهنرييت بالمثل وأسفاه! أما كلوتيده المسكينة الغبراء ، النحيلة ، الصبور ، الجائعة فكانت متأثرة من كلمات القس برنجزهايم ، تصبو الى الفطيرة الشامخة المكسوة بالشوكولاتة... وكان حاضراً من غير أعضاء الأسرة السيد فوردريك فلهلم ماركوس وزيزيمي فيشبروت .

ويتوجه الآن القس الى الأبوين بالتعميد ويعظهما في واجبهما .وأحدهما يوستوس كروجر... وقد أبى القنصل بودنبورك في مبدأ الأمر دعوته الى أبوة التعميد قائلاً : «أنحمل الرجل المسن على حماقات . إنه يتشاجر كل يوم مع زوجه من جراء الابن . ويثير أشنع المشاهد ، ويبدد ثروته الضئيلة . وقد جعل في الحق يبدي في مظهره بعض الرثاثة من أثر همومه! لكن ماذا ترون ؟ لو أنّا دعوناه الى أبوة التعميد لأهدى الى الطفل طقماً كاملاً من الذهب الثقيل لايجني من ورائه جزاءً ولاشكورا! » ـ فلمّا سمع الخال يوستوس أن أباً غيره اختير للتعميد ـ إذ ذكر اسم ستيفان كستنماكر صديق القنصل ـ عزّ عليه هذا وآلمه إلى حد كبير فقدموه . وكان باعثاً على ارتياح توماس بودنبروك ان القدح الذهبي الذي أهداه لم يكن أثقل مما ينبغي .

والأب الثاني بالتعميد كان المحافظ الدكتور أوفرديك ، ذلك الشيخ الناصع البياض المهيب المنظر الجالس على كرسي ساند مريح غاية الراحة منحنياً فوق عكازه بربطة رقبته العالية وسترته السوداء الناعمة التي يطل من جيبها الخلفي دائماً طرف منديل أحمر يستعمله لسعوطه . كان هذا حدثاً ، كان نصراً! لم يفهم بعض الناس كيف وقع . يالله! إنه لاتكاد تكون هناك قرابة! فقد جذب آل بودنبروك الشيخ وأمسكوا بناصيته... وفي الواقع : لقد كانت حيلة ، كانت دسيسة صغيرة دبرها القنصل ونسج خيوطها مع مدام بيرمانيدر . كان في الحق مجرد فكاهة خلال الفرجة الأولى بنجاة الأم والولد . «غلام ياتوني! » فصاح القنصل : «ينبغي أن يكون المحافظ أبا له بالتعميد! » فلم تلبث أخته أن اهتبلت الفرصة ، ومضت فيها جادة ، وفكر هو في الأمر ، ووافق عندئذ على القيام بمحاولة . وهكذا تواريا خلف الخال يوستوس الذي بعث بزوجته الى نسيبتها زوجة تاجر الأخشاب أوفرديك ، فكان على هذه بدورها أن تعد حماها الشيخ بعض الاعداد ، ثمّ أدى توماس بودنبروك واجبه بزيارة رئيس الدولة أظهر له فيها منتهى الاجلال...

وبينما كانت القابلة ترفع طاقية الطفل أخذ القس يرش في حذر على شعر الصغير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بودنبروك قطرتين أو ثلاثاً من صحفة أمامه فضية ذهبية الباطن ويذكر الأسماء التي يعمده بها في تؤدة وتوكيد ، وهي : يوستوس ، يوهان ، كاسبار ثم يتلو ذلك بصلاة وجيزة ، ويمر الأقارب ليطبعوا على جبين المخلوق الساكن الرضي البال قبلة التهنئة . وتأتي تيريزه فشبروت آخراً فلا يكون مناص من أن تدني القابلة الطفل قليلاً فتقبله زيزيكي لقاء هذا الإدناء قبلتين تصطفقان اصطفاقاً خفيفاً وتقول بين القبلة والأخرى : « يالك من طفل طيب! » .

وبعد ثلاث دقائق يكونون قد اجتمعوا في الصالون وحجرة الجلوس وتدور عليهم الحلوى ، يجلس معهم القس برنجهايم أيضاً في حلته الطويلة التي يطل منها حذاؤه العريض اللامع من الدهان وتبدو بنيقة رقبته ، يرتشف القشدة الباردة من شوكولاتته الساخنة ويتحدث بوجهه المتهلل بأسلوب بالغ الخفة بالغ التأثير ، على نقيض عظته ، تنطق كل حركة من حركاته بما يعني : انظروا! ها أنذا أستطيع أن أخلع عني ثوب القسيس وأكون إبناً صافي المرح من أبناء الدنيا! وكان رجلاً لبقاً مرناً يتكلم مع القنصلة الكبيرة كلاماً عذباً ومع توماس وجيردا كلاماً دنيوياً ويسلك مسلكاً دمثاً ، ومع مدام بيرمانيدر في لهجة بادية المرح والكياسة صادرة من القلب... يشبك يديه إذا شاء في حجره ويطرح رأسه الى الوراء ، ويقطب حاجبيه ويعبس . وحين يضحك يشهق شهيقاً متدفعاً يصفر بين أسنانه المطبقة .

وبغتة تنشأ في الخارج حركة في الدهليز ، ويسمع الخدم يضحكون ، ويظهر بالباب مهنىء غريب المنظر . إنه جروبليبن ، جروبليبن الذي تعلق بأنفه النحيل في كل فصل من فصول السنة قطرة مديدة بصورة دائمة من دون أن تسقط أبداً . وجروبليبن عامل من عمال المخازن عند القنصل . وقد عين له مخدومه مكسباً إضافياً من مسح حذائه ، فهو يظهر في الصباح الباكر في الشارع العريض ويتناول الأحذية الموضوعة أمام الباب ، وينظفها تحت في الرحبة . لكنه في أعياد الأسرة وحفلاتها يظهر مرتدياً ملابس أيام العطلة يحمل أزهاراً ، ويلقي أثناء توازن القطرة على أنفه وبصوت متهدج عذب خطاباً يتلقى عليه نفحة من المال . لكنه ليس لهذا يفعل مايفعل!

وكان يرتدي سترة سوداء مما يخلعه القنصل ، لكنه يلبس حذاء ذا رقبة مدهونة بالزيت ، ولفاعة صوفية زرقاء يلف بها رقبته ، وفي يده العجفاء الحمراء طاقة كبيرة من الورد الباهت الذي بدأ ينفرط تتساقط بعض بتلاته على السجادة واحدة بعد الأخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت عيناه الصغيرتان الملتهبتان ترمشان وتدوران من دون أن تريا شيئاً فيما يظهر... وقد وقف بالباب ممسكاً بطاقة الورد وشرع يلقي خطابه في الحال ، بينما كانت القنصلة الكبيرة تنغض برأسها بعد كل كلمة مشجعة إياه ، وتلقي اليه بعبارات وجيزة تخفف بها عنه ، ويتأمله القنصل رافعاً إحدى حاجبيه الرائقين ، ويخفي بعض أعضاء أسرة مدام بيرمانيدر فمه بالمنديل .

قال : « إني رجل مسكين سيداتي وسادتي ، لكن لي قلباً يشعر بهناء القنصل وغبطته فهو دائماً طيب معي عطوف عليّ ، ولذا أتيت لأهنىء سيدي القنصل والسيدة وهو مايستحقه من الله والناس . وهذا ليس بكثير على سيد كالقنصل بودنبروك ، فهو سيد نبيل فليجزه الله خير الجزاء... »

« كذا يا جروبليبن! لقد أجدت! فشكراً ياجروبليبن! وماذا تبغي بالورد ؟ »

لكن جروبليبن لم يكن انتهى بعد فهو يجد صوته المتهدج فيطغى على صوت القنصل .

« أقول فليجزه الله في الآخرة خير الجزاء حيث نقف أمام عرشه فلا بد يوماً أن ننزل الى القبر ، فقراء وأغنياء ، هذه إرادة الله وهذا قضاؤه فواحد له نعش جميل مدهون مصنوع من الخشب ، وآخر له صندوق حقير . لكن مصيرنا جميعاً الى عفن... عفن... عفن... »

« كلا يا جروبليبن! إن عندنا اليوم تعميداً ، فكف عن عفنك!... » .

وختم جروبليبن بقوله : « وهذه بعض الأزهار! »

« شكراً يا جروبليبن! لكن هذا كثير! لقد كلفت نفسك أيها الرجل مالا تطيق! وهذه الخطبة لم أسمع مثلها من أمد طويل! اليك خذ! وابتهج بيومك! » . ووضع القنصل يده على كتفه وقدم له ريالاً .

وقالت القنصلة الكبيرة : « هاك أيها الرجل الطيب! أتحب يسوع المخلص كذلك ؟ »

« هذا هو من أحبه من كل قلبي يا حضرة القنصلة . هذا هو الحق... »

ويتناول جروبليبن ريالاً منها أيضاً وثالثاً من مدام بيرمانيدر ، وينسحب وهو ينحني في خضوع حاملاً معه في غير وعي طاقة الورد ، أو بالأحرى مما بقي منها لم ينتشر فوق السجادة .

... ونهض المحافظ عندئذ للانصراف فصحبه القنصل الى أسفل حتى المركبة ـ وكان هذا إيذاناً لسائر الضيوف بالإنصراف ، ذلك أن جيردا بودنبروك كانت بحاجة الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الراحة . وساد الغرف السكون وكانت القنصلة الكبيرة وتوني وايريكا والآنسة يونجمان هنّ الأخيرات .

وقال القنصل : «أجل يا ايدا . لقد فكرت ـ وأمي موافقة على ذلك ـ فكرت في أنك ربّيتنا جميعاً . فلو كان يوهان الصغير أكبر مما هو قليلاً... إن القابلة تعنى به الآن وسنحتاج بعدها الى مربية له ، فهل يروقك أن تنتقلي عندئذ الينا!»

«أجل ، أجل . ياحضرة القنصل ، إذا وافقت السيدة قرينتك...»

وجيردا أيضاً مرتاحة الى هذا الترتيب وهكذا يبيت الاقتراح قراراً الآن .

بيد أنه عند الانصراف استدارت مدام بيرمانيدر مرة أخرى عند الباب وعادت أدراجها الى أخيها وقبلته فوق خديه وقالت :

«إن هذا يوم جميل يا توم . إني سعيدة سعادة لم أحسها منذ سنين . إننا آل بودنبروك لسنا في ضيق والحمد لله ، فمن يظن هذا يكن واهماً الى أبعد حد! فالآن وقد رُزقنا بيوهان الصغير ـ وجميل أننا أسميناه يوهان من جديد ـ الآن يخيل اليّ أن عهداً جديداً كل الجدة سيطلع علينا» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

دخل كريستيان بودنبروك صاحب محل بورميستر وشريكه بهامبورج وفي يده قبعته الرمادية الحديثة الطراز وعصاه الصفراء ذات المقبض الذي يمثل رأس راهبة ـ دخل الى حجرة الجلوس التي كان أخوه يجتمع فيها بجيردا يقرأ ، وكانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة من مساء يوم التعميد .

قال كريستيان : «عم مساءً! أخ توماس يجب أن أكلمك في أمر عاجل ، فمعذرة ياجيردا... الأمر يقضي الاسراع ياتوماس .» .

فانتقلا الى قاعة الطعام المظلمة هناك حيث أشعل القنصل نفسه مصباحاً غازياً مثبتاً في الحائط وجعل يتأمل أخاه ، موجساً شراً . وفيما خلا التحية الأولى لم تكن قد حانت فرصة للكلام مع كريستيان ، لكنه كان أثناء احتفال اليوم يراقبه بانتباه فرأى أنه كان على خلاف عادته جاداً قلقاً . فلقد غادر القاعة أثناء خطبة القس برنجرهايم مرة لسبب ما وغاب عدة دقائق... ولم يكن توماس قد كتب له سطراً واحداً من ذلك اليوم الذي تسلم فيه كريستيان في هامبورج عشرة آلاف مارك من ميراثه سلفاً ـ سلمها اليه بيده تسديداً لديون عليه . وقد قال له القنصل : «امض على هذا المنوال تنفذ قروشك على عجل . أما مايتعلق بي فأرجو ألا تعترض سبيلي في المستقبل إلا قليلاً ، فقد امتحنت صداقتي في كل هاته السنين امتحاناً قاسياً»... فلماذا جاء الآن ؟ لابد أنه قد ساقته أمور عاجلة...

وقال القنصل : «والآن ؟»

فأجاب كريستيان وقد ارتمى جانباً على مقعد من ذوات الظهور العالية المحيطة بمائدة الطعام ، ووضع قبعته وعصاه بين ركبتيه النحيلتين : «لم أعد أستطيع بعد الآن شيئاً» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فسأله القنصل الذي بقي واقفاً : «ألي أن أسألك ماهذا الذي لم تعد تستطيع بعد الآن ؟ ما الذي يقودك اليّ ؟»

فأعاد كريستيان : «لم أعد أستطيع شيئاً بعد الآن» . والتفت يمنة ويسرة في جد بادي القلق في صورة مخيفة ، وأجال عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين في المكان . وكان عندئذ في الثالثة والثلاثين من عمره ، لكن منظره كان أسن كثيراً . وقد خف شعره الأشقر الضارب الى الحمرة خفة ملحوظة حتى انكشف كل مايغطي قمة الرأس منه تقريباً ، تبرز عظمتا خديه الغائرتين بروزاً شديداً ويحدودب بينهما أنفه الكبير مجرداً من اللحم هزيلاً في حدبة هائلة...

ومضى يقول وهو يزلق يده على جانبه الأيسر الى أسفل من دون أن يلمس جسمه : «لو كان هذا وحده! إنه ليس بألم ، إنه عذاب أتعرف ؟ عذاب دائم لايدرك كنهه . وقد قال لي الدكتور دروجميلر في هامبورج أن كل الأعصاب في هذه الناحية أقصر مما ينبغي... فتصور أن كل أعصابي في الجهة اليسرى جميعها أقصر مما ينبغي! إن هذا جد غريب... فأحياناً يخيل اليّ أن هنا في الجانب الأيسر تقلصاً ما أو فالجاً لابدّ أن يقع . فالجاً يلازمني على الدوام... إنك لاتتصور... لا أستطيع أن أنام بالليل نوماً هادئاً ، فإني أنتفض لأن قلبي يكف بغتة نبضه ويتولاني خوف شديد... ولايقع هذا مرة واحدة بل عشر مرات قبل النعاس... لاأعلم هل تعرف هذا... فسأصفه لك بالدقة... إنه...» .

فقاطعه القنصل ببرود : «دع هذا! فإني لاأظن أنك جئت الى هنا لتقص عليّ ذلك» .

«كلا ياتوماس ، ولو كان هذا وحده! لكنه ليس كل شيء! إنه عملي... فأنا لا أستطيع بعد الآن شيئاً» .

«هل اضطربت أحوالك ثانية ؟» وكف القنصل عن الهبوب أو رفع الصوت ، وكان يسأل في هدوء تام ، بينما كان يتأمل أخاه من جنب في برود بادي التعب .

«كلا ياتوماس . ولكي أقول الحقيقة ـ ومع ذلك فالأمر سيان ـ الحقيقة أن الأمور لم تستقم لي قط . حتى بعشرة آلاف مارك ، كما تعلم أنت نفسك... فقد كانت هذه في الحقيقة لكي لا أغلق المتجر في الحال...والمسألة هي... إني منيت بعدها بخسارة أخرى... في البن ، وفي تفليسة أنقرس... هذا حقيقي . على أني بعد ذلك لم أفعل في الحق شيئاً ولزمت السكون... لكنه لابدّ للمرء أن يعيش... وهناك الآن سفاتج وديون أخرى... خمسة آلاف ريال... آه ، إنك لاتدرك مبلغ هبوطي! ثم هذا العذاب الى ذلك كله...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصاح القنصل به وقد خرج عن طوره : «اذن لقد لزمت السكون!» وطار في هذه اللحظة صوابه وقال : «لقد تركت العربة في الوحل وذهبت تتسلى في ناحية أخرى! أتظن أني لاأتمثل كيف كنت تعيش ، في المسرح والسيرك والنوادي ومع المنحطات من النساء» .

«هل تعني إلينا... أجل إنك في هذه الأشياء ينقصك الفهم الكثير ياتوماس ، ولعله من سوء طالعي أن فهمي لهذه الأشياء أكثر مما ينبغي ، ذلك أنك محق في أن هذا كلّفني أكثر من اللازم وسيكلفني دائماً الكثير تقريباً... إن الطفلة الثالثة ، الفتاة الصغيرة التي ولدت قبل نصف عام... مني» .

«حمار!»

«لاتقل هذا ياتوماس . يجب أن تكون منصفاً ، حتى في غضبك ، لها ولـ... لِمَ لاتكون الطفلة من ظهري ؟ أما مايتعلق بألينا فليست بالمنحطة قطعاً . ومثل هذا القول لايجوز . فليس يستوي عندها أن تعيش مع أي شخص كائناً ماكان وقد قطعت من أجلي علاقتها بالقنصل هولم الذي يملك من المال أكثر مما أملك . فإلى هذا الحد طيبتها... كلا ، إنه لافكرة عندك ياتوماس أية مخلوقة عظيمة هي! إنها صحيحة البدن...صحيحة البدن...!» أعادها كريستيان وهو يضع يده أمام وجهه مقوس الأصابع ، ظاهرها الى الخارج ، كما اعتاد أن يفعل كلّما حكى عن : «هذه ماري» وعن الرذيلة في لندن . قال : «حسبك أن ترى أسنانها وهي تضحك! إنني لم أجد في العالم كله بعد شبيهاً لهذه الأسنان ، لا في ڤلباريزو ولا في لندن... ولن أنسى قط ذات مساء وقد تعرفت اليها... عند أوليش في «حانة المحار»...كانت إذ ذاك ترافق القنصل هولم ، فأخذت أقص عليها شيئاً وأتلطف معها شيئاً... فلمّا فزت بها بعد ذلك... ما أبدع ياتوماس! إن هذا الشعور يختلف كل الاختلاف عن صفقة جيدة تعقدها... لكنك لاتحب سماع مثل هذه الأشياء . وألاحظ ذلك عليك الآن من جديد ، وقد انتهى أيضاً أمري معها . سأقول لها وداعاً ، وإن كنت سأبقى متصلاً بها من جراء الطفلة... سأدفع في هامبورج كل شيء أنا به مدين ، أتفهم ، ثمّ أغلق المحل . فلست أستطيع بعد الآن شيئاً . وقد تحدثت مع أمي ، وهي لاتمانع في إعطائي خمسة آلاف ريال مقدماً كي أرتب أموري ، وستوافق أنت على ذلك أيضاً ، لأنه خير لي أن يقال بكل بساطة أن كريستيان بودنبروك صفى أعماله وسافر الى الخارج من أن يقال أنه أفلس . وستعطيني الحق في ذلك . وأريد على التعيين أن أعود الى لندن ياتوماس ، ففي لندن وظيفة لي ، والاستقلال في العمل لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخلق لي ، فهذا ما أزداد تبيناً له على مر الأيام… هذه التبعة… فالمرء بوصفه مستخدماً يعود الى بيته في المساء خالي البال… وفي لندن يحلو لي المقام ، فهل لديك على هذا اعتراض ؟ »

كان القنصل أثناء هذا البيان كله يدير لأخيه ظهره ، ويرسم بقدمه وهو واضع يديه في جيبي سراويله ، صوراً على الأرض ، فقال ببساطة : « حسناً ، اذهب إذن الى لندن » . وخلفه وراءه في منتصف الطريق من دون أن يلتفت اليه ولو لمرة واحدة ، عائداً الى حجرة الجلوس .

بيد أن كريستيان تبعه ، وقصد الى جيردا التي كانت هناك وحدها جالسة تقرأ فمد اليها يده قائلاً : « طاب ليلك ياجيردا . أجل يا جيردا إني أعود في أول فرصة الى لندن ، وغريب كيف يقذف بالمرء هنا وهناك والآن الى المجهول ثانية . أتعلمين ، الى مثل هذه المدينة الكبيرة ، حيث تقع في كل خطوة ثالثة مغامرة ، ويشهد المرء الكثير . غريب… أتعرفين هذا الشعور ؟ إنه يستقر عندي هنا… في المعدة… غريب جداً… » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

مات چيمس مولندروف عميد التجار الشيوخ . مات على صورة غريبة تقشعر منها الأبدان . فهذا الشيخ الهرم الذي كان مريضاً بالسكر تعطلت فيه غرائز حفظ الذات تعطلاً شديداً ، فوقع في السنوات الأخيرة من حياته فريسة شهوة جامحة للفطائر والتوترات . وقد احتج عليه الدكتور جرابو الذي كان أيضاً طبيب آل مولندروف الخاص ، بكل شدة ، وكان الدكتور يستطيع ذلك . فمنعت الأسرة المهمومة عميدها من تناول الخبائز الحلوة في شيء من الشدة والرفق معاً . لكن ماذا فعل السناتور ؟ استأجر وهو الضعيف العقل في مكان ما من شارع لايليق بمقامه في حي جروبل جروبه الصغير حجرة ، غرفة كأنها ثقب حقيقي ، كان يتسلل اليها ليأكل فيها فطائره... وهناك وجدوه ميتاً مليء الفم بفطيرة مضغ نصفها ولطخ بها سترته وتناثر بعضها فوق المائدة . وقد دهمته نوبة قلبية قضت عليه في الحال بدلاً من الموت البطيء .

وقد كتمت الأسرة تفاصيل هذه الميتة التي تثير الاشمئزاز ما أمكنها الكتمان . لكن هذه التفصيلات سرعان ماذاعت في المدينة فباتت حديث الناس في البورصة والمنتدى وفي مقهى «الانسجام» ، وفي المكاتب وبين المواطنين ، وفي المراقص والمآدب والسهرات ، ذلك أن الحادث وقع في فبراير سنة ١٨٦٢ حيث حياة المجتمع على قدم وساق . حتى صديقات القنصلة بودنبروك كنّ في «مساء أورشليم» يتحدثن عن ميتة السناتور مولندروف في كل مرة تكف فيها ليا جيرهارت عن التلاوة . وحتى الصغيرات من تلميذات يوم الأحد كنّ يتهامسن بها وهنّ يعبرن رحبة بيت بودنبروك الكبيرة هائبات . وقد جرى للسيد شتوت حديث مفصل عنها مع زوجته التي تغشى دوائر الطبقة الراقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن الاهتمام لم يقتصر طويلاً على ماوقع ، بل سرعان مانبتت مع أول إشاعة عن وفاة هذا العضو المسن من أعضاء المجلس المسألة الوحيدة الكبرى... ولما ووري التراب كانت هذه المسألة وحدها هي الشغل الشاغل لكل الأذهان : من يكون خلفاً له ؟

فياله من توتر ، وياله من شغل خفي! أما الأجنبي الذي جاء ليشاهد معالم المدينة من عهد القرون الوسطى ومحيطها الجذاب ، فلم يلحظ من ذلك شيئاً . لكن أية حركة كانت تجيش تحت السطح! ؟ أية إثارة! آراء شريفة ، سليمة ، لايتسرب اليها شك كانت تتضارب ، وتصطخب بدافع الاقتناع ويمحص بعضها بعضاً رويداً رويداً . كانت المشاعر ثائرة ، والطموح والغرور يفوران في سكون ، والآمال المدفونة تنتشر وتنهض وتخيب . فالتاجر العجوز كورتس الساكن في «حارة الخبازين» والذي يصيب ثلاثة أو أربعة أصوات في كل انتخاب سيجلس من جديد في يوم الانتخاب يرتعش في منزله ينتظر النداء ،لكنه لن ينتخب أيضاً هذه المرة ، بل سيمضي يضرب الافريز بعصاه وعليه سيماء الرجل الشريف الراضي عن نفسه ، وسيرقد في القبر يصحبه هذا الهم الخفي من أنه لم يصبح سناتوراً...

ولمّا دار الحديث في يوم الخميس وقت الغداء عند آل بودنبروك حول وفاة چيمس مولندروف كانت مدام بيرمانيدر قد بدأت ، بعد أن أعربت عن أسفها ببضع كلمات ، تدير طرف لسانها على شفتها العليا وترفع بصرها في مكر الى أخيها ، الأمر الذي حمل سيدات بودنبروك على أن يتبادلن نظرات حادة تنبو عن الوصف ، ثمّ أن يغمضن جميعاً أعينهن ويطبقن شفاههن ثانية كأنهن يصدعن بأمر . وقد ردّ القنصل لحظة على ابتسامة أخته الماكرة ثمّ حول موضوع الحديث ، فقد كان يعلم أن الناس في المدينة أبدوا الفكرة التي كانت تدور في خلد توني وتسعدها .

لقد ذكرت أسماء ثمّ أطرحت ، وظهرت أسماء أخرى ومحصت . فقد كان هننج كورتس أكبر سناً مما ينبغي والحاجة ماسة أخيراً الى نشاط متجدد . وكان القنصل هوينوس تاجر الخشب الذي لم تكن ملايينه خفيفة في الميزان ، غير مقبول من الناحية الدستورية لأن أخاه كان عضواً في مجلس الشيوخ . وكان القنصل ادوارد كستنماكر تاجر النبيذ والقنصل هرمان هاجنشتروم مكينين في القائمة ، لكنه منذ البداية كان هذا الاسم : توماس بودنبروك يرنّ على الدوام ، وكلّما اقترب يوم الانتخاب ازداد وضوحاً . إنه وهرمان هاجنشتروم أكثرالمتقدمين فرصاً .

وليس شك في أنه كان لهرمان هاجنشتروم أنصار معجبون ، فهمته في معالجة الشؤون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العامة والسرعة الملحوظة التي ازدهرت بها شركة شترونك وهاجنشتروم وتطورت ، وعيشة الترف التي يعيشها ، والبيت الذي يديره ، وعجينة كبد الأوز التي يفطر بها ـ كل هذا لم يقصر عن أن يكون له أثره . فهذا الرجل الضخم البدين أكثر من اللازم قليلاً بلحيته الضاربة الى الحمرة التي يحتفظ بها قصيرة وأنفه المفرطح المستقر فوق شفته العليا ، هذا الرجل الذي لم يعرف أحد جده ولا هو أيضاً عرفه ، والذي لايرحب المجتمع بأبيه لزواج در عليه المال لكنه كان مريباً ، والذي يعد اسمه ، وقد صاهر هونيوس كما صاهر مولندروف ، في جملة الأسر الخمس أو الست النافذة الكلمة وفي مستواها ، قد كان بلا جدال ظاهرة ملحوظة محترمة في المدينة . والطريف الجذاب في شخصيته ، وهو ماميزه وجعل له مركزاً مرموقاً في أعين الكثيرين قد كان الكرم والتسامح اللذين يتسم بهما كيانه ويؤلفان الملمح الأساسي فيه . وقد كان الأسلوب السهل الذي يكسب به المال وينفقه عن سعة يختلف عن أسلوب مواطنيه التجار وعملهم المضني الذي يتحلّون فيه بالصبر ويسترشدون فيه بما توارثوه من مبادىء صارمة . وقد كان هذا الرجل طليقاً من أسر التقاليد والتقوى الكابحة . يسير على هواه . وقد كان كل شيء قديم الطراز غريباً عنه ، فلم يكن يسكن بيتاً من بيوت الأعيان القديمة المتعددة الحجرات بصورة تدل على الترف والسخف والتي تحيط بأفنيتها الهائلة المرصوفة بالحجارة أروقة مدهونة باللون الأبيض وقد كان بيته في شارع زند ـ وهو امتداد للشارع العريض نحو الجنوب ـ بسيطاً في واجهته المدهونة بالزيت يحتوي على الغرف الضرورية مؤثثة برياش ثمين ، أنيق ، مريح ، وكان جديداً بعيداً عن كل طراز جامد . هذا الى أنه كان دعا الى بيته من أمد قصير في إحدى سهراته الكبرى مغنية من مسرح المدينة غنت بعد تناول الطعام لضيوفه الذين كان من بينهم أخوه القانوني المحب للفنون المولع بالآداب ، وبالغ في إكرامها . ولم يكن بالرجل الذي يؤيد في مجلس المواطنين رصد مبالغ كبرى من المال لترميم آثار القرون الوسطى وحفظها . أما أنه كان الأول ، أول من أضاء المدينة بأسرها مسكنه ومكاتبه بالغاز فأمر واقع . وحقاً إن القنصل هاجنشتروم إذا كان حرص على أي تقليد ، فقد كان أسلوب التفكير الحر التقدمي المنطوي على التسامح المتّسم بالنزاهة المأثور عن والده الشيخ هينريش هاجنشتروم ، وهذا أساس الإعجاب الذي استمتع به .

بيد أن مكانة توماس بودنبروك كانت من نوع آخر . فلم يكن فحسب ماهو ، بل كان الناس يكرمون فيه شخصيات أبيه وجده وجده الأكبر ، وكان بغض النظر عن نجاحه في

أعماله الخاصة والعامة يحرز بين المواطنين مجداً عمره مائة عام . وأهم شيء فيه قد كان بلا ريب تلك الطريقة السهلة النامة عن الذوق ، الودود ، الأسرة التي كان يمثل بها هذا المجد ويفيد فنه . وكان يميزه قدر من التعليم الشكلي غيرمألوف اطلاقاً بين مواطنيه العلماء . كان حيث يعبر يثير من العجب بقدر مايثير من الاحترام...

كان الكلام في أيام الخميس يدور عن آل بودنبروك عن الانتخاب المنتظر ، وكان يجري في صورة من الملاحظات الوجيزة العارضة تقريباً ولايتعداها فتجيل القنصلة الكبيرة خلالها عينيها الرائقتين جانباً . لكن مدام بيرمانيدر كانت على الرغم من ذلك لاتكف عن التشدّق قليلاً بمعرفتها المدهشة بدستور الدولة الذي درسته فيما يتّصل بانتخاب عضو مجلس الشيوخ كما درسته من أمد فيما يتعلق بمواد الطلاق تفصيلاً ، فكانت تتحدث عندئذ عن اللجان الانتخابية والناخبين وبطاقات التصويت وتبحث في كل مايخطر بالبال من احتمالات وتتلو عن ظهر قلب اليمين الرسمية التي يؤديها الناخبون وتتحدّث عمّا تديره اللجان الانتخابية كل على حدة من مداولات حرة وفق الدستور تتعلق بأولئك الذين تقيد أسماؤهم في قوائم المرشحين ، وتعرب عن رغبتها الحارة في أن يسمح لها بالاشتراك في المداولة «المتسمة بخلوص الطوية» التي تدور حول شخصية هرمان هاجنشتروم . وبعد ذلك بلحظة انحنت الى الأمام وجعلت تحصي نوى البرقوق الملقى في صحن فاكهة أخيها المطبوخة وتقول : «كبير ـ حقير ، وزير ـ خفير...» وتدفع بالنواة الناقصة الى الطبق الصغير بطرف سكينها . وبعد الفراغ من تناول الطعام لم تقو على الصبر فسحبت القنصل من ذراعه وانتحت به جانباً الى حنية النافذة وقالت : «آه يا توم... إذا انتخبت... إذا دخل رنكنا الغرفة الحربية في مجلس البلدية... فإني سأجن من الفرح ، سأسقط ميتة وسترى!»

فقال : «ياعزيزتي توني! التزمي الرزانة والوقار قليلاً ، أرجوك! فإن هذا لايزايلك في مألوف عادتك ؟ فهل أطوف بالناس كما يفعل هننج كورتس ؟ فنحن من دون أن نكون أعضاء شيوخ شيء مذكور... وسواء ظفرت بهذا اللقب أو لم أظفر ، فستعيشين كما آمل» .

وأخذ التهيج وأخذت المداولات والمساجلات مجراها ، واشترك فيها القنصل بيتر دولمان المستهتر ، بمتجره الكاسد كل الكساد ، الباقي اسماً ، وبأبنته البالغة السابعة والعشرين من عمرها التي بدد ميراثها ، فكان في مأدبة عشاء أقامها توماس بودنبروك ، وفي مأدبة مماثلة أقامها هرمان هاجنشتروم ، يسمي الداعي وبصوت رنان صاخب «سيدي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السناتور» أما سيجموند جوش ، السمسار العجوز جوش ، فكان يطوف كالأسد الزؤور آخذاً على عاتقه أن يخنق بلا لف ولا دوران كل من لايصوت للقنصل بودنبروك .

«القنصل بودنبروك أيها السادة..ها! ياله من رجل! لقد وقف بجانب والده لما هدأ بكلمة واحدة ثورة الشعب المنفلت من عقاله في سنة ١٨٤٨ . . . فلو كان عدل على الأرض لكان أبوه وأبو أبيه عضوين في مجلس الشيوخ بالفعل» .

وفي قرارة الأمر لم يكن القنصل بودنبروك الذي ألهبت شخصيته باطن السيد جوش هو الباعث على هذا الكلام بقدر ماكانته السيدة القنصلة الشابة المولودة باسم أرنولدسن . وليس هذا لأن السمسار تبادل إذ ذاك كلمة معها ، أو أنه ينتمي الى دائرة التجار الأغنياء أو يأكل على موائدهم ، ويتبادل معهم بطاقات الزيارة ، ولكن لأن جيردا بودنبروك ، كما سبق أن ذكرنا ، لم تكد تظهر في المدينة حتى التهمتها نظرة من السمسار الجهم عامرة دائماً بالشوق تنشد غير المألوف . من ذلك الحين أدرك بغريزته الأمينة أن هذه الظاهرة صالحة لأن تكسب كيانه المتعطش شيئاً آخر من الري فجعل من نفسه بكليته عبداً لها وهي التي كادت ألا تعرف اسمه . من ذلك الحين أحاط بأفكاره هذه السيدة العصبية المتحفظة الى أقصى حد والتي لم يقدمه أحد اليها ، شأن النمر مع مروضه بنفس الوجه الحانق ونفس الموقف المنطوي على المذلة والعذر الذي يرفع لها فيه قبعته الجزويتية في الشارع من دون أن تتوقع منه ذلك.. وهذا العالم الوسط لم يكن يتيح له أن يرتكب نحو هذه السيدة عملاً خبيثاً بغيضاً ينهض بتبعته وهو الأحدب العابس ، المقرور في معطفه ، المستمتع بمثل راحة البال التي يستشعرها الأبالسة . ولم تكن عادات الناس المملة تسمح له أن يبوىء هذه المرأة عرش الأباطرة بالإغتيال والجريمة والحيل الملطخة بالدم . فلم تدع له سوى أن يصوت في مجلس الشيوخ لزوجها الذي يحترمه رغم أنفه وربّما أن يهدي اليها مرة ترجمته لمجموعة مسرحيات لوب دي ڤيجا .

الفصل الرابع

يجب في خلال أربعة أسابيع أن يملأ من جديد كل كرسي شاغر في مجلس الشيوخ . هذا نص الدستور . وقد تقضت ثلاثة أسابيع منذ وفاة جيمس مولندروف . والآن يقترب يوم الإنتخاب وهو يوم فيه تذوب الثلوج ويقع في نهاية فبراير .

وفي الشارع العريض أمام دار البلدية بواجهتها القرميدية المزججة المفرغة ، وأبراجه وبريجاتها المتسامية صوب السماء الشهباء ، ومصعد درجها المسقف المستقر على أعمدة خارجة ، وبوائكها المدببة التي يرى من خلالها ميدان السوق ونافوراته... أمام دار البلدية هذه يتزاحم الناس في الساعة الواحدة عند الظهيرة ، ويقفون في الثلج الذائب ومائه القذر في الشارع تغوص أقدامهم فيه الى الأعماق وينظر بعضهم الى بعض ، ثمّ ينظرون أمامهم ويتطلعون بأعناقهم : ذلك أنه في هذه الساعة بالذات ، هناك خلف ذات الباب المفضي الى قاعة المجلس التي صفّت مقاعدها الاثنى عشر ذات الأذرع على شكل نصف دائرة تنتظر كذلك جمعية الانتخاب المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس المواطنين ـ تنتظر مقترحات لجان الانتخاب...

وقد طال على ذلك الأمد ، إذ يظهر أن مناقشات لجان الانتخاب لم تشأ أن تقر ، وأن الكفاح كان يستعر ، وأنه الى تلك اللحظة لم يكن الرأي استقر على اقتراح شخص واحد للجمعية بحال من الأحوال ، وإلا لأعلن المحافظ انتخابه في الحال... غريب! إن أحداً لايدرك من أين تصدرالإشاعات ، وأين وكيف تنبت ، لكن الإشاعات تتدافع من الباب الى الشارع وتنتشر . فهل الواقف هناك في الداخل هو السيد كاسبرسن أكبر حاجبي المجلس سناً الذي لايطلق على نفسه سوى «موظف الدولة» ويدير من زاوية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمه مايتّصل به الى الخارج ، بأسنانه المطبقتين وعينيه المحولّتين . الآن يقال أن الاقتراحات قد دخلت الى قاعة المجلس ، وإن كلاً من اللجان الثلاث قد اقترحت اسماً مختلفاً : هاجنشتروم ، بودنبروك ، كستنماكر! ندعوالله أن يسفر الانتخاب العام الآن عن أغلبية مطلقة في الأقل بالاقتراع السري فوق بطاقات الأصوات! فالناس ، من لم يلبس منهم فوق الأحذية أغطية دافئة ، أخذوا يحركون سيقانهم ويضربون الأرض بأقدامهم المتألمة من البرد .

واولئك الذين يقفون هنا ينتظرون هم أناس من طبقات الشعب كافة . فمنهم البحارة برقابهم العارية الموشومة يدسون أيديهم في جيوب سراويلهم الفضفاضة المنخفضة . وحمالو الغلال بقمصانهم وسراويلهم القصيرة المصنوعة من التيل الأسود اللامع ووجوهم المعبرة عن استقامة منقطعة النظير ، وسائقون يعتلون ، والأسواط في أيديهم أعدال الغلال المكدّسة طبقة فوق طبقة ينتظرون نتيجة الانتخاب ، وخادمات متلفعات مؤتزرات يرتدين الجونلات السميكة المخططة وعلى مؤخرة رؤوسهن القلانس الصغيرة البيضاء ، وفوق أذرعهنّ العارية السلال ذات الآذان ، وبائعات السمك والخضر بسلال القش . بل لقد كان من بينهم بضع فتيات جميلات بستانيات بقلانسهن الهولندية ، وجونلاتهن القصيرة ، وأكمامهن الطويلة المثناة البيضاء المنتفخة من النطاق المطرز بأزهى الألوان... وبين هؤلاء وهؤلاء مواطنون وأصحاب حوانيت من الجيران خرجوا من دون قبعات يتبادلون الرأي ، وتجار شبان حسنو اللباس ، أبناء يقضون في مكاتب آبائهم أو مكاتب أصدقاء آبائهم مدة التمرين ثلاث سنوات أو أربعاً ، وصبية مدارس يحملون حوافظهم وربط كتبهم .

وكان هناك عاملان يمضغان الطباق ويلتحيان بلحية كثة على غرار لحى الملاحين وقفت خلفهما سيدة تتلفت يمنة ويسرة في اضطراب شديد تحاول النظر بين أكتاف الشخصين القويين الى دار البلدية . وكانت ترتدي معطفاً مسائياً ركب عليه فراء طويل بني كانت تضمه من الداخل بكلتا يديها ، وتستر وجهها كله بقناع كثيف بني ، ويخوض حذاؤها المصنوع من المطاط في ماء الثلج بلا انقطاع .

وقال أحد العاملين للآخر : «لن ينجح السيد كورتس هذه المرة أيضاً» .

«كلا أيها الأحمق . إنه لن يحتاج الى تضليلي بعد الآن . إن الأصوات جميعاً قد أعطيت لهاجنشتروم وكستنماكر وبودنبروك» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«أجل . غير أن المسألة هي : من من الثلاثة يتغلب على الآخرين ؟ »

«نعم ، قل لي أنت هذا! »

«أتعرف . أعتقد أنهم سينتخبون هاجنشتروم» .

«نعم أيها المخادع ، إن الشيطان يتكلم فيك» .

وبصق تبغه على الأرض إذ لم يمكّنه الزحام من أن يرسم ببصقته قوساً يبتدىء عنده ، ثمّ رفع بكلتا يديه سراويله من تحت نطاقه الجلدي الى أعلى وتابع كلامه : «هاجنشتروم إنه زكيبة أكل ولا يمر هواء في أنفه... هو بدين الى هذا الحد... كلا ، أما وقد أخفق كورتس من جديد فأنا مع بودنبروك : إنه رجل همام! »

«هذا ماتقوله أنت . لكن هاجنشتروم أكثر همة منه... »

«الأمر لايتوقف على هذا ، ولادخل لهذا هنا» .

«ثم إن بودنبروك أيضاً متناه في الأناقة بقلابات أكمامه وربطة عنقه الحريرية وشاربه المفتول... ألم تره وهو يسير ؟ إنه يتواثب دائماً كما لو كان طائراً... »

«أيها الأبله ، مادخل هذا ؟ »

«وله أخت هربت ثانية من زوجين »

...فارتعشت السيدة التي ترتدي معطف المساء .

«هذه مسألة شائكة ، لكننا لانعرف عنها شيئاً . ثمّ إن القنصل لايملك لها دفعاً » .

كلا ، أليس كذلك ؟! هذا ماكانت تراه السيدة المقنعة وهي تضغط يديها تحت المعطف... أليس كذلك ؟ أوه ، والحمد لله!

وأضاف الرجل الذي يناصر بودنبروك قائلاً : «ثمّ إن المحافظ أوفرديك كان لابنه أبا التعميد . وهذا له شأنه ، أقول لك... »

وتفكر السيدة : أليس كذلك ؟ نعم ، والحمد لله!... فقد كان لهذا أثره... وارتعدت فقد خرجت إشاعة أخرى وسرت تتعرج الى الوراء حتى بلغتها . إن الانتخاب العام لم يصل الى نتيجة حاسمة . فقد حصل ادوارد كستنماكر على أقل الأصوات وخرج منه . والمعركة بين هاجنشتروم وبودنبروك مستمرة .

ويلاحظ مواطن عليه هيئة المعتد برأيه أنه إذا تعادلت الأصوات سيكون من الضروري اختيار أربعة مشرفين يقررون أغلبية الأصوات .

وبغتة ينادي صوت في المقدمة هناك عند المدخل يقول : «لقد انتخب هيني سيهاز! »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهيني سيهاز هذا شخص سكير دائماً أبداً ، يجول بخبز مما ينضجه البخار على عربة يد! فيضحك الجميع ويشبون على أطراف أصابعهم ليروا صاحب النكتة . وكذلك السيدة ذات القناع قد هزّ كتفيها ضحك عصبي لحظة من الزمان وصاحبت هذا الضحك مع ذلك حركة معناها : «أهذا وقت التنكيت ؟» . ثمّ تمالكت نفسها يحدوها شيء من القلق وعاودت النظر بين العاملين الى دار البلدية في لهفة . لكنها في نفس اللحظة أرخت يديها حتى انفرج معطفها المسائي من أمام . ووقفت هكذا منخفضة الكتفين متراخية يكاد يقضى عليها...

هاجنشتروم! لقد وصل الخبر ولايدري أحد من أين جاء . وصل الخبر كأنّما نبت من بطن الأرض أو هبط من السماء ، وهو في نفس الوقت في كل مكان... ليس ماينقضه فهو حاسم . هاجنشتروم! ـ أجل ، أجل ، إنه اذن هاجنشتروم . وليس ثمة ماينتظر . كانت السيدة ذات القناع خليقة أن تتوقعه . فهكذا الحياة دائماً . فالآن يمكن العودة الى البيت . فهي تشعر كأنها توشك أن تبكي...

ولا تكاد تمر ثانية على هذه الحالة حتى تسري في الجمع عن بكرة أبيه صدمة مفاجئة ، رجة ودفعة تشق طريقها من أمام الى وراء ، وتسند الأماميين الى الخلفيين ، بينما يخطف في نفس الوقت عند الباب هناك شيء أحمر قان... سترتا حاجبي المجلس الحمراوان وقد ظهر صاحباها كاسبرسن وأوليفلت بلباسهما الرسمي يضعان القبعة المثلثة الأركان ويرتديان سراويل الركوب البيضاء تزدان أكمامهما بزركشة صفراء وعلى جانبيهما سيف الزينة يشقان طريقهما جنباً الى جنب بين الجمع المتراجع .

إنهما ينطلقان كالقضاء وقورين ، صامتين ، مغلقين ، لايلتفتان يمنة أو يسرة ، خافضين البصر الى الأرض... يتّجهان الوجهة التي عيّنتها نتيجة الانتخاب وهما يعلمان ، في عزيمة لاتهن . ولم تكن هذه الوجهة شارع زاند بل كانا يتّجهان الى اليمين هابطين الى الشارع العريض!

لم تصدق السيدة ذات القناع عينيها ، لكنه من حولها كان الناس يرون ماتراه ، فتحولوا في نفس الإتجاه الذي كان الحاجبان يتجهانه يقول بعضهم لبعض : «عجيب ، عجيب ، بودنبروك! وليس هاجنشتروم!» ويخرج من باب البلدية سادة مختلفون منهمكين في الحديث ويعرجون وينطلقون بخطى سريعة هابطين الى شارع منج ليكونوا أول المهنئين .

وهنا ضمت السيدة معطفها المسائي وانطلقت تعدو كما لاتفعل سيدة في الحقيقة ،

وانزاح قناعها وكشف عن وجهها الصاخد ، ولكن هذا لايهم . ومع أن فرداً من حذائها العلوي المحلي بالفراء كان ينسل دائماً في الثلج الذائب ويعوقها على أسوأ وجه فإنها سبقت الجميع وبلغت أولاً البيت الكائن على الناصية في « حفرة الخبازين » فدقت الجرس عند الصفة دقاً شديداً وصاحت بالفتاة التي فتحت الباب : « إنهم قادمون ياكاترين ، إنهم قادمون! » وصعدت الدرج طائرة واقتحمت حجرة الجلوس فنحى أخوها الصحيفة جانباً ، وكان في الحق ممتقع اللون شيئاً ما فلاقاها بحركة من يده يكفها عمّا كانت بسبيل أن تفعله... لكنها عانقته وكررت قولها : « إنهم قادمون ياتوم ، إنهم قادمون! لقد انتخبت وسقط هرمان هاجنشتروم »

●

كان يوم جمعة . فقد وقف السناتور بودنبروك في اليوم التالي بالفعل في قاعة المجلس أمام مقعد چيمس مولندروف الراحل يحلف اليمين في حضرة الآباء المجتمعين ولجنة المواطنين على السواء ، ويقول : «أريد أن أودي وظيفتي بذمة وأن أعمل لخيرالدولة بكل قواي . أريد أن أكون أميناً على دستورها ، وأن أرعى الصالح العام بشرف فلا أراعي في تأدية وظيفتي ، وخاصة في الانتخابات كافة ، مصلحتي الخاصة أو قرابة أو صداقة . أن أقيم قوانين الدولة وأنفذ العدالة مع الجميع الغني منهم والفقير . وأريد كذلك أن أكون كتوماً في كل مايتطلّب الكتمان لكنّي أريد على الأخص أن أحفظ سر مايطلب مني حفظ سره . وليساعدني الله! »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

تنشأ أمنياتنا وتنبت مشروعاتنا من احتياجات بعينها تتطلب أعصابنا ولايسع الكلمات تعيينها . وهذا الذي يسمونه عجب توماس بودنبروك والعناية التي يبذلها لهندامه والترف الذي يأخذ به في زينته كان في الحقيقة في أساسه شيئاً آخر . فلم يكن في الأصل شيئاً أكثر من حرص الانسان من العاملين على أن يشعر دائماً من قمة رأسه الى أخمص قدميه بتلك الاستقامة وذلك التماسك اللذين يتم بهما للمرء المظهر . بيد أن المطالب التي يتطلبها هو نفسه ويتطلبها الناس من موهبته وقواه نمت إذ تكاثرت عليه واجباته الخاصة والعامة . وقد خصه في «توزيعات المجلس» للوظائف على أعضاء مجلس الشيوخ دائرة الاختصاص الرئيسة للضرائب ومهام السكك الحديدي والجمارك وغيرها من شؤون الدولة . وفي آلاف الجلسات التي تعقدها مجالس الإدارة ويتولى منذ انتخابه رياستها كان مما يقتضيه كل حذر ولطف ومرونة مراعاة شعور أناس يكبرونه سناً بكثير ، فيأخذ ظاهراً بعين الاعتبار خبرة هؤلاء وهي أقدم من خبرته ، ويتولى الهيمنة مع ذلك . وإذا كان لابدّ من ملاحظة الغريب في أمره ونعني به تزايد «عجبه»في الوقت نفسه زيادة ملحوظة ، أي حاجته إلى ترطيب جسمه وتجديد نشاطه وتبديل ملابسه عدة مرات في اليوم الواحد والشعور بالانتعاش ـ إذا كان لابدّ من ملاحظة ذلك فمعناه في حالة توماس بودنبروك الذي لايكاد يبلغ السابعة والثلاثين توهين طاقته ونفاد قواه بأسرع مما تنفد .

كان إذا رجاه الدكتور جرابو الطبيب المزيد من الراحة قليلاً أجابه : «آه ياعزيزي الدكتور! إني لم أصل بعد إلى هذا الحد!» يريد بذلك أن يقول إنه مايزال عليه أن يؤدي الكثير الى أمد طويل قبل أن يفوز بحالة يستطيع ، بعد الانتهاء وبلوغ الهدف ، أن ينعم بها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرتاحاً . أفي الحق أنه كان لايؤمن بهذه الحالة . لقد كانت تدفعه الى الأمام ولا تدعه في سلام . حتى بعد المائدة وهو يستريح في الظاهر بقراءة الصحف كانت آلاف المشاريع تختلط في ذهنه وهو يفتل شاربه الممدود في همة وبطء ، وتنقر عروقه فوق سالفيه الشاحبين . وكان همه في تدبير مناورة تتّصل بالعمل أو التفكير في خطبة كهمه في اعتزام تجديد المدخر كله من ملابسه الداخلية دفعة واحدة ليظل من هذه الناحية في الأقل مرتاحاً خلي البال .

وإذا كانت مثل هذه التدابير والاصلاحات تتيح له بصورة عابرة ارتياحاً وهدوءاً بعينهما فقد كان يكره أن يؤدي نفقات ذلك من دون مبالاة . إذ كانت أعماله التجارية تسيرفي هذه السنين سيرتها الفائقة كما كانت في عهد جده . فاسم المتجر لم يرتفع في المدينة فحسب بل كان كذلك في الخارج ذا وقع ، وكان اعتباره مايزال ينمو في الشؤون العامة على الدوام . فكان كل امرىء يقر له بالجد والحذق أما حاسداً وإمّا مشاركاً مغتبطاً ، بينما كان هو نفسه يجاهد عبثاً في الخلق والإنتاج في منطقته ، ذلك أنه كان يشعر دائماً بتخلفه الموينس عن خياله الحاسب المدبر .

وهكذا لم يكن من قبيل التعاظم أن يطوف السناتور بودنبروك في صيف عام ١٨٦٣ يفكر في مشروع بناء بيت جديد كبير ، فالسعيد يبقى حيث هو . لكن قلقه وعدم ارتياحه كانا يدفعانه الى ذلك . وكان إخوانه المواطنون خلقاء أن ينسبوا هذا المشروع الى «عجبه» ، فإن هذا من العجب ، فتشييد بيت جديد ، وتبديل مظهر الحياة تبديلاً أساسياً ، والتنظيم ، والانتقال ، والتأثيث من جديد ، ونفي كل قديم زائد عن الحاجة ، وأبعاد رواسب السنين المنصرمة كافة ؛ هذه التصورات أتاحت له شعوراً بالنظافة والجديد والانتعاش والسلامة والقوة... ولابدّ أنه كان بحاجة الى هذا كله ، لأنه كان ينشده بهمة ، ويوجه التفاتة الى بقعة معينة .

وكانت قطعة أرض فسيحة في «حفرة الصيادين» يقع عليها بيت غبرته السنون ، مهمل ، معروض للبيع ، تملكه عانس شمطاء كانت تسكنه وحدها بوصفه من مخلفات أسرة منسية ، ثمّ توفاها الله أخيراً . في هذه البقعة شاء السناتور بودنبروك أن يقيم بيته فكان يرمقها في غدواته وروحاته من الميناء بنظرات فاحصة . وكان جوارها ينطبع في النفس : بيوت طيبة من بيوت الطبقة الوسطى ذات أسطح هرمية ، أكثرها تواضعاً مايقابله منها ، شيء ضيق في طبقته الأرضية دكان أزهار صغير .

وقد أجهده التفكير في هذا المشروع وقدر تكاليفه تقديراً تقريبياً ، مع أن القيمة التي حددها لم تكن هينة فقد ألفى نفسه قادراً على أن يؤديها غير مرهق ، ومع ذلك فقد بهت لمّا خطر بباله أن المشروع كله قد يكون خرقاً لاطائل تحته ، فاعترف لنفسه بأن بيته الحالي يكفيه ويتّسع له ولزوجته وولده والخدم . بيد أن احتياجاته التي لم يكن يحسها احساساً كاملاً كانت أقوى . ولأنه كان يتمنّى أن يجد خارج بيته من يشجّعه على مشروعه ويقره عليه فاتح أخته في أمره أول ما فاتح .

«وبالإيجاز ياتوني ، ماذا ترين فيه ؟ إن الدرج الحلزوني المؤدي الى غرفة الحمام ظريف جداً . لكن البيت في مجموعه عبارة عن حق في الواقع ، ضئيل المظهر ، أليس كذلك ؟ والآن حالفك الحظ في أن أصبح سيناتوراً... فهل يرجع هذا بإيجاز الى... ؟ »

يالله ؟ وأي شيء لايرجع فيه الفضل ، في عيني مدام بيرمانيدر ، اليه! لقد كانت تتملكها حماسة جدية! فقد شبكت ذراعيها على صدرها وجعلت تطوف بالغرفة رافعة كتفيها مطرحة رأسها الى الوراء .

«إنك محق ياتوم! يا إلهي ، ما أعظم حقك في هذا! إنه لاعذر لك! من ذا الذي يزيد على ماعنده سيدة من بيت أرنولدسن و ١٠٠٠٠٠ ريال... وعلى فكرة إني فخور أن تجعلني موضع ثقتك ، فهذا جميل منك!...وإن كنت جعلتني من قبل موضع ثقتك ، لكن هذا عظيم أيضاً ، أقول لك... .!»

«أجل ، إني أرى رأيك . وأريد أن أنفق على هذا المشروع شيئاً . وسيقوم فويجت بالعمل ، ويسرني أن أعاين الرسم معك ، فإن لفويجت ذوقاً مرهفاً . . . »

وكانت الموافقة الثانية التي حصل توماس عليها من جيروا . فقد أثنت على المشروع وأطرته كل الإطراء . حقاً إن متاعب الانتقال ليست مما يسر ، لكن الأمل في أن يكون هناك غرفة كبيرة تعزف فيها موسيقى طيبة قد أشعرها السعادة . أما القنصلة الكبيرة فقد أبدت في الحال استعدادها لأن تعد البناء نتيجة منطقية لحالات الهناء الأخرى التي عاشت فيها مرتاحة شاكرة . ومنذ ميلاد الوريث وانتخاب القنصل في المجلس وفخارها كأم أجلى تعبيراً من ذي قبل . وقد كان خطابها لابنها «بيا ابني السناتور» مما يثير ثائرة سيدات بودنبروك المقيمات في الشارع العريض الى أبعد حد .

وفي الحق أن الفتيات اللاتي كانت تتقدم بهنّ السن لم يجدن صارفاً كافياً لهنّ عن مراقبة الرفعة الرائعة التي بلغتها حياة توماس الظاهرة . فالسخرية في أيام الخميس من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسكينة كلوتيده لم ترضهن إرضاءً كافياً . وكريستيان الذي وجد بوساطة المستر ريتشاردسن رئيسه السابق وظيفة في لندن والذي أبرق من هناك أخيراً وجدا برغبته الجنونية في اتخاذ الآنسة بوفوجل زوجة له ، فردته القنصلة في الحق رداً شديداً ـ كريستيان هذا الذي أصبح نداً وعديلاً ليعقوب كروجر قد حفظت سيدات بودنبروك أوراقه ولم يعد موضوعاً قائماً .

وهكذا عوضت الفتيات أنفسهن قليلاً ممّا فاتهن بنقط ضعف صغيرة للقنصلة ولمدام بيرمانيدر فحولن موضوع الحديث على سبيل المثال الى « ألبسة الشعر » وذلك أن القنصلة كان يسعها أن تقول وعلى وجهها أرق سيماء أنها « تلبس شعرها »... بينما كل من وهبهم الله العقل وبينهن سيدات بودنبروك كانوا يقولون لأنفسهم إن الشعر الأشقر الضارب الى الحمرة الذي لم يتغير لونه والذي تغطيه قلنسوة السيدة العجوز لم يعد في الإمكان تسميته « شعرها » وأعظم أجزاء لهن من هذا أن يحملن ابنة العم توني على أن تبدي الرأي قليلاً فيمن أثّر في حياتها الى الآن على أسوأ وجه : تريشكه الدموع! جرينليش! بيرمانيدر! آل هاجنشتروم!... هذه الأسماء التي كانت توني تطلقها في الهواء إذا مااستثيرت ، رافعة كتفيها قليلاً ، كأن هذه الأسماء نفخات صغيرة كثيرة من الاشمئزاز تخرج من مزمار ، كانت ترن في آذان بنات العم جوتهولد أحلى ماتكون .

هذا الى أنهن لم يكنّ يخفين أو يتولين بحال تبعة إخفاء أن يوهان الصغير يتعلم المشي والكلام ببطء ـ الأمر الذي كان يفزعهن... وقد كنّ محقات في ذلك ولابدّ من التسليم بأن هانو ، وهو الاسم الذي أطلقته زوجة السناتور بودنبروك على ابنها لتناديه به ، كان في الوقت الذي يستطيع أن يذكر جميع أعضاء أسرته بأسمائهم صحيحة ، يعجز دائماً عن نطق أسماء فريدريكه وهنرييت وفيفي بشكل مفهوم . أمّا مايتعلق بالمشي فإنه الى الآن وقد بلغ من العمر خمسة أرباع السنة لم يوفق الى أن يخطو خطوة مفهومة مستقلاً . هنالك كانت سيدات آل بودنبروك يهززن رؤوسهن في يأس قائلات إن هذا الطفل سيظل طيلة حياته أبكم عاجزاً .

وقد تبيّن فيما بعد كذب هذه النبوءة المحزنة ، لكن أحداً لم ينكر أن هانو كان متأخراً في النمو بعض الشيء . وقد قدر له أن يجتاز جهاداً مريراً في باكورة حياته وأن يبقى من حوله في خوف دائم عليه . وقد جاء الى هذه الدنيا طفلاً ساكناً ضعيفاً فسرعان ما أصيب عقب التعميد بنوبة من الإسهال كادت تكفي لأن تسكت قلبه نهائياً ، لولا أن أعيدت اليه

الحركة بعد عناء . وقد استغرقت هذه النوبة ثلاثة أيام بقي بعدها في قيد الحياة . وأمر الدكتور جرابو باتّخاذ مايلزم لتلافي أزمات التسنين التي كانت تتهدده ، مع بذل العناية الفائقة في التغذية والتمريض . لكنه ماكاد أول طرف أبيض يخترق الفك حتى ألمت به تقلصات عاودته أشد مما كانت . وعاودته مرات بصورة بلغ من رعبها أن الطبيب كان يضغط يد الوالدين من دون أن ينبس ببنت شفة . فقد كان الطفل راقداً يتملكه الاعياء وتدل نظرة جانبية تائهة من عينيه اللتين يحيط بهما ظل عميق عن تأثر المخ حتى لكادوا يتمنّون نهايته .

ومع ذلك فقد استرد هانو بعض قواه ، وبدأت نظرته تدرك الأشياء ، وإذا كانت المتاعب التي تغلّب عليها قد عاقت تقدمه في الكلام والمشي فإنه لم يعد ثمّ مايخشى عليه من خطر مباشر .

كان هانو نحيفاً تقريباً وأطول تقريباً مما تقتضيه سنه وجعل شعره الكستنائي الرائق الناعم جداً ينمو في ذات الوقت نمواً سريعاً غير عادي فلم يلبث أن تهدّل على كتفي ثوبه المتثني الذي يشبه المئزر يكاد لايلاحظ تمويجه ، وبدأت تظهر عليه مشابه من الأسرة في صورة كاملة فكانت له منذ البداية يدا آل بودنبروغ بشكل صريح : عريضتين قصيرتين بعض الشيء لكنهما جميلتا التكوين ، وكان أنفه أنف أبيه وجده الأكبر بالضبط ، وإن بدا أن المنخارين يميلان الى البقاء على نحو أرق ، بيد أن الجزء الأسفل من الوجه وكان مستطيلاً متضامناً لم يكن لا لآل بودنبروك ولا لآل كروجر بل كان يرجع الى أسرة الأم ، كذلك فمه قبل كل شيء وكان يميل قبل الأوان ، ومن الآن ، الى الانطباق بصورة تجمع بين الاكتئاب والخوف... وبهذا التعبير أصبحت نظرة عينيه العسليتين الفريدتين في لونهما ، تحيط بهما ظلال ضاربة الى الزرقة ، وصار هذا يلائمه ويزداد على الأيام ملاءمة .

لقد بدأ يعيش تحت نظرات أبيه المفعمة بالحنو المضبوط وفي انتباه كانت أمه ترعى به لباسه وتحيط تربيته ، تصلي له عمته أنتونيا ، وتهدي اليه القنصلة والخال يوستوس دمى تمثل فرساناً ودوارات . فإذا ظهرت عربته الصغيرة الجميلة في الشارع رمقه الناس بعين الإهتمام وتوقعوا له المصير . أمّا مايتعلق بمدام ديشو المربية الوقور التي كانت في مبدأ الأمر تقوم كذلك بالخدمة فقد تقرر ألا تتابعها في المنزل الجديد ، بل أن تحل محلها ايدا يونجمان ، على أن تبحث القنصلة لنفسها عمن يتولى خدمتها .

وقد نفذ السناتور بودنبروك مشروعاته ، فلم يعترض شراء قطعة الأرض في « حفرة

الصيادين » عقبات ، وابتاع السيد ستيفان كيستنماكر البيت القائم في الشارع العريض الذي كان السمسار جوش قد أعلن حانقاً أن يتولى أمره في الحال... وكانت أسرة ستيفان كيستنماكر قد تزايد عددها وكان هو وشقيقه يكسبان المال الوفير من تجارة النبيذ الأحمر . وتولى السيد فويجت البناء ، فسرعان ما استطاعت الأسرة في يوم الخميس أن تبسط الرسم النظيف أمامها وتطلع مقدماً على واجهة البيت ؛ وكان رسماً لبناء فخم مزوّد بأعمدة من الحجر الرملي تقوم عليها خارجة ، وله سطح مستو لاحظت عليه كلوتيده وهي مبتهجة تتمطى أنه يمكن أن تتناول القهوة بعد الظهر . وقد رتب كل شيء على خير وجه حتى فيما يتعلق بالغرف الأرضية في بيت شارع منج وهي التي ستخلى لأن السناتور فكّر في نقل مكاتبه منها الى « حفرةالسماكين » ، ذلك أنه تبيّن أن شركة التأمين من الحريق التابعة للمدينة راغبة في أن تستأجر هذه الغرف لمكاتبها .

وحلّ الخريف ، وانهارت الجدران الغبراء أنقاضاً ، وقام بيت توماس بودنبروك الجديد فوق أقبية فسيحة بينما فصل الشتاء يحل ويخف النشاط . ولم يعد حديث المدينة يدور حول شيء هو أكثر من بيت بودنبروك تشويقاً! فقد بلغ الغاية وأصبح أجمل بيت يسكن طولاً وعرضاً فهل كان في هامبورج مثلاً بيت أجمل منه ؟... على أنه كان باهظ التكاليف ، وماكان القنصل الكبير ليذهب على التحقيق الى هذا المدى... فالجيران وأهل الطبقة الوسطى سكان البيوت ذات الأسطح الهرمية كانوا في نوافذهم يشاهدون العمال وهم يعملون على صقالاتهم ، ويطربون للبناء وهو يعلو ، ويحاولون أن يحزروا موعد الحفلة التي تقام للعمال بعد الفراغ .

وقد قامت الحفلة وأحيطت بكل المظاهر ، وألقي فوق السطح مبيض عجوز خطاباً طوح في ختامه بزجاجة من الشمبانيا من فوق كتفه ، بينما كان اكليل العمارةالهائل يترنح في الريح متثاقلاً بين الأعلام ، مجدولاً من أعواد الورد والفروع الخضراء والأوراق المتعددة الألوان . وقد أقيمت بعد ذلك مأدبة للعمال كافة في حانة قريبة على موائد طويلة قدمت فيها البيرة وشطائر الخبز المحشوة والسيجار . وكان السناتور بودنبروك ينتقل في المكان المنخفض بين صفوف المدعوين بصحبة زوجته وابنه الصغير تحمله مدام ديشو على ذراعيها ويتلقى مايرفع له من هتافات شاكراً .

وأعيد هانو في الخارج الى عربته ، وعبر توماس الطريق بجيردا ليلقي على الواجهة الحمراء نظرة أخرى ويرفع بصره الى الأعمدة البيضاء . وهناك أمام دكان الأزهار ذي الباب

الضيق وواجهة العرض المتواضعة التي كانت تصطف فيها بضعة أصص من النبات البصيلي جنباً الى جنب على رف زجاجي أخضر ـ هناك كان يقف ايفرسن صاحب المحل الى جانب زوجته ، رجلاً مارداً أشقر الشعر يرتدي سترة صوفية . وكانت زوجته أنحف منه كثيراً ، ولها وجه أسمر كوجوه أهل الجنوب ، وتمسك بيدها غلاماً في الرابعة أو الخامسة من عمره وتهزّ باليد الأخرى عربة صغيرة فيها طفل أصغر نعسان تدفعها وتجذبها ويبدو أنها حامل .

وانحنى ايفرسن انحناءة عميقة خرقاء على السواء بينما كانت زوجه التي لم تكف عن دفع عربة الطفل وجذبها ، تتأمل زوجة السناتور في هدوء والتفات وترمقها بعينين سوداوين مستطيلتين وهي مقبلة عليها مستندة الى ذراع قرينها .

ووقف توماس ، ورفع عصاه يشيرالى الأكليل ويقول : «لقد أجدت صنعه يا ايفرسن» .

«الفضل في ذلك لإمرأتي ياحضرة السناتور وليس لي» .

فقال السناتور في اقتضاب : «آه!» راجاً رأسه الى أعلى ، ناظراً الى وجه مدام ايفرسن نظرة ثابتة ودوداً استغرقت ثانية ثمّ ودعها بحركة شاكرة من يده دون أن يزيد كلمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

في يوم أحد في بداية يوليه ، وقد انتقل السناتور بودنبروك من أربعة أسابيع تقريباً الى بيته الجديد ، ظهرت مدام بيرمانيدر حوالي المساء عند أخيها فتخطت الرحبة الحجرية البليلة المزدانة برسوم بارزة يقلد فيها تورڤالدسن ، والمفضي منها الى اليمين باب من المكاتب ، فدقت جرس باب الصفة الذي يمكن أن يفتح من المطبخ بالضغط على كرة من المطاط وعلمت من الخادم أنطون في الردهة الفسيحة التي يقف عند أسفل الدرج الرئيسي فيها ذلك الدب الذي أهداه تيبورتيوس أن السناتور لايزال يعمل .

فقالت : «حسناً . وشكراً يا أنطون فسأذهب اليه» .

لكنها خطت أمامه مارة بمدخل المكتب منحرفة قليلاً الى اليمين ، الى حيث يقوم فوقها بئر السلم الهائل المكون في الطابق الأول من تتمة الدرابزين المصنوع من الحديد المصبوب ، لكنه في علو الطابق الثاني يتحول الى دهليز واسع من الأعمدة أبيض ذهبي ، بينما تتدلى من ارتفاع «مسقط النور» ، ذلك الارتفاع الشاهق ، ثريا فخمة تلمع بالذهب... فقالت مدام بيرمانيدر راضية وبصوت خافت : «ماأوجه!» وهي تتأمل هذه الفخامة المتجلية الزاهية التي كانت تعني لها ببساطة سلطان آل بودنبروك وأبهتهم وظفرهم . لكنه خطر لها عندئذ أنها جاءت في مسألة مكدرة فاتّجهت في بطء الى مدخل المكتب .

وكان توماس وحده فيه ، جالساً في مكانه عند النافذة يسطر رسالة ، فرفع بصره رافعاً في نفس الوقت أحد حاجبيه الأشقرين الرائقين ، ومدّ الى أخته يده .

«عمّي مساءً ياتوني . ماوراءك من خير ؟»

«آه ، ليس خيراً كثيراً ياتوم!... كلا ، إن بئر السلم عظيم جداً!... وعلى فكرة إنك تجلس هنا في هذا الضوء الخابي تكتب» .

«رسالة عاجلة... إذن لاتحملين خيراً! وعلى كل فأحب أن نطوف بالحديقة قليلاً وأنت تحكين . فهذا أوفق . تعالي!»

وكانت نغمة من الأمهل تنتهي اليها من الطابق الأول مرتعشة من عزف على الكمان أثناء عبورهما للردهة .

فقالت مدام بيرمانيدر : «أنصت!» وتلبثت لحظة ثم استطردت : «إن جيردا تعزف . ما أروع! لله در هذه المرأة! إنها حورية! كيف حال هانو ياتوم ؟»

«سيتناول عشاءه تواً مع يونجمان . محزن أنه لايتقدم في مشيه كما ينبغي» .

«سيتم هذا لك ياتوم . سيتم! أراضون أنتم عن ايدا ؟»

«أوه! كيف لانرضى...»

ومرا بالرحبة الحجرية الواقعة الى الخلف تاركين المطبخ عن يمينهما وخرجا من باب زجاجي هابطين درجتين الى حديقة الأزهار المنمّقة العبقة .

وسأل السناتور : «والآن ؟» .

وكان الجو دافئا ساكناً ، وهواء المساء عطر بروائح الحياض المسيجة النظيفة . والنافورة المحوطة بالسوسن المشبه الليلاق في اللون ترسل شعاع مائها الهادر صوب السماء القاتمة ، وقد بدأت نجومها الأولى تلمع ، وكان درج مكشوف صغير تحف به مسلتان منخفضتان يفضي في المؤخرة الى مكان مرتفع مرصوف بالحصباء يقوم عليه خص خشبي مكشوف يظلل بستائره المسدلة بضعة مقاعد في الحديقة . وكان يحد قطعة الأرض من اليسار سور للحديقة المجاورة وعن اليمين كان حائط جانبي للبيت المجاور مغطى في ارتفاعه كله بتركيبة خشبية يراد بها أن تكسي مع الأيام بعريشة من نبات . وكان على جانبي الدرج المكشوف ومكان الخص شجيرات من عنب الذئب ، لكنه لم يكن هناك سوى شجرة كبيرة واحدة ، شجرة جوز كسيحة تقوم الى اليسار بجانب السور .

وأجابت مدام بيرمانيدر في تردد : «المسألة هي» بينما شرع الأخ والأخت يسيران في طريق الحصباء من حول المكان المتقدم متمهلين . قالت : «إن تيبورتيوس كتب...»

فسأل توماس : «كلارا ؟ أرجوك أن توجزي ولاتلفي!»

«أجل ياتوم . إنها راقدة في حالة سيئة ويخشى الطبيب أن تكون مصابة بتدرن...

تدرن في المخ... وإن عزّ عليّ أن أنطق بهذا . انظر : هاهي ذي الرسالة التي خطها زوجها الي . وهذه الكلمة المرفقة الموجهة الى أمي والمشتملة على نفس الشيء يطلب أن نسلمها اليها بعد أن نعدها قليلاً لتلقيها . ثمّ هنا أيضاً مرفق ثان موجه الى أمي كتبته كلارا نفسها بيد مضطربة . ويقص تيبورتيوس إنها لاتعنى أقل عناية بأن تعيش فهي في شوق دائم الى لقاء الله...» وختمت مدام بيرمانيدر وكفكفت دمعها .

كان السناتور الى جانبها يسير صامتاً ، ويضع يديه وراء ظهره ويطأطىء رأسه كثيراً .

«إنك صامت ياتوم... وأنت محق . فماذا يسع المرء أن يقول! وهذا في وقت يرقد فيه كريستيان أيضاً مريضاً في هامبورج...»

هكذا أمره . إن «العذاب» الذي يكابده كريستيان في جنبه الأيسر قد اشتدت وطأته عليه في لندن في الأيام الأخيرة الى حد كبير ، وتحول الى آلام حقيقية بلغ منها أنها أنسته جميع شكاواه الصغرى . ولقد عجز عن أن يفعل شيئاً فكتب الى أمه يقول أنه لامندحة له عن العودة لكي تعنى به أمه ، وأنه ترك عمله في لندن وسافر . لكنه ماكاد يصل الى هامبورج حتى لزم الفراش . وقد شخّص الطبيب حالته بأنها روماتزم المفاصل ، وأمر بنقله من الفندق الى المستشفى إذ كان من المحال أن يقوم الآن بسفر بعيد . وهو هناك راقد يملي على ممرضه رسائل تنضح بالكآبة .

فأجاب السناتور في خفوت : «أجل ، يظهر أن نصلاً يتكسّر على نصل ، ومصاباً يتلو مصاباً» .

فوضعت ذراعها لحظة حول كتفيه .

«لكنه يجب ألا تقنط ياتوم ، فلا حق لك في القنوط الى أمد طويل! إنّما أنت بحاجة الى شجاعة كافية...»

«أجل والله ، إني بحاجة اليها!»

«كيف ياتوم ؟...قل لي : لماذا كنت أول من أمس بعد ظهر الخميس كله صموتاً هكذا ، إذا جاز لي أن أعرف ؟»

«آه ، أعمال أيتها الطفلة . لم أجن كثيراً من صفقة حنطة سوداء كبيرة نوعاً ما... بالإيجاز : كان علي أن أبيع صفقة كبيرة بثمن بخس جداً...»

«أوه ، هذا مما يقع ياتوم ، يقع اليوم وتعوضه غداً . فلا حاجة بك الى الكدر من جراء ذلك...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال لها : «عدوت الصواب ياتوني» . وهزّ رأسه «إن نفسيتي ليست تحت الصفر ، لأني أخفقت . على العكس . إن هذه عقيدتي . ومن أجل ذلك يصيب الشيء محزه أيضاً» .

فسألته مذعورة دهشة : «لكنه ما الذي طرأ على نفسيتك ؟! إن المرء خليق أن يفترض فيك مرح النفس ياتوم! فكلارا تعيش . وكل شيء سيكون على مايرام بعون الله . وهناك يقوم بيتك حلماً من الأحلام . ومايسكنه هرمان هاجنشتروم كوخ بالنسبة له! وقد وفقت الى هذا كله...»

«أجل ياتوني ، إن هذا يكاد يفوق التصور . وأريد أن أقول : مايزال جديداً كل الجدة . لكنه يزعجني الى ذلك قليلاً ، ومن هنا تتولد النفسية السيئة التي تلم بي وتضر بي في كل شيء . لقد اغتبط بكل هذا ، لكن من الغبطة السابقة كانت كما هي الحال دائماً خير ماهنالك ، ذلك أن الخير يأتي دائماً متأخراً ويتم دائماً متأخراً حين لا يعود المرء يغتبط له حق الاغتباط...»

«لايعود يغتبط ياتوم ، برغم ما أنت عليه من شباب!»

«شباب المرء وكهولته على قدر شعوره ـ وحين يأتي الخير والمشتهى متثاقلاً ، متأخراً ، فإنه يأتي مرهقاً بكل حواشيه ، وملحقاته التافهة المزعجة المغيظة ، بكل ماتثير الحقيقة من غبار لم تحسب المخيلة حسابه ، ويثير المرء أيما إثارة...»

«نعم ، نعم... ولكن حسب مايشعر المرء إن شاباً وإن كهلاً ياتوم ـ»

«أجل ياتوني . وقد تمر...ويصفو الكدر ـ بالتأكيد . لكني أحس في هذه الأيام كأني أكبر سناً مما أنا . فأنا مهموم من ناحية التجارة . وفي مجلس إدارة سكة حديد بوشن أسكتني القنصل هاجنشتروم وعارضني وكاد يعرضني للابتسام العام... يخيل اليّ أن مثل هذا ما كان ليلحقني فيما مضى... يخيل اليّ أن شيئاً بدأ يتسرب اليه ، وأني لم أعد أقبض على زمام هذا الشيء المبهم كما كنت من قبل... ماهو النجاح ؟ قوة خفية تجل عن الوصف ، انتباه وأهبة... وعي بأن أضغط على تحركات الحياة من حولي بمجرد وجودي... الإيمان بأن الحياة تواتيني... فالسعادة والنجاح في أنفسنا . فيجب أن نتشبث بهما : نقبض عليهما ونستبقيهما في أعماقهما . فإنه متى جعل شيء هنا في باطننا يهن ، ويتراخى ، ويخور ، يصبح كل شيء حولنا طليقاً ، مناهضاً ، متمرداً ، متحرراً من تأثيرنا... فيتكسر نصل على نصل وتتلو هزيمة أخرى ، ويصرع المرء . لقد فكرت في الأيام الأخيرة في مثل تركي قرأته في موضع ما : «حين ينتهي البيت يقبل الموت» . ولاحاجة الآن لأن يكون القادم هو

الموت . ولكن القهقرى... الانحدار... بداية النهاية » . ودسّ ذراعه تحت ذراع أخته وخفض صوته عن ذي قبل وهو يقول : «أترين ياتوني ، لما عمدنا هانو ، أتذكرين ؟ لقد قلت لي : «يخيل اليّ أن عهداً جديداً كل الجدة لابد أن ينبثق الآن » لاأزال أسمع هذا القول واضحاً كل الوضوح . وقد بدا إذ ذاك أن قولك سيتحقق ، ذلك أن الانتخاب لمجلس الشيوخ حل فوفقت ، ونبت هذا البيت من الأرض . لكن لقب السناتور والبيت مظاهر . ثم إنني أعرف شيئاً لم تفكري فيه بعد ، أعرفه من الحياة والتاريخ . أعرف أنه غالباً ماتظهر الامارات والرموز الخارجية البينة الملموسة للهناء والرفعة في الوقت الذي يكون فيه كل شيء في الحقيقة قد أخذ في الانحدار . فالأمارات الخارجية تحتاج في ظهورها الى وقت كالنور المنبعث من مثل هذا النجم هناك فوق ، لانعرف عنه أشرع بالفعل في الانطفاء أم كان بالفعل منطفئاً حين يشع نوره أسطع مايكون... »

ومشيا برهة صامتين بينما تخر النافورة في سكون وتتهامس أعالي شجرة الجوز ، ثم جعلت مدام بيرمانيدر تتنفس في عسر كأنها تنتحب .

« إنك تتكلم ياتوم بلهجة حزينة لم تكن لهجتك قط! على أنه من الخير أنك نفست عن نفسك ، وستشعر بأنك تخففت ونفيت كل مايمضك عن ذهنك... » .

«أجل ياتوني ، هذا مايجب أن أحاوله ما استطعت . والآن ناوليني الورقتين : رسالة كلارا ورسالة القس ، فخير لك أن أعفيك من هذه المهمة وأتولى الحديث فيما قبل ظهر غد مع الأم . هذه الأم الطيبة! لكنه إذا كان المرض تدرناً فلا مناص من التسليم بقضاء الله » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

« ولاتسألينني ؟! وتتخطينني ؟! »

« لقد تصرفت كما كان يجب أن أتصرف! »

« لقد تصرفت بما جاوز كل الحدود خلطاً ومجافاة للرشد » .

« الرشد ليس أسمى شيء في الوجود! »

« أوه ، دعينا من هذه الألفاظ... فالأمر يتعلق بأبسط عدالة لم تراعيها في صورة مسخطة مثيرة » .

« ألاحظ عليك يابني أنك بهذه اللهجة تغفل من جانبك الاحترام الواجب عليك نحوي! »

« وأنا أرد عليك ياأمي العزيزة بأني لم أنس قط هذا الاحترام . وإن صفة الابن لايصبح لها وجود بمجرد أن أقف حيالك في أشياء تتعلق بالمتجر والأسرة بوصفي الرئيس الأكبر الذكر وفي مكان أبي » .

« أريد أن تسكت الآن ياتوماس ؟ »

« كلا ، لن أسكت حتى تتبيني خطل رأيك وضعفك الذي لاحد له! »

« إني أتصرف فيما أملك كما يطيب لي » .

« إن الإنصاف والعقل يقيدان رغبتك! »

« لم أكن أحسب قط أنك تستطيع إغضابي الى هذا الحد! »

« ولم أكن أحسب قط أنك تستطيعين لطمي على وجهي بهذا الاستخفاف...!!

وسمع صوت مدام بيرمانيدر في تخوفها تقول : « توم!... لكن ياتوم! » وكانت جالسة عند النافذة في حجرة المناظر الطبيعية تعتصر يديها ، بينما كان أخوها يذرع المكان هائجاً

هياجاً مخيفاً ، والقنصلة يتملكها الغضب والألم جالسة على الأريكة تتكىء بإحدى يديها على الحشايا وتهوي بالأخرى على قرص المائدة بكلمة شديدة . كان ثلاثتهم حزانى على كلارا التي لم تعد تقيم في هذه الدار الدنيا ، وكان ثلاثتهم ممتقعي اللون خارجين عن الطور...

فما الذي حدث ؟ شيء مخيف ، مرعب . شيء بدا للمشتركين فيه أنفسهم هائلاً لايصدق! شجار وتشاد بين الأم وابنها .

كان ذلك في أغسطس في عصر يوم خانق . بعد عشرة أيام من تسليم السناتور لأمه رسالتي سيفرت وكلارا تيبورتيوس متوخياً منتهى الحذر . فقد كان عليه مهمة ثقيلة هي اصابة السيدة المسنة بنبأ الوفاة . ثم سافر الى ريجا لتشييع الجنازة وعاد مع صهره تيبورتيوس الذي قضى عند أسرة زوجته الراحلة بضعة أيام... والآن وقد عاد القسيس الى وطنه ثانية بعد يومين ، تفاتح القنصلة ابنها بالأمر بعد تردد ملحوظ... ويصيح : « مائة وسبعون ألفاً وخمسمائة مارك ؟ » ويهزّ يديه المتشابكتين أمام وجهه . «لتكن البائنة! فكان في وسعه أن يستبقي ثمانين ألفاً وإن لم يعقب ولداً! ولكان الميراث! أن يعطي ميراث كلارا! ولاتسأليني! وتتخطينني! » .

« بحق المسيح ياتوم ، ألا ما قررت بحقي! أكان يسعني غير الذي فعلت ؟ أكان يسعني ؟! إنها وقد ذهبت الى خالقها وودعت كل شيء ، قد كتبت الي من فراشها... بالقلم الرصاص... وبيد مرتعشة : « أماه! أننا لن نلتقي ثانية هنا على هذه الأرض ، وأشعر في جلاء تام أن هذه هي سطوري الأخيرة ، وأكتبها في وعيي الأخير الذي كان زوجي يشاهده... إن الله لم يباركنا بالأولاد . لكن ماكان سيكون من حقي لو أني عشت بعدك ، دعيه إذا ماتبعتني الى الدارالآخرة ـ دعيه يكن من نصيبه ويستمتع به مدى الحياة! أماه ، إن هذا هو رجائي الأخير... رجاء من تحتضر... ولن ترفضيه... » كلا ياتوماس! لم أرفضه وماكان يسعني أن أرفضه! وقد أبرقت اليها بذلك... وقد انتقلت الى رحمة الله » . وبكت القنصلة بكاءً مراً .

وقال السناتور :« ولا يذكر لي حرفاً واحداً ، بل يخفي عني كل شيء واتخطى! »

« أجل ياتوماس ، لقد سكت ، ذلك أني شعرت بأن علي أن أجيب ابنتي المحتضرة الى آخر رجاء لها...وأعرف أنك كنت ستحاول منعي! » .

« أجل والله ، هذا ماكنت سأفعله! »

« وماكان ليكون لك الحق في هذا ، لأن ثلاثة من أطفالي متفقون معي! »

« يخيل الي أن رأيي لايعدل رأى سيدتين ومغفل خائر... »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إنك تتكلم عن إخوتك كلاماً خالياً من الحب كما تكلمني بقسوة! »

« إن كلارا كانت امرأة تقية لكنها جاهلة يا أماه! وتوني طفلة لم تدرك بالمثل شيئاً الى هذه اللحظة وإلا تكلمت من دون مناسبة . أليس كذلك ؟ وكريستيان ؟ أجل لقد حصل تيبورتيوس على موافقة كريستيان... فمن ذا الذي كان ينتظر هذا منه ؟... ألا تعلمين بعد ، ألا تدركين بعد من هذا القس الأريب ؟ إنه معدم! يتسلل الى المواريث » .

وقالت مدام بيرمانيدر بصوت مكتوم : « إن أزواج البنات دائماً لصوص » .

« متسلل الى المواريث! فماذا يصنع ؟ يسافر الى هامبورج ويجلس الى فراش كريستيان ويؤثر فيه فيقول كريستيان : نعم ياتيبورتيوس . على بركة الله . هل عندك فكرة عن العذاب الذي أعانيه في جنبي الأيسر ؟... أوه ، إن الغباء والرداءة قد تحالفا عليَّ -! » وضغط السناتور يديه المطبقتين كلتيهما فوق جبينه وهو محنق ، مستنداً إلى السياج الحديدي المطروق في حنية الموقد .

لم تكن هذه الحدة في الغضب مما يتفق والظروف القائمة! كلا . لم تكن هذه الـ ١٢٧٠٠٠ مارك هي التي نقلته الى حالة لم يشهده أحد فيها قط من قبل! بل الأكثر أن الذي فعل به ذلك هو أن هذه الحالة الجديدة كوّنت في مشاعره المهتاجة من قبل حلقة من سلسلة الهزائم والمذلات التي لم يكن بد من أن يخبرها خلال الأشهر الأخيرة في أعماله في المدينة... لقد بات كل شيء ينبو في يده ولايجري شيء على هواه! فهل بلغ من أمره أن يتخطوه في بيت آبائه في أهم الشؤون... ؟ وأن يخدعه قس من ريجا وراء ظهره ؟... كان في مكنته أن يمنع ماوقع لكنه لم يجرب نفوذه! وكانت الحوادث خليقة أيضاً أن تجري مجراها من دونه! لكنه بدا له أن هذا لم يكن من قبل قميناً أن يقع ، وأن أحداً لم يكن يجرؤ فيما مضى على إحداثه! فهذه زعزعة جديدة لإيمانه بحظه وسلطانه ومستقبله... لم يكن هذا شيئاً سوى ضعفه الباطن ويأسه الذي انفجر أمام أمه وأخته خلال هذا المشهد .

ونهضت مدام بيرمانيدر وعانقته .

وقالت : « توم ، هدىء روعك! عد الى نفسك! هل الأمر بهذا السوء! إنك تتعرض للمرض! ولن يعيش تيبورتيوس طويلاً... فسوف يعود الينا الميراث بعد موته! ويمكن أيضاً أن يبدل الأمر إذا شئت! ألا يمكن ذلك ياأماه ؟ »

فلم تجب القنصلة بغير النحيب .

وقال السناتور وقد استجمع نفسه وأتى من يده بحركة ضعيفة تدل على الرفض :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«كلا... كلا! فالأمر سيبقى على ماهو عليه . أتظنان أن ألجأ الى المحاكمة وأقاضي أمي لأضيف الى الفضيحة الداخلية فضيحة علنية ؟» وختم كلامه بقوله : «ليكن مايكون...» ومشى الى الباب الزجاجي في تراخٍ ووقف به مرة أخرى .

وقال بصوت مكتوم : لكن لاتعتقد أننا على خير حال... فقد خسرت توني ، ٨٠٠٠٠ مارك وبدد كريستيان مايقرب من ٣٠٠٠٠ دفعة مقدمة ، غير مهره البالغ ٥٠٠٠٠ وقد استنفده وسيزيد ماينفقه مادام بلا عمل ومادام بحاجة الى استشفاء في أمينهاوزن... ولاتضيع بائنة كلارا الى الأبد فحسب ، بل يبقى ميراثها كله وقتاً لايمكن تحديده خارج دائرة الأسرة . . والأعمال تجري مجرى سيئاً يبعث على الياس ،وذلك بالضبط منذ أنفقت على بيتي أكثر من مائة ألف مارك... كلا ، إن الحالة سيئة حول أسرة تثير فيها الدواعي مثل هذا المشهد . صدقاني – صدقا هذا الشيء : لو كان أبي حياً ، لو كان حاضراً معنا ، لأطبق كفيه وتركنا يرحمنا الله» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

الحرب وصيحة الحرب ، والإيواء ، والشغل الشاغل! والضباط البروسيون ينتقلون في غرف الطابق الأول من بيت السناتور بودنبروك الجديد ـ تلك الغرف المرصوصة بالباركية . يقبّلون يد سيدة البيت ، ويقدمهم كريستيان العائد في أينهاوزن الى المنتدى بينما الآنسة سيڤيرين ريكشن ، سيڤرين فتاة القنصلة الكبيرة في بيت شارع منج تنقل عدداً كبيراً من الفرش الى الخص القديم المزدحم بالجنود .

ففي كل مكان زحام وانزعاج وتوترا جنود يخرجون الى بوابة القصر وجنود يدخلون ويغمرون المدينة ويأكلون وينامون ويملأون أسماع الأهالي بدق الطبول وإشارات البوق ونداءات الأوامر ثم يعودون فيرحلون . ويحيي أمراء البيت المالك ، ويتبع مرور الجند مرور ، ثمّ يعقب سكون وانتظار .

ويعود الجند في أواخر الخريف وفي الشتاء منتصرين ويعد لهم المأوى من جديد ، ويرجعون الى مواطنهم بين هتاف الأهالي الذين يتنفسون الصعداء ـ السلام! السلام القصير الأمد ، سلام سنة ١٨٦٥ الذي يبطن الأحداث .

وبين حربين يلعب يوهان الصغير في الحديقة ناعم البال سليماً ، في ثوبه الذي يشبه المئزر وشعره الناعم ذي الخصل ، أو في الشرفة المخصصة له التي يفصلها عن ردهة الطبقة الثانية مصطبة صغيرة مزوّدة بالأعمدة ، لعبات سنيه الأربع والنصف...... لعبات لايعود بالغ يدرك مغزاها وفتنتها ولايحتاج فيها الى أكثر من ثلاث حصيات أو قطعة من الخشب ربّما اتّخذ زهرة الهندباء خوذة لها ، وفي مقدمة ذلك تلك المخيلة النقية القوية الحامية الطاهرة التي لم تشبها شائبة ولم يداخلها رهب بعد ـ مخيلة السن الهانئة التي تتهيب الحياة فيها أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصيبها بسوء ، والتي لايجرؤ فيها واجب أو ذنب أن يضع يده علينا ، والتي يجوز لنا فيها أن نرى ونسمع ونضحك ونعجب ونحلم من دون أن تطالبنا الدنيا بمقابل... السن التي لايعذبنا فيها بعد صبر معيل لأولئك الذين نحبهم ، والمطالبة بالدلالات والأدلة الأولى على أننا سنقدم هذا المقابل بجدارة .

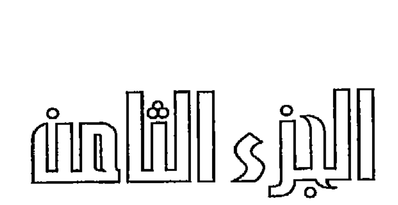
آه ، إنه لن يطول الوقت حتى ينقض علينا كل شيء ويتعسف ليغتصبنا ويدربنا ويصرعنا ويقتضبنا ويدمرنا...

لقد وقعت أمور جلى بينما كان هانو يلعب . اشتعلت نار الحرب وتأجج النصر ثمّ قر . ونظرت مدينة آباء آل بودنبروك راضية الى فرانكفورت الغنية التي فرض عليها أن تدفع ثمن إيمانها بالنمسا بفقد حريتها كمدينة حرة .

لكنه عندما أفلس متجر كبير في فرانكفورت في شهر يوليه قبل عقد الهدنة مباشرة خسر بيت يوهان بودنبروك مبلغاً دائرا قدره ٢٠٠٠٠ ريال ضربة واحدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

كان السيد هوجو ڤاينشنك يجتاز الرحبة الكبرى في سترته المقفلة وقد غار شاربه المكتنز الأسود في زاويتي فمه بصورة تدل على الرجولة والجد . وتدلت شفته السفلى بعض الشيء ، وتهادى في مشيته وبدت خيلاؤه ، متوجهاً من المكاتب الأمامية الى المكاتب الخلفية يطوّح بقبضته ويحرك مرفقيه على جانبيه ، فكانت هذه الصورة تعبر عن رجل من العاملين ، حسن المركز قوي التأثير في من يراه . فالسيد هوجو ڤاينشنك مدير من زمن غير بعيد لشركة التأمين من الحريق التابعة للمدينة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كانت أيريكا جرينليش ، وهي الآن في العشرين من عمرها ، فتاة فارعة ، مزدهرة ، نضرة جميلة ، تستمتع بالصحة والقوة . فهل كانت تهبط الدرج مصادفة أو كانت تقودها المصادفة الى الدرابزين الاعلى لما كان السيد ڤاينشنك يسلك طريقه ؟ والمصادفة كثيراً ماتفعل هذا . وهكذا رفع المدير قبعته العالية عن شعر رأسه القصير الأسود الذي جعل يبيض فوق سالفيه وتمادى في تمايله حول وسط سترته وحيّا الفتاة بنظرة متعجبة معجبة من عينيه العسليتين الجانلتين من حوله في جرأة... فلم يسع ايريكا إلا أن تهرب ، وجلست في مكان ما على مقعد الى احدى النوافذ وأخذت تنتحب ساعة كاملة وهي مرتبكة مضطربة .

لقد نشأت الآنسة جرينليش وترعرعت تحت رعاية تيريزه فيشبروت فلم تشرد أفكارها بعيداً . وقد بكت من قبعة السيد ڤاينشنك العالية ومن الأسلوب الذي رفع به حاجبيه عندما رآها وخفضهما ثانية ، من هيئته الملكية السامية وقبضتيه المتوازنتين . لكن أمها مدام بيرمانيدر كانت في تلك الأثناء تنظر الى أبعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد كان مستقبل ابنتها يهمها منذ سنوات ، إذ كانت ايريكا متخلفة عن فتيات أخريات في سن الزواج ، وكانت مدام بيرمانيدر لاتعزف عن المجتمع فحسب بل كانت كذلك تعاديه . وقد بات الفرض بأن المحافل الراقية تعتدها أقل مرتبة منها لطلاقها مرتين . عقدة عندها حتى أصبحت ترى احتقاراً وبغضاً لها ما لا يعدو في الغالب شيئاً من عدم الاكتراث . مثال ذلك أن القنصل هرمان هاجنشتروم ، ذلك الرأس المخلص الحر التفكير الذي جعله الثراء مرحاً طيب القلب قد يحييها في الطريق إذا لم تمنعه من هذه التحية بتاتاً نظرة تكون قد جاوزت بها وهي مطرحة الرأس الى الوراء وجهه المشبه عجينة كبد الأوز الذي كانت « تكرهه كما تكره الطاعون » على حد كلمة شديدة من كلماتها . وهكذا حدث أن ايريكا تحاشت كذلك دائرة خالها السناتور كل التحاشي فلم ترتد فيها مرقصاً ولم تنتهز فرصة تذكر للتعرف فيها بالرجال .

ومع ذلك فقد كان من أحر رغبات مدام أنتونيا وخاصة منذ « أحيلت على المعاش » على حد قولها ، أن تحقق ابنتها الآمال التي لم تحققها هي ، الأم ، وأن تزوجها زيجة مجزية سعيدة تشرّف الأسرة ، وتمحو من الذاكرة ما لاقت الأم . وكانت توني تتوق الى برهان على أن هناء الأسرة لم يول بعد ، وأن الأسرة لم تبلغ النهاية بحال ، وذلك في المقام الأول بالنسبة لأخيها الذي لم يكن يبدي في العهد الأخير مايبعث الأمل في غبطه… إن بائنتها الثانية البالغة الـ ١٧٠٠٠ ريال ، التي ردها السيد بيرمانيدر بهذه الأريحية تحت تصرف ايريكا ، فما أن كادت مدام أنتونيا تلحظ بنظرها الحاد وخبرتها ما نشأ بين ابنتها والمدير من علاقة يزجيها الاعزاز حتى جعلت تتوجه الى السماء بالصلوات والدعوات أن تلهم السيد ڤاينشنك الزيارة .

وقد فعل ، فظهر في الطابق الأول واستقبلته السيدات الثلاث ، الجدة والأم والحفيدة ، وتحدث اليهن عشر دقائق ، ووعد بأن يعود مرة بعد الظهر في أوان تناول القهوة ليتحدث اليهن حديثاً على السجية .

وحدث هذا أيضاً ، وعرف كل منهم الآخر ، فالمدير من سيليزيا حيث أبوه الشيخ مايزال حياً . وقد ظهر في تلك الأثناء أن أسرته ليست مما يدخل في حساب ، وأن هوجو ڤاينشنك أدنى الى أن يكون عصامياً . وكان له من اعتداد العصامي بنفسه شيء غير مطبوع ، غير أكيد كل التأكيد ، مبالغ فيه قليلاً ، مشوب قليلاً بسوء الظن . وكان مظهره يشوبه نقص أما حديثه فمن القلب . هذا الى ماكانت تبديه سترته من مواضع باهتة وهي

المقصوصة على غرار مايرتديه صغار الطبقة الوسطى ، فكانت قلابات أكمامها ذات الأزرار الكبيرة غير حديثة ، وغير نظيفة كل النظافة . وكان ظفر الاصبع الوسطى في اليد اليسرى جافاً ، أسود فاحماً تماماً من أثر حادث ما... منظر لايسر تقريباً ، لكنه لم يمنع أن يكون هوجو ڤاينشنك انساناً نشطاً مجتهداً ، جديراً بالاحترام ، ذا دخل سنوي يبلغ ١٢٠٠٠ مارك ، وأن تراه ايريكا جرينليش رجلاً وسيماً .

وقد عرضت مدام بيرمانيدر الموقف وقدرته ، وأبدت رأيها فيه صراحة للقنصلة والسناتور . وقد كان واضحاً أن مصالح الطرفين تقابلت وتكاملت . فقد كان المديرڤاينشنك لايغشى المجتمعات كأيريكا ، وكان كلاهما يعتمد على الآخر وكأن الله خلقه له . فإذا كان المدير وقد قارب الأربعين وأخذ شعره يشيب ، ينشد بيتاً ـ وهو مايوائم مركزه – فقد فتح له الارتباط بإيريكا جرينليش باب أسرة من أكبر الأسر في المدينة ، وكان قميناً بأن يرفعه في مهنته ويثبته في مركزه . أما مايتعلق بمصلحة ايريكا فلمدام بيرمانيدر أن تزعم أن ماأصابها في الحياة وصارت إليه قد أصلحته هذه العلاقة . فليس بين السيد بيرمانيدر وهوجو ڤاينشنك أدنى شبه ، وهو يختلف عن بندكس جرينليش بأنه موظف ثابت بمرتب ثابت لايبعد أن تتطور سيرته في الوظيفة .

وبالإيجاز إن الإرادة الحسنة كانت متوافرة من الجانبين ، وإن زيارات مابعد الظهر كات تتعاقب . ففي يناير سنة ١٨٦٧ سمح لنفسه بأن يطلب يد ايريكا جرينليش ببضع كلمات وجيزة صريحة تتسم بالرجولة .

من ذلك الحين بات من الأسرة وجعل يساهم في «أيام الأطفال» ويستقبله أقرباء عروسه بالترحاب . وليس شك في أنه شعر في الحال بأن مكانه بينهم ليس مريحاً ، لكنه ستر هذا الشعور بمسلك ازدادت من ثم جرأته ، وباتت القنصلة وبات الخال يوستوس والسناتور بودنبروك ـ إن لم يكن أيضاً سيدات بودنبرك الساكنات الشارع العريض ـ على استعداد للتسامح اللبق مع هذا الموظف الماهر وهذا الرجل الذي يزاول العمل الشاق ويجهل مقتضيات المجتمع .

وكان هذا التسامح ضرورياً . ذلك أن الأمر كان يقتضي المرة بعد المرة أن تخرق السكون كلمة منشطة تغير الموضوع وتهتك حجاب الصمت الذي كان يغشى مائدة الأسرة في قاعة الأكل حين يشتغل المدير بوجنتي ايريكا وذراعيها يريد معاكستها بصورة ملحوظة ، وحين يستعلم عن مربى البرتقال هل هي طعام دقيقي ، مؤكداً هذه الكلمة تأكيداً

جزئياً أو حين يبدي أن روميو وجولييت قطعة لشيلر ـ أشياء كان يذكرها بحمية ويصر عليها وهو يفرك يديه وينحرف بجسمه الأعلى الى سنادة الكرسي .

وكان خير من يمكنه التفاهم معه هو السناتور الذي كان يعرف على التحقيق كيف يدير الحديث معه عن السياسة والأعمال من دون حادث . أما علاقته بجيردا بودنبروك فاتخذت شكلاً موينساً تماماً ، إذ كانت شخصية هذه السيدة تحيره الى درجة أنه بات عاجزاً عن أن يجد موضوعاً يصمد فيه ولو دقيقتين في طرقه معها . وإذ كان يعلم أنها تعزف على الكمان ، وأن هذه الحقيقة الواقعة تؤثر فيه تأثيراً قوياً فقد كان يجتزىء بأن يوجه اليها كلّما لقيها في أيام الخميس سؤالاً على سبيل المباسطة هو : «كيف حال الكمان ؟» بيد أن زوجة السناتور كفت بعد ثالث مرة عن أن ترد على هذا السؤال بأي جواب .

أما كريستيان فقد اعتاد من جانبه أن يرعى قريبه الجديد بأنف متغضن ثم يعود في اليوم التالي فيقلده في مسلكه وطريقة حديثه جملة وتفصيلاً . وقد شفى هذا الابن الثاني للمرحوم القنصل يوهان بودنبروك في اينهاوزن من روماتيزم المفاصل ، لكن تصلباً بعينه في أعضائه كان مايزال باقياً ، و«العذاب» الدوري الذي يعانيه في جانبه الأيسر ــ هناك حيث أعصابه جميعاً «أقصر مما ينبغي» ـ وغيره من المتاعب التي يحس أنه معرّض لها : كالذي يشكو منه ـ كل هذا لم يتخلص منه بحال من الأحوال . كذلك لم يكن مظهره مظهر رجل في نهاية الحلقة الرابعة ، فقد كان رأسه عارياً تماماً ، غير أنه كان مايزال في مؤخرة رأسه وعلى سالفيه شيء من شعره الخفيف المحمر باقياً . وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان اللتان كانتا تجولان فيما حوله في جد متّسم بالهدوء تستقران في محاجرهما أعمق من ذي قبل . كذلك كان أنفه الكبير المحدودب أضخم وأبدى عظماً من ذي قبل ، يبرز بين خديه الأعجفين الأصهبين فوق شاربه الكث الأشقر في حمرة وكان طاغياً على فمه... وكانت سراويله المصنوعة من قماش انجليزي أنيق متين تتهدل من حول ساقيه المعروقتين المقوّستين :

كان كريستيان منذ عودته يسكن كذي قبل غرفة تقع على الطرقة في الطابق الأول من بيت أمه ، لكنه كان يقيم في «النادي» أطول مما يقيم في شارع منج ، ذلك أنه لم يكن يعيش هناك عيشة راضية كل الرضا . فإن ريشكن سيڤرين خليفة ايدا يونجمان ، المشرفة على خدم القنصلة ومديرة المنزل ، وهي مخلوقة من أهل الريف قصيرة القامة تبلغ السابعة والعشرين من العمر ، مستديرة الوجنتين ، مفترة الشفتين ــ ريشكن هذه أدركت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بإحساسها الريفي وإدراكها للأمور الواقعة أنها ليست مكلفة بأن تراعي كثيراً هذا القصاص العاطل الذي كان نهب البلاهة والتعاسة ، والذي كان السناتور ، ذلك الشخص المحترم ، يتخطاه بنظره رافعاً حاجبيه ، فأهملت قضاء حوائجه بكل بساطة . كانت تقول له : « أجل ياسيد بودنبروك ، ليس عندي وقت لك» فينظر اليها بأنفه المنكمش كأنما يريد أن يقول : ألا تخجلين ؟... ويمضي في سبيله متيبس المفاصل .

كان يقول لتوني : «أتظنين أني أملك شمعة دائماً ؟ يندر ذلك ، فغالباً ماآوي الى فراشي على ضوء أعواد الثقاب» . أو يوضح - إذا كان المصروف الذي وسع أمه بعد كل الذي فعلته له أن توافق عليه ، ضئيل ، فيقول : «أوقات عصيبة!... نعم ، كانت الحالة من قبل خيراً من ذلك! فما رأيك... إني كثيراً ما أقترض في هذه الأيام خمسة شلنات لشراء عجينة أسنان! »

فتصيح به مدام بيرمانيدر : « كريستيان! إن هذا لايليق بك! عود ثقاب! خمسة شلنات! دع في الأقل ذكر ذلك! » وكانت تغضب من هذا الكلام وتسخط وتشعر بأنها أهينت في مشاعرها المقدسة ، بيد أن هذا لم يغير من الأمر شيئاً .

كان كريستيان يقترض الشلنات الخمسة لعجينة الأسنان من صديقه القديم أندرياس جيزيكه ، الدكتور في القانون ، وكان سعيداً بهذه الصداقة وتشرفه ، ذلك أن المحامي جيزيكه ، ذلك المستهتر الذي يعرف كيف يحافظ على وقاره ، انتخب في الشتاء الماضي سناتوراً لما قضى الشيخ كاسبار أوڤرديك نحبه في هدوء وحل محله الدكتور لانجهالز . بيد أن هذا الانتخاب لم يؤثر في مجرى حياته ، فقد كان الناس يعرفون أنه ، وله منذ زواجه بآنسة اسمها هونيوس بيت فسيح ، كان يملك أيضاً في ضاحية القديسة جرترود تلك الفيلا الصغيرة المعروشة بالخضرة ، المجهزة بوسائل الراحة التي كانت تسكنها سيدة بارعة الجمال غير معروفة الأصل ماتزال شابة وكان يلمع فوق باب الفيلا بأحرف منمّقة مذهبة كلمة « كڤيزيزانا » وكانت المدينة بأسرها تعرف البيت الصغير الهادىء بهذا الاسم الذي ينطقونه على فكرة بسين ناعمة جداً وألف كدرة جداً ، فنجح هناك بنفس الطريقة التي نجح بها في هامبورج عند أليني بوفوجل ، وفي مناسبات مماثلة في لندن وڤالباريزو وبقع كثيرة أخرى من الأرض . كان « يقص قليلاً » وكان «لطيفاً قليلاً » فجعل يتردد على البيت الصغير الأخضر بانتظام كما يفعل السناتور جيزيكه نفسه . فأما أن هذا كان يجري بعلم الأخير ورضاه فأمر لم يتضح . إنّما المؤكد أن كريستيان بودنبروك وجد في «الكڤيزيزانا » من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دون أن يتكلف شيئاً قط نفس التسرية الودود التي كان السناتور جيزيكه يدفع فيها مال زوجته الوفير .

وعقيب خطبة هوجو ڤاينشنك لايريكا جرينليش عرض المدير على نسيبه الدخول في شركة التأمين . والواقع أن كريستيان عمل اسبوعين في خزانة الحريق لكنه ظهر في أسف أنه لا العذاب الذي يعانيه من جنبه الأيسر وحده بل كذلك متاعبه الأخرى التي كان يصعب عليه تشخيصها قد تفاقمت ، مع أن المدير كان الى ذلك رئيساً شديداً لم يتورع أن يدعو نسيبه «بكلب البحر» إذا ما ارتكب خطأ... مما اضطر كريستيان أن يتخلى عن هذا المركز أيضاً .

أما مدام بيرمانيدر فقد كانت سعيدة ، وكانت حالتها النفسية تعبر عن نظرة مؤداها أن الحياة الدنيوية لاتعدم الحين بعد الحين جوانبها الطيبة . والحق أنها ازدهرت من جديد في هذه الأسابيع التي ذكرتها ، بمشاغلها المنشطة ومشاريعها العديدة وهموم سكناها وحمى الاهتمام بالجهاز ، بعد خطبتها الأولى تذكيراً كان لابدّ فيه وهو الواضح الجلي ، من أن تبدو أصغر من سنها وأن تفعمها غبطة الأمل فعاودها الكثير من تلك الغطرسة الظريفة التي كانت لها في صباها وعادت الى ملامحها وحركاتها . بلى إنها خرقت حرمة مساء كامل من أمسية أورشليم بمرح طاغ جعل نفس ليا جيرهارت تسقط كتاب جدها وتجيل فيما حولها هذين الزوجين الواسعين الجاهلين المستريبين من عيون الحمام...

وما كان ينبغي لإيريكا أن تبتعد عن أمها ، فتقرر برضى المدير بل برغبته أن تقيم مدام أنتونيا ــ في مبدأ الأمر على الأقل ــ عند آل ڤاينشنك ، لتكون الى جانب ايريكا العديمة الخبرة في تدبير البيت... وهذا بالذات ما أثار فيها شعوراً لذيذاً كانت معه وكأنما لم يكن قط في هذه الدنيا أحد اسمه بندكس جرينليش أو ألواس بيرمانيدر ولم يلابس حياتها كل ما لابسها من فشل وخيبة أمل وآلام ، كانت كأنما جاز لها أن تبدأ من الأول كرة أخرى بآمال جديدة . وحقاً إنها كانت تحث ايريكا على حمد الله أن حباها بالزوج الذي تختصه بحبها بينما هي ، الأم ، قد وجب عليها أن تفني ميلها الأول والقلبي في أداء الواجب واتباع العقل . حقاً إن اسم ايريكا هو الذي دونته مع اسم المدير في سجل الأسرة بيد مضطربة من الفرح... لكنها هي ، هي نفسها توني بودنبروك كانت العروس في الحق . كانت هي التي لها مرة أخرى أن تعاين الستائر والسجاجيد بيد خبيرة ، وأن تنقب مرة أخرى في محلات الأثاث والجهاز ، وأن تبحث كرة أخرى عن مسكن وجيه وتستأجره! كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هي التي لم يكن مفر من أن تغادر مرة أخرى بيت والديها الرحب المتسم بالتقى والورع وأن لاتصبح بعد الآن مجرد سيدة مطلقة ، إذ يتاح لها مرة أخرى أن ترفع رأسها ، وأن تبدأ حياة جديدة صالحة لأن تثير الالتفات العام وترفع اعتبار الأسرة... أجل . فهل كان هذا حلماً ؟ لقد ظهرت أردية النوم على وجه الصورة! رداء نوم لها ولايريكا من قماش ناعم مطرز ذو ذيل عريض وصفوف متكاثفة من الأشرطة المخملية تمتد من مقفل الرقبة الى الحاشية تحت!

على أن الأسابيع تقضت وفترة عرس ايريكا جرينليش كادت تنتهي... وقد أدى الزوجان الشابان زيارات لبضعة بيوت ، ذلك أن المدير هو رجل أعمال جاد ، ولم تكن له خبرة بشؤون المجتمع ، رأى أن يكرس فراغه للجو المنزلي الحميم... وقد أدبت لهما مأدبة بمناسبة الخطبة جمعت بين توماس وجيردا والعروسين وفردريكا وهنرييت وفيفي بودنبروك وحضرها أصدقاء السناتور الأقربون في القاعة الكبرى ببيت «حفرة السماكين» حيث حير الحضور مراراً أن المدير لم يكف لحظة عن النقر فوق جيد ايريكا العاري... ودنا موعد الزفاف!

فكان بهو الأعمدة كما كان ذات مرة يوم حملت مدام جرينليش أكليل الأسرة ، مسرح الزواج ، فكانت مدام شتوت ساكنة شارع «صناع الأجراس» نفس المرأة التي تغشى بيوت الطبقة الراقية ، تمد يد المعونة الى العروس في ترتيب الثنيات في ثوبها الأبيض المحاك من الأطلس ، وفي تثبيت الحيلة الخضراء وقد كان السناتور بودنبروك الأول والسناتور جيزيه صديق كريستيان ثاني اثنين قادا العروس ، وكانت اثنتان من صويحبات ايريكا في المثوى إذ ذاك تقومان بدور عذارى العروس ، وكان المدير هوجو ڤايشنك يبدو عظيماً ويبدو رجلاً . وقد داس مرة في طريقه الى الهيكل المرتجل على طرحة ايريكا المرسلة ، وأدى القسيس برنجزهايم وهو مطبق اليدين ، الطقوس بما يليق به في احتفال بين ، وجرى كل شيء مجرى يتفق والعرف والوقار . فلما تبودل الخاتمان ، ورنّت كلمة نعم عميقة جلية ، جشاء بعض الشيء من كليهما ، تقطع ماكان سائداً من سكون ، أجهشت مدام بيرمانيدر بالبكاء وقد طغى عليها الماضي والحاضر والمستقبل ـ بكاء مايزال البكاء الذي يصدر عن الأطفال ، الصريح على السجية ، بينما كانت سيدات بودنبروك يبتسمن ، جرياً على عادتهم في مثل هذه المناسبات ، ابتسامة مريرة شيئاً ما ، ومن بينهن فيفي تضع نظارتها الشابكة وفيها سلسلة ذهبية تكريماً لهذا اليوم... والآنسة فيشبروت ، تيريزا فيشبروت التي أضحت في السنوات الأخيرة أضأل من ذي قبل ، وزيزيمي التي تعلق برقبتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدقيقة الرصيعة البيضاوية وعليها صورة أمها ، تقول بذلك الثبات الذي تغلو فيه والذي لعله يخفي تأثراً باطناً عميقاً : «لتكن السعادة من نصيبك أيتها الطفلة الطيبة!» .

ثم تلت في كنف الآلهة البيضاء التي كانت صورهن من ورق الحيطان الأزرق ، متبوئة مراكزها التي كانت على حالها لم يلم بها تغيير ـ وليمة وقورة حافلة لم تكد تقارب نهايتها حتى اختفى العروسان ليسافرا الى بعض المدن الكبرى يطوفان بها... وكان ذلك حوالي منتصف أبريل . فلمّا تقضى اسبوعان بعد السفر كانت مدام بيرمانيدر قد أتمت بمعاونة الورّاق يعقوب عملاً من أعمالها الباهرة : تأثيث ذلك الطابق الذي استؤجر في بيت من بيوت « حفرة الخبازين » الوسطى تأثيثاً وجيهاً لتستقبل غرفها المزدانة بالأزهار الوفيرة الزوجين حين يعودان .

وهكذا ابتدأ زواج توني بودنبروك الثالث .

وهي تسمية في الحق جد صائبة . فالسناتور نفسه قد أطلق هذا الاسم على هذه المناسبة في يوم خميس وفي غيبة ڤاينشنك ـ وهو ماقابلته مدام بيرمانيدر بالرضى . والحق أن شؤون البيت كافة كانت تقع على عاتقها ، لكنها أيضاً كانت تشعر في هذا بالغبطة والفخار . وفي ذات يوم وقد التقت على حين فجأة بالقنصلة جوليا مولندروف في الطريق وهي من مواليد أسرة هاجنشتروم ، حدّجتها بنظرة فيها مباهاة وفيها تحدٍ فاضطرتها الى أن تبدأها بالتحية... وقد كان الفخر والغبطة ينقلبان في محياها ومسلكها الى حد بالغ كلما قادت القادمين من أقربائها لمشاهدة المنزل الجديد تريهم غرفه ، بينما كانت ايريكا ڤاينشنك نفسها تظهر بين الضيوف المعجبين وكأنها واحدة منهم : زائرة معجبة .

كانت مدام أنتونيا تُري زوارها الأثاث والستائر والخزف الشفاف والأواني الفضية البراقة واللوحات الزيتية الكبيرة التي جلبها المدير : وتمثل كل حياة ذات أسلوب قوامها المأكولات والنساء العاريات ، ذلك أن هذا هو ذوق هوجو ڤاينشنك . وكانت حركات مدام أنتونيا كأنما تعني : الى هذا الحد وفقت في الحياة مرة أخرى . فهذه الوجاهة تداني ماكان في بيت جرينليش وتتفوق بالتأكيد ماكان عند بيرمانيدر!

وجاءت القنصلة العجوز ترفل في الحرير الرمادي المخطط بالأسود وتنشر من حولها عبير عطر باتشولي الهادىء ، وتجيل عينيها الصافيتين في كل شيء وهي مرتاحة ، وتظهر الرضى والتقدير من دون أن ترفع صوتها بالإعجاب . وجاء السناتور ومعه زوجته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطفله وتندّر مع جيردا على تعالي توني الذي يشعرها الهناء ، ومانع جاهداً في أن تقدم لهانو الصغير المعبود ما يخنقه من خبز كورينث ونبيذ البرتو... وجاءت سيدات بودنبروك اللواتي لاحظن بالإجماع أن كل شيء جميل بحيث لا يحببن من جانبهن ، على تواضعهن ، أن يقمن فيه... وجاءت كلوتيده المسكينة ، غبراء عجفاء تتحلى بالصبر فتركتهن يضحكن عليها وتناولت أربعة أقداح من القهوة ، جعلت على أثرها تطري كل ماعدا هذه الأقداح الأربعة وهي تتمطى وتتلطف... . وكان كريستيان يظهر الحين بعد الحين كلما خلا «المنتدى» من رواده ، فيتناول قدحاً صغيراً من البنديكتين ويقص أنه يريد الآن تولي وكالة متجر الشمبانيا والكونياك ، فهو ملم على قوله بمثل هذا العمل الخفيف اللطيف ، فهو فيه سيد نفسه ، يدون هنا وههنا القليل في مفكرته ، ويكسب ثلاثين ريالاً على أهون سبيل ، ثمّ يستدين بعد ذلك أربعين شلناً من مدام بيرمانيدر ليقدم الى الممثلة الأولى في مسرح المدينة باقة من الأزهار ، ثم لايلبث ـ علم الله بأية مناسبة ـ أن يدير الكلام على «ماريا» و«الرزيلة» في لندن ، ويستغرق في حكاية الكلب الأجرب الذي نقل من ڤالباريزو الى سان فرانسيسكو في صندوق ، فيأخذ يروي ، وقد كان في القطار ، في اسهاب وحرارة هازلاً حتى لكأن في مقدوره أن يسلي قاعة بأكملها حافلة بالناس .

كانت تتملكه الحماسة وهو يتحدث بعدة لغات فكان يتكلم الانجليزية والألمانية العامية واللهجة الهامبورجية ، وكان يصف مغامرات الطعن بالمدى في شيلي وحوادث اللصوص في هوايت تشيبيل ، ويقع في أعقاب ذلك على مدخراته في المنظومات المثنوية يريد أن يتيح لغيره نظرة فيها ، فيغنى أو يلقي وعلى وجهه سيماء التمثيل الأصيل ، تتجلى الموهبة الرائعة في حركات يديه :

كنت في الساحة أمشي
سائراً فيها الهوينا
وأمامي تتهادى
حلوة من ذي الصبايا
ترتدي ثوباً بديعاً
طوقه بدع فرنسي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى الرأس غطاء
ثمنت فيه الزوايا
قلت يابنتي الحبيبة
يالطلعتك اللطيفة
اسمحي لي بذراعك
فاستدارت ثم قالت
وهي تحدجني بنظرة
اذهب الآن لدارك
واله فيها ما بدالك
يافتى ... واخلع عذارك

ومايكاد ينتهي من هذا حتى ينتقل الى الحديث عن سيرك ونتس فيأخذ في أداء دور مهرج انجليزي متحدث فكأنما يخيل لمن يشهده أنه يجلس أمام الحلبة ، يسمع الأصوات المألوفة من راء الكواليس ، ونداءات «افتح الباب» ويلم بالشجار القائم مع مديرالاسطبل ، ثمّ يأخذ في سرد طائفة من الحكايات بلغة انجليزية ألمانية عريضة نادبة صاخبة وفيها حكاية الرجل الذي ابتلع فأراً وهو نائم ، فذهب الى الطبيب البيطري الذي أشار عليه أن يبتلع أيضاً هرة... وحكاية «جدتي ، كيف كانت تبدو عليها إمارات الصحة» ، جدة قابلها في الطريق الى السكة الحديد ألف مغامر ففوتوها القطار . . . ثم يقطع كريستيان الطرقة ليصيح : «موسيقى ياحضرة مدير الجوقة!» وكأنه يصحو من نوم فيبدو عليه العجب من أن الموسيقى لم تعزف...

ويصمت دفعة واحدة وقد تبدلت ملامحه وتراخت حركاته وجعلت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان تجولان في كل اتجاه في جد مشوب بالقلق ، ويمر يده على جنبه الأيسر إلى أسفل وكأنه يصغي في باطنه إلى شيء غريب يحدث... ثم يتناول قدحاً آخر من الشراب فتعود تنبسط أساريره قليلاً ويحاول أن يقص حكاية أخرى ثمّ يكف وكأنّما تولاه الغم .

ورافقت مدام بيرمانيدر أخاها الى الدرج مرحة النفس ميالة إذ ذاك الى الضحك قد تسلت من قبل كثيراً ، فقالت له : «الى اللقاء ياحضرة الوكيل! المغني الممثل! صياد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العذارى! الخروف العجوز! عد الينا قريباً!» وضحكت وراءه ضحكاً عالياً ، ثم قفلت راجعة الى مسكنها .

غير أن كريستيان لم يعبأ بهذا ، بل تجاوز عنه لأنه كان مستغرقاً في أفكاره ، وقال لنفسه : فلأذهب قليلاً الى كڤيزيزانا ، وهبط الدرج ، وقد انحرفت قبعته فوق رأسه ، واتكأ على عصاه التي تحمل قبضتها رأس الراهبة ، ومشى متئداً ، متيبساً ، يعرج قليلاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

كان في ربيع سنة ١٨٦٨ أن حضرت مدام بيرمانيدر ذات مساء في العاشرة الى الطابق الأول من بيت «حجرة السماكين» . وكان السناتور بودنبروك يجلس وحده في حجرة الجلوس المجهزة بأثاث مكسو بقماش مضلع ـ الى المائدة الوسطى في ضوء مصباح الغاز المتدلي من السقف . كان ينشر أمامه صحيفة برلينر بورصن تسايتونج ويقرأ وهو منكب قليلاً فوق المائدة ، يمسك بين سبابة يده اليسرى ووسطاها بلفافة تبغه وعلى أنفه نظارة ذهبية شابكة كان يستخدمها من عهد قريب أثناء العمل . وقد سمع وقع خطوات أخته ينفذ اليه من حجرة الطعام فرفع نظارته عن عينيه وتطلع في الظلمة متشوقاً حتى ظهرت توني بين الستائر في متناول الضوء .

«أهذا أنت ؟ عمي مساء . أرجعت من بوبنراده ؟ كيف حال أصدقائك ؟»

«عم مساء ياتوم! شكراً . أرمجارد بخير... أأنت هنا وحدك بلا أنيس ؟»

«أجل ، إنك تأتين في حينك . لقد اضطررت الى الأكل وحدي هذا المساء كما يفعل البابا ، ذلك أن الآنسة يونجمان ليست بالتي يمكن مجالستها تماماً ، فهي تثب في كل لحظة وتسرع الى الطابق الأعلى لتطمئن على هانو... وجيردا في الكازينو فتمايو يعزف هناك على الكمان . وقد مرّ كريستيان واصطحبها...»

«حقاً . ـ أجل ، لقد لاحظت في العهد الأخير ياتوم أن جيردا وكريستيان منسجمان» .

«وأنا أيضاً . فمنذ أصبح يتردد علينا دائماً جعلت تستسيغه رويداً رويداً . فهي تنصت اليه بانتباه شديد إذا ما أخذ في وصف مايعاني... وماذا في هذا ، إنه يسليها . لقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت لي أخيراً أنه ليس من عامة الناس ياتوماس وإنه أبعد منك ، مواطناً من المواطنين عن أن يكون منهم» .

«مواطن... مواطن ياتوم ؟! ها! يلوح لي أنه ليس في أرض الله الواسعة مواطن خير منك» .

«وماذا يعني هذا ؟ فليس الأمر بالذي يفهم على هذا النحو!... فتسامحي قليلاً ياطفلتي! إن منظرك رائع . لقد نفعك هواء الريف» .

قالت : «بديع» وهي تنحي طرحتها وطرطورها المحلى بشرائط الحرير البنفسجي ، وتتخذ في جلستها على أحد الكراسي الى المائدة وضعاً يتسم بالجلال... واستأنفت الكلام : «المعدة والنوم بالليل ، كان ذلك قد تحسن في ذلك الأمد الأخير . هذا اللبن الدافىء ـ لبن البقرة وهذه المقانق وفخذ الخنزير... إن المرء ليترعرع وينمو كما تنمو الماشية ويربو القمح . وهذا العسل الطازج ياتوم ، لقد كنت أعده من أحسن المواد الغذائية ، فهو نتاج طبيعي نقي! وبه يعرف المرء مايزدرد! أجل إنه كان لطفاً من أرمجارد حقاً إنها لم تنس صداقتنا القديمة في المثوى وأنها رعتني . وقد كان السيد مايبوم مثلها بشاشة وترحيباً... وقد كانا يلحان على الدوام أن أبقى بضعة أسابيع أخرى ، لكنك تعلم : إن ايريكا لاتستطيع الكثير من دوني لاسيما الآن وقد ولدت اليصابات الصغيرة...»

«على فكرة ، كيف حال الطفلة ؟»

«شكراً ياتوم ، إنها على مايرام ، وهي لله الحمد بالنسبة لشهورها الأربعة في أحسن حال ، وإن كانت فريدريكا وهنرييت وفيفي يرين أنها لن تعيش...»

«وڤاينشنك ؟ كيف شعوره كأب ؟ إني لاأراه في الحقيقة إلا أيام الخميس...»

«إنه على حال لايتغير! أترى : إنه رجل حاذق مجتهد وعلى نحو بعينه نموذج للأزواج ، ذلك أنه يزدري الحانات ، ويأتي من المكتب رأساً الى البيت ، ويقضي ساعات فراغه معنا . بيد أن المسألة هي ياتوم ـ ونحن وحدنا نستطيع أن نتكلم بصراحة ـ : إنه يطالب ايريكا بأن تكون مرحة على الدوام ، أن تتحدث وتمزح دائماً ، ذلك أنه يريد من زوجته حين يعود الى البيت مجهداً متكدراً على قوله ، أن تسري عنه بأسلوب خفيف فيه بهجة وأن تسليه وتدخل عليه السرور فلهذا خلقت الزوجة على قوله في هذه الدنيا» .

فتمتم السناتور قائلاً : «غبي!»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« كيف ؟... إن السيء في الأمر هو أن ايريكا تميل قليلاً الى الاكتئاب ولابدّ أن تكون قد ورثت هذا عني . فهي هنا وههنا جادة ، صموت ، غارقة في التفكير ، وعندئذ يعنفها ويثور ويوجه اليها كلاماً الحق أن ليس دائماً رقيقاً . ومن ثمّ يلاحظ كثيراً جداً أنه ليس من أسرة حقاً ، وإنه لم يتلق مايسمّى تربية عالية . أجل ، إني أعترف لك صراحة : فقد حدث قبل سفري الى بوبنراده ببضعة أيام أن حطم غطاء إناء الحساء على الأرض لأن الحساء كان كثير الملح... »

« خيراً صنع! »

« كلا ، على العكس . لكنّا لانريد أن نحكم عليه بذلك . ياإلهي ، إننا جميعاً مثقلون بالنقائص والعيوب ، ومثل هذا الرجل الخارق ، النقي ، المجد ،... حاشا لله... لا ياتوم ، ظاهر خشن وباطن حسن . وليس هذا بأردأ شيء في حياتنا على هذ الأرض . لقد كنت من هنيهة في أحوال ، أقول أنها مؤسفة أكثر من ذلك . كانت أرمجارد كلما اختلت بي تبكي بكاءً مراً » .

« ماذا تقولين! ـ السيد فون مايبوم ؟... »

« نعم ياتوم ، وقد أردت بعد هذا الرحيل ، إننا نجلس هنا ونتحدث ، لكني إنما جئت في الحقيقة مساء اليوم في مسألة جدية هامة جداً » .

« وهي ؟ فما خطب السيد فون مايبوم اذن ؟ »

« إن رالف فون مايبوم رجل لطيف ياتوماس . لكنه نبيل طائش . إنه يقامر في روستوك . يقامر في ڤارنيموندہ ، وديونه لاتحصى . وبضعة أسابيع في بوبنراده لاتخلف هذا الأثر في النفس! فبيت السادة وجيه ، وكل شيء حوله تام ، واللبن والمقانق وفخذ الخنزير ، كل هذا وفير .وليس ثمة في مثل هذه الضيعة معيار لواقع الأحوال... بالإيجاز ، إنهم في الحقيقة على أسوأ حال من البؤس . وهو ماقصته عليّ أرمجارد وهي تنتحب انتحاباً يقطع نياط القلب .

« محزن ، محزن » .

« أجل محزن ، لكن الأمر هو كما اتّضح لي ، إنهم لم يدعوني اليهم لبواعث مجردة كل التجرد عن المنفعة الذاتية » .

« كيف ؟ »

« ماذا أقول لك ياتوم . إن السيد مايبوم بحاجة الى المال ، إنه يحتاج في الحال الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مبلغ كبير . ولما كان على علم بالصداقة القوية التي تربط زوجته بي ويعرف أنّي شقيقتك فقد توارى في كربه خلف زوجته ، وتوارت زوجته بدورها خلفي... أفهمت . ؟ »

فجعل السيناتور يحرك أطراف أصابع اليد اليمنى فوق رأسه هنا وههنا وقطب وجهه قليلاً .

قال : « أعتقد ذلك . يظهر أن مسألتك الجدية الهامة تهدف الى دفعة على محصول بوبنراد إذا صدق حدسي ؟ لكنكم أنت وأصدقاءك لم تقصدوا الى الرجل الحق فيما أرى . فأولاً إني لم أعقد قط أية صفقة مع السيد فون مايبوم . ومسألة كهذه تبدو مع ذلك وسيلة غريبة لإنشاء العلاقات . ثانياً ، لقد كنّا ، جدي الأكبر وجدي وأبي وأنا نقدّم الدفعات هنا وهناك الى الفلاحين متى بعثت شخصيتهم وأحوالهم العادية عامة على الطمأنينة وأتاحت ضماناً بعينه... لكن مانعت به من هنيهة شخصية مايبوم ووصفت به أحواله لايكاد يتيح في أمره مثل هذا الضمان » .

« إنك مخطىء ياتوم . لقد تركتك تقول كل ماعندك ، لكنك مخطىء . فالأمر هنا لايمكن أن يتعلق بدفعة تقدم اليه ، فمايبوم يحتاج الى خمسة وثلاثين ألف مارك » .

« ايه! »

« خمسة وثلاثين ألف مارك تستحق عليه في خلال اسبوعين على الأكثر ، فالسكين تحزّ في عنقه ، ولأكون أوضح : يجب أن يفكر من الآن في البيع على الفور » .

« يبيع المحصول في حقله ؟ أوه ، مسكين! » وهزّ السناتور رأسه وكان يعبث بنظارته الشابكة وهي ملقاة فوق غطاء المائدة . واستأنف الكلام : « لكن هذه حالة تبدو بالنسبة الى أحوالنا ، غير عادية تقريباً . وقد سمعت بمثل هذه الصفقات تعقد في هيسن على الأخص حيث يقع فريق من القرويين ليس بالقليل في أيدي اليهود... ومن يدري ، في أحبولة من من قطاع الركاب يقع السيد فوم مايبوم المسكين . . . »

وصاحت مدام بيرمانيدر ، متعجبة أشد العجب :

« يهود ؟ قطاع رقاب ؟ إن الكلام عنك أنت ياتوم! »

وبغتة ألقى توماس بودنبروك بالنظارة الشانكة فوق المائدة أمامه فانزلقت بعض الشيء على امتداد الصحيفة وتحول بأعلى جسمه مرتجاً صوب شقيقته .

وسألها وهو يحرك شفتيه من دون أن يخرجا صوتاً : « عني ؟ » ثم أضاف بصوت مسموع : « توجهي الى النوم ياتوني! إنك مرهقة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«أجل ياتوم ، هكذا كانت تقول ايدا يوجمان حين نأخذ في مباسطة . لكني أؤكد لك أني لم أكن قط أكثر تنبهاً وانشراحاً مما أنا الآن ، إذ أقدم اليك بالليل وفي الضباب لأنقل اليك عرض لأرمجارد ، أو بصفة غير مباشرة عرض رولف فون مايبوم...»

«حيرة ؟ سذاجة ؟ إني لاأفهمك ياتوماس ، إني للأسف أبعد ما أكون عن ذلك! إنك أمام فرصة لفعل الخير وعقد صفقة لك في حياتك في الوقت نفسه . . . »

فصاح السناتور : «كفى ياعزيزتي ، إنك تنطقين هراء محضاً!» وارتمى الى الوراء وقد عيل صبره . ثمّ استأنف الكلام يقول : «سامحيني ، لكنك ببراءتك تثيرين غضبي! إنك إذن لاتفهمين إنك تشيرين عليّ بشيء هو أشد مايكون تحقيراً لي ، وتنصحين لي بأعمال دنسة ؟ أتريدين أن أصطاد في الماء العكر ؟ أن أستغل إنساناً استغلالاً وحشياً ؟ أن أفيد من محنة هذا المالك من ملاك الأراضي لأنكل به أعزل ، وأرغمه على النزول لي عن محصوله سنة في مقابل نصف ثمنه لأجني من وراء ذلك ربح المرابي ؟ »

فقالت مدام بيرماندر وقد هالها هذا القول وجعلت تفكر : «آه ، أهكذا تنظر الى المسألة ؟ » وعادت تتابع الكلام في حرارة : «ليس من الضروري ، ليس من الضروري على الإطلاق ياتوم أن تنظر الى المسألة من هذه الناحية! ارغامه ؟ لكنه يأتي اليك من تلقاء نفسه ، فهو بحاجة الى المال ، ويريد أن ينهي الأمر عن طريق الصداقة . خفية وفي سكون تام . ومن ثمّ التمس الاتصال بنا ، ومن أجل ذلك دعيت!»

«صفوة القول إنه يخدع نفسه في أمري وفي طبيعة متجري . إن لي تقاليدي ، ومثل هذه الصفقة لم نعقدها منذ مائة سنة . ولست على استعداد لأن أبدأ بمثل هذه المناورات» .

«حقاً ياتوم إن لك تقاليدك ، وكل احتراماتي لك! ومؤكد أن أبي ماكان ليدخل في مثل هذه الصفقات ، حاشا! فمن يزعم هذا ؟... لكنني على غباوتي أعرف أنك انسان آخر ، تختلف عن أبي كل الإختلاف ، وأنه لمّا توليت اعمل سلكت طريقاً آخر غير الذي سلكه ، وأنك صنعت في تلك الأثناء أشياء ما كان ليصنعها . ثمّ أنت شاب ومقدام . لكني أخشى أن يكون هالك في الأيام الأخيرة هذا الاخفاق أو ذاك... فإذا كان التوفيق لم يعد يحالفك في أعمالك كما كان يحالفك من قبل فهذا لأنك تدع الفرصة لعقد صفقات تفلت من يديك بما تبدي من حذر محض ووسوسة صادرة عن الاستقامة» .

فقال السناتور بصوت حاد : «أخ ، أرجوك ياطفلتي العزيزة ، إنك تثيرينني» وجعل يتحول يمنة ويسرة ويقول : «لنتكلم بربك عن شيء آخر!»

«أجل ياتوماس ، إنك ثائر ، إني أتبين ذلك . لقد كنت هكذا منذ البداية . ومن هنا بالذات مضيت في الكلام لأبرهن لك على أن شعورك بالإهانة شعور خاطىء . لكنني إذا ما ساءلت نفسي ومن : مم أنفعالك ؟ لم يسعني إلا أن أقول لنفسي أنك لست في الواقع كارهاً كل الكراهية أن يكون لك بهذا الأمر دخل . ذلك أني وأنا امرأة بهذا الغباء ، أعلم من نفسي ومن غيري أن المرء يهيج ويغضب من شيء يعرض عليه إذا ما أحس أنه غير مطمئن إلى معارضته إياه كل الاطمئنان ، وانه في باطنه مغرىً إغراء كبيراً بقبوله» .

فقال السناتور : «بديع جداً!» وعضّ على طرف سيجارته ولزم الصمت .

«بديع ؟ ها . كلا . إن هذه هي أبسط ماعلمتني الحياة إياه من خبرة . ولكن لنكن على صفاء ياتوم . إني لاأريد الإلحاح عليك . فهل أستطيع إقناعك بمسألة كهذه ؟ كلا ، فإنه تنقصني في هذا المعرفة . فلست سوى امرأة غبية... وأسفاه... ماعلينا ، لايهم . فقد أهمتني المسألة كثيراً ، وكنت من ناحية مرعبة مهمومة من أجل الزوجين مايبوم ومن ناحية أخرى كنت فرحة من أجلك . لقد فكرت وقلت لنفسي : إن توم مكتئب من أمد ، كان يشكو قبلاً ، فالآن لم يعد يبث شكواه أحدقط ، لقد أضاع هنا وهناك ، والأوقات سيئة .

وهذا بالذات يقع في الآونة الراهنة إذ مركزي قد تحسن بفضل الله وبت أشعر بالهناء . ثم فكرت : هذا شيء ينفعه . صفقة رصيد طيب . به يستطيع أن يعوض خسارة ، ويرى الناس أن متجر بودنبروك لم يجفه الحظ الى الآن كل الجفاء . فلو كنت قبلته لكنت فخرت بأني كنت الوسيطة فيه ، ذلك أنك تعرف أنه كان دائماً من بين أحلامي وفي جملة أشواقي أن أودي لإسمنا خدمة... لكن كفى... فالآن انتهت المسألة... بيد أن الذي يضايقني أن فكرة أن مايبوم مع ذلك وعلى كل حال سيضطر الى بيع المحصول وهو في حقله ياتوم ، وأنه إذا ظهر هنا في المدينة فسيجد مشترين . . سيجد واحداً على التحقيق . . وسيكون هذا الواحد هرمان هاجنشتروم ، ها ، ذلك اللص...» .

فقال السناتور في مرارة : «أي نعم ، إن للمرء أن يتساءل هل يترك هذه المسألة تفلت من يده» . فأجابت مدام بيرمانيدر بقولها : «أترى ؟» وكررتها ثلاث مرات متعاقبة .

وبغتة جعل توماس بودنبروك يهز رأسه ويضحك متضايقاً .

«إنها بلاهة... إننا نتحدث هنا في كثير من الجد ـ من ناحيتك على الأقل ـ عن شيء غير معلن إطلاقاً ، معلق في الهواء كل التعليق . وإني فيما أعلم لم أسألك ولو مرة بأي شيء يتعلق الأمر حقاً ، وماذا عن السيد فون مايبوم أن يبيع... إني لا أعرف بوبنراده إطلاقاً...»

فقالت في نشاط : «ماذا ، ماعليك إلا أن تسافر الى هناك . إنها «فركة كعب» الى روستوك . ومن هناك لايبقى شيء! أما ماهو مضطر الى بيعه! أن بوبنراده ضيعة كبيرة ، تغل فيما أعلم علم اليقين أكثر من ألف عدل من القمح . لكني لاأدري ماهو أدق من هذا . فكيف بالحنطة السوداء والشوفان والشعير ؟ ألا يغل كل منها ٥٠٠ عدل ؟ قابلة للزيادة والنقصان ؟ لاأعلم! إن المظهر رائع ، أقول لك . لكني لاأستطيع أن أزودك بالأرقام ياتوم . فأنا غبية . ويجب عليك أن تسافر الى هناك .

وسادت فترة من الصمت .

وقال السناتور بإيجاز وحزم : «إن الأمر لايستأهل أن نضيع فيه كلمتين» . وتناول نظارته الشابكة ودسها في جيب صدريته وزرر سترته ، ونهض ، وجعل يغدو في الحجرة ويروح في حركات سريعة قوية طليقة يتعمد فيها أن ينفي كل دلالة على التفكير .

ثمّ وقف بالمائدة وقال وهو ينحني نحو أخته وينقر على قرصها بطرف سبابته المعقوفة : «سأقص عليك قصة يا توني العزيزة تفسر لك موقفي في هذا الأمر . إني عليم بنقطة ضعفك حيال النبلاء على وجه عام ونبلاء مكلنبورج بوجه خاص ومن ثم أرجوك أن تتحلي بالصبر إذا ماتلقى أحد هؤلاء النبلاء في حكايتي لطمة من اللطمات... . إنك تعلمين أن من بينهم هذا أو ذاك الذي لايبدي نحو التجار احتراماً كثيراً مع أنهم ينفعونه وينفعهم بل يؤكد تفوق المنتج في المعاملات التجارية على التاجر الوسيط ، وهو تفوق لامندحة عن التسليم به بدرجة ما ـ ولا ينظر الى التاجر الكبير بعينين تختلفان كثيراً عن نظرته الى اليهودي المتجول الذي ينزل له المرء ملابسه المستهلكة وهو شاعر بأنه يغشه . وإني لأباهي بأني في العموم لم أخلف في نفوس هؤلاء السادة مايخلفه مستغل وضيع من أثر ، وإني وجدت بينهم تجاراً أصلب مني بكثير . على أن الأمر اقتضاني الحادث العنيف الصغير الآتي مع واحد منهم لأقرب مابيننا من فارق اجتماعي... لقد كان السيد فون جروس ـ بوجندروف الذي لابدّ أنك قد سمعت به ، هو من أعني ، وقد كنت أعامله من سنين وأيام مضت : الكونت شتريلتس ، وهو رجل من كبار رجال الاقطاع يحمل على عينه مونوكلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بديع الزوايا ـ فكنت أعجب كيف لم يجرح نفسه... ـ ويلبس حذاء مزركشاً له رقبة ، ويمسك بسوط ركوب ذهبي القبضة . وكان من عادته أن ينظر اليّ من عل بفم نصف مفتوح وعينين نصف مغمضتين . وكانت أول زيارة أؤديها له ذات خطر ، فبعد مكاتبة تمهيدية سافرت اليه ودخلت عليه غرفة مكتبه بعد أن أعلن الخادم مقدمي اليه . وكان الكونت شتريلتس جالساً الى مكتبه ، فردّ على انحنائي له بالنهوض عن كرسيه نصف نهوض ، وإنهاء آخر سطر من كتاب يكتبه ، والالتفات عندئذ اليّ بأن تخطاني بنظرة وشرع في الكلام عن بضاعة . فاستندت الى منضدة اريكة وشبكت ذراعي وساقي ، وتسليت بهذا الوضع . وقضيت خمس دقائق في حديث وأنا واقف ، فلما تقضت خمس دقائق أخرى اتخذت مجلسي فوق المنضدة وأرجحت إحدى ساقيّ في الهواء ، وجرت مساومتنا مجراها . وبعد انقضاء ربع ساعة قال من دون اكتراث وبحركة من يده بادية التفضل حقاً : «لكن ألا تريد أن تتناول كرسياً ؟ » فقلت : « كيف ؟... ليس ضرورياً! فإني أجلس من أمد » .

فصاحت مدام بيرمانيدر مبتهجة : «قلت له ؟ قلت له ذلك ؟ » ... ونسيت في الحال كل ماسلف تقريباً ، واستغرقتها هذه النادرة كل الاستغزاق ، واستطردت تقول : « كنت جالساً من أمد! بديع! » .

«طبعاً! وإني لأؤكد لك أن الكونت غيّر مسلكه من تلك اللحظة ، وأنه كان يمد اليّ يده كلّما جئته ويدعوني الى الجلوس... وأننا بتنا نتيجة ذلك صديقين . لكن لماذا أقص عليك هذا ؟ لأسألك : هل يطاوعني قلبي ويكون من حقي وأستشعر الاطمئنان في صميمي أن أعطي السيد فون مايبوم أيضاً درساً بهذه الصورة إذ نسي وهو يساومني في جملة ثمن محصوله أن يقدم لي كرسياً... ؟ » .

فلزمت مدام بيرمانيدر الصمت ثم قالت وهي تنهض : حسناً . إنك محق ياتوم ، وكما قلت من قبل لاأريد أن ألح عليك . فلا بد أن تكون عارفاً بما تصنع وماتدع ، وكفى! وإذا كنت تصدقني في أني لم أتكلم إلا بقصد حسن... أولاً ، وأحييّ ايدا الطيبة... ثم أعود فألقي هنا نظرة مرة أخرى... »

وذهبت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

وصعدت الدرج الى الطابق الثاني وجعلت الشرفة عن يمينها وسارت في الطرقة على امتداد الدرابزين واخترقت ردهة كان بابها مفتوحاً على الطرقة ويؤدي مخرج ثان منها عن اليسار الى مخدع لبس السناتور ، ثم ضغطت في حذر على أكرة الباب الواقع تجاهها رأساً ودخلت .

كانت حجرة واسعة على غير المألوف أسدلت على نوافذها ستائر مثنية محلاة بالأزهار الكبيرة . وكانت حيطانها باردة قليلاً ، ليس عليها سوى عدد من الصور المطبوعة الملونة تمثل أطفالاً شقر الشعر يرتدون ثياباً حمراء مما يلبس الصغار ، مثبتة بالدبابيس في ورق الحيطان الزاهي ، هذا عدا صورة محفورة في إطار أسود معلقة فوق سرير الآنسة يونجمان تمثل جياكومو مايربير الى المائدة الكبيرة التي تفتح وتقفل ، ترتق جوارب هانو . كانت هذه البروسية الوفية في أوائل الحلقة السادسة ، لكن رأسها المصقول ، على الرغم من أن الشيب بدأ فيه مبكراً ، لم يكن بات أبيض بعد ، بل بقي في حالة بعينها من الامتزاج . وكان جسمها المنتصب بادي العظام قوي البنية وكانت عيناها العسليتان يقظتين ، صافيتين ، نشطتين كما كانتا من عشرين سنة مضت .

وقالت مدام بيرمانيدر : «عمي مساء يا ايدا ياأيتها النفس الطيبة!» وكانت تخافت في تحيتها لكنها كانت مرحة ، ذلك أن القصة الصغيرة التي قصها عليها أخوها قد حبتها بأمرح نفسية . ثمّ استطردت تقول : «كيف حالك ، أيتها القطعة من الأثاث القديم!» .

«أي ، أي ، توني ؟ أثاث ياطفلتي ؟ أما زلت هنا في هذا الوقت المتأخر ؟» .

«أجل لقد كنت عند أخي... في أعمال لاتحتمل التأخير... لكن الأمر للأسف قد مني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالفشل» . ثم سألت : «أنائم هو ؟» وأومأت بذقنها الى سرير الصغير القائم الى الحائط الجانبي الأيسر يكاد موضع الرأس الملفوف بالقماش الأخضر فيه يلاصق الباب العالي المؤدي الى مخدع نوم السناتور بودنبروك وقرينته...

فقالت ايدا : «صه! نعم إنه نائم» . ودنت مدام بيرمانيدر على أطراف أصابعها من السرير الصغير ، وأزاحت الستائر في حذر ، وانحنت فوق وجه ابن أخيها النائم تتأمله .

وكان يوهان بودنبروك الصغير راقداً على ظهره ، متجهاً الى الغرفة بوجهه الذي يحوطه شعره الكستنائي الرائق الطويل ، يتنفس في وسادة الرأس بحس واهن ، تستقر من يديه اللتين تكاد لاتظهر أصابعهما من أكمام قميص نومه الطويلة الفضفاضة واحدة على صدره ، والأخرى بجانبه على اللحاف ، تختلج أصابعه المعقوفة بين الحين والحين اختلاجاً خفيفاً... كذلك كان يلاحظ على شفتيه المفتوحتين نصف فتحة حركة ضعيفة كإنما تحاولان الكلام . وكان شيء أليم هو مايتبدى من وقت لآخر ومن تحت الى فوق على هذا الوجه الصغير شيء يبدأ باهتزازة في الذقن ويتتابع فوق الفم فيرعش منخاريه الدقيقين ويحرك عضلات الجبين الضيق... وكانت الأهداب الطويلة لاتصل الى حجب الظلال الضاربة الى الزرقة المستقرة في زوايا العينين .

وقالت مدام بيرمانيدر متأثرة : «إنه يحلم» . ثم انحنت فوق الطفل وقبلت وجنته الدافئة من أثر النوم وهي تحاذر ، وأصلحت من شأن الستارة في عناية وعادت الى المنضدة حيث كانت ايدا في ضوء المصباح الأصفر تشد جورباً آخر فوق كرة الرفو وتفحص الثقب وتأخذ في رفوه .

«ترفين يا ايدا . غريب! إنك أنت أنت لم تتغيري!»

«أجل ياتوني... ماأكثر مايمزق الصغير من يوم أن ذهب الى المدرسة!»

«لكنه في الحق طفل هادىء رقيق ؟»

«نعم ، نعم... لكنه مع ذلك...»

«أيحب الذهاب الى المدرسة ؟»

«كلا ، كلا ياتوني! كان أحب اليه أن يستمر يحصل علي . وكنت أنا أيضاً خليقة أن أتمنى ذلك ياطفلتي . ذلك أن السادة لايدركون نشأته كما أدركها . ولايعرفون كيف يعلمونه . إنه كثيراً مايصعب عليه الانتباه فلا يلبث أن يدركه التعب» .

«مسكين! هل ضرب الى الآن ؟»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«كلا ، كلا ، ياإلهي... إنهم لن يرضوا لأنفسهم أن يكونوا بهذه القسوة! وحين ينظر اليهم الصغير...»

«كيف كان في الحقيقة حين توجه أول مرة الى المدرسة ؟ هل بكى ؟»

«أجل ، هذا مافعل ، فهو سريع البكاء... لايعلو صوته ولكن في نفسه هكذا... ثمّ يتعلق بسترة السيد أخيك ولايكف عن التوسل أن يبقى هنا»...

«كذا! وهل كان أخي يوصله الى هناك ؟... حقاً إن هذه اللحظة عصيبة يا ايدا . صدقيني ، إني أعرف ذلك كما لو كان قد وقع أمس الدابر! كنت أعوي... أؤكد لك ، أعوي كما يعوي الكلب وهو مقيد بالسلسلة . كان الأمر يشق عليّ جداً . ولماذا ؟ لأني كنت أنعم في البيت كما يفعل هانو . وجميع الأطفال الذين ينتسبون الى البيوت الوجيهة يبكون ، هذا مالفت نظري من فوري . بينما لايكترث الآخرون ويحملقون فينا ويبتسمون... ياإلهي! ماخطبه يا ايدا ـ ؟!»

ولم تتم حركة من يدها ، بل التفتت نحو السرير الصغير الذي ندت عنه صرخة قطعت عليها التحدث ، صيحة خوف تجددت في اللحظة التالية في تعبير أدل على العذاب والرعب . ورنت بعد ذلك ثلاث وأربع وخمس مرات متلاحقة سريعة...«أوه ، آوه ، آوه!» كأنها احتجاج صارخ غاضب يائس يحدوه الخوف ، موجه الى شيء منكر أبدا أو حدث . ثم انتصب الصغير يوهان في فراشه في اللحظة التالية واقفاً يتمتم كلمات غير مفهومة وتحملق عيناه الفريدتان في لونهما العسلي وتحدقان في عالم آخر تماماً من دون أن تتبينا من الحقيقة شيئاً...

فقالت ايدا : «لاشيء . إنه الكابوس . آه . إنه يكون أحياناً أشنع من هذا» . ونحت عملها في هدوء تام ، واتّجهت بخطاها الواسعة الثقيلة نحو هانو وأرقدته ثانية وغطته وهي تكلمه بصوت عميق مهدىء .

ورددت مدام بيرمانيدر : «أجل هذا هو الكابوس . فهل هو مستيقظ الآن ؟»

لكن هانو لم يستيقظ بحال وإن بقيت عيناه متسعتين محملقتين ومضت شفتاه تتحركان...

وخاطبته إيدا بقولها : «كيف ؟ كذا... كذا ، فلنكف الآن عن البقبقة» ثمّ سألته : «ماذا تقول ؟»

واقتربت كذلك مدام بيرمانيدر تسترق ماتسمع من همهمة وتمتمة يسودها الاضطراب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال هانو بلسان ثقيل : « أريد... الذهاب... الى... حديقتي... أريد أن أسقي بصلي... »
وشرحت إيدا يونجمان قوله وهي تهز رأسها : « إنه يلقي شعره . كذا ، كذا . حسبك ياصغيري! نم الآن! »
وقال هانو : « رجيل أحدب... يقف هنا... يبدأ يعطس... » ثم تنهد . لكن تعبير وجهه تبدل فجأة ، فأغمض عينيه نصف إغماضة وحرك رأسه فوق الوسادة يمنة ويسرة ، ومضى يقول بصوت خافت أليم :

« الـــقـــمـــر طـــالـــع
والـــطـــفـــل يـــبـــكـــي
والـــجـــرس يـــدق
اثـــنـــتـــي عـــشـــرة
فـــلـــيـــكـــن الـــلـــه
فـــي عـــون الـــمـــرضـــى
أجـــمـــعـــيـــن... »

وكان وهو يلقي هذا الكلام ينتحب انتحاباً شديداً ويتفجر الدمع من بين أهدابه ويسيل على خديه... ثمّ أفاق ، فعانق ايدا ، وأدار عينيه المبللتين فيما حوله وتمتم شيئاً عن عمته توني يدل على الرضى ، وأصلح رقدته ، وعاوده النوم بعدئذ في هدوء .
وقالت مدام بيرمانيدر لما عاودت ايدا الجلوس الى المنضدة : « غريب . ماذا كانت هذه الأشعار يا ايدا ؟ »
فأجابت الآنسة يونجمان : « إنها من كتاب المطالعة ، وفيه « قرن الغلام العجيب » . والكتاب مجموعة من الغرائب...وقد كلف هانو بحفظها هذه الأيام . وقد تحدث كثيراً عن الرجيل فهل تعرفين حكايته ؟ إنها جد مرعبة . هذا الرجيل الأحدب في كل مكان ، يحطم قدور الطهو ، ويأكل المربى ، ويسرق الخشب ويعطل المغزل ، ويضحك على الناس . وفي الختام يطلب أيضاً أن يذكره الناس في صلاتهم! وقد فعل هذا بالصغير . فكان يفكر فيه كل يوم . فهل تعلمين ماذا كان يقول ؟ لقد قال لي مرتين أو ثلاثاً : أليس كذلك ياإيدا ؟ إنه لايقصد بما يفعل شراً . إنه لايفعله بدافع الشر... إنه يفعله مدفوعاً بحزنه ثمّ يزداد بعد فعله حزناً... فإذا صلى المرء وذكره في صلاته كف عن فعله » . وفي مساء اليوم أيضاً لما تمنت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

له أمه ليلة سعيدة قبل أن تتوجه الى الحفلة الموسيقية سألها : أينبغي أن يصلي هو أيضاً للرجيل الأحدب...»

«وماذا فعل ؟»

«لم يرفع بالصلاة صوته ، لكن الراجح أنه أداها صامتاً... أما المنظومة الأخرى المسماة «ساعة القوابل» فلم يكن يتحدث بها بل كان يبكي منها فحسب . فهو سريع البكاء ، هذا الصغير . ولايكف قبل أن ينتحب طويلاً...»

«لكن ماذا يحزن في هذه المنظومة ؟»

«وهل أعلم ؟... البداية ، فهي الموضع الذي انتخب عنده في نومه من هنيهة . وهو لايتجاوز إنشاده قط... كذلك يبكي على السائق الذي ينهض عن فراشه المعد من القش في الثالثة صباحاً...»

فضحكت مدام بيرمانيدر متأثرة ، واتخذ وجهها منظر الجد .

فقالت : «لكنني أريد أن أقول لك يا ايدا أن هذا لايبعث على الارتياح . فالسائق ينهض من نومه في الثالثة ـ رباه إنه لهذا سائق! والطفل ـ وأنا عليمة بهذا من قبل ـ يميل الى النظر الى الأشياء نظرة فاحصة والتأثر بكل مايراه والاشتغال به أكثر مما ينبغي ... وهذا ينال منه ، صدقيني . يجب أن يخاطب جرابو في هذا الشأن بصورة جدية» . ثمّ استطردت تقول وقد شبكت ذراعيها ومالت برأسها جانباً وجعلت تنقر الأرض بطرف قدميها : «لكن الأمر هو أن جرابو يهرم ، وبغض النظر عن هذا ، وعلى مابه من طيبة القلب وأنه رجل شريف وإنسان طيب حقاً... فإني فيما يتصل بصفاته كطبيب ، لاأعلق عليه أهمية كبيرة يا ايدا ، وليسامحني الله إذا أنا خدعت فيه... فهو على سبيل المثال يعرف اضطراب هانو ، وفزعه بالليل ، ونوبات الخوف الذي ينتابه في أحلامه . وكل مايفعله هو أنه يقول لنا ماهو ، ويذكر لنا اسمه باللاتينية* Pavor Nocturuus أجل إن هذا بحق الله كبير القيمة من الناحية التعليمية... وإنه لرجل حبيب وصديق حميم للأسرة ، إنه كل شيء لكنه ليس مرشداً ، فالرجل ذو الشأن يختلف عنه في منظره ويبدي ، وهو مايزال في صباه ، إنه على شيء . لقد عاش جرابو عصر ١٨٤٨ وكان عندئذ شاباً . لكن أتظنين أنه تحرّك آنئذ ، وتأثر بالحرية والعدالة وزوال الامتيازات والاستبداد ؟ إنه عالم . وأعتقد أن القوانين الاتحادية الجائرة ـــ

* كابوس ليلي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوانين ذلك الحين المتعلقة بالجامعات والصحافة ــ لم تؤثر فيه فتيلاً ، فلم يثر قط مرة ولم يقدم قط على عمل... بل كان دائماً يمد وجهه البديع ويصف الحمام وخبز فرانتس ، فإذا كانت الحالة تدعو الى القلق أوصى بملعقة آكل من عصير الخطمي... طاب ليلك يا ايدا... لا ، لا . إني أظن أنه يوجد غيره من الأطباء . يؤسفني أن لاأرى جيردا... أجل ، شكراً ، فما تزال الطرقة المضيئة...طاب ليلك! »

ولما فتحت مدام بيرمانيدر أثناء مرورها الباب المؤدي الى قاعة الأكل بغية الإنتهاء الى حجرة الجلوس لتتمنى لأخيها أيضاً ليلة سعيدة رأت أن الطبقة كلها كانت مضيئة وأن توماس يروح ويغدو فيها ويداه وراء ظهره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

فلمّا بات السناتور وحده عاود مجلسه الى المائدة وأخرج نظارته الشابكة يريد أن يتابع القراءة في صحيفته . لكنه لم يلبث بعد دقيقتين أن رفع بصره عن الورق المطبوع وجعل يحدق طويلاً في ظلام الصالون في خط مستقيم يتخلل بصره الستائر من دون أن يغير وضع جسمه أو يأتي بحركة .

وماأشد مايبدو وجهه متغيراً الى درجة أن ينكره من يراه ، متى كان وحده! فعضلات فمه وخديه التي يتحكم فيها عادة ويجعلها طوعه دائماً حين يبدي إرادته ـ هذه العضلات تهن عندئذ وتتراخى ، وتنحسر ـ كما ينحسر القناع ـ سيماء اليقظة والانتباه واللطف والهمة عن هذا الوجه بعد طول اصطناعهما والتشبث بها لتدعه في حالة من التعب المضني ، وتحمر منه عينان متجهتان الى شيء لاتدركانه وعليهما إمارات الكدر والبلادة ، وتأخذان تدمعان . ومن دون أن يؤتى الشجاعة لمحاولة خداع نفسه يستطيع أن يتشبث في الأفكار كافة التي تشغل رأسه ، مضطربة ، قلقة ، مرهقة ، بفكرة واحدة يائسة هي أنه – توماس بودنبروك ـ قد بات في الثانية والأربعين رجلاً منهوك القوى .

لقد أمرّ يده فوق جبينه وعينيه متمهلاً يتنفس تنفساً عميقاً وأشعل بصورة آلية لفافة جديدة من التبغ وهو يعلم أن التدخين يضره ، ثم واصل تأمله للظلمة من دخان سيجارته... فأي تناقض بين تراخي ملامحه الدال على المعاناة وبين التزين الأنيق الذي يقرب أن يكون عسكرياً والذي يختص به رأسه ـ هذا الشارب المعطر المشدود ، وهذه الحلاقة المصقولة في الذقن والخدين ، وهذه التسريحة الدقيقة في شعر الرأس الذي يختفي ما بدا من خفته على قدر الإمكان والذي يرتد عن سالفيه الرقيقين في جونين مستطيلة ويؤلف فرقاً ضيقاً ، والذي

لم يعد خلف الأذنين طويلاً أجعد كما كان من قبل ، بل بات يحتفظ به قصيراً كيلا يرى أحد أن الشيب وخطه في هذا الموضع... وقد شعر هو نفسه بهذا التناقض وكان يعلم جيداً أن أحداً في المدينة لن يفوته هذا التضارب القائم بين نشاطه الحرك المرن وشحوب وجهه الباهت .

وليس هذا لأنه بات في الخارج بوصفه شخصية هامة لايستغنى عنها ، أقل وزناً مما كان من قبل ، فإن الأصدقاء لايفتأون يكررون والحساد لايسعهم أن ينكروا أن المحافظ الدكتور لانجهالز قد أكد ماسبق أن أعلنه أوڤرديك من أن السناتور بودنبروك هو يد المحافظ اليمنى . أما أن متجر يوهان بودنبروك لم يعد ماكان من أزمان مضت فحقيقة منتشرة في الأزقة الى حد أن السيد شتوت المقيم في شارع صبّابي الأجراس أمكنه أن يقصها على امرأته وهما يتناولان ظهراً حساء شحم الخنزير... وقد كان توماس بودنبروك يئن من ذلك .

ومع ذلك فقد كان هو نفسه الذي ساعد في الغالب على نشوء هذا الرأي . فقد كان رجلاً غنياً ، وماكانت خسارة من تلك الخسائر التي تكبدها ، حتى تلك الخسارة الجسيمة التي حلت به سنة ١٨٦٦ لتهزّ كيان المتجر بشكل جدي . لكنه مع مضيه - وهذا بديهي - في الظهور بالمظهر المناسب وفي أن يتضمن مآدبه الألوان التي ينتظرها ضيفه منها ، تصور أن هناءه وتوفيقه وليا ، وهذا التصور الذي كان حقيقة داخلية أكثر منه شيئاً واقعاً قائماً على حقائق ظاهرة ، هذا التصور قد مناه بحالة من القنوط والاسترابة بحيث جعل ، كما لم يفعل من قبل ، يحرص على المال ، ويدخر من نفقات معيشته الخاصة بصورة مزرية ، وقد لعن بيته الجديد الذي كلفه بناؤه نفقات باهظة مائة مرة ، وكان يشعر بأنه لم يجلب له سوى السوء . وقد كف عن رحلات الصيف ، واستبدل حديقة المدينة بالإقامة على ساحل البحر أو في الجبال . وكانت الواجبات التي يتناولها مع زوجه وابنه الصغير هانو ، بناء على تعليماته المتكررة الصارمة ، من البساطة بحيث تتعارض بصورة مضحكة مع قاعة الطعام الفسيحة الباركية بسقفها العالي الفخم وأثاثها الفاخر المصنوع من خشب السنديان ، وقد ظل «الحلو» ممنوعاً أمداً طويلاً اللهم إلا في أيام الآحاد... وقد بقي له المظهر الأنيق كما كان ، لكن أنطون الذي خدمهم طويلاً كان يقص في المطبخ أن السناتور يبدل قميصه الأبيض كل يومين لأن الغسيل يتلف التيل كثيراً... كان يعرف أكثر من ذلك . كان يعرف أيضاً أنه تقرر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاستغناء عنه . وقد احتجت جيردا ، فإن ثلاثة من الخدم ليسوا بالكثيرين على بيت بهذا الاتساع . لكن شيئاً لم يفد مع السناتور . وقد فصل أنطون الذي ظل طويلاً يعمل له سائقاً كلّما ركب الى مجلس الشيوخ ، ومعه هدية مناسبة من المال .

كانت مثل هذه الإجراءات تتفق مع المجرى غير السار الذي كان يتخذه سير العمل . فلم يعد شيء يحس من ذلك الروح الجديد الحي الذي كان توماس بودنبروك الشاب يبثه ذات يوم في حركة متجره... وكان شريكه السيد فردريك فلهلم ماركوس الذي ماكان وهو يساهم برأس مال ضئيل ليكون له نفوذ كبير ـ كان بطبيعته ومزاجه لايتّخذ في شيء خطوة أولى .

وقد ازدادت على مر السنين حذلقة توماس وباتت مدعاة الى العجب التام . كان يحتاج الى ربع ساعة ليقص طرف سيجارته ويسقط القصاصة في كيس نقوده يمسح من خلال ذلك شاربه ويتنحنح ويرسل من الجنب نظرات مستأنية . وفي المساء حين تضيء مصابيح الغاز كل ركن في المكتب وتجعله في مثل وضح النهار ، لم يكن ينسى أن يضع على تخته شمعة سيڤرين ، وأن ينهض كل نصف ساعة ليتوجه الى دورة المياه ويرش رأسه . وذات يوم قبل الظهر كان عدل فارغ من أعدال الحبوب ملقى تحت تخته إهمالاً فحسبه قطة فحاول طردها وهو يصب على العدل اللعنات ، وموظفوه جميعاً... لا ، إنه لم يعد الرجل الذي كان خليقاً أن يتحدى خمول شريكه الآن فيتدخل في العمل مشجعاً حاثاً . وكثيراً ماكان ينتاب السناتور كما هي حاله الآن وهو يحملق بنظرته الواهنة في ظلام الصالون خجل ويعال صبره في صورة موئسة حين يتمثل حركة العمل الضعيفة وعقد الصفقات التافهة ـ تلك الحالة التي انحطت اليها شركة يوهان بودنبروك في العهد الأخير .

لكنه ألم تكن الحالة طيبة على هذه الصورة ؟ لقد كان يفكر : إن الشقاء كذلك له وقته . أفلم يكن من الحكمة أن نلتزم السكوت مادام يقوم بأنفسنا ألا نتحرك ، وأن ننتظر ونستجمع قوانا الباطنة ؟ لماذا يتقدم اليه الآن بهذا العرض ويخرجه المرء عن استسلامه الحكيم ، ويثير في نفسه الشكوك والهواجس! هل آن الأوان ؟ هل هي أمارة من الأمارات ؟ هل يقدر له التشجيع والنهوض وتسديد ضربة ؟ لقد نفى هذا التفكير بكل عزم أمكن أن يرفع به صوته . لكنه هل انتهى في الحقيقة كل شيء منذ أن انصرفت توني ؟ لا فيما يظهر ، لأنه كان يجلس هنا ويفكر فيما قالته له : «يقابل المرء مايعرض عليه بانفعال إذا لم يطمئن الى مقاومته إياه» إن توني الصغيرة هذه شيطان ماكر!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبم رد عليها ؟ لقد رد رداً طيباً وثاقباً جداً كما يذكر« إنه عمل غير نظيف... إنه يصيد في الماء العكر... واستغلال وحشي... اغتيال لأعزب... ربا...» . بديع! بيد أنه يتساءل أكانت هذه هي المناسبة التي يطلق فيها هذه الكلمات المدوية ، إن القنصل هرمان هاجنشتروم ماكان لينشدها ولا ليجدها ، فهل كان توماس بودنبروك رجل أعمال ، رجلاً لايجبن عن عمل أو مفكراً موسوساً ؟

أجل ، هنا المسألة! كانت هكذا دائماً مذ وسعه التفكير! كانت الحياة قاسية ، وكانت حركة الأعمال في مجراها الذي لايعرف اللامبالاة ولا العاطفية صورة من الحياة الكبرى ، الحياة بأسرها . فهل كان توماس بودنبروك يقف على رجليه كآبائه في الحياة العملية القاسية ؟ إنه كثيراً ماوجد من قديم الزمان داعياً للشك في ذلك... يقسو ويكابد القسوة ولايشعر بها قسوة بل شيئاً بدهياً ـ أفلن يتعلم هذا قط! .

لقد تذكر الأثر الذي خلفته كارثة سنة ١٨٦٦ في نفسه واستذكر تلك المشاعر البالغة الألم التي استولت إذ ذاك عليه . وقد فقد يومئذ مبلغاً كبيراً من المال... آه ، لم يكن هذا أفدح ماأصابه ، لكنه خبر للمرة الأولى وفي جسمه قسوة حياة العمل ووحشيتها في نطاق شامل ، هذه الحياة التي تتسلل فيها كل المشاعر الطيبة الرقيقة الودية أمام غريزة واحدة خشنة عارية متعسفة هي غريزة حفظ الذات والتي إذا أصابت المرء مصيبة لاتثير فيها عند الأصدقاء وخيرة الأصدقاء مشاطرة وعطفاً بل «سوء ظن» ، سوء ظن بارد ينطوي على النفور . أولم يعرف هذا ؟ أكان لابد أن يتعجب منه ؟ كم خجل كثيراً في ساعات خير من هذه وأقوى من أنه كان يثور في لياليه المؤرقة ويتمرد على قسوة الحياة الكريهة العديمة الخجل وقد غثت منها نفسه وجرحت جراحاً لا تلتئم .

كم كان هذا منه غباوة! وكم دعت هذه الانفعالات كل مرة الى السخرية كلما أحسها! كيف أمكن على الإطلاق أن تقوم بنفسه هذه المشاعر ؟ ذلك أنه يتساءل كرة أخرى أكان إنساناً عملياً أم حالماً عملياً رقيق الحاشية! آه ، لقد وجه الى نفسه هذا السؤال من قبل ألف مرة ، وأجاب عليه في ساعات قوية ثابتة تارة بهذا ، وتارة في أوقات مجهدة بذاك . لكنه كان في حدة الذهن والشرف بحيث لم ير في النهاية ندحة عن أن يعترف بأنه خليط من هذا وذاك . لقد قدم نفسه للناس في حياته رجلاً عاملاً ، لكنه بقدر ماكان يعتد كذلك بحق ، ألم يكنه ـ على حد قوله المختار الصادق المقتبس من جوته ـ عن تفكير واع ، لقد سجل فيما مضى نجاحاً تلو نجاح... لكن ألم يكن هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فحسب ثمرة الحماسة والهمة اللتين يدين بهما لإنعام النظر ؟ ثم وهو الآن صريع خائر القوى فيما يبدو ـ وليجعل الله هذه الحالة عابرة ـ ألم يكن هذا نتيجة محتومة لحالة التقلقل ، حالة التضارب الشاذ المهلك القائم في باطنه ؟... هل كان أبوه أو جده الأكبر يشتري محصول بوبنراده وهو مايزال في سنابله ؟ سيان! لكن الثابت أنهم كانوا عمليين ، وأنهم كانوا عمليين أكثر منه وأكمل وأقوى وأجرأ وعلى السجية!...

وتولاه قلق شديد ، واستشعر الحاجة والمكان والضوء ، فأزاح كرسيه الى الوراء وانتقل الى الصالون وأشعل عدة شعل غازية من الثريا المتدلية فوق المنضدة الوسطى . وظل واقفاً يفتل طرف شاربه الطويل في بطء ، واختلاج ، ويدير ظهره من حوله في هذه الحجرة الفخمة من دون أن يبصر شيئاً ، وكانت هذه الحجرة تشغل مع حجرة الجلوس عرض واجهة البيت بأسرها مجهزة بأثاث زاوٍ مقوس ، تحمل طابع الغرفة الموسيقية ببيانها الكبير الذي يستعمل في الحفلات ، وكانت صندوقة كمان جيردا قائمة عليه ، ومرفعها المحمل بكراسات المجسدات الموسيقية ومكتبها المحفور والرسوم البارزة التي تمثل فوق الأبواب أحبة عازفات . وكانت الخارجة مصفوفة بالنخيل .

ولبث السناتور بودنبروك واقفاً دقيقتين أو ثلاثاً لايحرك ساكناً ، ثم استجمع نفسه وعاد الى حجرة الجلوس ودخل قاعة الطعام وأضاءها كذلك ، وابتغى شيئاً عن البوفيه ، وتناول ليهدىء روعه أو يفعل شيئاً ما ، قدحاً من الماء ، ثمّ عجل بالإنتقال ويداه وراء ظهره الى مغاور البيت . وكانت غرفة التدخين مؤثثة أثاثاً قاتماً ، مبطنة الجدران بالخشب ، ففتح خزانة السيجار بصورة آلية ثم أقفلها ثانية على عجل ، ورفع على مائدة اللعب غطاء صندوقه من البلوط يحتوي على ورق لعب ومدونات وما شاكل ذلك . وأمرّ بين يديه عدداً من ماركات اللعب من العظم فانزلقت تخشخش ، ثمّ رد الغطاء واستدار مرة أخرى للذهاب .

وكان يلاصق حجرة التدخين غرفة صغيرة ذات نافذة ملونة . وكانت خالية الا من بضعة مناضد خفيفة جداً ، متداخلة يقوم فوقها صندوق للمشروبات الروحية .

وكان يلاصق حجرة التدخين غرفة صغيرة ذات نافذة ملونة . وكانت خالية إلا من بضعة مناضد خفيفة جداً ، متداخلة يقوم فوقها صندوق للمشروبات الروحية . لكنه من هذه الغرفة كان الدخول الى القاعة التي كانت تتناول بأرضيتها الباركية الفسيحة ونوافذها الأربع المسدلة الستائر حمراء بلون النبيذ والمطلة على الحديقة ، عرض البيت كله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت القاعة مؤثثة بزوج من الحيطان عالية الظهور وقورة المظهر . وكان هناك موقد تستقر خلف سياجه قطع من الفحم الكاذب تبدو كأنها تتوهج بما زودت به من شرائط من الورق اللامع الأحمر الذهبي . وعلى اللوحة الرخامية المستقرة أمام المرآة زهريتان صينيتان ضخمتان شامختان...

كان جناح الغرفة بأكمله يغمره إذ ذاك ضوء ينتشر من شعلات غازية متفرقة كأنما كان في هذه الغرف سامر ثمّ انفض وانصرف آخر ضيف فيه من هنيهة . وقد ذرع السناتور القاعة طويلاً ثم وقف بالنافذة المقابلة للغرفة الصغيرة ونظر الى الحديقة .

وكان القمر في كبد السماء صغيراً بين قطع السحاب ، والنافورة ترسل شعاع مائها في السكون السائد فيسمع خريره بين الفروع المتدلية من شجرة الجوز . وتناهى بصر توماس الى الخص الذي ينتهي عنده كل ماهنالك ، الى الشرفة الصغيرة اللامعة ببياضها والقائمة عليها المسلتان ، الى طرف الحصباء المنتظمة والحياض المستديرة المحتفرة حديثاً والمساحات الكلئة... بيد أن هذا التنسيق والتنميق الذي لاتشوبه شائبة لم يفد في تهدئته ، بل أضر به وأثاره ، فقبض على أكرة النافذة ووضع جبينه عليها وأعاد أفكاره سيرتها الأولى المعذبة .

الى أين يقدّر له المنتهى ؟ لقد تذكر ملاحظة أبداها من قبل لأخته فلمّا بدرت اعتدها سطحية الى أبعد حد فأسف عليها . لقد تكلم عن الكونت شتريلتس وعن نبلاء الريف وأعرب بهذه المناسبة في وضوح وجلاء عن رأيه في وجوب التسليم بتفوق المنتج على التاجر البسيط . فهل كان هذا صحيحاً ؟ آه ياإلهي ، لقد كان مما لايهمه على الإطلاق أن يكون هذا الرأي صحيحاً ؟ آه ، ياإلهي ، لقد كان مما لايهمه على الإطلاق أن يكون هذا الرأي صحيحاً أو لايكون! لكنه أكان عليه أن يعرب عن هذه الفكرة ، وأن ينعم فيها النظر أو تخطر له إطلاقاً ؟ أكان في مكنته أن يتصور كيف كان أبوه أو جده أو أي مواطن يقف من هذه الفكرة ويعبر عنها ؟ إن رجلاً متمكناً من مهنته لاتخالجه الشكوك ، لايعرف سوى هذه ، ولايعلم إلا هذه ، ولايقدر فكرة أخرى...

وبغتة شعر كيف صعد الدم حاراً الى رأسه وكيف احمرّ وجهه لذكرى ثانية أبعد من هذه في الماضي ، فرأى نفسه مع أخيه كريستيان في حديقة بيت شارع منج يجول معه فيها وقد شجر بينهما خلاف من تلك الخلافات التي يؤسف لها أشد الأسف... إذ ألقى كريستيان بأسلوبه المورط الذي تجفوه الرزانة على مسمع من الكثيرين بتصريح شائن حاسبه عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخوه حانقاً غاضباً ثائراً ثورة جامحة . لقد قال كريستيان أن كل تاجر في الحقيقة والواقع غشاش . كيف ؟ أكانت هذه اللهجة الوضيعة المجردة من الذوق تختلف في جوهرها كثيراً عن تلك التي أجازها من هنيهة مع أخته ؟ لقد ثار من قبل عليها واحتج وحنق... لكنه كيف كان تعبير تلك الصغيرة الماكرة توني ؟ من يغلو...

وقال السناتور فجأة بصوت مرتفع : « كلا! » ورج رأسه الى الوراء وترك أكرة النافذة وارتد عنها في احتفال ثمّ قال بالصوت المرتفع نفسه : «لقد انتهى هذا! » ثمّ تنحنح ليتجاوز ذلك الشعور الذي أحدثه له صوته الوحيد ، وتحول ، وجعل يذرع الغرف كافة مسرعاً ، غادياً رائحاً ، مطأطىء الرأس ، واضعاً يديه فوق ظهره .

وعاد يقول : «لقد انتهى هذا! لابدّ من وضع حد لهذا! إني أتصعلك إني أتردى في الحمأ! إني سأكون أكثر من كريستيان غباءً » إنه لمدعاة الى أجزل الشكر أنه لم يكن يجهل مايجري في نفسه! في يده اصلاحها! بالقول!... فلننتظر... فلننتظر... أي عرض كان ذلك الذي عرض عليه ؟ المحصول... محصول بوبنراده وهو مايزال في سنابله ؟ قال : «سأفعل! » همس بها بحمية ، وهزّ يده ماداً سبابته : «سأفعل! » .

لقد كان هذا بالضبط مايسمونه صفقة! فرصة ورأسمال يبلغ ـ كم ـ أربعين ألف مارك بكل بساطة ، فإذا ضاعفنا المبلغ بدا فيه شيء من الغلو ؟... لقد كانت هذه إهابة به وإشارة له بالنهوض! إن الأمر يتعلق ببداية ، مغامرة . والخطر الذي يرتبط بها ويترتب عليها لايعدو نفياً آخر لكل الوساوس الأدبية ، فإذا نجحت ، عاد فوقف على قدميه ، وعاد فأقدم ، وأمسك ثانية بالحظ والسلطان بين هاته الكلاليب الباطنية المرنة...

كلا ، إن هذا الصيد سيفوت السيدين شترونك وهاجنشتروم للأسف! إن في المدينة متجراً له في هذه الحالة اليد العليا بالنظر الى علاقاته الشخصية!... والشخص في الواقع هو الحاسم هنا . فليس الأمر أمر صفقة عادية تعقد في هدوء وبالصورة المألوفة . إنها أدنى الى أن تكون على نحو ماتوسطت فيها توني مسألة خاصة تقريباً تعالج بحصافة وامتنان . وكيف يمكن أن يصلح لها هرمان هاجنشتروم! كلا ، كلا . إن توماس سيفيد من الضائقة كتاجر ، وعند البيع بعد ذلك سيعرف كذلك على التحقيق كيف يفيد! وهو من ناحية أخرى سيقدم الى المالك المأزوم خدمة لايطالب بها غيره بطبيعة الصداقة القائمة بين توني ومدام فون مايبوم... فليكتب اذن... ليكتب مساء اليوم بالذات ، لا على ورق المتجر المزود باسمه ولكن على ورق الرسائل الخاصة الذي لايحمل سوى اسم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السناتور بودنبروك مطبوعاً عليه . ـ ليكتب مراعياً وليسأل أيناسبه أن يزوره في الأيام التالية! إنها مسألة شائكة على كل حال . أرض زلقة نوعاً ما يجب أن يسير المرء فوقها محاذراً رشيقاً... وهو بهذا الأمر جدير!

وازدادت خطواته سرعة ، وتنفسه عمقاً . وجلس لحظة ثمّ هب واقفاً ، وعاد يطوف بالغرف جميعاً . وأدار كل شيء في خلده مرة أخرى ففكر في السيد ماركوس وفي هرمان هاجنشتروم وكريستيان وتوني ، وتمثل المحصول الأصفر الناضج في بوبنراده يتماوج في مهب الريح ، وتخيل بوجه عام نهضة المتجر الذي يعقد هذه الصفقة وأطرح كل الهواجس غاضباً وقال وهو يهزّ يده : «سأفعل!» .

وفتحت السيدة بيرمانيدر الباب الى قاعة الطعام وصاحت : «طاب ليلك!» فرد عليها دون وعي . ودخلت جيردا التي كان كريستيان قد استأذنها في الانصراف عند باب البيت ، وفي عينيها العسليتين المتقاربتين الغريبتين ذلك البريق الغامض الذي اعتادت الموسيقى أن تكسبها إياه . فوقف السناتور أمامها بصورة آلية وسألها كذلك بهذه الصورة عن العازف الاسباني وعن حفلته الموسيقية ثمّ أكد أنه سيتوجه في الحال الى النوم .

لكنه لم يتوجه للنوم بل عاود تطوافه ، ففكر في أعدال القمح والحنطة السوداء والشوفان والشعير التي ستكون فوق أرضيات مخازن «الأسد» و«الحوت» و«البلوطة» و«الزيزفون» ، وفكر في الثمن الذي ينوي أن يعرضه ـ ثمن لن يكون بحال بخساً ، ونزل عند منتصف الليل الى المكتب مخافتاً ، ودبج على ضوء شمعة السيد ماركوس رسالة بجرة قلم ، فلمّا قرأها برأسه المحموم الثقيل بدت له خير رسالة كتبها في حياته وأحصفها .

كان هذا في ليل السابع والعشرين من مايو ، فلمّا كان النهار التالي فاتح أخته بصورة سهلة فكهة أنه درس الموضوع من كل نواحيه وأنه لن يرفض طلب السيد مايبوم ببساطة ، ويحيله على أول نشال يصادفه . وفي الثلاثين من الشهر القادم قام برحلة الى روستوك واكترى من هناك مركبة الى الريف .

كانت معنوياته طيبة في الأيام التي تلت هذه الرحلة ، ومشيته مرنة طليقة ، وسيجاره تعبر عن الارتياح ، فعاكس كلوتيده ، وضحك من قلبه على كريستيان ، وباسط توني ، ولاعب هانو في يوم الأحد ساعة كاملة في الشرفة الكائنة بالطابق الأول فساعده على رفع أعدال صغيرة من الغلال من مخزن صغير في حمرة القرميد ، وقلد في أثناء ذلك نداءات

العمال الممطوطة الجوفاء... وفي الثالث من يونيه ألقى في جلسة مجلس المواطنين خطاباً رائعاً فكهاً عن موضوع هو أبعث مايكون على السأم ، عن مسألة تتعلق بالضرائب ، فبلع من روعه خطابه وفكاهته أن أقر رأيه في كل نقطة فيه وإن كان القنصل هاجنشتروم الذي كان يعارضه ، هدفاً للضحك العام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

أكان غفلة من جانب السناتور أم تعمداً ـ فقد كان على وشك أن تفوته واقعة أذاعتها مدام بيرمانيدر ونشرتها على الملأ ، وهي المشتغلة بسجلات الأسرة أكثر ماتكون وفاءً وتفانياً . واقعة هي أن اليوم السابع من يوليه سنة ١٧٦٨ مفترض في الوثائق أنه يوم تأسيس المتجر وأن العيد المئوي لهذا اليوم قريب .

وكأنه يبدو أن توماس بودنبروك لم يشعر بارتياح لما لفتته توني الى ذلك بصوت متأثر ، ذلك أن معنوياته الحسنة لم تدم . وسرعان ماعاوده سكونه ، بل لعله أصبح أكثر سكوناً من ذي قبل . فقد كان في غمرة العمل يغادر مكتبه ليطوف بالحديقة وقد استبد به الاضطراب . أو يكف عن السير بين الحين والحين ، وكأنه أعيق أو استوقف ويستر عينيه بيده متنهداً . لم يكن يقول شيئاً أو ينطق بشيء ـ ضد من أيضاً ؟ فقد عنف السيد ماركوس لأول مرة في حياته ـ وهذا منظر مدهش ـ لما أبلغه شريكه بإيجاز عن صفقة بوبنراده ، وأبى أن يتحمل أية تبعة أو يساهم في هذا أية مساهمة . أما أخته مدام بيرمانيدر فقد كشف لها توماس عن طويته في مساء خميس في الشارع أثناء أن كان يودعها فلمح الى المحصول وهو يضغط على يدها ضغطة واحدة وجيزة ويضيف اليها متعجلاً وبصوت خافت هذه الكلمات : «آه ياتوني ، لوددت أن أبيع ثانية!» ثمّ تحول للمسير وقد قطع كلامه بغتة ، وخلف مدام أنتونيا مأخوذة مذهولة... فضغطة اليد المفاجئة هذه تنطوي على شيء من اليأس المتفجر ، وهذه الكلمة المهموسة تحتوي الكثير من الخوف المحتبس هذا الزمن الطويل... لكنه لما حاولت توني في مناسبة تالية أن تعود الى الموضوع كان هذا أدعى عنده الى اللياذ بالصمت وقد تولاه الخجل من نقطة الضعف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي أبداها لحظة وملئت نفسه مرارة من عدم صلاحيته للنهوض بالتبعة عن هذا المشروع...

وقال إذ ذاك متثاقلاً متضايقاً : «آه ياحبيبتي ، لوددت لو أمكننا أن نتجاهل هذا الأمر بكل بساطة!» .

«تتجاهله ياتوم ؟ مستحيل! لا يخطر بالبال! أتعني أنه يمكنك أن تمحو هذا الأمر الواقع ؟ أتعني بأن المدينة بأسرها يمكن أن تنسى أهمية هذا اليوم ؟» .

«إني لاأقول أن هذا ممكن ، إني أقول أنه كان أحب الي أن نقضي هذا اليوم في صمت . فالاحتفال بالماضي شيء جميل متى كان المرء في خير بالنسبة للحاضر والمستقبل... إن تذكر الآباء شيء طيب متى عرف المرء أنه متفق معهم وشعر بأنه كان دائماً يسلك مسلكهم . . ألا ليت العيد جاء في وقت أنسب من هذا الوقت . بإيجاز . . إني أجد نفسي أقل استعداداً للاحتفال بالأعياد» .

«يجب ألا تتكلم هكذا ياتوم . وأنت لاتعني أيضاً ماتقول ، وتعرف أن من العار أن تدع العيد المئوي لمتجر يوهان بودنبروك يمر بلا طبل ولازمر! إنك الآن عصبي بعض الشيء وأنا أعلم لماذا... وإن لم يكن ثمة من سبب لذلك... لكنه متى حل اليوم سوف تشعر بالغبطة التي سنحسها جميعاً...»

وكانت محقة ، فلم يكن هذا اليوم بالذي يقضى في صمت وسكون . ولم يمض طويلاً حتى كانت في صحيفة «الإعلانات» كلمة تمهيدية منشورة تبشر بسرد تاريخ هذا البيت التجاري المحترم من قديم بالتفصيل ليوم الاحتفال ـ ولم يكن الأمر بحاجة الى هذه الكلمة للفت نظر التجار المحترمين . أما مايتعلق بالأسرة فقد كان يوستوس كروجر أول من فتح في يوم الخميس موضوع الشيء المنتظر . وقد عنيت مدام بيرمانيدر بمجرد إخلاء المائدة من بقايا «الحلو» بأن توضع عليها الحافظة الجلدية المحترمة المشتملة على سجلات الأسرة باحتفال ، وأن تشتغل بالتفصيل ، كمحتفلة قبل الاحتفال ، بالمعطيات المعروفة عن حياة المرحوم يوهان بودنبروك جد هانو الأكبر من الأكبر ومؤسس المتجر ، متى أصيب بالحصبة ، ومتى بالجدري الصادق ، ومتى سقط من الطابق الثالث على الأتون ، ومتى وقع فريسة حمى حامية يتخللها هياج ، فتقرأها في وقار عليه مسحة من الدين . ولم تكن تقتنع بشيء ، فقد رجعت في القرن السادس عشر الى أكبر بودنبروك ، وكان معروفاً ، والى الذي كان عضواً في بلدية جراباو ، والى ترزي الأردية في روستوك الذي كان «من أهل اليسار»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد وضع خط تحت هذه العبارة ـ وكان له أولاد كثيرون بصورة غير عادية ، أحياء وأموات... وقد صاحت عنده : « ياله من إنسان رائع » ثمّ أخذت تتلو رسائل وتلقي أشعاراً قديمة مصفرة ممزقة...

●

كان السيد ڤنتسل ، كما هو مفهوم ، أول مهنىء في السابع من يوليه .

قال : « أجل ياحضرة السناتور ، مائة سنة » . وجعل الموسى والجلد يتحركان في يديه الحمراوين بخفة... ثمّ استأنف الكلام : « ونصف هذا العمر تقريباً ، ولأقل هذا ، كنت أحلق ذقون الأسرة الكريمة فخبرت معها أشياء ، إذ كنت على الدوام أول من يفوز بخطاب رئيس الأسرة... وكان السيد القنصل المرحوم أكثر مايكون استعداداً للكلام في الصباح ، وعندئذ كان يسألني : « ڤنتسل! مارأيك في الحنطة السوداء ؟ هل أبيع أو ترى أنها ستصعد فوق ماصعدت ؟... »

« أجل ياڤنتسل ، إني أيضاً لاأستطيع أن أفكر في كل ذلك من دونك . فمهنتك ، كما كنت أقول لك أحياناً ، فيها الكثير مما يجذب حقاً ؛ فأنت اذا انتهيت في الصباح من دورتك ، بقيت أعقل الجميع ، ذلك أنك عندئذ تكون قد وضعت رؤساء البيوت الكبرى كافة تقريباً تحت الموسى وعرفت هوى كل منهم ، ومن ثم يمكن أن يحسدك كل أحد ، لأن هذا ممتع جداً » .

« إن في هذا شيئاً من الحقيقة ياحضرة السناتور . لكنه فيما يتعلق بمعنوية السيد السناتور ، إذا جاز لي أن أقول هذا ، ... فإن حضرة السناتور في هذا الصباح شاحب اللون قليلاً ؟ »

« كذا ؟ أجل ، إني أعاني صداعاً ، وهذا لايزول سريعاً كما أتوقع ، لأني أعتقد أنهم سيشغلونني اليوم قليلاً » .

« هذا ماأعتقده أيضاً ياحضرة السناتور . فالمشاركون كثيرون ، كثيرون جداً . انظر فيما بعد ياحضرة السناتور من النافذة مرة ، فستجد الأعلام منتشرة . وتحت أمام « حفرة السماكين » ترسو « مولنيڤيفر » و« فردريكا أوڤرديك » ترفرف عليهما الرايات... »

« إذن فلتسرع ڤنتسل ، فليس لدي من الوقت ماأضيعه » .

ولم يتناول السناتور اليوم جاكتة المكتب أول ماتناول ، بل ارتدى في الحال الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سراويل ركبته الرائقة سترة سوداء مفتوحة تكشف عن صدريته البيضاء ، إذ كان ينتظر زواراً قبل الظهر وقد ألقى على نفسه نظرة أخيرة في مرآة الدورة ، وترك مقص الكي ينزلق مرة على طرفي شاربه الطويلين ، وتحول للذهاب وهو يتنهد تنهيدة مقتضبة... وبدت الحركة... فهلا انتهى هذا اليوم الآن وهو في البداية! هل يبقى وحده لحظة ؟ هل يستطيع لحظة أن يرخي أهداب وجهه ؟ استقبالات طيلة اليوم تفرض عليه أن يلاقي مائة من المهنئين حصيفاً وقوراً ، وأن يجد في كل ناحية ما ينطوي على الانتباه والظلال الملائمة من كلمات مناسبة تدل على الاحترام والجد والود ، وتنطوي على التهكم والفكاهة والتساهل والرقة... ثمّ بعد ذلك مأدبة في قبو البلدية من بعد الظهر الى هزيع من الليل...

لم يكن صحيحاً أنه كان يعاني صداعاً . فقد كان متعباً فحسب . ولم يكد سلام الصباح الباكر يولي حتى أخذ يشعر بهذا الضيق الغامض جاثماً فوق صدره... فلماذا كذب ؟... لكنه ليس الآن وقت التفكير في ذلك...

لقد دخل قاعة الطعام فأقبلت عليه جيردا نشطة . وكانت هي أيضاً ترتدي ملابس الاستقبال . كانت تلبس جونلة ملساء من قماش اسكتلندي وقميصاً أبيض وجاكته صغيرة فوقه يلائم لونها لون شعرها الغزير الداكن الحمرة . وكانت تبدو أسنانها العريضة المتناسقة باسمة ، وكانت في محياها الجميل أشد بياضاً أيضاً . وكانت عيناها تبتسمان كذلك ، هاتان العينان المتقاربتان المستسرتان العسليتان ذواتا الظلال المائلة الى الزرقة .

«لقد لبثت الى الآن ساعات أقف على قدمي وهو ماتستخلص منه كم تتملك الحماسة تهاني» .

«هاأنظري! إن السنين المائة تؤثر فيك!»

«أعمق تأثيراً... على أنه من الممكن أيضاً أن يكون الاحتفال وحده هو الذي يؤثر فيّ... فما أعظمه من يوم ، هذا اليوم على سبيل المثال» وأشارت الى مائدة الإفطار التي كانت مكللة بالأزهار المقتطفة من الحديقة وهي تقول : «هذا عمل الآنسة يونجمان... على أنك لاتخطىء إذا ظننت أن في وسعك أن تتناول الشاي الآن . ففي الصالون أهم أعضاء الأسرة ينتظرونك ومعهم هدايا بمناسبة العيد لا أخلو تماماً من المساهمة فيها... اسمع ياتوماس . هذه بطبيعة الحال بداية هرج الزيارات التي ستقع ومرجها . وسأحتمل في مبدأ الأمر ، لكنني سأنسحب عند الظهر ، هذا ما أقوله لك . إن السماء وإن هبط البارومتر قليلاً ماتزال صافية الزرقة وهو ماينسجم مع الرايات المرفوعة في المدينة بأسرها . لكن الحر سوف يكون

مخيفاً . فلتأت الآن الى هناك ولينتظر فطورك . لقد كان ينبغي أن تنهض من نومك أكثر تبكيراً . فالآن لابدّ أن يقع أول أثر على معدتك الخالية...»

والفيا في الصالون القنصلة وكريستيان وكلوتيده وايدا يونجمان ومدام بيرمانيدر وهانو . وكان الأخيران يمسكان بهدية الأسرة مجهدين بعض الشيء ، وكانت لوحة تذكارية كبيرة... فعانقت القنصلة ابنها الأكبر في تأثر عميق .

قالت : «هذا يوم جميل يا ابني العزيز...» وكرّرت : «هذا يوم جميل . إننا يجب ألا نكف أبداً عن حمد الله وشكره على آلائه كلها ، ونعمه هذه...» وبكت .

وتملك السناتور من هذه المعانقة شيء من الضعف ، فقد كان كأنما يتحلل شيء في باطنه ويزايله ، فارتعشت شفتاه ، وشعر بتخاذله في حاجته الى البقاء بين ذراعي أمه وعلى صدرها مغمض العينين ، يستشعر هذا العطر الحاني الذي ينتشر من حرير ثوبها الناعم... فقبلها ثمّ اعتدل ليمد الى أخته يده التي ضغطها أخوه بسيماه نصف المشتتة نصف المرتبكة - سيماه المعروفة عنه في الاحتفالات . وقالت كلوتيدة شيئاً ممطوطاً ودياً . أمّا مايتصل بالآنسة يونجمان فقد اجتزأت بأن تنحني انحناءة عميقة كانت يدها أثناءها تعبث بسلسلة ساعتها الفضية المتدلية من صدرها المنبسط .

وقالت مدام بيرمانيدر بصوت متهدج : «تعال ياتوم ، إننا لانستطيع أن نستبقيها بعد الآن بين أيدينا أنا وهانو» . وكانت تحمل اللوحة وحدها تقريباً ، إذ كان ذراعا هانو متخاذلتين وكانت هي من فرط الاجهاد تلوح عليها سيماء الشهيدة المغتبطة ، فكانت عيناها ثرتين ، ووجنتاها جد متوردتين ، وطرف لسانها يعبث بشفتها العليا في تعبير يجمع بين اليأس والشيطنة...

فقال السناتور : «أجل . الآن أجيء اليكما . ماهذا ؟ تعاليا! عاونا فإنّا نريد إسنادها» وأقام اللوحة بجانب البيان مسندة الى الحائط ، وظل واقفاً أمامها تحوط به أسرته .

وكان الإطار الثقيل المحفور المصنوع من خشب الجوز يضم ورقة مقواة تبدي تحت الزجاج صور أصحاب متجر يوهان بودنبروك الأربعة ، وتحت كل صورة منها الاسم والسنة مطبوعين بالذهب ، وكانت بينها صورة يوهان بودنبروك مؤسس المتجر مأخوذة عن صورة زيتية قديمة ، صورة رجل فارع ، وقور ، مسن مطبق الشفتين يجاوز يابوطه* بنظرة تتجلى

---

* حلية من المخرمات موضعها الصدر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها الصرامة وقوة الإرادة ، وكان فيها وجه يوهان بودنبروك العريض الطروب صديق چان چاك هوفشتيده ، والقنصل يوهان بودنبروك بذقنه المدسوسة في بنيقة قميصه العالي وأنفه الكبير الشديد التقوس يسلط على الرائي عينيه الذكيتين الناطقين بحميته الدينية . وأخيراً توماس بودنبروك نفسه أصغر منهم سناً بعض الشيء . وكانت سنبلة ذهبية تتبع نمطاً بعينه تتخلل الصور التي كان يصحبها رقماً ١٧٦٨ ، ١٨٦٨ مطبوعين بالذهب يلمعان ، ويجاور أحدهما الآخر منبئاً بدلالته . وكان على رأس هذا كله حكمة مكتوبة بأحرف قوطية عالية وبخط ذلك الذي أنهاها الى خلفائه ، فحواها : « يابني ، أقبل على أعمالك بالنهار ، لكن إياك أن تؤدي منها إلا مايجعلنا ننام بالليل مستريحين » .

وقف السناتور يتأمل اللوحة طويلاً ويداه وراء ظهره ، ثمّ قال فجأة في نبرة تكاد تنطق بالسخر : «نعم ، نعم . إن النوم الهادئ بالليل شيء جميل... »

ثم قال جاداً وإن تعجل في قوله قليلاً ، متجهاً الى الحاضرين جميعاً : « أشكركم من كل قلبي ياأعزائي! إن هذه لهدية جميلة جداً وذات معنى!... فما رأيكم ؟ أين نعلقها ؟ في حجرة مكتبي الخاصة ؟ »

فأجابت مدام بيرمانيدر : « أجل ياتوم ، فوق مكتبك في حجرة مكتبك الخاصة » وعانقت أخاها ثمّ سحبته الى الخارجة وأشارت له الى الخارج .

وكانت الرايات ذات اللونين ترفرف تحت سماء الصيف الشديدة الزرقة فوق البيوت جميعاً ، من شارع منج الى الميناء في انحدار حفرة السماكين . وكانت السفينتان « موليڤيفر » و« فريدريكا أوڤريدك » ترفعان الأعلام .

وقالت مدام بيرمانيدر وصوتها يهتزّ : « هكذا المدينة عن بكرة أبيها... لقد خرجت أتنزه ياتوم فألفيت آل هاجنشتروم أنفسهم يرفعون العلم! وهل يسعهم غير ذلك... لكنت خليقة أن أرجم نوافذهم لو أنهم لم يفعلوا... »

فابتسم ، وعادت به تسحبه الى الحجرة الى جوار المائدة .

« هنا برقيات ياتوم... والأولى شخصية طبعاً من أعضاء الأسرة في الخارج . أما ماجاء من أصدقاء العمل فيذهب الى المكتب... »

وفضّا بضع برقيات واردة من المقيمين في هامبورج وفرانكفورت ومن السيد أرنولدسن وأهله في أمستردام ، ومن يرجن كروجر في ويزمار... بغتة احمر وجه مدام بيرمانيدر احمراراً شديداً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقالت وهي تدفع الى أخيها ببرقية فضّتها : «إنه في نوعه رجل طيب» . وكانت البرقية ممضاة : بيرمانيدر .

وقال السناتور : «لكن الوقت يمر» وأطلق غطاء ساعته . ثمّ استطرد يقول : «أريد شاياً فهل تشاركونني ؟ إن البيت سيكون فيما بعد كبرج الحمام» .

فاستوقفته زوجه التي أومأت اليه :

«لحظة ياتوماس... إنك تعلم أن هانو يجب أن يذهب من فوره الى درسه الخاص... وهو يود أن ينشد لك قصيدة... تعال ياهانو! كأن ليس أحداً هنا . فلا تضطرب!»

وكان على يوهان الصغير أن يتلقى أثناء العطلة ـ فالعطلة الصيفية في يوليه ـ درساً خاصاً في الحساب ، ليستطيع اللحاق بفصله في هذه المادة . ففي مكان ما من ضاحية القديس جرترود وفي حجرة صغيرة شديدة الحر تتصاعد منها رائحة غير طيبة كان ينتظره رجل ذو لحية حمراء وأظافر قذرة ، ليدربه على جدول الضرب العسير . لكنه كان عليه أن يلقي على أبيه الشعر قبل ذلك . وكان قصيدة استظهرها بعناية على ايدا في الشرفة الواقعة في الطابق الثاني...

فاستند الى البيان مرتدياً زي بحارة كوبنهاجن ذا البنيقة التيلية العريضة وحاشية الرقبة البيضاء ، وعقدة البحار السميكة البارزة من تحت البنيقة . وقد شبك ساقيه الرقيقتين وأمال رأسه والجزء الأعلى من جسمه قليلاً متخذاً وضعاً بادي الظرف يشوبه تهيب وعدم وعي . وكان شعره الطويل قد قص من أسبوعين أو ثلاثة مضت ، ذلك أن معلميه لا رفاقه وحدهم ، كانوا يتندرون عليه في المدرسة . لكن هذا الشعر كان مايزال فوق رأسه خصلاً غزيرة ناعمة ينمو فوق سالفيه وعلى جبينه الرقيق نمواً عميقاً . وقد أرخى جفونه وأسبل أهدابه العسلية الطويلة فوق تظليل عينيه الضارب الى الزرقة ، وكانت شفتاه المطبقتان مزمومتين بعض الشيء .

كان يعلم ماسيحدث فلن تكون له ندحة عن البكاء ولن يستطيع الانتهاء من قصيدته قبل البكاء ، وهي قصيدة ينقبض منها قلب المرء وينكمش كما ينكمش الأرغن في يوم الأحد في كنيسة مريم تحت يد السيد بغيل العازف عليه ليؤدي لحناً رهيباً نافذاً... البكاء الذي ينخرط فيه كلما طلب اليه أن يظهر ماعنده وكلما امتحن وامتحنت جدارته وحضور ذهنه على نحو مايحب أبوه . فليت أمه لم تذكر شيئاً عن الاضطراب! لقد كان القصد تشجيعه ، لكن هذا التشجيع لم يتم كما أحس هو ، فهناك من يقف ينظر اليه ، يخشى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتوقع أن ينخرط في البكاء ... فهل كان ممكناً ألا يبكي ؟ لقد رفع أهدابه ينشد عيني ايدا التي كانت تعبث بسلسلة ساعتها ، وتومىء اليه برأسها على طريقتها الصالحة القاسية . وقد داخلته حاجة ماسة الى الالتصاق بها وحملها على الإنصراف به فلا يسمع سوى صوتها العميق المهدىء يقول له : «هدىء روعك ياهانو ياصغيري ، فلا حاجة بك الى الإلقاء » .

وقال السناتور بلهجة موجزة : «والآن يابني اسمعنا!» وكان قد جلس فوق كرسي ساند الى المائدة ينتظر ـ لم يبتسم مطلقاً . وهو اليوم أقل ابتساماً من مألوفه في المناسبات المماثلة . كان يقيس قامة يوهان الصغير بنظرة فاحصة كانت الى ذلك جامدة ، متسمة بالجد يرفع فيها أحد حاجبيه .

فاعتدل هانو ، ومسح بيده على خشب البيانو اللامع من الدهان ، وأجال نظرة هيابة في الحاضرين ، ثمّ تشجع قليلاً بنظرة عطوف أضاءت له من عيني جدته وعمته توني فقال بصوت خافت قاس بعض الشيء : «أغنية الراعي في يوم الأحد... لاولند » .

فصاح السناتور : «أوه ياعزيزي ، ماهكذا يكون المسلك ، لايلتصق المرء هناك بالبيانو ويشبك يديه فوق بطنه... قف على سجيتك! وتكلم على طبيعتك! فهذا أول ماتفعل . تعال هنا! قف بين الستائر! ارفع رأسك وأرخ ذراعيك في راحة...»

ووقف هانو على عتبة حجرة الجلوس وأرخى ذراعيه ، ورفع رأسه صادعاً بالأمر ، لكنه ظل مسبلاً أهدابه إلى حد أنه لم ير من عينيه شيء . ولعلهما كانتا مغرورقتين بالدموع .

قال في خفوت : «هذا يوم الرب» بينما رن صوت أبيه قوياً وهو يقاطعه قائلاً : «إن المرء يابنط يبدأ محاضرته بانحناءة! ثم رفع صوته أكثر من ذلك كثيراً . مرة أخرى أرجوك! أغنية الراعي في يوم الأحد...»

كانت هذه قسوة ، فالسناتور يعلم جيداً أنه يسلب الطفل بهذا ، البقية الباقية من ثباته وقوة مقاومته . لكن الصغير كان ينبغي ألا يدع أباه يسلبه هذا أو يربكه ، كان ينبغي أن يثبت وأن يكون رجلاً... فأعاد في عناد متشجعاً : أغنية الراعي في يوم الأحد...

لم يكن في هانو غناء فقد كان يطأطىء رأسه فوق صدره وكانت يمناه الصغيرة وهي تطل شاحبة مزرقة الشرايين من أكمام البحارة الضيقة كل الضيق في أسفل والمطرزة بمرساة ـ كانت تجذب في تشنج ديباج الستائر المزركش . وقد قال بعد ذلك : «إني وحدي فوق المرج الرحيب» . ثمّ كف نهائياً . وانتقلت اليه روح الشعر الحزين فكان من رثائه الشديد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنفسه أن احتبس صوته كل الاحتباس وأن تفجر الدمع من بين جفونه من دون أن يغالبه . وتملكه الشوق فجأة الى ليالٍ بعينها كان فيها مريضاً طريح الفراش يعاني ألماً في الزور وحمى خفيفة ، فكانت ايدا تأتي لتعطيه ما يتجرعه ولتضع على جبينه كمادة مرطبة . وانحنى جانباً ، واعتمد رأسه فوق اليد التي يمسك بها الستارة وانتحب .

فقال السناتور في قسوة وانفعال : «هذا شيء يغم!» ونهض ، ثم عاد يستأنف الكلام ويقول : «ماذا يبكيك ؟ إن البكاء يمكن أن يكون على أنك في يوم كهذا لاتبدي همة لتوليني سروراً . فهل تراك فتاة صغيرة ؟ ماذا يكون منك إذا ما استمررت في مخاطبة الناس ؟...»

وفكر هانو يائساً وقال لنفسه : أبداً . لن أخاطب الناس أبداً!

وختم السناتور بقوله : «فكّر في هذا الأمر الى مابعد ظهر اليوم!» وبينما كانت ايدا يونجمان تركع عند ربيبها ، وتجفف له دمعه ، وتواسيه نصف لائمة ونصف حانية انتقل السناتور الى غرفة الطعام .

وإذ يتناول طعام إفطاره في عجلة استأذنته في الإنصراف كل من القنصلة وتوني وكلوتيده وكريستيان . وكان المقرر أن يتناولوا اليوم طعام الغداء هنا عند جيردا مع آل كروجر وڤاينشنك وسيدات بودنبروك بينما يكون السناتور خلال ذلك ، إن خيراً وإن شراً ، في المأدبة التي تقام في قبو البلدية . لكنه اعتزم البقاء هناك إذ فقد الأمل في ملاقاة الأسرة في بيته مساءً .

ورشف الشاي على المائدة المزدانة بالأكاليل من طبق القدح ، وأكل البيض متعجلاً ، وسحب وهو يهبط الدرج بضعة أنفاس من سيجارته . وجاء جروبليبن من مرج الحديقة الى الردهة الأمامية متلفعاً بشاله الصوفي حول عنقه في هذا الوقت من الصيف ، خالعاً حذاءه ذا الرقبة فوق ساعده الأيسر ممسكاً في يمناه بصندوق «المسح» تتعلق بأنفه قطرة ،مسترسلة ، جاء يتقدم من سيده في أسفل الدرج الرئيس حيث يحتل الدب البني المنتصب مكانه حاملاً صحفة بطاقات الزيارة...

قال : «نعم ياحضرة السناتور مائة عام... وواحد فقير والآخر غني...»

فأجابه السناتور : «حسن ياجروبليين ، كل شيء بخير!» وألقى في يده التي تحمل صندوق المسح بقطعة من النقود ، وعبر الردهة الى مكتب الاستقبال المجاور لها . وجاء الصراف في المكتب الكبير ليقدم له في عبارات مختارة تهاني السناتور بكلمتين واتجه الى

مكانه عند النافذة . لكنه ماأن شرع يلقي نظرة على الصحف المستعرضة أمامه ويفض البريد حتى دق الباب المؤدي الى الردهة الأمامية وظهر المهنئون .

كانوا وفداً من عمال المخازن مؤلفاً من ستة رجال ، دخلوا منفرجي السيقان ، متثاقلين كالدببة ، تتدلى زوايا أفواههم الى أسفل في اخلاص عظيم ، ويديرون قبعاتهم في أيديهم . وبصق متكلمهم عصارة تبغه الممضوغ فوق أرض الغرفة ، ورفع سراويله المرخاة ، وتكلم بصوت وحشي في تأثره قائلاً : «مائة سنة ومئات أخرى من السنين» . فمنّاهم بعلاوة كبيرة عن هذا الاسبوع وصرفهم .

وجاء موظفو الضرائب ليهنئوا رئيسهم باسم المصلحة ، فلما خرجوا التقوا بالباب بعدد من البحارة يقودهم اثنان من موظفي الضرائب ، موفدين من السفينتين «موليڤيفر» و«فريدريكا أوڤرديك» التابعين لشركة بناء السفن والراسيتين إذ ذاك في الميناء . وجاء وفد حمالي الحبوب بقمصانهم السود وسراويلهم التي تنتهي عند الركبة وقبعاتهم العالية ، وكان من بينهم بعض المواطنين . وظهر المعلم الخياط شتوت القاطن في شارع صناع الأجراس يرتدي سترة سوداء فوق قميصه الصوفي . وهنأ هذا الجار او ذاك وقدم بائع الأزهار ايڤرسن تهانيه . وجاء ساعي بريد شيخ أبيض اللحية في أذنيه قرطان ، وله عينان رمدتان ، مضحك أصيل ، اعتاد السناتور في أيام الرخاء أن يخاطبه في الشارع ويناديه بياحضرة باشمأمور البريد . جاء يصيح بالباب : «ليس من أجل ذلك يا حضرة السناتور . لم آت من أجل ذلك . إن الناس ينبئون بعضهم بعضاً أن هنا شيئاً يهدى الى الجميع... لكنّي لم آت من أجل ذلك...!» . لكنه مع هذا تلقى قطعة من النقود شاكراً... وهكذا لم تعرف هذه الحالة نهاية . فلمّا أوشكت الساعة على منتصف الحادية عشرة أعلن الخادم أن قرينة السناتور تستقبل في الصالون أول الضيوف .

فغادر توماس بودنبروك المكتب وبادر الى الدرج الكبير . وهناك عند مدخل الصالون مكث نصف دقيقة أمام المرآة يصلح ربطة رقبته ويستنشق لحظة عبير ماء الكولونيا من منديله . وكان شاحب اللون يتصبب جسمه عرقاً لكن يديه وقدميه كانت باردة . فقد أجهدته استقبالات المكتب أو كادت . ثمّ تنفس الصعداء ، ودخل الحجرة الدافئة بأشعة الشمس ليحيي القنصل هونيوس تاجر الخشب الكبير وصاحب الخمسة ملايين وقرينته وابنته وقرينها السيد السناتور الدكتور جيزيكه . وقد جاء السادة والسيدات معاً من تراڤيمنده حيث قضوا شهر يوليو كالعديد من الأسر الكبيرة التي قطعت استشفاءها في الحمامات تكريماً لعيد متجر بودنبروك المئوي دون غيره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما كادت المقاعد الرائقة المقوسة الموزعة تحتويهم بضع دقائق حتى أقبل القنصل أوفرديك ابن المحافظ المتوفى ومعه زوجه التي تنتمي الى أسرة كستنماكر ولمّا استأذن القنصل هونيوس في الانصراف أقبل أخوه وكان مايمتلكه يقل مليوناً عمّا يمتلكه هو لكنه يعوضه من ذلك أنه سناتور .

وافتتح الحفل الآن فكان الباب الكبير الذي تعلوه صورة بارزة تمثل محبات عازفات لايبقى لحظة مقفلاً ، فهو يتيح على الدوام النظر الى بئر السلم الذي يغمره الضوء الساقط والى الدرج الكبير نفسه الذي لم يكن الضيوف يصعدونه ويهبطونه . لكنه لما كان الصالون رحباً وكانت الجماعات التي تتكون يربطها الحديث فقد كان الآتون أكثر عدداً بكثير من الذاهبين ، فلم يلبث القوم أن تجاوزوا الصالون فلم يعودوا يقتصرون عليه بل أزالت الخادم مايعوق الفتح والإقفال وتركت الباب مفتوحاً . وجعل الضيوف يقفون أيضاً في الطرقة الباركية ويؤلفون الحلقات : حديث رنان مدوٍ تتعالى به أصوات النساء والرجال ومصافحات ،وانحناءات ومزاح وضحك عالٍ مرح يتصاعد بين أعمدة بئر السلم ويرتد من السقف . من ذلك القرص الزجاجي الذي يسقط منه الضوء .

والسناتور بودنبروك يتلقى أثناء ذلك تارة على رأس الدرج وتارة على عتبة الخارجة مايتمتم به الضيف في وقار واحتفال ومايصدر عن القلب من تهان . وقد استقبل المحافظ الدكتور لانجهالز من الجميع بالإجلال والاحترام . وهو رجل ربعة وجيه ، يخفي ذقنه الحليقة في ربطة رقبته البيضاء ، له لحية عارضية شيباء قصيرة ونظرة الدبيلوماسي المتعبة . وقد حضر القنصل ادوارد كستنماكر تاجر النبيذ تصحبه قرينته وهي من أسرة مولندروف كما حضر أخوه وشريكه ستيفان أوفى نصير وصديق للسناتور بودنبروك ومعه زوجته وهي ابنة أحد ملاك الأراضي وسيدة تستمتع بصحة سابغة . وكانت أرملة السناتور مولندروف تتربع في الصالون وسط الأريكة حين وصل ابنها القنصل أوجست مولندروف وجعلا يطوفان محيين وسط المجتمعين . وقد وجد القنصل هرمان هاجنشتروم لجسمه الضخم متكئاً على درابزين الدرج وجعل يتحدث مع السيد السناتور الدكتور كريمر مدير البوليس وهو يتنفس في شيء من العناء ويخرج من أنفه المفلطح المستقر فوق شفته العليا زفير ينفذ الى لحيته المحمرة . وكانت لحية مدير البوليس العارضية تحف بوجه يبتسم في شيء بعينه من المكر الخفيف وقد اختلط كستناؤها بالمشيب . وكان هناك وكيل النائب العام الدكتور موريتس هاجنشتروم يبتسم في مكان ما ويبدي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسنانه الحادة الفالجة ، وكانت زوجته الجميلة حاضرة بالمثل وهي من هامبورج من أسرة بوتفاركن . ويشهد الناس لحظة كيف يمسك الدكتور جرابو والعجوز بيد السناتور بودنبروك اليمنى في كلتا يديه ليزحزحه على الأثر المهندس المعماري فويجت . ويصعد القسيس برنجزهايم الدرج في ثيابه المدنية لايدل على وظيفته إلا طول سترته ، باسطاً ذراعيه يتجلى وجهه كل التجلي . كذلك حضر فردريك ڤلهلم ماركوس ، وظهر أولئك السادة الذين ينتمون الى هيئة من الهيئات كمجلس الشيوخ ومجلس المواطنين والغرفة التجارية مرتدين الفراك ـ وانتصفت الثانية عشرة فاشتدّت الحرارة كثيراً وكانت ربة البيت قد انسحبت من ربع ساعة مضت...

وبغتة علا من أسفل الدار عند الصفة وقع أقدام متثاقلة جارفة . كان أناساً عديدون يدخلون الردهة دفعة واحدة ، وعلا في الوقت نفسه صخب ملأ البيت بأسره . فاندفع الجميع الى الدرابزين وتجمعوا في الطرقة ينسابون من الأبواب الى الصالون الى قاعة الطعام وحجرة التدخين وجعلوا يطلون . فإذا تحت جماعة قوامها عدد يتراوح بين خمسة عشر وعشرين رجلاً تنظم نفسها وتحمل الآلات الموسيقية تحت إمرة سيد يحمل عارية شعر كستنائية ولحية شيباء مما يطلق الملاحون وطاقم أسنان صناعية عريضة صفراء يكشر عنها وهو يرفع صوته بالكلام... فماذا هناك ؟ إن القنصل دولمان يدخل مع جوقة مسرح المدينة ويصعد السلم مزهواً تلوح يده برزمة من المناهج!

وبدأت الجوقة التي جلبت الى بيت بودنبروك في عيده المئوي وجعلت الأصوات في علم السماع الغريب هذا ، المتجاوز الحدود تلتهم بعضها بعضاً ويجانبها كل معنى وتتصادم فيه النغمات ويطغىٰ نفير الناقور الواطىء المقرقر الذي ينفخ فيه رجل بدين يعبر وجهه عن غاية الجهد ويتسلط على كل ماعداه . وبدأت الجوقة بالمجموعة تنشد «اشكروا الله جميعاً!» ثمّ تلا ذلك تلخيص «هيلانة الجميلة» لأوفنباخ ليتبعه قبل كل شيء كشكول من الأغاني الشعبية... إلا أنه لمنهاج يكاد يكون جامعاً .

من وحي خاطر دولمان! ويهنئون القنصل ولا يفكر أحد في الانصراف قبل انتهاء الحفلة الموسيقية . ويقفون أو يجلسون في الصالون وفي الطرقة يسمعون ويتحدثون .

ويرابط توماس بودنبروك مع ستيفان كستنماكر والسناتور الدكتور جيزيكه والمهندس المعماري فويجت على الجانب الآخر من الدرج الكبير عند الباب الخارجي المؤدي الى غرفة التدخين غير بعيد من مصعد الطابق الثاني . وكان يقف مستنداً الى الحائط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يلقي هنا وههنا بكلمة في حديث جماعته ويتجاوز الفضاء فيما خلا ذلك ببصره صامتاً عبر الدرابزين . وقد اشتد الحر فوق ماكان وازداد إرهاقه .

بيد أن سقوط المطر لم يكن مستبعداً إذ ذاك لأنه كانت هناك سحب تلبد السماء ويستدل عليها من الظلال التي كانت تمر فوق مسقط النور . أجل إن هذه الظلال كانت كثيرة تتعاقب بسرعة بلغ منها أن إضاءة بئر السلم كانت في النهاية تؤلم العين لتبدلها واختلاجها من دون انقطاع . ففي لحظة ينطفىء لمعان الجص المذهب والثريا النحاسية والأدوات الموسيقية في أسفل الدار ليعود اليها بريقها في اللحظة التالية . وتلبث الظل مرة أطول قليلاً من المعتاد فسمع نقر خفيف وتساقط على فترات طويلة خمس أو ست أو سبع مرات شيء جامد فوق قرص مسقط النور : بضع حبات من البرد بلا شك ، ثمّ غمر البيت ضوء الشمس ثانية من فوق الى تحت .

وطرأت حالة من الانقباض يرهقنا فيها ضيق منهك . بليد ، صامت ، ويسخطنا في الظروف العادية ويثير رد فعل سليماً لهذا السخط... وهكذا تضايق توماس من مسلك يوهان الصغير وتضايق من المشاعر التي بعثها فيه هذا الاحتفال بأكمله وعلى الأكثر تلك التي أحس أنه غير كفء لها مهما أراد . وقد حاول مرات أن يستجمع نفسه ويجلو نظرته ويقول أن هذا يوم جميل يجب أن يقضيه في نفسية عالية فرحة . لكنه على الرغم من أن ضجيج الآلات الموسيقية واختلاط الأصوات ومنظر الكثيرين كان يرج أعصابه ويثير في نفسه مع ذكرى الماضي وتذكر أبيه تأثراً راهناً ، فقد رجح عنده أثر المضحك والمؤلم الذي علق بكل شيء ، على تلك الموسيقى المؤذية للسمع وهذا المجتمع الرخيص الذي لا يحلو له الكلام إلا عن السباق والولائم... وهذا المزيج من التأثر والنفور هو بالذات مامناه بحالة من اليأس الواهن .

وفي الساعة الثانية عشرة والربع لما أخذ منهاج الجوقة الموسيقية التابعة لمسرح المدينة يشارف النهاية وقع حادث لم يمس المظهر الاحتفالي السائد بحال من الأحوال أو يقطعه ، لكن لصبغته التجارية أجبر رب البيت على التخلف عن ضيوفه دقائق وجيزة . فقد جاء أصغر تلاميذ المكتب سناً يصعد الدرج الأكبر ، في وقت كانت الموسيقى فيه تستريح ، وحابل السادة الكثيرين يختلط بنابلهم ، وكان شخصاً ضئيلاً غير نام يحمل رأسه الخجول غائصاً بين كتفيه إلى أعمق مما ينبغي ويغلو في تطويح ذارعيه الطويلتين النحيلتين بصورة غير طبيعية ليصطنع منظر الكسول الواثق بنفسه ، ويحمل في اليد الأخرى ورقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطوية يمد بها يده . وكانت برقية . وكان وهو يصعد الدرج يجيل نظراته الهيابة فيما حوله يفتش عن رئيسه ، فلما اكتشفه فوق هناك ، انساب بين الضيوف الذين كانوا يعترضون طريقه وهو يتمتم باعتذاراته على عجل .

ولم يكن ثمة داعٍ لخجله إذ أن أحداً لم يعره التفاتاً ، بل كان الضيوف ماضين في أحاديثهم من دون أن يشملوه بنظرة ، يفسحون له الطريق بحركة بسيطة ويكادون لايلحظون بالنظرة العابرة أنه أسلم السناتور بودنبروك برقية في انحناءة ، وأن السناتور ابتعد على الأثر عن كستنماكر وجيزيكه وفويجت ليقرأ مافيها . ومع أن معظم البرقيات لم تكن تعدوا التهاني ، فإنه كان لزاماً في ذلك الحين أيضاً أن تسلم كل برقية ترد في أثناء مواعيد العمل في الحال كائنة ما كانت الظروف .

وكانت الطرقة تؤلف عند مصعد الطابق الثاني حنية لتمتد في الإتجاه الطولي للقاعة الى درج الخدم حيث يؤدي الى القاعة مدخل جانبي ، وكانت هناك تجاه الدرج الصاعد الى الطابق الثاني فتحة مسقط الجهاز الذي يرفع به الطعام من المطبخ ، وعند هذه الفتحة مائدة كبيرة بعض الشيء مستندة الى الحائط اعتادت الخدم أن تلمع عليها الأدوات الفضية . وهنا وقف السناتور وفضّ البرقية مديراً للتلميذ الأحدب ظهره .

وبغتة اتسعت عيناه الى حد أن كل من رآه أجفل مذعوراً ، وتنفّس وهو يرتج ارتجاجة تشنجية واحدة مقتضبة شاهقاً شهقة بلغ من عنفها أن جف حلقه وجعل يسعل .

وقد وسعه أن يقول : « خير » لكن صخب الأصوات من خلفه لم يدع أحداً يفهمه . وأعادها فكان نصفها مسموعاً وكان نصفها الآخر همساً .

ولمّا لم يتحرك السناتور ، ولم يلتفت ، ولم يأت بحركة واحدة الى الوراء ذات دلالة ، ظلّ الأحدب واقفاً لحظة يترنح مضطرباً متردداً ينقل قدماً بعد قدم ، ثمّ انحنى انحناءته الغريبة كرّة أخرى وهبط درج الخدم .

ولبث السناتور بودنبروك واقفاً بالمائدة ، ويداه اللتان تمسكان بالبرقية المطوية مرتخيتان أمامه ، يتنفس تنفساً سريعاً مقتضباً مجهداً فاتحاً فمه نصف فتحة ، مطوحاً جسمه الأعلى ، هازاً رأسه بلا انقطاع ذات اليمين وذات الشمال من دون وعي وكأنه أصيب بضربة . كان يكرر بلا معنى : « هذا البرد القليل ... هذا البرد القليل... » ثم بات تنفسه أعمق وأكثر راحة ، وحركة جسمه أبطأ وغشى على عينيه نصف المغمضتين تعبير ينم عن التعب يكاد لم يتم . ثمّ استدار جانباً في إيماءة مثقلة من رأسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفتح الباب المؤدي الى القاعة ودخلها ، وسار متئداً مطأطىء الرأس فوق الأرضية اللامعة في المكان الفسيح ، واتّخذ مجلسه هناك الى الخلف فوق أريكة الركن الداكنة الحمرة عند النافذة . وكان السكون مخيماً في ذلك الركن والجو بليلاً يسمع فيه خرير ماء النافورة في الحديقة وطنين ذبابة تصطدم بزجاج النافذة . ولاينفذ اليه سوى لغط مكتوم آتٍ من الردهة .

فألقى رأسه منهوكاً فوق الحشية وأغمض عينيه وجعل يتمتم بصوت بين الخافت والمرتفع : «خير هكذا ، خير هكذا!» ثمّ تنفس الصعداء مرتاحاً وقد زايله مايضايقه وكرر مرة أخرى : «خير جدا هكذا!» واستراح خمس دقائق ارتخى فيها جسمه وانتشر السلام على وجهه . ثمّ نهض وطوى البرقية ودسها في جيب الصدر من سترته وانتصب قائماً ليعود الى ضيفه .

لكنه عاد فارتمى في نفس اللحظة ثانية على الحشايا وهو يئن من الغثيان... وكانت الموسيقى قد عاودت العزف في ضجيج ممجوج أريد له أن يمثل الركض حددت فيه الطبلة والصنج إيقاعاً لم تتابعه بقية الأدوات الصوتية المتداخلة سرعة أو بطئاً . فكان مزيجاً لجوجاً مثيراً لايحتمل في جرأته الساذجة وخليطاً من القرقرة والنعير والقعقعة يشقه صفير الناي الصغير الجنوني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

وصاح السيد ادموند بفيل عازف الأرغن في كنيسة العذراء مريم وهو يخترق الصالون ،
حركة كبيرة : «باخ! سيباستيان باخ!» بينما جيردا تجلس باسمة الى البيان تعتمد رأسـ
في يدها ، وهانو ينصت فوق كرسي ويحيط إحدى ركبتيه بكلتا يديه . . « إنه بالتأكيد كَ
تقولين ... لقد كتب النصر للهارموني على الطباق... لقد أنتج الهارمونية الحديثة بالتأكيـ
ولكن بِمَ ؟ أيجب أن أقول لك بِمَ ؟ بالتطوير المستمر للأسلوب الطباقي ـ وأنت تعرفين هـ
كما أعرفه . فماذا كان إذن المبدأ الباعث على هذا التطور ؟ الهارمونية ؟ كلا ، ليست هـ
بحال من الأحوال . ولكن الطباقية ياسيدتي المحترمة! الطباقية!... إني أسألك ، الى أي شـ
أدت التجارب المطلقة للهارمونية ؟ إني أحذر... فما دام لساني طوع يميني فإني أحذر مـ
التجارب المجردة للهارمونيه! » .

كان السيد بفيل ملحوظ النشاط في مثل هذه الأحاديث ، وكان نشاطه يشق
الطريق ، لأنه يشعر بأنه بين أهله في هذا الصالون ، ففي كل أربعاء بعد الظهر يظهر عـ
العتبة بقامته المديدة وبنيته القوية وكتفيه المرتفعين ، يرتدي سترة بنية يغطي حجرها طا
ركبتيه ، يفتح بيان بيشستاين في لهفة في انتظار رفيقته ، ويصلح أوتار الكمان على الحا
الخشبية المحفورة ، ثم يأخذ لحظة في تقاسيم خفيفة عامرة بالفن مائلاً برأسه من كتف اا
كتف راضياً .

ويبدو رأسه ، بشعره الغزير المدهش ، وتعدد خصله الصغيرة الكستنائية الثابـ
المحيرة التي وخطها الشيب ، ضخماً ، ثقيلاً في صورة غير مألوفة ، وإن قام طليقاً فوق رقـ
مديدة مزودة بعقدة حنجرة ضخمة تطل من بنيقة منطبقة كما يبرز من وجهه شاربه الكـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير المزين في لونه شعر رأسه ، الى أبعد من أنفه الصغير المدكوك... وكان جلده منتفخاً قليلاً كالأكياس من تحت عينيه المستديرتين العسليتين البراقتين اللتين تبديان نظرة حالمة تخترق الأشياء أثناء العزف وتخيلان استقراراً في الجانب الآخر من ظاهرتهما... ولم يكن االوجه شيئاً مذكوراً ، فليس يحمل في الأقل طابع الذكاء الحاد اليقظ . . وكانت جفونه في الغالب نصف مرخاة ، وكثيراً ماكانت ذقنه الحليقة متدلية لاتنم عن إرادة ، ولاتفتر في تدليها شفته السفلى عن العليا ، فكان بهذا يكسب فمه تعبيراً رخواً ، صامتاً ، ينطوي على الغباء والاستسلام كذلك التعبير الذي يبديه النعسان المسغرق في النوم...

هذا الى ان صرامة خلقه ووقاره كانا يتباينان تبايناً غريباً مع هذه الرخاوة في مظهره ، فقد كان ادموند بفيل عازف أرغن سامي القدر ، وكانت سمعة علمه الطباقي تتجاوز جدران مدينة آبائه . فقد أوصيَ في معهدين أو ثلاثة معاهد موسيقية بدراسة كتابه الصغير الذي ألفه عن الألحان الكنسية وطبعه ، دراسة خاصة ، وكانت مؤلفاته في التسلسل ، وموضوعاته الكورالية تعزف حيثما رن أرغن يمجد الله . وكانت هذه المؤلفات وكذلك التقاسيم التي عزفها في كنيسة مريم مستساغة لا غبار عليها ، مفعمة بوقار المقطع الصادر ، ذلك الوقار الثابت المؤثر الأدبي المنطقي . وقد كانت ماهية هذه التآليف تغاير كل الجمال الأرضي . وماكانت تعبّر عنه لم يكن يمس شعوراً انسانياً بحتاً لأي علماني ، بل كان يصدر عنها ويسودها فن ومقدرة ارتفعت الى مرتبة الهدف النهائي والقداسة المطلقة . حقاً إن أدموند بفيل لايقيم وزناً لامتاع الاسلوب ولايتحدث عن جمال التنغيم بحماسة . لكنه مهما يكن من غرابة هذا فإنه لم يكن مع ذلك إنساناً جامداً ولا رفيقاً أنانياً . .«بالسترينا» قالها بلهجة قاطعة مخيفة . لكنه وهو يعزف إثر ذلك على الآلة طائفة من القطع الفنية القديمة ، كان وجهه يعبر عن التأثر والأخذ والهيام المحض كأنما يجد فيما يوديه الضرورة القصوى لكل شيء وكأنما تستشرف نظرته الى آماد قدسية... نظرة الموسيقي التي تبدو غامضة جوفاء لأنها تستقر في ملكوت منطق أعمق وأنقى وألزم وأطهر من حيز معان وأفكار نعبر عنها بالكلام .

كانت يداه كبيرتين رخوتين مجردتين فيما يبدو من العظم يعلوها النمش ، وكان الصوت الذي حيّا به جيردا بودنبروك إذ يقول : «خادمك ياسيدتي المحترمة!» ناعماً أجوف كأنما احتبست في قصبة طعامه لقمة ، وذلك حين أزاحت الستائر ودخلت عليه من حجرة الجلوس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبينما كان ينهض قليلاً من كرسيه وينحني باحترام على اليد التي مدتها إليه ضغط بيده اليسرى على مفاتيح البيان فرنت ثابتة جلية ، فتناولت جيردا كمانها الستراديڤاري على الأثر واصلحت الأوتار بسرعة واذن صاغية .

« كونشيرتو من مقام صول صغير لباخ ياسيد بفيل . يخيل الي أن الأمهل كله كان يجري ناقصاً تقريباً... »

ودق عازف الأرغن . لكنه ماأن تكاد الأصوات الأولى تتتابع حتى يفتح الباب المؤدي الى الطرقة في رفق وحذر تام ويتسلل يوهان الصغير فوق السجادة في احتراس وسكون الى مقعد ساند ، فيجلس هناك ويحيط ركبتيه بكلتا يديه ويلزم الصمت مصغياً الى العزف كما يصغي لما يقال .

وسألته جيردا في إحدى فترات الاستراحة : «أتراك تسر يا هانو بشيء من الموسيقى ؟ » ووجهت اليه عينيها المتقاربتين الظليلتين اللتين ألهب العزف فيهما لمعاناً بليلاً فنهض على الأثر ومد يده في انحناءة صامتة الى السيد بفيل الذي مسح على شعرها الكستنائي الرائق مترفقاً حانياً وكان لاصقاً بجبينه وسالفيه ناعماً لطيفاً .

وقال له السيد بفيل في نبرة رثيفة : «استمع يا بني ولاتتحرج!» فتأمل الطفل متهيباً بعض الشيء عقدة حنجرة العازف التي كانت تند عند الكلام فتقفز الى أعلى ثم عاد الى مكانه مخافتاً مسرعاً كأنما أزف وقت متابعة العزف ومواصلة الكلام .

وأدى مقطع من هايدن وبضع صفحات من موتسارت وسوناتا من بيتهوفن ثم حدثت مع ذلك أثناء أن كانت جيردا تحضر ، وكمانها تحت ذراعها ، بضع مجسدات ـ حدثت مفاجأة هي أن السيد بفيل ، ادمون بفيل عازف الأرغن في كنيسة السيدة مريم ، انساب رويداً رويداً بلحنه الطليق المتخلل الى اسلوب بالغ الغرابة التمع خلاله في نظرته التائهة نوع من الهناء المستحيي إذ ارتفع من بين يديه وتعاظم وازدهر واتّسق وشدا موضوع مارش عظيم عظمة الآباء الأقدمين فخم عجيب في فخامته تطور في هذه الظاهرات خافتاً أولاً ومارّاً كالنسيم ثانياً ثمّ انجلى وازداد جلاءً ووضوح معالم في طباقية عامرة بالفن... فيض وغيض وانتقال... وعند الارتخاء عزفت الكمان في الفورتيسيموومر استهلال « مايسترسنجر »[1] .

كانت جيردا بودنبروك من المعجبات المتحمسات للموسيقى الحديثة ، لكنها مع

---

(١) أوبرا لڤاجنر من نوع الكوميديا الموسيقية ، وضعها ڤاجنر سنة ١٨٦٨ ، وبطلها اسكافي شاعر اسمه هانز ساكس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيد بفيل كانت تصطدم بمقاومة حانقة بلغ من شدتها أنها يئست أول الأمر من كسبه الى جانبها .

ففي اليوم الأول الذي وضعت فيه على المنضدة مقتطفات بيانيه من تريستان وايزولده[1] لأول مرة ، ورجته أن يعزفها لها هب بعد خمس وعشرين خفقة زمنية وجعل ينطلق رائحاً بين الخارجة والبيان .

«لاأعزف هذا ياسيدتي ، إني خادك المطيع ، لكني لاأعزف هذا! ليست موسيقى... . صدقيني... لقد اغتررت دائماً بأن لي في الموسيقى بعض الدراية! وهذه هي الفوضى! هذه شنشنة شعبية ، هذا تجديف ، هذا جنون . هذا دخان معطر وبخور يخطف فيه برق! هذه نهاية كل الآداب في الفن! لاأعزف هذا!» وارتمى ثانية أثناء هذا الكلام على المقعد ، وجعل بين ارتفاع عقله حنجرته وانخفاضها يؤدي ، وهو يبلع ريقه ويسعل سعالاً أجوف ، خمساً وعشرين خفقة زمنية أخرى ليقفل بعدها البيان ويصيح : «خسئاً! كلا! يا إلهي! لقد أسرفت! اغفري لي صراحتي ياسيدتي المحترمة... إنك تأجرينني وتكافئينني عل خدماتي سنين وأياماً... وأنا رجل حالتي في الحياة متواضعة ، لكني أستقيل وأتخلى عن هذا إذا اضطررتني الى هذه المنكرات...! والطفل! إنه جالس فوق كرسيه! لقد دخل يتسلل ويخافت في مشيته ليسمع الموسيقى! فهل تريدين إذن أن تسممي ذهنه تماماً ؟...»

لكنه على قدر ماكانت هيئته مخيفة بهذه الصورة ، سحبته اليها في تؤدة ورفق وترويض وإقناع...

قالت : «بفيل ، كن منصفاً وعالج الموضوع في هدوء . إن طريقته غير المألوفة في استعمال الهارمونيات تربكك... فأنت تجد بيتهوفن بالنسبة الى هذا نقياً ، جلياً ، طبيعياً . لكن فكّر كيف كان بيتهوفن يسخط معاصريه الذين تربوا على الاسلوب القديم... وباخ نفسه! ياإلهي! لقد جردوا موسيقاه من حسن الواقع والوضوح! إنك تتكلم عن الناموس الأدبي... لكن ما الذي تفهمه من هذا الناموس في الفن ؟ إذا لم أخطيء فهو نقيض مذهب اللذة بحذافيره . حسناً ، إنك تجده هنا كما تجده في باخ . تجده أعظم وأوعى وأغور مما هو في باخ . صدقني يابفيل ، إن هذه الموسيقى في صميم كنهها أقل غرابة مما تفترض!»

فدمدم بفيل قائلاً : «شعوذة وسفسطة ـ لاتؤاخذينني!» لكنها كانت على حق : فهذه

---

(١) أوبرا لفاجنر .

الموسيقى كانت أقل غرابة عنده في الحق مما كان يعتقد بادىء ذي بدء . حقاً إنه لم يرض قط عن تريستان كل الرضا ، وإن كان قد استجاب أخيراً لرجاء جيردا ، فلحن «موت الحب» للكمان والبيانو فورت ببراعة كبيرة . وقد كانت قطع بعينها من «مايسترسنجر» ماوجد عنده كلمة تقدير... ثم جعل حب هذا الفن يتحرك في نفسه ويقوى دون مدافع فلم يسلم به بل فزع منه وأنكره وتذمر منه . لكن رفيقته في العزف لم تعد تحتاج الى ملاحقته حتى تتعقد قبضتاه إذا ما أقام المعلمون القدماء حقهم ، وينتقل الى حياة الموضوعات المتكررة ونسيجها وفي نظره ذلك التعبير عن هناء مشوب بالخجل والضيق تقريباً . لكنه بعد العزف كان يمكن أن يزول خلاف على صلات هذا الاسلوب الغني بالتأليف الصارم . وذات يوم صرح السيد بفيل بأنه يرى نفسه ملزماً ، وإن لم يمسسه الموضوع شخصياً ، بأن يزيد على كتابه عن «الاسلوب الكنسي» «ملحقاً عن تطبيق المفاتيح القديمة في موسيقى ريشارد ڤاجنر الكنسية والشعبية» .

وكان هانو جالساً ساكناً يشبك يديه الصغيرتين حول ركبته كما اعتاد أن يفعل ، ويلوك بلسانه ضرساً من أضراسه وقد زم فمه قليلاً . كان يرعى أمه والسيد بفيل بعينين واسعتين ثابتتين ويصغي الى عزفهما وينصت الى حديثهما . وهكذا حدث أنه وهو يخطو في طريق حياته الأولى ، تجلت له الموسيقى شيئاً جدياً بصورة غير عادية ، شيئاً هاماً عميق المعنى . إذ قيل شيء كاد ألا يفهم كلمة منه ، لكنه يفهم في الغالب ما يرن ويتجاوز في فهمه الحدود . فعندما يعود ـ ودائماً مايعود ـ ويديم الجلوس في مكانه ساعات لايتحرك ولايضجر ، يكون مايدفعه الى ذلك الايمان والحب والإجلال .

كان في السابعة ولما يكد عندما جعل يحاول استعادة ارتباطات صوتية بعينها أثرت في نفسه ويعزفها على البيان معتمداً على نفسه . فكانت أمه تنظر اليه باسمة وتصحح دقاته وهو ينشد ربطها في همة وصمت ، وتوجه الى حيث لايجوز أن تنقص نغمة بالذات ليترتب على هذا الإئتلاف إئتلاف آخر ، فكان سمعه يؤكد له ما كانت تقوله . وبعد أن جعلته جيردا بودنبروك يدرك القليل قررت أن يتلقى دروساً في البيان .

فقالت للسيد بفيل : «أظنه لايميل الى العزف المنفرد . وإني في الحقيقة لمغتبطة بذلك لأن لهذا العزف جوانبه المشوبة . ولست أتكلم عن اعتماد العازف المنفرد على المصاحبة وإن أمكن أحياناً أن تكون هذه التبعية شديدة الحساسية . فلو لم تكن أنت الذي يصاحبني... على أنه عندئذ ينشأ خطر من إحراز المرء مهارة في العزف كاملة بدرجة ما...

وأنا خبيرة بذلك ، وأعترف لك صراحة إن من رأيي أن الموسيقى بالنسبة للعازف المنفرد تبدأ في الحقيقة أولاً بدرجة رفيعة جداً من المقدرة . فالتركز المضني على الصوت الأعلى وتأديته وتكوين نغمته ـ الأمر الذي يحس المرء معه أن تعدد النغم شيء غامض وعام جداً ـ يمكن بكل سهولة أن يسفر عند متوسط الموهبة عن إفساد المعنى الهارموني والذاكرة الهارمونية وهو مايصعب إصلاحه فيما بعد . إني أحب كماني وقد حذقتها تقريباً لكن البيان عندي أسمى مكانة... وأقول أن الخبرة بالبيان كآلة لأداء أكثر الصور النغمية تعداداً وأغناها ، آلة لاتفوقها آلة في الإخراج الموسيقي ، تعني بالنسبة لي علاقة بالموسيقى أوثق وأجلى وأثمل... اسمع يابفيل ، إني أود أن استأثر بك له فتفضل بقبول ذلك! إني أعلم أنه لايزال هنا في المدينة اثنان أو ثلاثة ـ أعتقد أنهن نساء ـ يعطين دروساً . لكن هؤلاء معلمات بيان... وأنت تفهمني... ولاقيمة كبيرة في أن يدرب المرء على الآلة ، بل القيمة الكبرى هي في فهم القليل من الموسيقى . أليس كذلك ؟... إني أعتمد عليك . فأنت أكثر جداً في النظر الى المسألة ، وسترى أنك ستنجح معه نجاحاً كبيراً . إن له يدي بودنبروك... وآل بودنبروك يستطيعون تناول التسعات والعشرات . ـ لكنهم لم يعلقوا عليها أهمية بعد » . بهذا ختمت حديثها ضاحكة ، وأعلن السيد بفيل استعداده لتولي التدريس .

من ذلك الحين جعل يأتي في يوم الاثنين أيضاً ليشتغل بيوهان الصغير بينما تكون جيردا في حجرة الجلوس . ولم يزاول تدريسه بالطريقة المألوفة لأنه كان يحس أنه مدين لهمة الطفل المتسمة بالصمت والحمية بأكثر من مجرد تعليمه العزف قليلاً على البيان ، فلم يكد يتجاوز معه الأوليات والمبادىء حتى شرع بالفعل في تعليمه من الوجهة النظرية بصورة يسهل معها الفهم وتمكين تلميذه من إدراك مبادىء نظرية التوافق . وقد أبدى هانو فهماً أكد له ماكان يعرفه من قبل .

وكان السيد بفيل يدخل في حسابه على قدر الإمكان تهافت الطفل وشوقه الى التحصيل ، فكان حريصاً في عناية مشربة بالعطف على التخفيف من وقع الأنقال التي كانت المادة ترهق بها أقدام المخيلة والموهبة الجادة ، فلم يشتط في مطالبة الطفل بإبداء مهارة كبيرة في تحريك الأصابع أثناء التمرن على سلالم النغم ، أو إن هذه المهارة في تحريك الأصابع لم تكن مايبغيه من هذا التمرين . فالذي هدف اليه وأدركه بسرعة كان على الأكثر المامة واضحة شاملة نافذة بكل مفاتيح الصوت ، وخبرة باطنة ملمة بصلاتها وارتباطاتها ، أسفرت بعد وقت غير طويل عن تلك النظرة السريعة في الكثير من إمكانيات التأليف وذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعور اللقن بالتحكم بالعزف على البيان وهو مايغري بالتخيل والإرتجال... وقد استجاب برقة شعوره المؤثرة للاحتياجات التي تطلّبها ذهن هذا التلميذ الصغير المدلل فيما سمع عنه . وكانت هذه الاحتياجات تهدف الى أسلوب جاد . يعزف الأناشيد ، ولم يترك إئتلافاً ينبع من غيره دون إشارة الى اتفاق هذه النتيجة والأصول .

كانت جيردا تتابع في الناحية الأخرى من الستائر مجرى التدريس وهي تطرز أو تقرأ .

فقالت للسيد بفيل في إحدى المناسبات : «لقد تجاوزت ما كنت أتوقع . لكنك تشتط معه وأرى تقدمه أسرع مما نبغي ؟ إن طريقتك ، فيما يبدو لي ، رفيعة ، خلاّقة... فإنه أحياناً مايحاول الإرتجال حقاً . لكنه إذا لم يكن جديراً بمنهجك وليست لديه الموهبة الكافية ، فلن يتعلم شيئاً أبداً... »

فقال السيد بفيل يومىء برأسه : «إنه جدير به . إنني أتأمل عينيه أحياناً ، فأجد فيهما الكثير ، لكن فمه يظل مطبقاً . وإذا ما انخرط في سلك الحياة التي ربما أن تزيد فمه إغلاقاً ـ فلا بد أن تكون لديه وسيلة أخرى للتعبير» .

ونظرت اليه ، الى هذا الموسيقي الربعة الذي يحمل عارية من فروة ثعلب وينتفخ ما تحت عينيه ، ويبدو منه شارب منفش وحنجرة ضخمة ـ ثمّ مدت اليه يدها وقالت : «شكراً يابفيل . إنك تريد خيراً . ونحن لانستطيع بعد أن نعرف مبلغ ماسوف تصنع منه» .

وكان مايحفظه هانو من جميل هذا المعلم وتفانيه في قيادته عديم المثال . فهذا الذي كان يطيل التفكير في جدول الضرب ، هذا البليد الذهن ، العديم الأمل في الفهم على الرغم من كل الحصص الإضافية التي يتلقاها في المدرسة ، كان يدرك على البيان كل مايقوله له السيد بفيل . كان يفهمه ويستوعبه كما يمكن المرء أن يستوعب ماصممه من قديم بيد أن أدموند بفيل كان يبدو له في سترته البنية الفضفاضة ملكاً كبيراً يحتضنه عصر كل يوم اثنين لينقله من كل مايلقى من يومه من شقاء الى مملكة الصوت ، مملكة الجد الرئيف الحلو الحافل بالعزاء...

وكان الدرس يؤخذ أحياناً في بيت السيد بفيل . وهو بيت فسيح قديم هرمي السطح ذو مماش وأركان كثيرة منعشة يسكنه عازف الأرغن وحده مع مدبرة عجوز وكان يجوز لبودنبروك الصغير أحياناً أن يحضر في يوم الأحد أيضاً مايقام في كنيسة مريم من صلاة على عزف الأرغن ، وكان هذا عنده شيئاً يختلف عن الجلوس تحت في صحن الكنيسة مع الآخرين . هناك عالياً فوق المصلين وفوق راعي الكنيسة برنجز هايم على منبره ، كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلاهما يجلس وسط هدير الكتل الصوتية الهائلة التي أطلقها كلاهما وسيطر عليها ــ ذلك أنه كان لهانو أن يساعد معلمه أن يقوم بإدارة المسجلات الموسيقية فكان يفعل ذلك في حمية هائنة وفخر . لكنه حين ينتهي العزف الختامي بعد غناء المجموعة وحين يرفع السيد بفيل أصابعه على ملامس البيان ويدع الصوت الأساسي الواهن وحده يتلاشى خافتاً رهيباً ـ حين يأخذ صوت القسيس برنجز هايم المنغم في الارتفاع بعد استراحة الفن تحت غناء الأرغى فترة مفعمة بالغبطة لايبعد أن يشرع السيد بفيل بكل بساطة في السخرية من الوعظ وفي الضحك من لهجة القس الفرنكية المصطنعة ومن أحرف علته المديدة المدغمة أو المبتورة الحادة ومن تنهداته وتحول وجهه الفجائي بين التجهم والتجلي . وعندئذ يضحك هانو أيضاً في خفوت وانشراح ، ذلك أن كليهما يرى هناك فوق ، من دون أن ينظر الى الآخر أو يعرب له عن رأيه إن هذا الوعظ يقرب أن يكون ثرثرة بادية الغباء ، وأن الصلاة الحق أدنى إلى أن تكون ما يقيمه القسيس والمصلون ويتحينونه من إضافة لرفع تأثير العبادة : ألا وهي الموسيقى .

أجل ، إن الفهم القليل الذي كان يعرف أنه موجود في الصحن بين هؤلاء القوم من أعضاء مجلس الشيوخ والقناصل والمواطنين وأسرهم لِما كان يؤديه على الدوام قد كان شاغله الشاغل ، ومن ثم كان يستبقي التلميذ الذي كان يسعه على الأقل أن يدرك في هدوء أن ذلك الذي عزفه من هنيهة قد كان شيئاً عسيراً بصورة غير عادية ، فقد خاض في مشروعات فنية من أغرب مايكون ، وأدى «محاكاة رجعية» وألف لحناً يظل واحداً سواء قرىء من أمام أو من خلاف ، ووضع تركيباً يعزف بطريقة تشبه مشية الكابوريا ، فلمّا انتهى وضع يديه في حجره وعلت وجهه سيماء الكدر وقال وهو يهزّ رأسه يائساً : «إن أحداً لايلاحظ هذا» . ثم همس أثناء وعظ القس قائلا : «لقد كان هذا محاكاة لمشية السرطان يايوهان . وأنت لاتعرف بعد ما هو... إنه محاكاة لموضوع يقرأ من خلاف الى أمام ، من النغمة الأخيرة الى الأولى... شيء صعب تقريباً . وستخبر في المستقبل معنى المحاكاة بالمعنى الكلاسيكي... ولن أتعبك قط «بمشية السرطان» ولن أفرضها عليك فلا حاجة بأحد الى حذقها ، لكن لاتصدق أولئك الذين يسمون مثل هذا بأنه عزف لاقيمة له من الناحية الموسيقية . فأنت تجد «مشية السرطان» عند كبار الملحنين في كل العصور . فليس سوى الفاترين والأوساط من يستهجنون عن تعالٍ مثل هذه التمرينات . إن التواضع محمود . لاحظ ذلك يايوهان» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الخامس عشر من ابريل ١٨٦٩ عيد ميلاد هانو الثامن عزف هانو لاسرته مجتمعة وفيها أمه تقسيماً صغيراً من تأليفه هو موضوع بسيط وقع عليه فألفاه غريباً فتوسع فيه قليلاً . وطبيعي أن يكون السيد بفيل الذي فاتحه هانو فيه قد وجد فيه ماينتقده .

«ماهذا الختام المسرحي يايوهان! إنه لايلائم الباقي! لقد كان كل شيء في البداية على مايرام ، ولكن كيف هنا بغتة من «سي» كبير الائتلاف الرابع والسادس في الدرجة الرابعة مع ثالث منخفض ، هذا ماأحب أن أعرفه ؟ إن هذه مخارق . ثم انك تهزه أيضاً . لابد أنك تنسمت هذا في موضع ما . . . فمن أين أتى ؟ إني لأعرف . لقد كنت تنصت أكثر مما ينبغي حين كان علي أن أعزف أمام السيدة والدتك أشياء بعينها... غيّر الختام يابني تصبح المعزوفة شيئاً صغيراً غاية في النقاء » .

لكنه لهذا الائتلاف الأصغر ولهذا الختام ، لكليهما بالذات يقيم هانو الوزن الأكبر . وقد نعمت الأم بهما الى حد أنهما بقيا على حالهما . فقد تناولت الكمان وعزفت معه الصوت الأعلى ثم نوعته الى الختام في انسيابات من الثاني والثلاثينات بينما كان هانو يعيد المعزوفة بكل بساطة وقد كان لهذا وقع أي وقع ، وقبّل هانو أمه هانئاً كل الهناءة . وعلى هذا النحو عزفا هذه المعزوفة للأسرة في الخامس عشر من ابريل .

لقد تناول طعام الغداء عند السناتور وزوجته في الساعة الرابعة كل من القنصلة ومدام بيرمانيدر وكريستيان وكلوتيده والقنصل كروجر وزوجته والمدير ڤاينشنك وزوجته وكذلك سيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض والآنسة ڤيشبروت . وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد هانو . فهم جلوس في الصالون ينظرون منصتين الى الطفل الجالس على البيان في زي البحارة ، والى جيردا ، تلك الظاهرة الغريبة الأنيقة التي انشدت أولاً نغم «الصول» تسبيحة بديعة ثمّ أطلقت بمهارة لاتخطىء فيضاً من الوحدات المتساقطة بالزبد واللآلىء . وكان السلك الفضي المثبت على مقبض القوس يبرق في الضوء المرسل من لهب الغاز .

كان هانو ممتقع اللون من الانفعال فلم يكد يتناول شيئاً عن المائدة ، لكن تفانيه في عمله الذي كان سيختم ثانية للأسف بعد دقيقتين كان من العظم في نفسه بحيث نسي في ثنائيه التام كل شيء حوله . وهذا التآلف النغمي الصغير كان في طبيعته أكثر اصطباغاً بالانسجام والتوافق منه بالإيقاع . والتعارض القائم بين الوسائط الموسيقية البدائية الأساسية الناشئة والاسلوب الهام الأريب الحار الذي يؤكد هذه الوسائل ويقررها مما يبهج بصورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غريبة بـالغة الغرابة . فقد كان هانو يؤكـد بحركة من رأسه تـنكب وتتراجع كل نغمة انتقالية تـوكيداً بيناً ويحاول وهـو جالـس على الـكرسي في أقصى المـقدمة أن يـكسب كـل ائتلاف جديد قيمـة مؤثـرة بالاستمـرار والإبطاء . وفي الـواقع أن هانـو الصغيـر كان كلمـا هدف الى تأثير ما ـ ولو توقف هذا التأثير عليه وحده ـ كان هذا التأثير في طبيعته أكثر صدوراً عن الحساسية منه عن العاطفة . وقد كانت أي مسة فنية بسيطة منسجمة تصل بالتوكيد الشديد المتمهل الى معنى دقيق مستتر . وكـل إئتلاف أو انسجام جديد أو مجهود كـان يكتسب بالـرنين الواهن المباغـت قدرة مفاجئة مثيرة على التأثير ، بينما هانو في ذلك يـرفع حاجبيه ويأتي مـن جسمه الأعلى بحركة معلقة مهتزة... ثمّ يجيء الـختام ، ختام هانو المحبوب الذي يتوج الـمجموعة بـرفعة بدائيـة فيرعش إئتلاف « دو » مـن المقام الصغير البيـان فيسمع خـافتاً صافياً صفاء الأجراس تشعشعه انسيابات الكمان وتفيض من حوله.. ثم يرتفع ويتعاظم رويداً رويداً ويـضيف اليه هانـو « سي » المتنافر الحاد قوياً وهـو المؤدي الى نغمة القرار . وبينما الـكمـان تـهدر مـن حـول هذا « سـي » الحـاد مـتموجـة رنـانـة يزيـد هـو التـنافر بـكـل قواه الى الفـورتيسيمـو آبياً حله ، محتفظاً لـنفسه ولـلسامعين بهذا الحل ، فمـاذا عسى أن يكـون هذا الحل ؟ هذا الانـغمـاس البـهيج المـخلص في « سي » من الـمقـام الكبيـر ؟ هنـاء عديـم النـظير ورضى حلو شديـد الحلاوة . سلام! غبطة! ارتفاع الى ملكوت السماوات!... ليس بعـد... ليس بـعد... لحظة أخرى من الإبطاء والإرخاء والتوتـر ـ لحظة كان لابدّ أن يعزّ احتمـالها... كي يكون الارتياح من ثم أمتع... فلا يزال ثمّ مذاق أخير ، آخر ذوقة لهذا الشوق الطاغي الدافع ، لـهذا الاشتـهاء مـن القلب ، لأشـد تـوتـر تـشنجي للإرادة التي كـانـت مـاتـزال مع ذلك تـأبى الاستجابـة والانقاذ لأنـها تـعلم أن الهناء لحظة فحسب... . واعتدل الجزء الأعلى من جسم هانـو رويداً رويداً ، واتسـعت عيناه الى أقصى حد ، وارتجفـت شفتاه الـمطبقتان ، واستنـشق الهواء مـن أنفه مهتزاً متدافعاً... ثمّ جاء الهناء لايدفع ، جاء طاغياً لايقوى على دفعه فتراخت عضلاته ، وارتـمى رأسه على كتفه مـنهوكاً مغلوباً ، وغـمض عينيـه ، وبدا عـلى فمـه ابتسام يـنطوي على الأسى ، ويكـاد يـنضح بـالألم ، يعبـر عن هنـاء هنـاك ينبو عـن الوصـف ، بينمـا الرجفة Tremolo التي جعلت الانسيابات المنخفضة تزاملها ، تنزلق مكبـوحة الى « سي » من مقام كـبير تهمـس اليها انسيابات الكمـان وتحيط بهـا ، وترن حولها وتـتماوج ، ثم تتـصاعد الى الفورتيسيمو بسرعة كاملة ، وتنقطع بعدئذ في فورة مقتضبة عديمة الصدى .

لقد كـان من المـحال أن يمتـد التـأثير الـذي كان لهـذه المـعزوفة على هـانـو نفسـه الى

السامعين . فمدام بيرمانيدر على سبيل المثال لم تدرك هذا المجهود كله أقل إدراك لكنها في الحق قد رأت ابتسام الطفل ، وحركة جسمه الأعلى وارتماء رأسه الصغير الحبيب على كتفه في رقة... وقد حرك هذا المنظر طيبتها وأثر فيها من الأعماق فصاحت : «يالعزف الصغير! يالعزف الصغير! » وبادرت اليه وهي تكاد تبكي وضمته بين ذراعيها...

وقالت : «جيردا ، توم! سيكون نداً لموتسار ، لما ير بيير ، لـ...» ولأنه كان ينقصها اسم ثالث له مثل أهمية الاثنين ، فلم يخطر ببالها في الحال ، اجتزأت بأن تغمر ابن أخيها بالقبلات وكان مايزال جالساً منهوك القوى زائغ النظرات ، يضع يديه في حجره .

وقال السناتور بصوت خافت : «كفى ياتوني كفي! أرجوك! ماهذا الذي تضعينه في رأسه...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

لم يكن توماس بودنبروك راضياً في نفسه عن خلق يوهان الصغير وعن تطوره . فلقد جاء ذات يوم الى بلدة بجيرداأرنولدسن متحدياً العوام الذين سرعان ماذهلوا وهزّوا رؤوسهم ، ذلك أنه كان يشعر بأنه قوي حر يستطيع أن يبدي ذوقاً رفيعاً بوصفه الذوق المألوف من دون مساس بما يحذقه الحضريون منه . لكن ، أقدر للطفل أن يبيت ملك هذه الأم قلباً وقالباً ، وهو الوريث الذي ظل يتطلع اليه طويلاً عبثاً ، والذي يحمل في ظاهره وباطنه بعض إمارات أسرة أبيه ؟ أقدر له ، وقد أمل فيه أن يواصل في يوم من الأيام عمله في الحياة بيد أكثر توفيقاً منه وأقل تهيباً ، وأن يقف حيال بيئته بأسرها وهو المفروض عليه أن يعيش ويعمل بين ظهرانيها ، بل حيال أبيه نفسه ، هذا الموقف الغريب المستغرب الذي تمليه دخيلته وطبيعته ؟

لقد كان عزف جيردا على الكمان في عين توماس والى أمد طويل ، متفقاً وعينيها الغريبتين اللتين أحبهما ، مكملاً لشعرها الغزير الأحمر الداكن ولظاهرتها غير العادية بأكملها ، فهو إضافة فاتنة الى كيانها الفريد . أما الآن فقد اضطر الى أن يرى كيف تملك الشغف بالموسيقى ــ وهو شغف لايعرفه ـ ابنه أيضاً بهذا البكور ومن البداية والأساس . لقد بات هذا التعلق في عينيه سلطة معادية تقف بينه وبين الطفل الذي رمت آماله الى أن تجعل منه بودنبروك أصيلاً ورجلاً قوياً عملياً ذا دوافع قوية نحو الخارج ابتغاء السلطان والفتح . وقد بدا له من النفسية المتقززة الملمة به كأنما تنذر هذه السلطة المعادية أن تجعل منه شخصاً غريباً في بيته .

لقد كان عاجزاً عن أن يقرب الموسيقى بالصورة التي تؤديها بها جيردا وصديقها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسمى بفيل . وقد كان من شأن جيردا أن تستأثر بالفن ولاتطيق تدخلاً فيه ، أن تصعب أيضاً هذا التقرب عليه بصورة قاسية حقاً .

إنه لم يكن يظن قط أن كيان الموسيقى غريب كل هذه الغرابة عن أسرته كما يبدو له الآن . فقد كان جده يحب أن ينفخ قليلاً في الناي ، وهو نفسه قد كان يرتاح دائماً الى سماع ألحان جميلة تبدي أما ظرفاً خفيفاً وإما أسىً وتأملاً أو حماسة مبهجة . فإذا ماأعرب عن تذوقه لأي من هذه التأليفات فليثق بأن جيردا تهزّ كتفيها وتقول وهي تبتسم ابتسامة الرثاء : «كيف يمكن هذا ياصديقي! شيء كهذا خلو كل الخلو من القيمة الموسيقية...»

لقد كان يبغض هذه «القيمة الموسيقية» ، هذه الكلمة التي لايرتبط بها عنده معنى آخر غير معنى الكبرياء الباردة . وقد دفعته الى أن يحتج عليها في حضرة هانو . وحدث غير مرة أن اغتاظ وصاح في مثل هذه المناسبات : «آه ياعزيزتي ، إن اللعب بهذه «القيمة الموسيقية» يبدو لي شيئاً مجرداً من الذوق ينطوي تقريباً على العجب والخيلاء!»

فكانت ترد عليه : «توماس ، لآخر مرة ، إنك لن تفهم أبداً شيئاً من الموسيقى بوصفها فناً . وبالغاً مابلغ ذكاؤك فلن ترى قط أنها شيء أكثر من فكاهة قصيرة تبدر أثناء تناول «الحلو» بعد الأكل أو خلال عزف لتشنيف الأسماع . إنه في الموسيقى ينصح الاحساس بالتافه الرخيص وهو ماينقصك في غيرها... وهذا الاحساس هو معيار الفهم في الفن . وتستطيع أن تتبين مبلغ جهلك بالموسيقى من أن ذوقك الموسيقي لايتفق في الحقيقة وسائر حاجاتك وآرائك . فما الذي يبعث على سرورك في الموسيقى ؟ روح تفاؤل تافه تطرحه في ركن من الأركان ساخطاً ضجراً لو أنه يحتويه كتاب . استجابة سريعة لكل رغبة لاتكاد تبدي... إرضاء عاجل ودود لإرادة لاتكاد تستحث إلا قليلاً... فهل تجري أمور الدنيا كما تجري في لحن جميل... إن هذه لمثالية حمقاء...»

لقد فهمها ، فهم ماقالت ، لكنه لم يستطع أن يجاريها في الشعور ، وأن يفهم أن الألحان التي تبهجه وتقع من نفسه وقعاً حسناً صفر عديمة القيمة ، وأن القطع الموسيقية التي ترن في أذنه قاسية مضطربة هي التي تعود بأسمى قيمة . لقد كان يقف أمام معبد تمنعه جيردا عن عتبته بقسوة...ويرى حزيناً كيف تغوص مع الطفل فيه .

لم يكن يبدي شيئاً من الهم الذي كان يرعى به أبعاد الطفل عنه ، إبعاداً كان يظهر أنه كان يزداد على الأيام ، بينه وبين ابنه الصغير . ولم يكن يستسيغ أن يظهر بأنه يخطب ود الطفل . وهو لايملك أثناء النهار سوى القليل من الفراغ ليقضيه مع الصغير . لكنه أثناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجبات الطعام كان يترفق به ويتودد اليه مع شيء من الشدة ينبغي به تشجيعه ، فكان يقول وهو يربت على مؤخرة رأسه مرات ويجلس بجانبه على المائدة تجاه زوجته : «ايه يارفيقي...كيف حالك! ماذا أديت من عمل وماذا تعلمت... ؟ هل عزفت على البيان ؟ إنه مفيد حقاً ، لكن لاتسرف في العزف عليه وإلا رغبت عن غيره وانقطعت بك السبل» . ولم تكن عضلة في وجهه تنم عندئذ عن القلق الذي كان يساوره في كيفية تلقي هانو لتحيته ورده عليها . لم يكن ينم شيء في وجهه عن الانقباض الأليم الذي كان يحسه حين يجتزىء الطفل بأن يرسل اليه من عينيه العسليتين الصافيتين الظليلتين نظرة هيابة لاترتفع حتى الى وجهه ثمّ ينحني صامتاً فوق الطبقة .

لكان خليقاً أن يهتم اهتماماً بالغاً بهذا الارتباك في الطفل . فقد كان خليقاً به أثناء وجودهما معاً في الفترات على سبيل المثال أو خلال تغيير الأواني أن يجعل الطفل شغله بعض الشيء فيمتحنه قليلاً ويثير فهمه العملي للحقائق الواقعة... كعدد سكان المدينة وأي الشوارع تؤدي من نهر تراڤه الى المدينة العليا ؟ وماهي أسماء المخازن التابعة للمتجر ، ليجيب عليها بنشاط جواباً سديداً!... لكن هانو كان يظل صامتاً . لا عن عناد نحو أبيه ولا ليؤلمه ، ولكن لأن السكان والشوارع والمخازن نفسها وهي التي لم يكن يعنى بها أقل عناية في ظروفه العادية ، أثارت فيه ، وقد ارتفعت الى موضوع يمتحن فيه ، كراهية مويئسه . فقد كان يحب لو أنه تولاه المرح أو تحدث مع أبيه قبل ذلك ، لكن أن يتخذ الحديث صبغة الامتحان البسيط ولو عن قرب فهذا مما تهبط له نفسيته الى الصفر ، وتنهار مقاومته كل الإنهيار . فتعتم عيناه ، ويتّخذ فمه تعبيراً يائساً ولايسوده سوى الأسف الشديد الأليم لعدم تحرج أبيه وإتلافه بذلك وجبة الطعام لنفسه وللجميع ، وهو الذي كان يجب أن يكون عليماً بأن مثل هذه المحاولات لاتؤدي الى خير . كان يغض بصره فوق طبقه ، وتغرورق عيناه بالدموع . وتدفعه ايدا وتهمس اليه... بأسماء الشوارع والمخازن ولكن وا أسفاه فلم يكن يفيد هذا ، لم يفد بتاتاً! وقد أساءت فهمه فلم يكن يجهل الأسماء ، بل كان يعرف بعضها على الأقل معرفة جيدة . وكان يسيراً عليه أن يحقق رغبات أبيه الى حد ما على الأقل لو أن هذا كان ممكناً ولم يحل من هنيهة شيء محزن لاسبيل الى التغلب عليه... كلمة صارمة من جانب أبيه ، دقة بالشوكة على حافظة السكاكين كانت تفزعه . وقد ألقى نظرة على أمه وايدا ، وحاول الكلام ، لكنه سرعان ما اختنقت المقاطع الأولى في حلقه وهو ينتحب ، فلم يستطع الكلام . وصاح به السناتور غاضباً : « كفى! صه!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاأريد أن أسمع بعد ذلك شيئاً! لاحاجة بك الى أن تقول لي شيئاً! فلك أن تظل طوال حياتك أبكم بليداً! »

ومضى في تناول وجبته الى أن انتهى منها صامتاً مغموماً .

بيد أن هذا الضعف الحالم ، هذا البكاء ، هذا النقص التام في الإنتعاش ، وفتور الهمة قد كان النقطة التي كان السناتور ينعاها كلما أنحى باللائمة على انهماك هانو في الموسيقى .

وقد كانت صحة هانو متوعكة دائماً ، وكانت أسنانه على الأخص الأصل فيما يعتريه من الاضطرابات وشكاوي أليمة . وقد كاد نبات أسنان اللبن عنده بما تبعه من حمى وتقلصات يكلفه حياته . ثم أن لثته كانت على الدوام تميل الى الالتهاب وتتولد فيها أورام اعتادت الآنسة يونجمان أن تفقأها عندما تنضج . والآن وهو يبدل أسنانه كانت أوجاعه أشد وطأة ، وكانت تنتابه آلام تفوق احتماله فيمضي ليالي كاملة مؤرقاً يئن أنيناً خافتاً ، ويبكي بكاءً مكتوماً ، ويعاني حمى منهكة ليس لها من سبب سوى الألم نفسه . وكانت أسنانه الجميلة في ظاهرها هذا الجمال ، البيضاء كأسنان أمه لكنها رخوة حساسة إلى درجة غير عادية تنمو في غير الاتجاه الصحيح ويزحم بعضها بعضاً . ولكي تعالج كل هذه المتاعب كان على يوهان الصغير أن يرى انساناً مخيفاً يدخل في حياته الغريرة وهو السيد برشت طبيب الأسنان المقيم في شارع الطاحونة .

كان مجرد ذكر اسم هذا الرجل يذكر بصورة منكرة بتلك الأصوات التي تخرج من الفك حين تجتث بالجذب واللي والرفع جذور سن ، ويهلع له قلب هانو . ينكمش من الخوف وهو قابع قبالة ايدا يونجمان الوفية في حجرة الانتظار عند السيد برشت على الكرسي . بينما يستنشق الهواء الحاد المنتشر في هذه الغرف ويقلب في صحف مصورة حتى ظهور طبيب الأسنان بباب غرفة العمليات يقول بصوت مهذب مفزع معاً : « تفضل! » .

وكان لحجرة الإنتظار هذه جاذبية وفتنة غريبة . وكان صاحب هذه الجاذبية ومصدر هذه الفتنة ببغاء فخماً متعدد الألوان ذا عينين صغيرتين يشع منهما الغضب ، يجثم في ركن من قفص نحاسي ويطلق عليه اسم جوزيفوس لأسباب لايعلمها أحد . وقد ألف أن ينطق بصوت العجوز الحانقة : «اجلس... لحظة...» ومع أنه كان لهذا القول في هذه الظروف القائمة وقع السخر البغيض فقد كان هانو بودنبروك يتعلق بالببغاء تعلقاً يمتزج فيه الحب بالفزع . ببغاء طائر كبير متعدد الألوان يسمى جوزيفوس ويستطيع الكلام! أليس في نظره كالهارب

من غابة مسحورة في أقصوصة من أقاصيص «جريم»[1] التي كانت ايدا يونجمان تقصها عليه ؟... . كذلك كلمة «تفضل» التي كان السيد برشت يفتح بها الباب كان جوزيفوس يرددها أشد ماتكون توكيداً وأعظم تأثيراً . وهكذا كان يحدث أن يدخل هانو حجرة العمليات وهو يضحك ضحكاً غريباً ويجلس قرب النافذة فوق الكرسي الكبير المركب بصورة غير مريحة والذي تقوم بجانبه الآله التي تدار بالرجل .

فأمّا مايتعلق بشخص السيد برشت فقد كان يشبه جوزيفوس كل الشبه ، إذ كان إنفه مقوساً قاسياً كمنقار الببغاء ، متدلياً فوق شاربه الذي اختلط فيه السواد بالبياض ، لكن الرديء فيه والمرعب حقاً هو أنه عصبي وأنه لم يكن كفؤاً للآلام التي كانت وظيفته تفرض عليه أن يلحقها بالغير . قال لإيدا يونجمان وقد امتقع لونه : «لابد ياآنسة من الإقدام على الخلع» . ولمّا رأى هانو السيد برشت قادماً اليه يخفي الكماشة في كمه ، وكان يتصبب عرقاً بارداً منهكاً ، متّسع العينين ، عاجزاً عن الاحتجاج ، عاجزاً عن الهرب ، في حالة نفسية لاتختلف في شيء قط عن حالة المجرم الذي يساق الى الإعدام ، أمكنه أن يلاحظ أن على جبين طبيب الأسنان ــ ذلك الجبين الأصلع ــ حبات صغيرة من العرق ، وأن فمه كان منكمشاً من الخوف . وانتهت العملية البغيضة ، وجعل هانو يبصق الدم في الصحفة الزرقاء القائمة بجانبه ، شاحب اللون ، دامع العينين ، حائل الوجه يرتعد ، بينما كان على السيد برشت أن يجلس لحظة في مكان ما ليجفف جبينه ويتناول قليلاً من الماء...

لقد أكدوا ليوهان الصغير أن هذا الرجل يصنع به خيراً كثيراً ويصونه من آلام كثيرة أشد من هذه الآلام ، لكنه لما قارن هانو العذاب الذي سامه السيد برشت إياه بالخير المحقق المحسوس الذي بات يدين له به كان الأول أرجح عنده من أن لايعتد كل هذه الزيارات الى شارع الطاحونة أشنع الآلام الضارة جميعاً . وقد كان لابدّ من استئصال أربعة أضراس كانت نامية قبل ذلك بيضاء جميلة ، سليمة كل السلامة ، مراعاة لضرسي العقل اللذين كانا سينبتان في يوم ما . وقد استغرق ذلك أربعة أسابيع حتى لايجهد الطفل فوق طاقته ، فياله من وقت عصيب! لقد أسرف في هذا العذاب المطال الذي كان الخوف من المنتظر يعاوده فيه ، والإعياء مما اجتازه يحل به . فلما خلع آخر ضرس رقد هانو في فراشه ثمانية أيام مريضاً من مجرد الإنهاك .

---

(١) Grimm (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) صاحب كتاب «القصص الشعبية الألمانية» بالتعاون مع أخيه ياكوب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الى أن متاعب الأسنان لم تؤثر في نفسيته فحسب بل أثرت كذلك في وظائف أعضائه كل على حدة ، فكان من عواقب عجزه عن المضغ اضطرابات في الهضم بين الحين والحين بل أيضاً نوبات من الحمى مصدرها المعدة . وكانت هذه الاضطرابات المعدية ذات صلة بنوبات عابرة مترتبة على نبض غير منتظم يقوى أو يضعف ، وشعور بالدوار . وقد استمرت في خلال ذلك كله معاناته لذلك الشيء الغريب الذي أسماه الدكتور جرابو Pavor Noeturnus[1] فلم يخفف عنه بل استفحل ولاتكاد ليلة تمر من دون أن يهب هانو مرة أو مرتين من نومه يعتصر يديه وتبدو عليه إمارات خوف بالغ ، يستغيث أو يصيح طالباً الرحمة والنجاة كأنما يقف وسط اللهب أو يبغي أحد خنقه أو يقع له شيء مرعب ينبو عن الوصف... فإذا أصبح الصباح لم يتذكر شيئاً من ذلك كله . ـ وقد لجأ الدكتور جرابو في معالجة هذا الألم بجرعة كل مساء من عصير العليق . بيد أن هذا لم يجد نفعاً .

كان من شأن العوائق التي نزلت بجسم هانو والآلام التي كابدها أن تنبه فيه ذلك الشعور الجاد بالخبرة قبل الأوان وهو مايسمى بالنضج المبكر . وإذا كانت هذه الخبرة قبل الأوان لم تظهر في أغلب الأحيان ولم تتبد في جلاء تام كأنما هناك تحل بالذوق السليم يحول دون ظهورها ، فإنها قد عبرت مع ذلك عن نفسها هنا وهناك في صورة تفوّق ينطوي على الكآبة... كان بعض أقربائه ، كجدته أو كسيدات بودنبروك ساكنات الشارع العريض يسألنه : « كيف حالك ياهانو ؟ » فلا يعد جوابه أن يفتح فمه شيئاً ما دالاً على الاستسلام ، أو يرفع كتفيه اللتين تغطيهما بنيقة البحارة الزرقاء .

ويواصلن السؤال : « أتحب الذهاب الى المدرسة ؟ »

فيجيب هانو في هدوء وصراحة : « لا » . لايرى بالنظر الى ماهو أهم من هذه الأسئلة أن الأمر يستأهل أن يكذب .

« لا ؟ أوه! إن على المرء أن يتعلم الخط والحساب والمطالعة... »

فيقول يوهان الصغير : « الى آخره » .

كلا إنه لايحب الذهاب الى المدرسة القديمة ، التي كانت من قبل ديراً ، المدرسة ذات الممرات والمماشي المتعامدة ، والفصول القوطية المقبوه . فالتخلف عن المدرسة لتوعكه وعدم التفاته إطلاقاً حين يشغل أفكاره اتصال انسجامي ما أو تستهويها عجائب

---

(١) كابوس ليلي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قطعة موسيقية لم يدرك بعد كنهها ويكون قد سمعها من أمه والسيد بفيل ، هذان الشيئان لم يكن من شأنهما أن يفسحا له طريق التقدم في العلوم ، زد على ذلك ماكان المدرسون المساعدون وطلبة معهد التربية الذين كانوا يدرسون لهذه الفصول الدنيا والذين كان يشعر بأنهم دونه من الناحية الاجتماعية ويحس ضيق ذهنهم وقلة عنايتهم بأجسامهم ـ يشعرونه إياه من ازدراد خفي لهم الى جانب خوفه من العقاب . فالسيد تيتجه مدرس الحساب ، وهو شيخ قصير القامة يرتدي سترة دهنة سوداء ويعمل في المعهد من أيام المرحوم مارسيليس شتينجل ـ السيد تيتجه الذي كان مصاباً بحول انعكاسي غريب حاول تصحيحه بعدسات مستديرة غليظة كزجاج نوافذ السفن كان ينبه يوهان الصغير في كل ساعة بذكر ماعليه أبوه من جد وحدة ذهن في الحساب على الدوام... وقد كان ينتاب السيد تيتجه دائماً نوبات شديدة من السعال تضطره الى تلطيخ أرض المنصة بالبصاق .

لقد كانت علاقة هانو برفاقه الصغار بوجه عام علاقة ظاهرية لاإئتلاف فيها على الإطلاق ، ليس فيهم سوى واحد رابطته وثيقة به من أيام الدراسة الأولى . وكان هذا الواحد طفلاً كريمَ المحتد زري الهيئة مع ذلك كل الزراية يسمى الكونت مولن واسمه الأول كاي .

كان غلاماً في قامة هانو لكنه لايرتدي مثله سترة بحار دانيماركي بل بذلة رخيصة لالون لها ، ينقصها زر هنا وهناك ، وتبدو فوق العجز رقعة كبيرة قد تشبعت يداه الخارجتان من أكمامه القصيرة بالغبار والتراب واتخذتا لوناً رمادياً فاتحاً لايتغير لكنهما كانتا مستطيلتين ، بديعتي التكوين بصورة ملحوظة ، قد طالت أصابعهما وأظافرهما المدببة النمو ، يطابق هاتين اليدين رأس مهمل غير ممشط ، غير نظيف جداً ، زوّدته الطبيعة بزمارات تنم عن جنس نقي نبيل . وكان شعره المفروق في الوسط على عجل ، المحمراللون في صفرة ، مرجلاً الى الخلف عن جبين في بياض المرمر تبرق تحته عينان غائرتان ، حادتان معاً ، صافيتا الزرقة . وكانت عظمتا خديه بارزتين قليلاً وأنفه الرقيق المنخرين ، الضيق الظاهر ، المقوس قليلاً ، ذا طابع مميز من الآن ، كفمه المقلوب الشفة العليا بعض الشيء .

كان هانو بودنبروك قد رأى الكونت الصغير قبل عهد الدراسة مرتين أو ثلاثة خطفاً ، لم يتلبث عنده ، وذلك أثناء نزهاته مع ايدا وهو يخرج من بوابة القصر متجهاً نحو الشمال . فهناك على التعيين ، بعيداً الى الخارج ، وغير بعيد من القرية الأولى ، كان في مكان ما مزرعة صغيرة وعقار يكاد يكون عديم القيمة لايحمل اسماً ، فإذا تأمله المرء دخل في روعه

أنه يرى كوماً من السماد ، وعدداً من الدجاج ، ووجارا لكلب ، ومبنى ذا طبقات ، يعلوه سطح أحمر اللون شديد الانحدار . وقد كان هذا المنزل للساده ، وفيه يسكن أبو كاي الكونت ايبرهارد مولن .

وكان رجلاً غريب الأطوار ، يندر أن يراه أحد ، يقيم مشغولاً بتربية الدجاج والكلاب ، وزراعة الخضر منقطعاً في مزرعته عن العالم بأسره ، رجلاً طويل القامة ، يلبس حذاءً طويلاً مزركشاً ، وصدرية خضراء من الصوف الخشن ، أصلع الرأس ، ذا لحية شيباء هائلة كأنها لشبح ، يمسك بيده سوط ركوب وإن لم يملك حصاناً ، ويضع مونوكلاً مثبتاً على عينه تحت حاجب كث . ولم يكن في طول البلاد وعرضها عداه وعدا ابنه كونت يسمى مولن . فقد ضمرت فروع الأسرة شيئاً فشيئاً وكانت في سالف الزمان غنية فخوراً ذات سلطان ثمّ انقرضت وتعفنت فليس في قيد الحياة سوى عمة لكاي الصغير ، لكنه لايراسلها أبوه . وقد نشرت تحت اسم مستعار قصصاً في صحف الأسرة . أما عن الكونت ايبرهارد فيذكر الناس أنه لكي يتقي الإزعاج بالسؤال والعرض والتسول زمناً طويلاً ، وبعد أن انتقل الى عقاره القائم أمامه «بوابة القصر» علق على باب بيته المنخفض لوحة كان يقرأ عليها : «هنا يسكن الكونت مولن في وحدة تامة لايحتاج شيئاً ولايشتريه وليس عنده مايهديه» . فلما أتت اللوح ثمرتها ولم يعد أحد يضايقه رفعها ثانية .

وقد ترعرع كاي الصغير هنا محروماً من الأم ـ لأن الكونتس ماتت وهي تلده فقامت على تدبير المنزل امرأة متوسطة السن ، فكان برياً كالحيوان يعيش بين الدجاج والكلاب . وهنا رآه هانو بودنبروك من بعيد فتهيبه تهيباً شديداً وهو يقفز بين الكرنب كالأرنب هنا وهناك ، ويتضارب مع أجراء الكلاب ، ويفزع الدجاج بشقلباته .

وعاد فوجده في الفصل ولقيه في المدرسة ، واستمر تهيبه في مبدأ الأمر من المظهر المشوش البادي على الكونت الصغير . لكن هذا التهيب لم يلبث أن زال فقد هدته غريزة أمينة الى ماوراء القشرة الخشنة وجعلته يلتفت الى هذا الجبين الأبيض والفم الضيق والعينين المستطيلتين الصافيتي الزرقة اللتين كانتا تنظران في نوع من الاستغراب الغاضب فاستشعر عطفاً كبيراً لهذا الرفيق من بين رفاقه جميعاً . ومع ذلك فقد كان أكثر تحفظاً من أن يجد في نفسه الشجاعة للتمهيد لصداقته . ولولا مباداة الصغير كاي من دون كلفة لبقي كل منهما غريباً عن الآخر . حقاً إن الإقبال الحار الذي تقرب به كاي اليه كان في بادىء الأمر مما أفزع يوهان الصغير ، فقد خطب الرفيق الصغير الرث الهيئة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حرارة ورجولة تتسم بالعدوان الخاطف ود هانو الهادىء الحسن الهندام الذي لم يكن سبيل الى مقاومته ، وحقاً إنه لم يسعه أن يمد اليه يد المعونة أثناء الدرس ، ذلك أن جدول الضرب كان لفهمه الجامح الضال على هواه كما كان لفهم بودنبروك الصغير الحالم شيئاً منفراً بالمثل ، لكنه كان يهدي اليه كل مايملك : كرات من الزجاج وحلقات من الخشب بل كذلك مسدساً صغيراً معوجاً من الصفيح ، وإن كان هذا المسدس قد كان أثمن مايملك... كان أثناء الاستراحة يقص عليه ـ ويده في يده ـ عن موطنه وجرائه ودجاجه ، وكان يصاحبه ظهراً الى أبعد مايمكن على الرغم من أن ايدا يونجمان كانت تنتظر ربيبها بباب المدرسة وبيدها ربطة من خبز الزبد المزود لتخرج به الى النزهة . وقد عرف بهذه المناسبة أن بودنبروك الصغير ينادي في البيت بهانو . فسرعان ما انتهز اسم التدليل هذا كيلا ينادي صديقه بغيره .

وذات يوم طلب أن يتنزه معه هانو الى ملك أبيه بدلاً من التوجه الى سور الطاحونة ليريه أرانب حديثة الولادة فرضخت الآنسة يونجمان لرجاء الاثنين أخيراً وقصدوا الى ملك الكونت وعاينوا كوم السماد والخضر ، وشاهدوا الكلاب والدجاج والأرانب ، ثم دخلوا البيت في النهاية حيث كان الكونت ايبرهارد جالساً في حجرة منخفضة مديدة على أرضها ، صورة من الوحدة المتمردة ، يقرأ الى مائدة ثقيلة من موائد القرويين ، فسألهم بغضب عمّا يبغون .

ولم يمكن حمل ايدا يونجمان على تكرار هذه الزيارة بل أنها أصرت على أن يزور كاي هانو إذا شاء كلاهما أن يجتمع بالآخر . وهكذا دخل الكونت الصغير بيت أبي صديقه الفخم وهو معجب حقاً لكنه غير هياب . وظل من ذلك الحين يتردد على البيت ولم يحبسه عنه في الشتاء ـ وكان الآن أوانه ـ سوى الثلج المتراكم عالياً يعوقه عن أن يقطع الطريق البعيد كرّة أخرى ليمضي مع هانو بودنبروك بضع ساعات .

كانا يجلسان في الحجرة الكبيرة المخصصة للأطفال في الطابق الثاني ينجزان أعمالهما المدرسية . وكان عليهما مسائل حسابية كثيرة للحل ، أسفرت في النهاية عن صفر بعد أن اكتظت لوحة الأزرار على الجانبين بالجمع والطرح والضرب والقسمة . فإذا لم تكن النتيجة صفراً فلابد أن تكون في موضع ما غلطة يظلان يبحثان عنها حتى يجداها ـ تلك الملعونة ـ ويصححانها : اللهم إلا أن تكون الغلطة في رقم مرتفع ، وعندئذ لابدّ لهما من أن يعيدا كتابة كل شيء تقريباً . وكان عليهما غير ذلك أن يشتغلا بقواعد اللغة الألمانية وتحصيل فن أفعل

التفضيل ، وكتابة مايكدحان الذهن فيه بعضه تحت بعض بنظافة تامة وخط مستقيم كمثل : «القرن شفاف والزجاج أشف والهواء هو الأشف» .

ثم يتناولان كراسة الإملاء على الأثر ليدرسا جملاً كهذه الجملة : «حقاً إن خادمتنا هيدويج مطيعة جداً لكنها لاتجمع النفاية من الأرضية قط كما ينبغي» . ففي هذا التمرين المنطوي على الاستدراج والمنصوبة فيه الحبائل كانت النية أن تكتب كلمات ثلاث من نوع واحد بنهاية غير صحيحة ورابعة وخامسة بنهاية أخرى غير نهايتهما . وقد فعلا هذا على أتم وجه مما اقتضى التصحيح فيما بعد . فلمّا فرغا من كل شيء جمع كلاهما أوراقه واتخذا مجلسهما فوق قاعدة النافذة ليصغيا الى ايدا وهي تقرأ لهما .

وكانت هذه الإنسانة الطيبة تقرأ لهما عن هذا أو ذاك من شخصيات الأقاصيص بصوت عميق مستأن ، مغمضة عينيها نصف إغماضة ، ذلك أنها كانت تقص عن ظهر قلب ماسبق لها أن قصته في حياتها مراراً وتكراراً من أقاصيص ولو أنها كانت تقلب صفحات الكتاب بسبابتها المبتلة في صورة آلية .

على أنه حدث أثناء هذه التسلية شيء غريب هو أنه أخذت تتحرك وتكون في نفس كاي حاجة الى تقليد الكتاب وأن يروي هو نفسه شيئاً . ولعله دعا الى اشتداد الرغبة في هذا أن الغلامين ألما بالتدريج بكل الأقاصيص المطبوعة فوق أن ايدا كان لابدّ أيضاً من أن تستريح بين الحين والحين . وكانت حكايات كاي في أول الأمر وجيزة بسيطة فلم تلبث أن باتت أجرأ وأكثر تعقيداً وإثارة للاهتمام ، بأنها لم تكن كلها من وحي الخيال بل كانت في بعضها تصدر عن الحقيقة ويخلع عليها ضوءاً غريباً محفوفاً بالأسرار... وكان هانو يحب على الأخص سماع حكاية الساحر الشرير القوي السلطان بدرجة فائقة إذ يحتجز أميراً جميلاً موهوباً اسمه جوزيفوس أسيراً عنده على صورة طائر متعدد الألوان ، ويعذب الناس أجمعين بأساليبه الماكرة . لكنه على مبعدة كان المختار ينمو ويترعرع ليزحف في يوم من الأيام على الساحر وهو على رأس جيش لايقاوم من الكلاب والدجاج والأرانب ويخلص الأمير والعالم بأسره وخاصة هانو بودنبروك بضربة سيف ، فيعود جوزيفوس الى مملكته بعد خلاصه وفك سحره ويصبح ملكاً ويبوىء هانو وكاي أيضاً أرفع المراتب .

ولم يعترض السناتور بودنبروك ، وكان يرى الصديقين معاً هنا وههنا وهو مار بحجرة الأطفال ، على هذا الاختلاط ، ذلك أنه كان من السهل أن يلاحظ أن كليهما كان يؤثر في الآخر تأثيراً طيباً . فهانو كان يلطف من طبع كاي ويستأنسه ، بل يجعل منه بالذات إنساناً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كريماً ، فهو الذي يحبه ، ويرق له ، ويعجب ببياض يديه . ويدع الآنسة يونجمان حباً فيه تعالج يديه هو بالفرشاة والصابون . وإذا كان هانو من جانبه يلقى من الكونت الصغير شيئاً من التجني والعنف فقد كان هذا مما يرحب به السناتور بودنبروك لأنه لم يكن يجهل أن الرعاية النسوية المستمرة التي يرعاها الصغير لم تكن بالذات صالحة لأن تحرك فيه صفات الرجولة وتنميها .

حقاً إن وفاء يونجمان الطيبة وتفانيها وهي التي لبثت الى الآن أكثر من ثلاثين عاماً تخدم آل بودنبروك ، لم يكونا مما يقوم بالنضار فقد رعت وربّت الجيل المتقدم وضحت له ، لكنها كانت تحمل هانو على يديها وتحيطه كل الإحاطة بالرفق والعناية ، وتحبه وتعبده ، وتذهب كثيراً في إيمانها الراسخ بمركزه المفضل وحقه المقدم الى حد السخف ، وتبدي إذا اقتضى الأمر أن تعمل له وعنه جرأة مدهشة تكون أحياناً أليمة ، فهي على سبيل المثال حين تشتري له شيئاً من الحلواني لاتتحرج قط أن تمد يدها الى الصحاف المعروضة لتدس له هذه الحلوى أو تلك دون أن تدفع في مقابل ذلك شيئاً ـ أليس في هذا مايشعر صاحب الحانوت بالتكريم ؟ فإذا لقيت نافذة عرض أحاط بها الناس بادرت في الحال الى رجائهم في لطف ولكن في تصميم ، وبلهجة أهل بروسيا الغربية ، أن يفسحوا لربيبها مكاناً . أجل لقد كان في عينيها شيئاً خاصاً جداً الى حد أنها لم تكن تستسيغ أن يقترب منه طفل آخر . أما الصغير كاي فقد كان ميلهما المتبادل أقوى عندها من سوء الظن . هذا الى أن اسم الطفل قد كان يستهويها . لكنه إذا كانت الآنسة يونجمان جالسة مع هانو الى سور الطاحونة وأراد الأطفال أن ينضموا اليهما نهضت من فورها غالباً وابتعدت بالطفل عن المكان بحجة التأخر عن الميعاد أو التعرض لتيار هواء . وكان من شأن الايضاحات التي تقدمها الى الصغير تفسيراً لمسلكها أن تلقي في روعه أن جميع لداته ومن هم في سنه مصابون بداء الخنزير ـ أما هو فلا . ولم يكن هذا بالذات ليساعد على تقوية ثقته بنفسه أو يخفف من خجله ، الأمرين اللذين كانا ينقصانه على كل حال .

ولم يكن السناتور بودنبروك يعلم عن هذه التفاصيل شيئاً . لكنه كان يرى أن نشأة ابنه بطبيعتها وبفعل المؤثرات الخارجية لم تتجه بحال من الأحوال الوجهة التي تمنى أن يوجهها إياها . فلو أمكنه أن يتولى تربيته ويؤثر في ذهنه كل يوم وكل ساعة! لكنه كان يعوزه الوقت لهذا فكان لابدّ أن يشهد ، والألم يحزّ في نفسه ، كيف أخفقت محاولاته في شتى المناسبات إخفاقاً أسيفاً ، وكيف نجحت في جعل العلاقة بين الأب وابنه أفتر وأوهن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان يتمثل صورة هفت نفسه الى أن يجعل ابنه على مثالها : صورة جد هانو الأكبر - كما عرفه هو نفسه في طفولته - رأساً رائقاً ، مرحاً ، بسيطاً ، قوياً ، يحب الدعابة . أفلا يمكن للحفيد أن يصبح هكذا ؟ محال ؟ ولماذا ؟... لقد كان حرياً به على الأقل أن يبعد الموسيقى عنه وينفيها ، وهي التي أبعدت مابينه وبين الحياة العملية ، ولم تكن على التحقيق نافعة لصحته البدنية ، بل أنها استغرقت قواه الذهنية . ألم يقرب كيانه الحالم أحياناً أن يجعله غير أهل بتاتاً للتصرف ؟

كان هانو عصر يوم ، وقبل تناول الطعام بثلاثة أرباع الساعة - وكان يقدم في الرابعة - قد نزل وحده الى الطابق الأول فتمرن على البيان بعض الوقت ثم لزم حجرة الجلوس فارغاً لم يفعل شيئاً ، مستلقياً على المقعد المديد يعبث بأنشوطة البحار المتدلية فوق صدره . وبينما تدرج عيناه جانباً دون أن تنشد شيئاً بعينه وقع نظره فوق مكتب أمه الأنيق المصنوع من خشب الجوز على حافظة مفتوحة من الجلد - الحافظة التي تحتوي أوراق الأسرة ، فأسند مرفقه الى حشية الظهر ، واعتمد ذقنه في يده ، وجعل يتأمل الأشياء برهة عن بعد . وليس شك في أن أباه قد اشتغل اليوم بها بعد إفطاره الثاني ، ثم تركها ملقاة ، ليعود اليها . فشيء في الحافظة وأوراق مفكوكة خارجها كانت مثقلة بمسطرة من المعدن ، وكراسة الكتابة الكبيرة المزركشة بالذهب المتنوعة الورق مفتوحة هناك .

فانزلق هانو عن المقعد المديد وتوجه الى المكتب . وكانت الكراسة مفتوحة في الموضع المرتبة عنده شجرة آل بودنبروك بأكملها بخط يد عدة من أجداده ثم أخيراً بخط أبيه بين أقواس وحواش وتواريخ واضحة . فجعل هانو وهو راكع بإحدى ساقيه على كرسي المكتب ، معتمد شعره الكستنائي الزاهي المتموج الناعم على راحة يده ، يعاين المخطوط عن عرض في جد يبدو فيه شيء يسير من النقد والإزدراء - جد مايحسه من عدم الاكتراث . ثمّ أجرى يده الطليقة تعبث بقلم أمه ، وكان نصفه من الذهب ونصفه الآخر من الأبنوس ، وأجال بصره في كل هذه الأسماء المدونة هنا متجاورة أو قائماً بعضها فوق بعض لذكور وإناث ، مكتوباً بعضها بخط مثنى على اسلوب قديم ذي أطراف بارزة بمداد أسود أما باهت مصفر وإما حالك السواد تعلق به بقايا رمل ذهبي مما يذر... وقد قرأ أيضاً في آخر المطاف وبخط صغير أجراه أبوه على الورق سريعاً ، اسمه هو بين أسماء والديه : يوستوس يوهان كاسبار المولود في الخامس عشر من ابريل سنة ١٨٦١ ، فسره هذا بعض الشيء ، فنهض قليلاً وتناول المسطرة والقلم في تؤده ووضع المسطرة تحت اسمه ، ثم أجال بصره

كرة أخرى في زخرة الأنساب وخط بالقلم الذهبي خطاً مزدوجاً جميلاً نظيفاً عبر الورقة كلها في هدوء وعناية لايحدوهما تفكير ، وصورة آلية حالمة ، السطر الفوقاني أقوى قليلاً من التحتاني كما كان وكده أن يفعل دائماً بكل صفحة من كراسة الحساب... ثمّ أمال رأسه فاحصاً لحظة وتحول .

وبعد تناول الطعام دعاه السناتور اليه وانتهره مقطباً حاجبيه قائلاً له : «ماهذا ؟ كيف حدث هذا ؟ أتراك فعلته ؟»

فلم يكن بد من أن يفكر لحظة في هل هو الذي فعله ، ثم قال متهيباً وجلاً : «نعم» فصاح به أبوه : «مامعنى هذا ؟ ماذا دهاك! أجب! كيف خطر لك أن تعبث هذا العبث!» ولطم هانو على خده بالكراسة المطوية قليلاً .

وتراجع يوهان الصغير وهو يمر يده على خده ويتمتم متلعثماً : «أظن... أظن... لن يقع مني شيء بعد الآن» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

كانت الأسرة عندما تجلس في أيام الخميس لتناول الطعام ومن حولها تماثيل الآلهة الباسمة بسمتها المكتملة الهدوء البادية في توريق الحيطان ، تتناول في حديثها موضوعاً جدياً جديداً يدور منذ عهد قريب فيخلف على وجوه سيدات بودنبروك الساكنات في شارع منج أثراً يعبّر عن التحفظ والفتور . لكنه يثير في ملامح مدام بيرمانيدر وحركاتها انفعالاً غير عادي ، فكانت تتكلم وهي ملقية رأسها الى الوراء تمد كلتا ذراعيها في نفس الوقت إما الى أمام وإما الى فوق غاضبة ، حانقة ، ساخطة سخطاً لاتتصنعه بل تشعر به في الصميم ، فتنتقل من الحالة الخاصة التي هم في صددها الى الحالة العامة فتتكلم عن الأردياء من الناس وتتخلل كلامها نحنحة عصبية جافة ذات صلة بضعف معدتها ، فتنفخ في صوت بعينه صادر عن الحنجرة هو من خواصها إذا غضبت ـ نفخات مقتضبة من قبيل ماتطلقه الترومبه تعبر عن الاشمئزاز وتؤدي أصواتاً لها وقع أصوات تريشكه الدموع ـ! جرينليش ـ! وبيرمانيدر! بيد أن الغريب في هذا هو الصيحة التي جدت على هذه الصيحات والتي كانت تخرجها معبرة عن احتقار وغل لايوصفان . وكانت هذه الصيحة هي «وكيل النائب العام» .

فإذا مادخل المدير هوجو ڤاينشنك القاعة متأخراً كعادته لأنه يكون مرهقاً بالأعمال ، وخطا الى مكانه وهو يهتزّ عند الخصر ويوازن نفسه بقبضتيه في حركة نشيطة نشاطاً غير عادي ، تتدلى شفته السفلى تحت شاربه الرفيع معبرة عن الجرأة ، انقطع الحديث وساد المائدة سكون أليم خانق حتى يعين السناتور الجميع على الخلاص من هذا الارتباك بخفة تامة فيسأل المدير عن موقف القضية كما لو كانت هذه القضية عملاً ما من أعماله ، فيجيب هوجو ڤاينشنك أن الأمور على خير مايرام وأنها بديعة كما لايمكن أن تكون غير ذلك... ثمّ

ينتقل في يسر ومرح نفس الى الكلام عن شيء آخر . ويكون أشرح صدراً من ذي قبل فيدير بصره فيما حوله في جرأة متناهية ويسأل عدة مرات عن كمان جيردا بودنبروك من دون أن يتلقى جواباً ، ويكثر من الحديث مغتبطاً فلا يكون ثمّ مايسيء سوى أنه في صراحته لاينتقي دائماً ألفاظه بالقدر الكافي ، وأنه في نفسيته المرحة المسرفة في المرح يقص من هنا وهناك حكايات ليست في موضعها تماماً . فطريفة على سبيل المثال مما كان يقصه ـ تتعلق بقابلة أضرت بصحة الطفل الذي تتعهده لأنها كانت مصابة بانتفاخ . قال ذلك وهو يعده من قبيل الفكاهة ، وكان يقلد به طبيب البيت الذي صاح : «لمن هذه الرائحة الكريهة ؟ هذه الرائحة الكريهة لمن ؟» وقد لاحظ متأخراً أو لعله لم يلحظ بتاتاً أن زوجته احمرت من الخجل احمراراً شديداً ، وأن القنصلة وتوماس وجيردا كانوا جالسين جامدين وأن سيدات بودنبروك تبادلن نظرات حادة ، وأنه حتى ديشكن سيڤيرين كانت في طرف المائدة تنظر نظرة من أُهين . ولم يضحك ضحكاً خافتاً سوى القنصل كروجر المسن...

فماذا أصاب المدير ڤاينشنك ؟ هذا الرجل الجاد العامل الشديد ، هذا الرجل الخشن المظهر الذي كان يكره كل مجتمع ولايتعلق بسوى عمله يؤديه بدقة الأمين على واجبه . ـ هذا الرجل قيل أنه ارتكبب غلطة شنيعة مرة ، كلا ، بل مرات . اتهم واتهمه القضاء بأنه قام عدة مرات بمناورة تتصل بالعمل لاتسمى مريبة بل توصف بأنها قذرة إجرامية ، وإن هناك قضية مقامة عليه لايعلم أحد كيف تكون نهايتها! ـ فما الذي يؤخذ به ؟ ـ لقد شبت حرائق في أماكن مختلفة ، حرائق كبيرة كانت حرية أن تكلف الشركة التي تربطها عقود بالمجني عليهم فيها مبالغ طائلة . لكنه قيل أن المدير ڤاينشنك أعاد التأمين لدى شركة أخرى وهو شاعر بأنه يرتكب غشاً بعد إذ تلقى من وكلائه تبليغاً سرياً سريعاً عن حوادث الحريق وحمّل هذه الشركة بذلك اضرار الحريق . والآن يباشر القضية وكيل النائب العام الدكتور موريتس هاجنشتروم...

قالت القنصلة لإبنها وقد اختلت به : «توماس... أرجوك... إني لاأفهم شيئاً... فما الذي ينبغي أن يكونه رأيي في القضية!»

فأجابها بقوله : «أمي العزيزة... ما الذي يمكن أن يقال في هذا الصدد . أما أن كل شيء على مايرام فهذا موضع شك وياللأسف . لكن أن يكون ڤاينشنك مذنباً بقدر مايريده البعض فهو أمر بعيد الاحتمال أيضاً . إن في مجرى الأعمال الحديثة شيئاً ما يسمى ترخصاً... وهذا الترخص مناورة ليست خالية من الشوائب تماماً ، ولاتتمشى مع القانون كل التمشي ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويراها غير العارفين شيئاً خسيساً ، لكنها قائمة مع ذلك بالإتفاق الصامت بين رجال الأعمال . ومن الصعب رسم حد بين الترخص والجريمة فكلاهما واحد! فإذا كان ڤاينشنك قد اقترف ذلك فالراجح أنه ليس أردأ من كثيرين من زملائه الذين نجوا من العقاب . لكني ، لما أبديت لك ، لاأتوقع مخرجاً طيباً من هذه القضية ، ولعله لو كان في مدينة كبيرة لبرىء ، لكن هنا ، حيث يصدر كل شيء عن نظام العصب والبواعث الشخصية... لكان خليقاً في اختياره محاميه أن يفكر خيراً مما فكر . فليس عندنا في المدينة محامٍ قدير أو رأس ممتاز ذو موهبة فائقة مقنعة كخطيب ، خبير بكل شيء ، عليم بسبل الخروج من أشد المآزق ، لهذا يتكاتف سادتنا رجال القانون ويربط بعضهم ببعض مصالح مشتركة ومآدب ، وصلة الرحم حيث توجد ، ويراعي بعضهم بعضاً . وفي رأيي أنه كان من الحكمة لو أن ڤاينشنك اختار أحد المحامين المقيمين هنا . لكنه ماذا فعل ؟ ـ لقد وجد لزاماً عليه ، وهذا مايحمل آخر الأمر على التفكير في هل كان ضميره مرتاحاً ـ أن يتخذ محامياً له من برلين هو الدكتور برسلاور ، وهو رجل معجون بماء الأبالسة ، وخطيب داهية ، وقطب محنك من أقطاب القانون تسبقه شهرة التوفيق في إنقاذ الكثيرين من المصرفين الغشاشين من الأشغال الشاقة . وهذا لاشك سيتولى القضية مقابل أتعاب باهظة جداً ، وسيسير فيها بدهاء كبير... لكن هل ينفع هذا ؟ إني أتوقع أن يدرأ رجال قانوننا الشجعان على أنفسهم تأثير السيد الغريب وأن المحكمة ستكون أكثر إصغاء لمرافعة الدكتور هاجنشتروم وأكثر قبولاً لكلامه... والشهود ؟ فأما مايتلق بموظفيه فلست أعتقد أنهم سيقفون الى جانبه ويظهرون له حباً خالصاً . ذلك أن مانسميه نحن المريدين ومايسميه هو أيضاً في اعتقادي ، جانبه الخارجي الخشن لم يجعل له أصدقاء كثيرين .

وصفوة القول يا أماه أني لاأتوقع خيراً . وإنها لتكونن نكبة على ايريكا إذا حدث ما لا تحمد عقباه . لكن أشد مايؤلمني انما هو من أجل توني . فأنت ترين أنها على حق حين تقول أن هاجنشتروم باشر القضية راضياً ، فهي تمسنا جميعاً ، وأية نتيجة مزرية ستصيبنا بالجملة ، ذلك أن ڤاينشنك ينتمي قطعاً الى أسرتنا ويجلس على مائدتنا . أما مايتعلق بي فأنا لاأبالي ، فأنا أعلم كيف يكون سلوكي . يجب أن أقف في العلن من القضية موقف الغريب فلا أحضر جلساتها ، وإن أثار برسلاو اهتمامي ، ولايجوز أن أهتم بشيء إطلاقاً إتقاء لما يمكن أن ينسب اليَ من أني أبغي التأثير بأية صورة . لكن توني ؟ إني أكره أن أتصور مبلغ حزنها إذا حكم عليه . ولابد للمرء من أن يسمع كيف تعبر احتجاجاتها الصارخة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على السعادة ودسائس الحسد عن الخوف... الخوف أيضاً بعد كل الشقاء الذي تحملته ، من فقدان هذا المركز الرفيع الأخير والمستوى المنزلي الكريم الذي تقيم عليه ابنتها . آه ، القي بالك! إنها ستظل تؤكد براءة ڤاينشنك كلما اتجهت الى الشك في ذلك... لكنه قد يكون أيضاً بريئاً ، بالتأكيد ، كل البراءة... فيجب أن ننتظر ياأماه ، وأن نعامله وتوني وايريكا بكل لباقة ، فإني لاأتوقع خيراً...

وأقبل عيد الميلاد هذه المرة في مثل هذه الظروف وتابع يوهان الصغير بقلب واجف اقتراب هذا العيد الذي لايقارن به شيء ، مستعيناً بتقويم مما تنزع أوراقه أعدته له ايدا واحتوت ورقته الأخيرة شجرة عيد الميلاد مرسومة عليها .

وتزايدت الدلائل... فمنذ أول آحاد استهلال الميلاد وصورة زاهية بالحجم الطبيعي للخادم روبرخت معلقة على الحائط في قاعة طعام الجدة . وقد وجد هانو ذات صباح مفرش سريره وسجادته وملابسه مرشوشة بقصاصات الورق الذهبي المهسهس . ثم أنه بعد ذلك ببضعة أيام لما كان أبوه مستلقياً بعد الظهر على المقعد المديد في حجرة الضيوف يقرأ صحيفته وهانو يقرأ في نفس اللحظة منظومة ساحر أندرو من كتاب «الخوص» لجيروك ، أعلن ككل عام وفي هذا العام أيضاً على أتم مباغتة مقدم «رجل عجوز» يسأل عن الصغير . وسمح لهذا الرجل العجوز بالدخول فأقبل في خطو وئيد وفرو طويل قد قلبت جوانبه الخشنة ظهراً لبطن ، وعلتها قصاصات الورق الذهبي وهشائش الثلج ، يلبس قبعة على هذا النحو وترسم على وجهه ملامح قاتمة وتتدلى منه لحية بيضاء هائلة يتخللها كما يتخلل حاجبيه الغليظين بصورة غير طبيعية شعر الملائكة البراق . وأعلن «الرجل العجوز» كعادته في كل عام وبصوت له رنين النحاس أن هذا العِدل الملقى على كتفه الأيسر المحتوي على تفاح وجوز ذهبي هو للأطفال الأخيار الذين يؤدون الصلاة . أما هذه المقرعة المستندة الى كتفه الأيمن فهي من جانب آخر للأطفال الأشرار... لقد كان هذا هو الخادم روبرخت . ومعنى ذلك أنه ليس بطبيعة الحال روبرخت الأصيل بقضه وقضيضه ولعله في أساسه مجرد ڤنتسل الحلاق في فرو أبيه المقلوب . لكنه مادام من الممكن أن يكون هناك خادم يدعى روبرخت فهذا هو روبرخت . وقد تلا هانو في هذه السنة أيضاً «أبانا الذي في السموات» وهو يهتزّ تأثراً خالصاً ، وقد قطعه عليه مرة أو مرتين نحيب عصبي كان يعيه نصف وعي ، ثم دس يده بعد ذلك في العدل المسموح للأطفال الأخيار أن يدسوا أيديهم فيه وقد نسي الرجل العجوز كل النسيان أن ينصرف به...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحلت العطلة ، ومرت اللحظة السعيدة تقريباً إذ قرأ الأب الشهادة التي لم يكن بد من إخراجها في وقت عيد الميلاد . وكانت القاعة الكبرى موصدة بصورة خفية ، وكانت اللوزية والفطائر السمراء قد أعدت على المائدة ، وعيد الميلاد في الخارج يرنق على المدينة . وكان الثلج يتساقط ، وثم صقيع ، وفي الهواء الصافي تخترق الشوارع نغمات مألوفة أو محزنة يطلقها عازفو الأرغن الايطاليون الوافدون الى الاحتفال بستراتهم المخملية وشواربهم السوداء . وكانت نوافذ العرض مشرقة بمعروضات عيد الميلاد ، ومن حول النافورة القوطية العالية في ميدان السوق أقيمت ملاهي سوق الميلاد المختلفة ، وحيث يذهب المرء يستنشق مع عبق شجر الميلاد المعروض للشراء ـ عبير العيد .

وأخيراً حل مساء اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر ومعه توزيع الهدايا في قاعة بيت حفرة السماكين ، توزيع في أضيق نطاق كان فحُسِب بداية وافتتاحاً ، ذلك أن ليلة الميلاد مما تستأثر به القنصلة للأسرة كلها ، إذ يجتمع ضيوف مائدة الخميس عن بكرة أبيهم في أصيل اليوم الرابع والعشرين واليهم ينضم يرجن كروجر من ويزمار وتيريزه فيشبروت ومعها مدام كيتلزن في حجرة المناظر الطبيعية .

كانت السيدة العجوز تستقبل الضيوف وهم يصلون تباعاً ، في ثوب من الحرير الثقيل مخطط بالرمادي والأسود ، قد توردت وجنتاها والتهبت عيناها ، وفاح منها عبير رائحة باتشولي ، وكانت أساورها الذهبية تشخلل شخللة خافتة وهي تعانق من تعانق صامتة . وقد كانت في هذا المساء في حالة من الانفعال الصامت المهتز تعزّ عن التعبير ، فلما وصل السناتور ومعه جيردت وهانو قال لها : «لك الله ، إنك محمومة ياأماه! إن كل شيء يمكن حقاً أن يمر بسلام» . لكنها همست وهي تقبل ثلاثتهم تقول : «إكراماً ليسوع ثم لجان زوجي الحبيب المرحوم...»

والواقع أنه لم يكن بد من التزام المنهاج المبارك الذي وضعه القنصل المتوفى للاحتفال . وقد كان شعورها بالتبعة عن ضرورة انقضاء المساء على وجه كريم ، وهو مايجب أن تحدوه نفسه من المرح الجدي العميق العامر بالتقوى ـ هذا الشعور كان يدفعها الى هنا وهناك من دون راحة ، من بهو الأعمدة حيث كانت مجموعة غلمان كنيسة مريم مجتمعين بالفعل ، الى قاعة الطعام حيث كانت يد ريكشن سيڤيرين آخر يد وضعت على الشجرة وخوان الهدايا ، الى الطرقة حيث كان بضعة من المسنين الغرباء واقفين هنا وهناك متهيبين مرتبكين ، فقراء ممن يحسن اليهم البيت ولهم بالمثل نصيب

في الهدايا ، فثانية الى حجرة المناظر الطبيعية حيث كانت ترد صامتة وبنظرة شزراء على كل كلمة وكل صوب ناب وكان السكون شاملاً الى حد أن أصوات أرغن مما يدار باليد كانت تسمع من بعيد ، وتتناهى الى هنا رقيقة واضحة كالأصوات التي تصدر عن ساعة من الساعات الموسيقية ، قادمة من شارع ما تكسوه الثلوج . ذلك إنه وإن جلس ووقف في الحجرة عندئذ قرابة العشرين قد كان الهدوء أعظم مما يكون في الكنيسة ، والحالة النفسية السائدة تذكر قليلاً ـ كما همس السناتور الى حاله يوستوس كروجر في منتهى الحذر ، بما يكون في الجنازات .

هذا الى أنه لم يكن ثمة خطر من أن يبدد هذه النفسية صوت يصدر عن حماقة صبيانية ، فقد كانت نظرة واحدة تكفي لملاحظة أن كافة أعضاء الأسرة المجتمعة هنا كانوا تقريباً في سن اتخذت فيها تعبيرات الحياة صيغاً مقررة من أمد طويل ، فالسناتور توماس بودنبروك الذي يكذب شحوبه تعبير وجهه اليقظ النشيط بل المباسط ، وجيردا زوجه التي كانت متكئة لاتتحرك فوق كرسي ، متجهة بوجهها الجميل الأبيض الى أعلى ، لاتحول عينيها المتقاربتين ، الظليلتين بهالة تضرب الى الزرقة ، البراقتين في صورة غريبة ، عن مناشير الثريا الزجاجية المتألقة ، وأخته مدام بيرمانيدر ، وابن خاله يرجن كروجر الموظف الهادىء الطبع البسيط الملبس ، وبنات عمه فردريكا وهنرييت وفيفي وكانت الأوليان منهن قد باتتا أنحل وأطول مما كانتا وبدت الأخيرة أقصر وأسمن من ذي قبل ، لكنهن جميعاً كنّ يشتركن في تعبير واحد يرتسم على وجوههن وكأنه مصبوب ، ابتسامة حادة يحدوها سوء النية موجهة الى جميع الأشخاص ولأشياء تنطق بالشك الثليب بوجه عام كأنما يقلن : «حقاً ؟ إنه لايسعنا كأول شيء إلا الشك في هذا يقيناً» . ... وأخيراً كلوتيلده المسكينة ذات الوجه الأغبر التي كانت أفكارها مركزة على طعام العشاء ـ . كل أولئك تجاوزوا الأربعين ، بينما سيدة البيت وأخوها يوستوس وزوجه وتيريزه فيشبروت الضئيلة كانوا قد تخطوا الستين كثيراً ، على حين كانت القنصلة بودنبروك العجوز المولودة باسم شتيونج ومدام كيتلزن المصابة بالصمم التام في السبعينيات .

ولم يكن في ميعة الصبا سوى ايريكا ڤاينشنك ، لكنها حين كانت تحول عينيها الرائقتي الزرقة ـ وهما عينا السيد جرينليش ـ الى زوجها المدير حيث يجلس وهو من يتباين رأسه المقصوص الذي وخط الشيب سالفيه وشاربه الضيق المنثني في زاويتي فمه مع المنظر الطبيعي الشعري الذي يبديه ورق الحائط على مقربة من الأريكة ، كان يمكن أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يلاحظ أن صدرها بأكمله كان يرتفع في تنفسها الصامت الضيق مع ذلك... ولعله كانت تكربها أفكار مضطربة يحدوها الوجل تحوم حول التأمين المعاد ومسك الدفاتر والشهود ووكيل النائب العام والمحامي والقاضي . حقاً إنه لم يكن في الحجرة من لم تشغل ذهنه هذه الأفكار التي لاتتناسب مع عيد الميلاد ، فحالة اتهام صهر مدام بيرمانيدر ، وشعور الأسرة بأكملها بوجود عضو من أعضائها متهم بجريمة ضد القوانين والنظام المدني وشرف المعاملة ، ولعله قدر له أن يلحقه العار ويدخل السجن ، قد طبع كله المجلس بطابع غريب كل الغرابة ، طابع هائل ، ذلك أن مساء عيد الميلاد تحييه أسرة بودنبروك وبين ظهرانيها متهم ، لقد اتكأت مدام بيرمانيدر على كرسيها في جلال وصرامة ، فارتفعت بسمة سيدات بودنبروك ساكنات شارع منج درجة من الحدة .

والأطفال ؟ النشء الهزيل هوناً ما ؟ هل تأثر هو أيضاً بالرعدة الخفيفة السارية في هذا الظرف الجديد كل الجدة ، الطارىء على حين غفلة ؟ فأما مايتعلق بالصغيرة اليصابات فقد كان الحكم على حالتها النفسية من المحال . كانت الطفلة جالسة على ذراع مربيتها في ثوب يتبين فيه ذوق مدام بيرمانيدر من كلفته الثمينة المحلاة بشرائط الأطلس ، تضم قبضتيها الصغيرتين على ابهاميها ، وتمتص لسانها ، وتحملق فيما هو أمامها بعينين واسعتين ، ويند عنها بين الحين والحين صوت مقتضب مقرقر تهزها بعده الخادم قليلاً . لكن هانو كان يجلس ساكناً فوق كرسي مما تسند عليه الأقدام ، عند قدم أمه يتطلع مثلها الى منشور من مناشير الثريا .

وكان كريستيان غائباً! ترى أين كان! وقد لوحظ في آخر لحظة لاقبل ذلك أنه لم يكن حاضراً . وتزايدت حركات القنصلة ومعالجتها الغريبة لما بين زاوية فمها وتسريحة شعرها وكانت كأنها ترد شعره هابطة الى موضعها... وقد أصدرت تعليماتها الى الآنسة سيڤيرين في سرعة فمضت الفتاة مارة بغلمان المجموعة ، مخترقة الأعمدة ، متوسطة جناحي البيت عبر الطرقة ودقت باب السيد بودنبروك .

وظهر كريستيان على الأثر تحمله ساقاه الهزيلتان المقوستان اللتان منيتا منذ أصيب بداء المفاصل بشيء من العرج الى حجرة المناظر الطبيعية في تؤدة ويسر يدلك جبينه الأصلع بيده .

قال : « ياللشيطان ياأطفال! لقد كدت أنسى! »

فردت أمه من قوله : « كدت... » وتولاها الجمود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فزاد : «أجل ، أنسى أن اليوم عيد الميلاد... كنت جالساً أقرأ في كتاب رحلات عن أميركا الجنوبية... ياالله! لقد شهدت أعياد ميلاد أخرى...»

وكان بسبيل الشروع في حكاية عيد ميلاد خبرها في لندن في ملهى من الدرجة الخامسة لولا أن هدوء الكنائس المرنق فوق الحجرة جعل يؤثر فجأة ، الى حد أن انسل الى مكانه على أطراف أصابعه متغضن الأنف . وأنشدت مجموعة الغلمان : «... ... ...» ـ المجموعة التي كانت من هنيهة تأتي أعمالاً صبيانية مسموعة بلغ من أمرها أن القنصل نهض من مكانه ووقف بالباب لحظة ليشعرها الاحترام ، ـ هذه المجموعة أنشدت نشيداً رائعاً بديعاً استولت فيه بأصواتها الرائقة التي ارتفعت نقية ، هاتفة ، حامدة ، على المشاعر ، وحلقت بالقلوب جميعاً ، وخففت من ابتسامة العوانس ، وحملت المسنين على أن يراجعوا أنفسهم ويستذكروا ماصنعوا في الحياة ، بينما أولئك الذين يعيشون فيها قد نسوا لحظة مايشغلهم من هموم .

وترك هانو ركبته التي كان يحيطها بيديه في تلك الأثناء ، وكان شاحب اللون جداً ، يعبث بأهداب الكرسي الجالس فوقه ، ويدير لسانه على سن من أسنانه ، فاتحاً فاه نصف فتحة ، يعلو وجهه تعبير من يرتعش من البرد . كان بين الحين والحين يحس الحاجة الى أن يتنفس الصعداء ، ذلك أنه الآن والغناء ـ ذلك الغناء الذي تؤدية المجموعة صافياً كرنين الأجراس يفعم الهواء ، كان قلبه ينقبض ويستحوذ عليه هناء يكاد يكون أليماً ـ ليلة عيد الميلاد ... التي ينفذ فيها نفح شجرة العيد من شقوق الباب العالي ذي المصراعين المدهون باللاكية الأبيض ، الموصد بإحكام وينبه ببهاره الحلو تصوره للعجائب الموجودة هناك في القاعة والتي ينتظرها كل عام من جديد بنبض يدق كأنها شيء فخم بعيد المنال لاتخرجه هذه الأرض... فما الذي أعد له هناك في داخل القاعة ؟ ماتشتهي نفسه بطبيعة الحال ، ذلك أنه يناله من دون سؤال ، مادام أن أحداً لم يقل له من قبل أن هذا محال . إن المسرح هو مايسترعي انتباهه في الحال ومايجب أن يرشده الى مكانه ، مسرح العرائس المشتهى الذي كان مؤشراً عليه في أول قائمة الرغبات المرفوعة الى الجدة . وقد ظل هذا هو الشيء الوحيد الذي جال بخاطره منذ «فيديليو»[1] .

أجل لقد زار هانو المسرح لأول مرة أخيراً تعويضاً له ومكافأة عن زياراته للسيد

---

(١) كابوس ليلي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برشت ، زار مسرح المدينة حيث جاز له أن يتابع « فيديليو » ألحاناً وحوادث ، كاتماً أنفاسه ، جالساً في الصف الأول الى جانب أمه . من ذلك الحين لم يعد يحلم بشيء سوى مناظر الأوبرا ، وأفعمت نفسه هوى للمسرح الذي لم يدعه يذوق طعم النوم . وقد كان يتأمل الناس في الشارع وحسده إياهم لايدركه تعبير ، الناس الذين اعتادوا غشيان المسرح كعمه كريستيان وأمثال القنصل دولمان والسمسار جوش ، فهل كان ارتيادهم إياه في كل مساء وشهودهم للمسرح مما يحتمل هناؤه ؟ لود أن يلقي ولو مرة في الاسبوع نظرة على القاعة قبل رفع الستار ويسمع اصلاح الآلات ويتأمل الستارة المسدلة بعض الوقت! ذلك أنه كان يحب كل شيء في المسرح : رائحة الغاز والحرارة والموسيقيين والستارة .

هل يكون مسرح دماه كبيراً ؟ عريضاً ؟ وكيف يكون منظر الستارة ؟ يجب أن يكون بها ثقب صغير بأقرب مما يستطاع ، لأنه أيضاً في مسرح المدينة ثقب للاستطلاع... فهل وجدت جدته أو الآنسة سيفيرين المناظر اللازمة لأوبرا «فيديليو» ؟ ذلك أن جدته لايمكن أن تعد كل شيء . سيعتكف غداً من فوره في مكان ما ويعرض التمثيل وحده من دون مساعد... وقد جعل أشخاصه تغني في ذهنه ، إذ أن الموسيقى عنده مرتبطة في الحال بالمسرح أوثق ارتباط... وختمت مجموعة الغلمان بغنائها : «هللي عالياً ياأورشليم! » والتقت الأصوات المتواصلة في المقطع الأخير في سلام وحبور ، وتلاشى الإئتلاف الواضح ، ورنق السكون العميق على بهو الأعمدة وحجرة المناظر الطبيعية ، وأطرق أعضاء الأسرة تحت وقر الاستراحة ، إلا المدير ڤاينشنك الذي كانت عيناه تجولان فيما حوله بلا خجل وفي جرأة ، ومدام بيرمانيدر التي كانت تتنحنح نحنحة جافة لم يكن سبيل الى كبحها . لكن القنصلة سارت متئدة الى المائدة واتّخذت مجلسها وسط ذويها على الأريكة التي لم تعد كما كانت في سالف الزمان منفردة منفصلة عن المائدة . وقد أصلحت من شأن المصباح ، وسحبت الانجيل الكبير الذي كان سطحه المذهب المحفور ، المصفر من الأيام ، عريضاً هائلاً . ثمّ وضعت النظارة على أنفها وفتحت كلا المقفلين الجلديين اللذين يقفلان الكتاب الضخم ، وفتحت الصفحة التي تميزها العلامة فظهر الورق السميك الخشن المصفر مطبوعاً بأحرف ضخمة ، وتناولت جرعة من ماء السكر وشرعت تتلو فصل عيد الميلاد .

تلت العبارات المألوفة من قديم في تؤدة وتوكيد بسيط يأخذ بمجامع القلوب ، وبصوت يتباين وضوحه وتأثره وحبوره مع السكون العامر بالتقوى .

قالت : «في الناس المسرة» لكنها لم تكد تسكت حتى رنّ من بهو الأعمدة ثلاثي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول : «أيتها الليلة الساكنة ، أيتها الليلة المقدسة» فاشتركت فيه الأسرة المجتمعة في حجرة المناظر الطبيعية ، وكانت في هذه المشاركة تجاوز بعض الشيء . إذ كان معظم الحاضرين لايستمتعون بموهبة من الناحية الموسيقية وكانت تند عن المجموعة هنا وهنا نغمة عميقة مباشرة... غير أن هذا لم يضر ماكان للنشيد من وقع... فقد أنشدته مدام بيرمانيدر بشفتين مرتعشتين إذا كان أحلى وآلم أثرا في قلب من كان يخلف وراءه حياة مضطربة ويتأمل ماضيه ساعة الاحتفال الوجيز الأمد في سلام... وكانت مدام كتيلزن تبكي في صمت بكاء مراً وإن كانت لم تسمع شيئاً تقريباً من بينهم جميعاً .

ونهضت القنصلة وتناولت يد حفيدها يوهان وحفيدتها الصغرى اليصابات واخترقت بهما الحجرة فانضم اليها المسنون من السادة والسيدات وتبعهم من هم أصغر سناً ـ . وكان الخدم واليهم الفقراء الذين يحسن البيت اليهم مجتمعين في بهو الأعمدة ، وبينما يغني الكل « ياشجرة الميلاد » بصوت واحد والعم كريستيان هناك في المقدمة يُضحك الأطفال وهو يرفع ساقيه كالدمية أثناء سير الموكب ويغني « ياشجرة الميلاد » في عناء ، خرج الناس وقد بهرت أبصارهم وعلا الابتسام وجوههم ، الى السماء مباشرة من الباب العالي المفتوح على مصراعيه .

وكانت القاعة بأكملها وهي تتضوع بنفخ بعض الأغصان المحترقة تضيء وتتلألأ بما لايحصى من اللهب الصغيرة ، وكانت زرقة السماء التي اتخذها توريق الحيطان المزدان بتماثيل الآلهة البيضاء تجعل المكان الرحب أسطع مما هو ، وكانت اللهب المندلعة من الشموع التي كانت تغطي شجرة الميلاد الهائلة القائمة هناك في المؤخرة بين النوافذ المسدلة عليها ستائر داكنة الحمرة ، تتلألأ في فيض الضوء العام كالنجوم البعيدة ، وشجرة الميلاد المزدانة بالبهرج الفضي والزنبق الكبير الأبيض ، وبملك يبرق فوق أعاليها ، ومنظر مزود قائم عند سفحها ، سامقة تكاد تصل الى السقف وعلى المائدة المفروشة بالقماش الأبيض الممتد طولاً وعرضاً من النوافذ الى الباب تقريباً محملة بالهدايا ـ صف من الشجيرات المحملة بالحلوى تشع بالمثل بضوء شمعات تحترق . وكانت أذرع الغاز تضيء فوق الشمعدانات المذهبة في جميع الأركان الأربعة ، وعلى أرض الغرفة أشياء كبيرة ، هدايا لم يوجد لها مكان فوق المائدة ، قائمة بعضها الى جانب بعض ، وموائد صغرى مفروشة بالمثل بالقماش الأبيض ومحملة بالعطايا ومزدانة بالأشجار المضيئة موجودة على جانبي البابين : هدايا للخدم وللفقراء الذين يلوذون بأهل البيت...

وطافوا بالقاعة يغنون وقد بهرت أبصارهم وغابت عنهم معالم المكان المألوف من قديم ، ومروا في طوافهم بالمزود يعرض تمثالاً ليسوع الطفل مجبولاً من الشمع وكأنه يرسم علامة الصليب فوقفوا عنده خاشعين بعد أن ألقوا نظرة على الأشياء واحد بعد الآخر .

وقد اختلط الأمر على هانو كل الاختلاط فلم يلبث بعد الدخول في البهو أن ألمت عيناه الباحثتان المتلهفتان بالمسرح... مسرح بدا في ضوء ماكان فوق المائدة هناك ، متناهياً في الحجم ، متناهياً في العرض كما لم يطمع أن يتصور . بيد أن مكانه كان قد تغير ، وقد وجده في موضع يقابل ذلك الذي كان في العام الماضي . وكان من أثر ذلك أن هانو ساوره في عجبه شك جدي في أن يكون هذا المسرح العظيم مخصصاً له . زد على ذلك أنه كان على الأرض تحت حافة الخشبة شيء كبير غريب قائماً ، شيء لم يكن في قائمته ما اشتهى ـ قطعة من الأثاث ، شيء يشبه مائدة الليل (الكومودينو)... فهل كان له ؟

وقالت القنصلة وقد رفعت الغطاء : «تعال يابني وانظر الى هذا! إني أعلم أنك تحب عزف الأناشيد... سيمدك السيد بفيل بالإرشادات اللازمة... ولابد من الوطء بخفة أحياناً وبقوة أخرى... ولايرفع المرء يديه بل يظل يبدل أصابعه قليلاً ...»

كان مارأى هارمونيوم . هارمونيوم صغيراً جميلاً مصقولاً باللون البني ، ذا مقابض من المعدن على جانبيه ، ومنافيخ ملونة تضغط ، وكرسي أنيق يلف . وضغط هانو ائتلافاً ، فرن صوت رقيق كالذي يصدر عن الأرغن جعل الواقفين من حوله يرفعون أبصارهم عن الهدايا... وعانق هانو جدته التي احتضنته ثم تركته لتتلقى شكر الآخرين .

وتحول الى المسرح ، وكان الهارمونيوم حلماً طاغياً ، لكنه لم يكن لديه في بادىء الأمر وقت للاشتغال به أكثر ، لقد كان الهناء الغامر الذي لايأبه فيه المرء لشيء فردي فيمر بكل شيء خطفاً فحسب كيما يتعلم مرة أن يلم بكل شيء... أوه! إن هذا مكمن الملقن على مثال المحارة ترتفع خلف الستارة العريضة فخمة حمراء مزخرفة . وكان المسرح يعرض مناظر الفصل الأخير من «فيديليو» ، والأسرى المساكين شابكي الأيدي ، ودون فيجارو بأكمامه البالغة الانتفاخ يترقب في مكان ما موقف مخيف ، والوزير يقترب من الخلف في خطى سريعة ، مرتدياً مخملاً أسود يستره كله ، ويسعى الى إصلاح كل شيء . وكان هذا المنظر شبيهاً بما يعرضه مسرح المدينة ، ولعله كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجمل ، وكانت أذن هانو ترجع هتاف المجموعة والختام فجلس الى الهارمونيوم ليعزف قطعة من ذلك كان يحفظها... لكنه عاد فوقف ليتناول الكتاب ، كتاب الأساطير اليونانية المشتهى الذي كان مجلداً كله بالأحمر يحمل على جلدته رسماً ذهبياً لبالاس أثينا . وأكل من طبقه الغاص بالحلوى واللوزية والفطائر السمراء ، وعاين الأشياء الصغرى كأدوات الكتابة وكراسات المدرسة ، وأنساه لحظة كل شيء آخر قلم حبر عليه حبة دقيقة من الزجاج في مكان ما ، حسب المرء أن يرفعه أمام نظره ليشهد أمامه شيئاً كأنه السحر ، منظراً طبيعياً سويسرياً مترامياً...

وطافت الآن الآنسة سيفيرين والفتاة التابعة بالشاي والبسكويت ، وبينما يتناول هانو من هذا ، أتيح له بعض الوقت أن يرفع بصره . وكان الحضور يقفون بالمائدة أو يسيرون جيئة وذهاباً يتحادثون ويضحكون ، يرى بعضهم بعضاً هدايا ويعجب بهدايا الآخرين . وكانت هناك أشياء من كل مادة : من البورسلين والنيكل والفضة والذهب والخشب والحرير والجوخ وفطائر كبيرة سمراء مرقشة باللوز ترقيشاً منظماً تقابلها أقراص ضخمة من اللوزية طرية دائماً لأنها طازجة تؤلف على المائدة صفاً طويلاً . وكانت الهدايا التي أعدتها مدام بيرمانيدر أو زخرفتها وهي كيس لأدوات الشغل وحمالة للنبات الورقي ، وحشية للأقدام ، مزدانة بشرائط كبيرة من الأطلس .

وكان الحاضرون يقصدون الى يوهان الصغير بين الحين والحين ، ويطوقون بنيقة البحارة بأذرعهم ، ويعاينون هداياه معجبين إعجاباً مشوباً بالاستخفاف الذي اعتاد الناس أن يرعوا به عجائب الأطفال . اللهم إلا العم كريستيان الذي لم يكن على شيء من هذه الغطرسة ـ غطرسة الكبار . فقد كان سروره بمسرح الدمى وهو يتسكع عابرا بمكان هانو ، حاملاً في اصبعه خاتماً ماسياً أهدته إليه أمه لايختلف إطلاقاً عن سرور ابن أخيه به .

قال : « يا للشيطان! إنه لمضحك! » وجعل يرفع الستارة وينزلها ويتراجع خطوة الى الوراء ليتأمل المنظر ، ثمّ استطرد فجأة يقول : « هل كانت هذه رغبتك ؟ ـ إذن كنت ترغب في هذا! » قالها بعد أن أجال بصره في جد غريب نهباً لأفكار « قلقة » .

قال : « لماذا ؟ كيف خطر لك هذا الخاطر ؟ هل ارتدت مسرحاً مرة ؟... أشهدت « فيديليو » ؟ أجل . إنها تمثل تمثيلاً حسناً... وتريد الآن أن تقلد ذلك ، كيف ؟ تقلده وتمثل الأوبرات بنفسك ؟... أكان للأوبرا هذا الوقع من نفسك ؟... اسمع يابني ، إني أنصح لك بألا تعلق فكرك بهذه الأشياء أكثر مما يجب... مسرح... ومثل هذا... إن هذا لايصلح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لشيء ، صدّق عمك . لقد شغلت نفسي بهذه الأشياء أكثر مما ينبغي ، ومن ثم لم أفلح في كثير... لقد ارتكبت أخطاء كبيرة ، يجب أن تعرف...»

كان يحاضر ابن أخيه في هذا جاداً ملحاً ، بينما كان هانو يرفع بصره اليه مستطلعاً ، ومع ذلك ، وبعد فترة ، كان وجه عمه الأعجف المترهل في خلالها يتهلل ، حرك فجأة شخصاً على خشبة المسرح ودفعه إلى الأمام ، ثمّ غنى بصوت أجوف يهتز ، يشبه نعيق الغراب : «ها ياله من جرم شنيع! » ثمّ رفع كرسي الهارمونيوم الى أمام المسرح وجلس فوقه ، وبدأ يعرض إحدى الأوبرات مغنياً ، ممثلاً ، مبادلاً بين حركات مدير الجوقة وأشخاص الممثلين . وتجمع من خلفه عدة أعضاء من الأسرة يضحكون ، ويهزون رؤوسهم ، ويتسرون . أما هانو فكان يرعاه في غبطة خالصة . لكنه بعد برهة ، وبشكل مفاجئ تماماً ، كف كريستيان . صمت وعلى وجهه سيماء الجد البادي الاضطراب ، وأمر يده على رأسه وعلى جنبه الأيسر ، والتفت بأنف منكمش ، وملامح تنضح بالهم ، الى الجمهور .

«نعم ، أترون ؟ هاهو ذا الألم يعود ثانية الآن . يعاودني العقاب ويثأر مني بمجرد أن أسمح لنفسي بشيء من الهزر . إنه ليس ألماً كما تعلمون ، إنه عذاب ، عذاب لايدرك كنهه لأن الأعصاب هنا كلها قصيرة ، إنها بكل بساطة أقصر مما يجب...»

بيد أن الأقارب لم يكترثوا لشكاواه كما لم يكترثوا لهزره ، وقل منهم من رد عليها وتفرقوا غير عابئين . وهكذا ظل كريستيان عندئذ جالساً برهة ، صامتاً أمام المسرح يتأمله بطرفات سريعة وهو نهب للأفكار ، ثمّ نهض .

وقال وهو يمسح على شعر هانو : «حسناً يابني . تسل به ، لكن لاتنشغل أكثر مما يجب... ولاتنس به أعمالك الجادة . أتسمعني ؟ لقد ارتكبت أنا أخطاء كثيرة... والآن أريد الذهاب الى المنتدى...» وصاح بالكبار : إني ذاهب قليلاً الى المنتدى... فهناك يحتفلون أيضاً بعيد الميلاد ، فإلى اللقاء . وخرج بساقيه اليابستين المقوستين مخترقاً بهو الأعمدة .

كان الجميع قد تناولوا طعام الغداء أبكر من المعتاد ، ومن ثم أخذوا من الشاي والبسكويت قدراً كبيراً ، لكنهم لم يكادوا يفرغون منه حتى أديرت عليهم صحفة كبيرة من البلور مليئة بعصيدة صفراء هي قشدة لوز . وكانت عبارة عن مزيج من البيض واللوز المسحوق وماء الورد ، طيبة المذاق ، لكنه إذا تناول المرء منها ملعقة صغيرة فوق ماينبغي له سببت لمعدته أشد الألم . ومع ذلك ، ومع أن القنصلة رجت أن يترك منها شيء قليل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوجبة العشاء فإن أحداً لم يضغط على نفسه أو يضبطها . فأما كلوتيده فقد أتت بالعجائب . فكانت تغترف قشدة اللوز كما لو كانت حنطة مقشورة . وقدم كمرطب هلام من النبيذ في أقداح من الزجاج كان يؤكل معه كعك انجليزي مرشوش بالبرقوق . وانسحبوا قليلاً قليلاً الى حجرة المناظر الطبيعية وتجمعوا بالأطباق من حول المائدة .

وبقي هانو في القاعة وحده ، ذلك أنهم كانوا قد ذهبوا بالصغيرة اليصابات ڤاينشنك الى البيت بينما سمح له هو بالبقاء لأول مرة لتناول طعام العشاء في شارع منج ، وكان خدم البيت وفقراؤه قد انسحبوا بهداياهم ، وايدا يونجمان تتحادث في بهو الأعمدة مع ريشكن سيڤيرين وإن كانت بوصفها مربية قد كانت تستبقي الفتاة على مبعدة منها وتتحفظ معها في العادة تحفظاً اجتماعياً صارماً . وقد ذابت شموع الشجرة الكبيرة وانطفأت بحيث طوى المزود الظلام . لكن بضع شموع على شجيرات كانت ماتزال تضيء على المائدة وبين الحين والحين يقع غصن طعمه لهيب ما ، فيشيط مطقطقاً ، ويقوي العبير المنتشر في القاعة . وكانت كل نسمة تمر بالأشجار تتساقط منها قطع الشرئط الذهبية المعلقة بها فيسمع لها هسهسة معدنية رقيقة . وعاد السكون الكافي لسماع عزف الأرغن الدوار الذي كان يتناهى من شارع بعيد يتخلل المساء المقرور .

واستمتع هانو بروائح عيد الميلاد وأصواته في شغف ، وقرأ وهو يعتمد رأسه في يده في كتاب الأساطير ، وأكل بصورة آلية ، ولأنه من بين من حق لهم الأكل ، أكل من الفاكهة المطبوخة واللوزية وقشدة اللوز وكعك البرقوق ، وامتزج عنده الضيق الذي سببته المعدة المتخمة بالإبتهاج الحلو الذي أحدثه المساء فكان منهما شعور أسى بالسعادة . قرأ عن المعارك التي خاضها زيوس ليفوز بالسيادة ، وكان ينصت بين آن وآخر لحظة الى مايدور في حجرة الجلوس من بحث مستفيض في مستقبل العمة كلوتيلده .

وكانت كلوتيلده أسعدهم جميعاً في هذا المساء بلا مراء ، تتلقى من كل النواحي التهاني وتتعرض للإغاظات على السواء وتقابلها بابتسام يتهلل منه وجهها المتّسم بلون الرماد ، وكان صوتها يتقطع أثناء الكلام غبطة . وقد قبلت في دير يوحنا . وانتزع السناتور هذا القبول من مجلس الإدارة خلسة ، وإن كان بعض السادة تذمروا سراً من محسوبية الأقارب . وقد دار الحديث حول هذه المؤسسة المحمودة التي تطابق أديرة النساء النبيلات في ميكلنبورغ وروبرت هين وريبنتس ، وترمي الى إعالة المعدمات من الفتيات المتقدمات في السن المنتميات الى أسر كريمة قديمة بما يحفظ عليهن كرامتهن . وقد ساعدوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلوتيلده الفقيرة على أن يكون لها ايراد صغير لكنه مضمون ، إيراد يزداد مع الأيام ويضمن لها في نفس الدير مسكناً هادئاً نظيفاً إذا مابلغت أعلى درجة بين المستحقات وطعنت في السن...

وتلبث يوهان الصغير برهة عند الكبار ثمّ عاد الى القاعة التي كانت لها وقد خف ماترسلة من الضوء ولم تعد في روعتها تثير الرهبة والعجب كما كانت من قبل ، فتنة من نوع جديد . فقد كان ما يثير فيه غبطة غريبة كل الغرابة أن يجوب أطرافها كأنه في مسرح بعد ختام الرواية ويستطلع قليلاً وراء الكواليس ، ويتأمل عن كثب زنبق شجرة الميلاد الضخمة والإنسان ، ويهتدي الى الشموع التي كانت تضيء النجم الشفاف السابح فوق اسطبل بيت لحم ، ويرفع مفرش المائدة المتدلي ليكشف عن الكمية الكبيرة المختزنة من الورق المقوى تحت المائدة .

وخفت أيضاً جاذبية الحديث الذي كان يدور في حجرة المناظر الطبيعية رويداً رويداً وتحول تدريجياً الى تلك المسألة المتعبة التي سكتوا عنها الى الآن تكريماً للمساء المحتفل به ، لكنها مع ذلك لم تكف لحظة عن أن تشغل بالهم جميعاً : تلك هي قضية المدير ڤاينشنك . وهوجو ڤاينشنك نفسه لم يفته أن يلقي عنها محاضرة فاضت لها ملامحه وحركاته بشراً جارفاً فروى تفاصيل شهادات الشهود التي اعترضها العيد ، وأنحى باللائمة الشديدة على تحامل الرئيس الدكتور فيلاندر بصورة ملحوظة وسخر في كبرياء من لهجة الاستهزاء التي رأى وكيل النائب العام ، الدكتور هاجنشتروم أن يستعملها معه ومع شهود النفي . هذا الى مافنده برسلاو من أقوال شهود الإثبات بألمعية فائقة ، وماأكده له من أن لامعنى في الآونة الراهنة للتفكير في صدور حكم عليه ـ وكان السناتور يوجه هنا وهنا سؤالاً ما تأدباً منه ، ومدام بيرمانيدر التي كانت تجلس على الأريكة رافعة كتفيها ، تتمتم أحياناً لعنة فظيعة تصبها على موريتس هاجنشتروم . أما الباقون فكانوا صامتين ، وكان صمتهم عميقاً الى حد أن المدير كذلك لم يلبث أن كف عن الكلام . وبينما كان الوقت يمر هناك في القاعة بالصغير هانو سريعاً كما يمر في ملكوت السماء ، كان يرنق على حجرة المناظر الطبيعية سكون مرهق مقبض يعروه الخوف ، استمر بعد ذلك أيضاً لما آب كريستيان في التاسعة من المنتدى من حفلة عيد الميلاد التي أقامها الأعازب والمستهترون .

كان بين شفتي كريستيان عقب سيجار بارد ، وكان خداه الأعجفان محمرين فجاء

يخترق القاعة ويقول عندما دخل حجرة المناظر الطبيعية : « إن القاعة يا جماعة بديعة بلا ريب! ڤاينشنك! كنا خلقاء أن نحضر اليوم برسلاو معنا ، فإنه على التحقيق لم يشهد مثل هذا بعد ... »

فسددت اليه القنصلة نظرة هادئة شزراء تريد تأديبه ، فرد عليها بسيماء المتسائل الجريء الذي يعز عليه الفهم - وفي التاسعة قاموا الى تناول العشاء .

وقد مدت المائدة ككل سنة في مثل هذا اليوم في بهو الأعمدة وتلت القنصلة صلاة المأدبة في عبرة صادقة من القلب :

« أيها السيد المسيح تعال وكن ضيفنا

وبارك ماوهبتنا »

وختمتها بخطاب وجيز حثّت فيه على الأخص على تذكر كل أولئك الذين لم يمن الله عليهم هذا المساء بما منّ على أسرة بودنبروك...ولما انتهت جلسوا راضي النفس الى وجبة مديدة بدأت بسمك الشبوط الراقد في الزبد المذاب ونبيذ معتق من نبيذ الراين .

وقد نثر السناتور بضع حراشف من السمك الى كيس نقوده كيلا تنفد منه النقود طيلة العام . بيد أن كريستيان لاحظ متكدراً أن هذا لايجدي ، ولم يحتج القنصل كروجر الى مثل هذه التعويذات إذ لم يكن ثم مايخشاه من تقلبات سوق الأوراق المالية ، وأنه بالشلن ونصف الشلن اللذين يتبرك بهما آمن من زمن طويل . وكان السيد المسن يجلس بعيداً من زوجه على قدر الإمكان فهو الذي لم يوجه اليها من سنين وأيام كلمة واحدة لأنها لم تكف عن موافاة يعقوب المحروم من الميراث بالمال في الخفاء . وكان يعيش في لندن أو باريس أو أمريكا ، أو حيث لايعرف سواها ويحيا حياة مفككة . وقد قطب جبينه وقطب وجهه لما أنتقل الحديث في الدور الثاني الى أعضاء الأسرة الغائبين ، ورأى كيف تجفف الأم الضعيفة دمعها . وقد ذكروا من هم في فرانكفورت ومن في هامبورغ ، وتذكر الأب تيبورتيوس في ريجا من دون أن يحملوا له ضغناً ، وقارع السناتور أخته توني الكأس في سكون تام ، شارباً نخب جرينليش وبيرمانيدر اللذين يعدان بمعنى ما في جملة الغائبين .

وأثنى الجميع على دجاجة رومية محشوة بمزيج من أبي فروة والزبيب والتفاح . وقد قورن بينها وبين ألوان منها قدمت في سنوات سابقة فكانت نتيجة المقابلة أنها أعظم ماأعد منذ أمد طويل . وقدم بطاطس محمر وصنفان من الخضر وآخران من الفاكهة المطبوخة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الصحاف المدارة تحتوي أنصبة كاملة كأن الأمر عند كل فرد لايعني قطعة إضافية أو ملحقاً بل يتعلق بصنف أساسي ينبغي أن يمتلىء منه الجميع ويشبعوا... وقد احتسوا نبيذاً أحمر معتقاً من نبيذ مولندروف .

وجلس يوهان الصغير بين أبويه وحشر جاهداً قطعة بيضاء من لحم الصدر في معدته الى جانب الحشو ولم يستطع أن يأكل بمقدار ماأكلت العمة تيلده ، بل أحس التعب وأنه متوعك . وكان ماأهمه أنه كان مزهواً بالسماح له بالأكل مع الكبار ، وأنه كان على فوطته المطوية طياً ينم عن الفن رغيف من الأرغفة المعجونة باللبن المرشوشة بالشمر ، وأنه كانت أمامه أيضاً ثلاثة أقداح للنبيذ ، بينما هو لايشرب في غير المناسبات إلا من قدح ذهبي صغير أهداه اليه أبوه بالتعميد الخال كروجر . لكنه لما ظهرت بعدئذ المثلجات الحمراء والبيضاء والبنية والخال يوستوس يصب في الأقداح الصغرى نبيذاً يونانياً أصفر بلون الزيت ، تحركت شهيته من جديد ، فالتهم مثلجة حمراء ثمّ نصف مثلجة بيضاء ، وإن كان هذا قد آلم أسنانه ألماً يكاد لايطاق . ثمّ مد يده أخيراً الى البنية المحشوة بالشكولاته فتناول منها قطعة للتجربة ، وقرقش رقاقاً اليها ، وارتشف من النبيذ الحلو ، وأصغى الى العم كريستيان الذي كان قد أخذ في الكلام .

قص عن احتفال عيد الميلاد الذي أقيم في المنتدى وكان على قوله غاية في المرح ، وقال بتلك اللهجة التي ألف أن يتحدث بها عن جوني ثندرستورم : « ياإلهي! كان الأخوان يجرعون من البونش السويدي كما يحتسون الماء! »

ولاحظت القنصلة في إيجاز قائلة : « خسئاً » وغضت بصرها .

لكنه لم يلتفت الى ذلك ، بل أخذت عيناه تجولان ، وأفكاره وذكرياته تبعث فيه وتخطف على وجهه النحيل الظلال .

وسأل : « أمنكم من يعرف ماذا يكون لو شرب أحدكم أكثر مما ينبغي من البونش السويدي ؟ إني لست أعني السكر ، ولكن ذلك الذي يأتي في اليوم التالي ، العواقب... إنها غريبة ووخيمة... أجل غريبة ووخيمة في وقت واحد » .

فقال السناتور : « سبب كاف لوصفها بالدقة » .

وقالت القنصلة : « كفى ياكريستيان ، إن هذا لايهمنا في قليل أو كثير » .

لكنه لم يأبه... فقد كان من غرائبه إلا يكترث في مثل هذه اللحظات لأي اعتراض فسكت برهة ثم بدا بغتة أن ذلك الذي كان يحركه قد بات معداً للقول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال وهو يلتفت الى أخيه متغضن الأنف : «إنك تلف وتشعر بالغثيان والصداع وإن أمعاءك ليست على مايرام... ومع ذلك فمثل هذا يقع في مناسبات أخرى . لكنك تشعر بأنك قذر» . ودعك كريستيان يديه وقطب وجهه إمارة التقزّز . «تشعر بأنك قذر لم تغتسل في جسمك كله ، فتغسل يديك عبثاً وتحسها رطبة غير نظيفة وتشعر على أظافرك بالدهن ، فتستحم بلا طائل ، ويبدو لك جسمك كله لزجاً غير نقي ، ويضايقك جسمك كله ، وتشمئز منه . أو تعرف هذا ياتوماس ، أتعرفه ؟»

فقال السناتور بحركة ناهية : «أجل ، أجل» . لكن كريستيان مضى في كلامه بتلك الجلافة الغريبة التي لم تزدد مع الأيام إلا بروزاً فيه ، والتي أعمته عن أن يرى أن هذا الشرح قد آلم الجالسين على المائدة عن بكرة أبيهم ، وأنه في هذه البيئة وهذا المساء لم يكن في موضعه . ومضى يصف الحالة السيئة التي يتعرض لها من يسرف في احتساء البونش السويدي حتى اعتقد أنه قد وفاها حقها من التشخيص فلاذ بالصمت شيئاً فشيئاً .

وقبل أن ينتقلوا الى الزبد والجبن عاودت القنصلة الخطاب موجهة إياه الى ذويها فقالت : «إذا لم يكن كل شيء قد اتّخذ على مر السنين الشكل الذي تمناه كل قصير النظر أخرق ، فقد تبقى على كل حال ماهو فوق الكفاء من البركة البينة لتفعم القلوب حمداً لله وشكراً . وتبدل الهناء والشقاء لما يدل في ذاته على أن الله لم يرفع يده عن الأسرة قط وأنه سدد خطاها ويسددها نحو نيات عميقة حكيمة لايجوز للمرء أن يتجاسر فيحاول سبر غورها قلقاً . والآن لنتقارع في وفاق بقلوب ملؤها الرجاء ولنشرب نخب الأسرة ومستقبلها ، ذلك المستقبل الذي سيحل حين يكون الشيوخ وكبار السن من بين الحاضرين قد ووروا التراب البليل... لنشرب نخب الأطفال الذين يخصهم في الحقيقة والواقع احتفال اليوم...»

ولما كانت طفلة المديرڤاينشنك قد انصرفت فقد وجب على الصغير يوهان ، والكبار يشربون أنخاب بعضهم بعضاً ، أن يطوف وحده من حول المائدة ليقارع الجميع من جدته الى الآنسة سيڤيرين فنازلاً . فلمّا وصل الى والده رفع السناتور وكان يدني كأسه من كأس هانو ، ذقن أبيه في رقة لينظر في عينيه... لكنه لم يجد له نظرة ، ذلك أن أهداب هانو الطويلة العسلية كانت مرخاة عميقة تصل الى الهالة الزرقاء الرقيقة المحيطة بعينيه .

على أن تيريزه ڤيشبروت اعتمدت رأسه بين يديها وقبلته على كل وجنة قبلة مفرقعة خافتة وقالت في توكيد قلبي الى حد أن الله تركها مع الطفل وشأنها : «لتكن من أبناء السعادة أيها الطفل الطيب!»

وبعد ساعة كان هانو في فراشه القائم الآن في الغرفة التي يدخل اليها من طرقة الطابق الثاني والتي تلاصق عن اليسار حجرة لبس السناتور . كان مستلقياً على ظهره مراعاة لمعدته التي لم يوافقها بحال كل ما اضطر الى تناوله في المساء ، ناظراً الى ايدا الطيبة بعينين مقرّحتين ، وكانت قد جاءت من حجرتها في سترتها الليلية تحمل قدحاً من الماء ترسم به في الهواء حركات دائرية كمن يقلب شيئاً . فتجرع منه نترون بيكاربونات الصودا مسرعاً وقطب وجهه ثم ارتمى ثانية على الفراش .

قال : «أعتقد أني يجب أن أستسلم كل الاستسلام يا ايدا» .

«ماذا تقول ياصغيري . استلق فقط على ظهرك في سكون... لكن أرأيت ؟ من الذي أشار عليك مراراً ، ومن الذي لم يرد الانصياع ؟ إنه صغيري...»

«أجل ، أجل . لكن لعل العاقبة تكون سليمة... متى تأتي الأشياء يا ايدا ؟»

«غداً صباحاً ياصغيري...»

«وتوضع لي هنا! وتكون لي على الفور!»

«حسناً ياهانو الصغير! لكن يجب أن تأخذ قسطك من النوم كاملاً» . وقبلته وأطفأت النور وانصرفت .

لقد بقي وحده . وبينما قد أسلم نفسه ، وهو مستلق في سكون ، الى تأثير النترون الطيب تجلت لعينيه المغمضتين بهجة قاعة الهدايا من جديد ، فرأى مسرحه وهارمونيته وكتاب أساطيره ، وسمع من مكان ما عن بعد : «هللي عالياً ياأورشليم!» تنشده جماعة الغلمان . كان كل شيء ساطعاً وكانت حمى فاترة تطن في رأسه وقلبه الذي تولاه من المعدة المتمردة شيء من الضيق وداخله شيء من الخوف يخفق في بطء وشدة ويدق في غير انتظام . في هذه الحالة من التوعك والإنفعال والضيق والتعب والهناء رقد هانو طويلاً لكنه لم يستطع النوم .

وفي غد حلّ المساء الثالث لعيد الميلاد ودور تقديم الهدايا عند تيريزة ڤيشبروت فسر به كما يسر من لعبة صغيرة مضحكة . وكانت تيريزه ڤيشبروت قد تخلت في العام الماضي عن مثواها كل التخلي بحيث تشغل الآن مدام كتيلزن الطابق الأول وحدها وتشغل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هي الطبقة الأرضية من البيت الصغير الكائن في ميلنبرك وحدها أيضاً . وقد ازداد مع الأيام ماتشكو منه وماسببه لها جسمها المرزوء العليل ، وفرضت زيزيمي ڤيشبروت وهي في منتهى الرضى والاستعداد المسيحي أن الأجل قد دنا . ومن ثم كانت منذ عدة سنين تعد كل احتفال بعيد الميلاد آخر احتفال تشهده ، فلم تن عن اكساب الاحتفال الذي تقيمه في غرفها الصغيرة التي تسرف في تدفئتها مايسع قواها الضئيلة أن توفره من بهاء . ولما كانت عاجزة عن شراء الكثير فقد كانت تقدم في كل عام على سبيل الهدية جانباً آخر مما تحوزه من أشياء متواضعة ، وتقيم تحت الشجرة مايمكنها أن تستغني عنه من زخارف فحسب ، وثقالات ورق ، وحشايا ابر ، وزهريات من الزجاج ونتف من مكتبتها هي كتب قديمة في أحجام وجلدات مضحكة مثل «يوميات سرية لمراقب لذاته» وقصائد ألمانية لهيبل و«مجازات كرومماخر»... وفي حوزة هانو منها طبعة «لأفكار بليز باسكال» يبلغ من صغرها أنه يتعذر القراءة فيها من دون نظارة مكبرة .

أما شراب «الأسقف» فكانت منه مقادير لاتنضب وكانت الفطائر السمراء المعدة مع انجفر طيبة المذاق الى درجة هائلة . لكنه لم يقع قط أن مر مثل هذا المساء من دون أن تحدث مفاجأة أو يقع مصاب أو تحل كارثة ما صغيرة تثير ضحك الضيوف وتزيد ربة البيت حمية وهي حمية صادقة ، والفضل فيما يقع يرجع الى التفاني والتوثب اللذين كانت الآنسة فيشبرون تبديها في كل مرة وفي الاحتفال الأخير لعيد الميلاد ، فيسقط ابريق مليء «بالأسقف» ويغمر كل شيء بالشراب الأحمر الحلو المتوبل... أو تطيح الشجرة المزوقة عن قوائمها الخشبية في نفس اللحظة التي يدخل فيها الضيوف غرفة الهدايا بإحتفال...

وقد رأى هانو في منامه حادث العام الفائت ماثلاً لعينيه ؛ وقد وقع قبيل تقديم الهدايا إذ كانت تيريزه ڤيشبروت تتلو فصل عيد الميلاد في توكيد شديد تبادلت فيه أحرف العلة المتواضع فتراجعت عن ضيوفها الى الباب لتلقى عنده خطاباً وجيزاً . ووقفت على عتبة الباب حدباء ضئيلة الجسم قد وضعت يديها النحيلتين في السن على صدرها الذي يشبه صدور الأطفال ، وتدلت أشرطة قلنسوتها الحريرية الخضراء على كتفيها ، يضيء لها الكلمات عند رأسها مصباح مكلل بأغصان شجرة الميلاد . قالت : «المجد لله في الأعالي!» وتكلمت عن فضل الله وذكرت أن هذا آخر احتفال لها في عيد الميلاد ثم ختمت بحث الجميع بعبارات الرسول على المرح والحبور ، الأمر الذي ارتعشت خلاله ،

إذ بهذا القدر كان جسمها الضئيل يساهم كله في هذا الحث . وكالت برأسها الى جنب وهزّته بعنف وقالت : «افرحوا! ومرة أخرى أقول : افرحوا» بيد أنه في هذه اللحظة التهب الفانوس كله فوقها محدثاً صوتاً يشبه النفخ والنهج والطقطقة فاضطرت الآنسة فيشبروت اتقاء للشرر المنهمر أن تصيح من الذعر صيحة مقتضبة وأن تقفز قفزة ماهرة بديعة لاتخطر ببال .

وقد تذكر هانو هذه الفقرة التي أدتها الآنسة العجوز فجعل يضحك ، واستمر ضحكه عدة دقائق وهو مأخوذ ، منفعل ، ثائر الأعصاب ، متسل في كل هذا . وكان يضحك ضحكاً خافتاً مكتوماً في الوسادة .

الفصل التاسع

كانت مدام بيرمانيدر تسير على امتداد شارع منج مسرعة جداً ، وفي هيئتها مايدل على شيء منحل ، لايشير الى وقارها وجلالها سوى كتفيها ورأسها اشارة عابرة : الوقار الذي كان في العادة يحف بشخصها . وكانت مكروبة متعجلة تسير بأقصى سرعة فلم تستجمع من هذا الوقار سوى القليل مثلها كمثل الملك المهزوم الذي يجر وراءه البقية الباقية من جنده ويركن معها الى الفرار .

مسكينة ، إنها لاتبدو بخير! فشفتها العليا ـ تلك الشفة الناتئة المقوسة التي عاونت من قبل على تجميلها ، كانت ترتعش الآن ، وكانت عيناها تحملقان من الخوف ، تنظران الى الأمام وهما تطرفان طرفاً غريباً وتتجهان بالمثل في استقامة... وكانت تسريحتها تبدو مشوشة تحت قبعتها المقلنسة ومحياها يبدي ذلك اللون الأصفر الباهت الذي يتخذه كلّما ساءت حالة معدتها .

أجل لقد كانت حالة معدتها في هذا الوقت سيئة وأمكن الأسرة أن تلاحظ هذا السوء في أيام الخميس ، فكيف السبيل الى اتقاء الكارثة ؟ ـ لقد جنح الحديث الى قضية ڤاينشنك وكانت مدام بيرمانيدر نفسها توجهه هذه الوجهة لايصرفها عنها صارف ، ثم شرعت تسأل وتنشد الجواب عند الله والناس جميعاً وَهي منفعلة أشد الإنفعال : كيف يمكن أن ينام موريتس هاجنشتروم وكيل النائب العام ، أن ينام بالليل نوماً هادئاً ؟ إنها لاتصدق هذا! لايمكنها قط أن تفهمه... . وكانت تزداد عند كل كلمة انفعالاً ، وقال : «أشكركم ، إني لن آكل شيئاً » ونحت كل شيء وهي ترفع كتفيها وتطرح رأسها الى الوراء وتتراجع وحيدة الى قمة غضبها كي لا تتناول غير الجعة الباڤارية الباردة التي اعتادت تناولها منذ عهد زواجها في

ميونيخ ، فتفرغها في معدتها الخاوية التي اضطربت أعصابها فانتقمت لنفسها انتقاماً مريراً ، إذ اضطرت الى النهوض حوالي ختام الوجبة والهبوط الى الحديقة أو الفناء لتعاني هناك أشنع التقيئات مستندة الى ايدا يونجمان أو ريكشن سيڤيرين . وقد لفظت معدتها ماوعته ومضت تتابع تقلصاتها الأليمة وتواصل هذه الحالة التشنجية عدة دقائق . وإذا كانت عاجزة عن لفظ شيء فوق الذي لفظت فقد ظلت طويلاً تتلوى وتتألم...

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان اليوم من يناير عاصفاً مطيراً ، فلمّا بلغت مدام بيرمانيدر زاوية «حفرة السماكين» عرجت وهبطت الشارع المنحدر الى بيت أخيها مسرعة . وبعد دق متواصل دخلت من الرحبة الى مكتبه وأمرّت بصرها عبر الدرج الى مكان السناتور مخترقاً النافذة وأتت من رأسها بحركة تنطق بالتوسل حتى لقد ألقى توماس بودنبروك القلم جانباً ونهض بلا تردد لملاقاتها...

قال وهو يرفع أحد حاجبيه : «خيراً!...»

قالت : «لحظة ياتوماس... أمر عاجل... لايتحمل الإبطاء...»

ففتح لها الباب المنجد الى مكتبه الخاص وسحبه وراءه بعد أن دخل كلاهما ، وتأمل اخته متسائلاً!

قالت بصوت مضطرب وهي تعتصر يديها في دثارهما من الفرو : «توم ، يجب أن تقدمها... أن تعدها مؤقتاً . يجب أن تدفعها ، أرجوك ، الكفالة... فلسنا نملكها... فمن أين نأتي الآن بخمسة وعشرين ألف مارك ؟... ستستردها كاملة غير منقوصة... وفي أقرب فرصة... فأنت مدرك... لقد وقع الأمر بحيث... صفوة القول أن القضية قد بلغت نقطة طلب هاجنشتروم عندها أما القبض في الحال وإما دفع كفالة قدرها خمسة وعشرون ألف مارك . ويعدك ڤاينشنك بشرفه أن يبقى حيث هو فلا يبرح مقامه...»

فقال السناتور وهو يهزّ رأسه : «أوصل الأمر حقاً الى هذا الحد ؟»

قالت : «أجل ، الى هذا أوصله الأوغاد الأشقياء...!» وارتمت ، وهي تنتحب انتحاباً يغمر غضبها ، على المقعد المكسو بالمشمع الذي كان قائماً الى جانبها واستطردت تقول : «وسيدفعون به الى أبعد من ذلك ياتوم ، سيصلون به الى النهاية...»

قال وهو يجلس منحرفاً أمام مكتبه المصنوع من خشب الموغنا ، ويضع ساقاً على ساق ، ويعتمد رأسه في يده : «توني ، قولي صراحة ، أما تزالين تؤمنين ببراءته ؟»

فشهقت مرات ثمّ أجابت في خفوت ويأس : «كلا ياتوم... كيف يسعني ذلك ؟ أنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالذات ، أنا التي قدر لها أن تشهد هذا الشر الكثير ؟ إني لم أستطع هذا منذ البداية وإن كنت قد جاهدت بشرف . إن الحياة كما تعلم تجعل من المرء أن يؤمن ببراءة أي انسان... كلا ، لقد ساورتني الشكوك من أمد طويل في راحة ضميره . وايريكا نفسها... لقد حارت في أمره... واعترفت لي بذلك وهي تبكي... حيرها مسلكه في البيت . وقد سكتت بطبيعة الحال... إذ كان مظهره يزداد مع الأيام خشونة ، وكان في غلظته يزداد على الدوام قسوة في الطلب ، كان يطلب أن تكون ايريكا مرحة وأن تسلي عنه همومه ، وكان يحطم الأواني إذا لبثت جادة . إنك لاتعلم كيف كان الحال إذا اختلى في وقت متأخر من المساء ساعات بأوراقه... فإذا دُق عليه الباب سمعنا كيف يثب ويصيح : من هناك! من هناك!... »

ولزما الصمت .

وعاودت مدام بيرمانيدر الكلام ، وهنا انتفخ صوتها وهي تقول : «لكن ليكن أنه مذنب وليكن أنه مجرم ، فإنه لم يعمل لحسابه بل لحساب الشركة . وعندئذ... اللهم غفرانك! إن في هذه الدنيا اعتبارات تجب مراعاتها ياتوم... لقد تزوج منا ، فهو ينتمي الينا... ولن يسعنا أن نلقي بأحد منا في السجن ، أيتها السماء ، رحماك!... »

فهز كتفيه .

« إنك تهزّ كتفيك ياتوم... إذن أنت تريد أن تحتمل الأمر ، أن تطيق تجاسر هذه الحثالة على تطفيح الكيل ؟ يجب أن تفعل شيئاً! لايصح أن يحكم عليه!... . إنك يد المحافظ اليمنى... يا إلهي! ألا يستطيع مجلس الشيوخ أن يصدر في الحال عفواً عنه ؟... أريد أن أقول لك شيئاً... قبل أن أجيء ببرهة كنت على وشك الذهاب الى كريمر لأتوسل اليه أن يتدخل في القضية... إنه رئيس البوليس... » .

« أيتها الطفلة ماهذه الحماقات! »

« حماقات ياتوم ؟ ـ وايريكا ؟ والطفلة ؟ » ورفعت في وجهه دثار يديها متوسلة . ثمّ صمتت لحظة وأرخت ذراعيها ، واستعرض فمها ، وألمت بذقنها المتجعدة رعشة ، وبينما تفجرت تحت جفونها المرخاة دمعتان كبيرتان أضافت في خفوت تام : « وأنا... ؟ »

فقال السناتور : « تشجعي ياتوني! » واقترب منها متأثراً ، مأخوذاً بقلة حيلتها ليمسح على شعرها معزياً « ليس كل نهار مساء ، فما يزال لم يحكم عليه . وقد تكون العاقبة خيراً كلها . فالآن أدفع الكفالة أولاً فلست أرفض بطبيعة الحال ، وبعدئذ نعتمد على أن برسلاو رجل حاذق... »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهزّت رأسها باكية وقالت : « كلا ياتوم فلن تكون العاقبة خيراً ؟ لاأعتقد ذلك . فسيحكمون عليه ، ويزجون به في السجن ، وعندئذ يأتي على ايريكا وعلى الطفلة وعلي وقت عصيب . إن بائنتها لم تعد موجودة فهي موضوعة في الجهاز والأثاث والصور... وعند البيع لانحصل ربع قيمتها... وقد كنّا نستهلك المرتب دائماً... فلم يخلف ڤاينشنك شيئاً . وسننتقل الى الأم إذا سمحت الى أن يفرج عنه... وستسوء الأحوال عندئذ عما كانت تقريباً ، فأين يكون المصير به وبنا... سيكون مآلنا الجلوس على الصخور » . وانتحبت .

قال : « على الصخور! »

« أي نعم ، هذا تعبير... تعبير مجازي... كلا لن تكون الخاتمة حسنة...وقد نزل بي في المصائب أكثر مما ينبغي... ولست أعلم بماذا استحققت هذا... لكنني لم يعد يحدوني الرجاء ، فسيقع لإيريكا ماوقع لي مع جرينليش وبيرمانيدر... الآن تستطيع أن تتبين الأمر ، الآن تستطيع أن تحكم عن كثب كيف هو ، وكيف يقع ، وكيف ينزل بنا! فهل نملك دفعه ؟ إني أرجوك ياتوم ، هل يملك أحد شيئاً فيه! » وكررت هذا وهي تومىء اليه متسائلة سليبة العزاء ، وتتأمله بعينين واسعتين مغرورقتين بالدمع . واستطردت تقول : «لقد حبط كل شيء توليته وانقلب الى كارثة... وأنا المفعمة بالنيات الطيبة ، علم الله!... لقد كنت أتمنى من الصميم أن أوفق في الحياة الى شيء ، وأن يكون لي فيها حظ من التكريم... والآن ينهار هذا أيضاً ، وعلى هذه الصورة لابد أن تكون النهاية... الأخيرة . »

وبكت وهي معتمدة على ذراعه التي طوقها بها مطيباً خاطرها ، بكت حياتها الفاشلة التي تذرّت فيها آمالها الأخيرة .

●

بعد ذلك باسبوع حكم على المدير فوجو ڤاينشنك بالسجن ثلاث سنوات ونصف سنة واعتقل في الحال .

وكان الإقبال على جلسة المرافعات شديد جداً ، فترافع فيها المحامي الدكتور برسلاو من برلين كما لم يترافع أحد على مسمع من الناس ، وجعل السمسار سيجموند جوش يتغنى ويفح ويتحمس أسابيع لما احتوت المرافعة من تهكم . ولما كان لها من تأثير ووقع . وجلس كريستيان بودنبروك ، وكان أيضاً حاضراً ، خلف مائدة في المنتدى ، ووضع أمامه رزمة من ورق الصحف كأنها إضبارة ، وألقى نسخة طبق الأصل من مرافعة الدفاع . هذا الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماأعلنه في البيت من أن التشريع أجمل مهنة ، أجل ، وأنها مهنة خلقت له... حتى وكيل النائب العام الدكتور هاجنشتروم الذي كان من رجال الفن والأدب أدلى بتصريحات خاصة قال فيها أن خطبة برسلاو هيأت له متعة حقة . بيد أن موهبة المحامي الشهير لم تمنع رجال القانون في المدينة من أن يربتوا على كتفه ويقولوا له بكل بساطة قلب أنهم لم يمكنوه من الضحك على ذقونهم .

ثمّ أنه بعد أن تمّت المبايعات لم يكن بد منها بعد اختفاء المدير بدأ أهل المدينة ينسون هوجو ڤاينشنك . لكن سيدات بودنبروك الساكنات الشارع العريض اعترفن في أيام الخميس على مائدة الأسرة أنهن بمجرد أن رأين هذا الرجل تبين في عينيه أن ليس كل شيء فيه على مايرام ، وأن خلقه حافل بالشوائب ، وأن خاتمته لن تكون خيراً ، وإن هناك اعتبارات ، يأسفن الآن أنهن ماكان يجمل أن يغفلنها ، حملتهن على أن يكتمن هذا الشيء المحزن الذي تبينه فيه .





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

خرج السناتور بودنبروك من مخدع نوم القنصلة خلف السيدين الدكتور الشيخ جرابو والدكتور الشاب لانجهالز أحد أفراد أسرة لانجهالز الذي يزاول مهنته في المدينة منذ سنة تقريباً ، الى غرفة الإفطار وأوصد عليه الباب .

قال : «أرجوكما يا سيدي... لحظة» وصعد بهما الدرج واجتازا الطرقة وبهو الأعمدة الى حجرة المناظر الطبيعية حيث كان الموقد يدفئها من جو الخريف الرطب البارد ، واستأنف الكلام فقال : «إن قلقي أمر تفهمانه... فتكرما بالجلوس! طمئناني إذا أمكن!»

فأجاب الدكتور جرابو : «يالله ياحضرة السناتور!» وكان قد اتكأ مرتاحاً ، وذقنه في ربطة رقبته ، وأسند حافة قبعته بكلتا يديه الى معدته ، بينما الدكتور لانجهالز وهو رجل ربعة ، أسمر اللون ، مفتول الشارب ، منتصب الشعر ، ذو عينين جميلتين وسيماء تتميز بالعجب ، قد وضع قبعته العالية بجانبه على السجادة ، وجعل يتأمل يديه الصغيرتين اللتين يعلوهما شعر أسود . ومضى الدكتور جرابو يقول : «إنه لاداعي أولاً لأي قلق جدي بطبيعة الحال وبأية حال من الأحوال ، أرجوك... فإن مريضة لها مثل مالسيدتنا القنصلة المحترمة من قوة المقاومة... بربك ، فإني أعرف قوة المقاومة هذه بوصفي مستشاراً علمياً... وهي مدهشة بالنسبة لسنها ... فما أريد أن أقوله...»

فقال السناتور قلقاً : «أجل بالذات في مثل سنها» وجعل يفتل طرف شاربه الطويل .

وتابع الدكتور جرابو كلامه في دماثة : «إني لاأقول بطبيعة الحال أن السيدة والدتك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العزيزة تستطيع غداً أن تعاود نزهتها على الأقدام ، ولن ينطبع في نفسك من نحو المريضة شيء من هذا ياعزيزي السناتور . حقاً إنه لاسبيل الى إنكار أن الصديد قد اتجه منذ الأربع والعشرين الساعة الأخيرة اتجاهاً رديئاً ، فلم ترقني تماماً رعشتها أمس من الصقيع ، واليوم ينتابها في الحق شيء من الوخز وضيق التنفس . كذلك يوجد شيء من الحمى . وصفوة القول أنه يجب التسليم ياعزيزي السناتور بالحقيقة الواقعة المكدرة وهي أن الرئة متأثرة قليلاً » .

فسأل السناتور وهو ينظر الى أحد الطبيبين تارة والى الآخر أخرى... «اذن التهاب رئوي ؟ »

قال الدكتور لانجهالز : « أجل - بنيمونيا » وانحنى انحناءة بينة أصلية .

وأجاب طبيب الأسرة : «على كل حال التهاب رئوي بسيط في الجانب الأيمن نسعى الى حصره في موضعه بمنتهى العناية...»

قال السناتور : « معنى ذلك أن هذا يدعو الى القلق الجدي » وكان جالساً هادئاً جداً ، ينظر في وجه المتكلم رابط الجأش .

قال الطبيب : «قلق ؟ حاشا... يجب كما قلت أن نعنى بحصر المرض وتلطيف السعال وقطع دابر الحمى . وسيؤتي الكينين أثره الآن... ثم أن هناك شيء آخر ياعزيزي السناتور ... فليس ثمّ مايزعج بالنسبة للأعراض الأخرى ، أليس كذلك ؟ فإذا قدر أن ازداد ضيق التنفس ووقع بحران أثناء الليل أو خرجت لفاظة قليلة من الفم في الغد - لفاظة داكنة الحمرة ولوكان فيها دم... فهذا كله منطقي ، ومن طبائع الأشياء وعادي . أرجوك أن تعد لهذا أيضاً عزيزتنا المحترمة مدام بيرمانيدر التي تتولى التمريض بهذا التفاني ... وعلى فكرة كيف حالها ؟ . لقد نسيت كل النسيان أن أسأل عن معدها كيف كانت حالتها في الأيام الأخيرة ؟... »

« كالعادة فليس هناك جديد . والاهتمام بصحتها يخف الآن قليلاً بطبيعة الحال... »

« مفهوم . هذا الى أنه تعنّ لي فكرة بهذه المناسبة . فالسيدة أختك بحاجة الى الراحة ، وخاصة بالليل . والآنسة سيڤيرين لاتكفي وحدها..فما رأيك ياعزيزي السناتور في الاستعانة بممرضة ؟ إن عندنا راهباتنا الكاثوليكيات ذوات الأردية الرمادية ، وقد كنت دائماً تحب لهن الخير... وسيسر الأخت الرئيسية أن تتمكن من خدمتكم » .

« إذن أنت ترى هذا ضرورياً ؟ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إني أقترحه ، وهو عمل موافق... والراهبات لايقدرن ، فهن يؤثرن في المرضى بتجاريبهن وانتباههن... لاسيما في هذه الأمراض المرتبطة كما قلت بطائفة من الأمراض المتعبة... وإذن لنعد هذا : عليك برباطة الجأش ياعزيزي السناتور ، أليس كذلك ؟ هذا الى أننا سنرى... سنرى... سنعاود الكلام في الموضوع مساء اليوم » .

وقال الدكتور لانجهالز : « بالتأكيد » . وتناول قبعته العالية ، ونهض في نفس الوقت مع زميله الأكبر . بيد أن السناتور ظل جالساً ، إذ لم يكن انتهى بعد ، وكان عنده سؤال يريد أن يوجهه ، يريد أن يجرب محاولة أخرى...

قال : « سيدي ، كلمة أخرى... إن أخي كريستيان عصبي المزاج ، ضيق الصدر ، لا يحتمل الكثير . فهل تشيران عليَّ بأن أخبره بمرض أمه وأن أنصح له بالعودة- ؟ »

« إن أخاك كريستيان ليس في المدينة ؟ »

« كلا ، بل هو في هامبورغ عابراً ، يقوم ببعض الأعمال فيما أعلم... »

فنظر الدكتور جرابو الى زميله ثمّ هزّ يد السناتور ضاحكاً ، يقول : « لندعه الآن مطمئناً في أعماله! ففيم إزعاجه بلا موجب ؟ فإذا قدر أي تحول في الصحة يجعل حضوره أمراً مرغوباً فيه ، ولنقل لتهدئة المريضة ورفع معنويتها... في هذه الحالة يكون لدينا دائماً وقت... دائماً... »

وبينما يعود السادة عبر بهو الأعمدة والطرقة أدراجهم ويقفون برهة فوق قاعدة الدرج جعلوا يتحدثون عن أمور أخرى ، عن السياسة وعن الهزات والانقلابات المترتبة على حرب لما تكد تضع أوزارها...

« الآن نحن على أبواب أيام سعيدة ، أليس كذلك ؟ ياحضرة السناتور ؟ ففي البلاد أموال... والحال المعنوية طيبة في كل مكان . »

ووافق السناتور على ذلك بعض الموافقة ، فأكد أن نشوب الحرب نمّى تجارة الحبوب المستوردة من الروسيا كثيراً ، وذكر المقادير الكبيرة التي بلغها وارد القرطم الذي يورد الى الجيش . لكنه قال أن المكاسب لهم توزع توزيعاً عادلاً...

وانصرف الطبيبان . وتحول السناتور بودنبروك ليعود مرة أخرى الى مخدع المريضة . وأعمل الفكرة فيما قاله جرابو فقد كان ينطوي على خبيء كثير . وقد شعر بأنه يتحاشى التصريح بشكل جازم ، « فالإلتهاب الرئوي » كان الكلمة الوحيدة التي لم يخفف من وقعها أن ترجمها الدكتور لانجهالز الى لغة العلم . التهاب رئوي في مثل سن القنصلة... ومما يدعو

إلى القلق أن طبيبين اثنين يجينان ويذهبان وقد رتب جرابو هذا بكل لباقة دون أن يلحظ أحد تقريباً . فهو يرى أنه إن قريباً وإن بعيداً سيتقاعد . هذا ماقاله . وإذا كان على الدكتور لانجهالز الشاب أن يتولى عمله ، فإنه ـ أي جرابو ـ يسره أن يقربه من الآن ويقدمه الى الأسرة .

فلما دخل السناتور مخدع النوم الخابي الضوء كان على وجهه سيماء المرح وكانت هيئته تدل على النشاط . فقد ألف أن يخفي همه وتعبه خلف ستار من الطمأنينة الفائقة فما أن فتح الباب حتى انسدل هذا القناع من نفسه تقريباً على وجهه كمظهر من مظاهر الإرادة للحظة وجيزة جداً .

وكانت مدام بيرمانيدر جالسة على السرير العالي مزاحة ستائره ، تمسك بيد أمها التي حولت وجهها الى الداخل مسنودة الى الوسائد ، فنظرت اليها مستطلعة بعينين رائقتي الزرقة . وكانت نظرتها مفعمة بالهدوء الذي تتحكم فيه والاستطلاع المضبوط الذي لاتفلته ، وإذا كانت هذه النظرة جانبية فقد كانت تنطوي تقريباً على شيء من التربص . وبغض الطرف عن شحوب الجلد الذي كان يبدي على الخدين من حمرة الحمى بضع بقع لم يظهر على الوجه وهن أو ضعف على الإطلاق . فقد كانت السيدة المسنة فاطنة الى حالتها وأكثر فطنة ممن هم حولها ، ذلك أنها كانت هي صاحبة الشأن المباشر . ولم تكن تأمن لهذا المرض ولا راغبة بحال في النوم على أذنها وترك الأمور تجري مجراها...

وسألت : «ماذا قالا ياتوماس ؟» . وكان صوتها من القوة والنشاط بحيث سعلت في الحال سعالاً شديداً حاولت كتمه بشفتين مطبقتين لكنه انطلق وأرغمها على أن تضغط بيدها على جنبها الأيمن .

فأجاب السناتور بعد زوال نوبة السعال وهو يمسح على يدها : «قالا أن أمنا الطيبة ستنهض على قدميها في بضعة أيام . وعجزك عن هذا الآن إنما يرجع كما تعرفين الى أن السعال السخيف قد أثر على الرئة قليلاً بطبيعة الحال» . ولما رأى أن نظرتها ازدادت حدة قال : «إنه ليس التهاباً رئوياً بالذات وإن لم يكن هذا أسوأ شيء فهنالك ماهو أسوأ منه! إن الرئة بإيجاز متهيجة قليلاً على حد قولهما ، وقد يكونان على حق... أين اذن الآنسة سيفيرين ؟»

فأجابت مدام بيرمانيدر : «ذهبت الى الصيدلية» .

«انظرا! هاهي ذي تذهب الى الصيدلية مرة أخرى ، وأنت ياتوني يبدوعليك كما لو كنت تبغين النعاس في كل لحظة . لا ، إن هذا لايجوز أكثر من ذلك ، ولو لبضعة أيام... يجب أن تكون هنا ممرضة ، ألا تريان هذا الرأي أيضاً ؟ انتظرا ، سأكلف من يسأل رئيسة الراهبات ذوات الرداء الرمادي هل عندها واحدة تستغني عنها...»

فقالت القنصلة عندئذٍ بصوت حذر كيلا تهيج السعال وتطلقه ثانية : «صدقني ياتوماس إذا قلت لك أنك تأتي أمراً أدا بحمايتك الدائمة للكاثوليك حيال البروتستانت ذوات الرداء السود . لقد جلبت للأوليات منافع أكيدة ولم تفعل للأخريات شيئاً . إني أود لك أن القسيس برنجزهايم شكا لي أخيراً من هذا شكوى صريحة...»

«إن هذه الشكوى لاتجدي شيئاً . إني مقتنع بأن الممرضات ذوات الرداء الرمادي أوفى وأكثر إخلاصاً واستعداداً للتضحية من ذوات الرداء الأسود . إن هاته البروتستانتيات لسن صالحات . فهن جميعاً يردن الزواج في أول فرصة فأكثر منهن تجرداً . أجل ، إنهن بالتأكيد أقرب الى السماء ، وبالذات لأنهن مدينات لي بالشكر يجب أن نؤثرهن على غيرهن . ماذا لم تكنه الأخت لياندرا بالنسبة الينا يوم أن كان هانو فريسة للتشنجات من وجع أسنانه! إني لأتمنى فقط ألا تكون مشغولة...»

وجاءت الأخت لياندرا ووضعت في سكون حقيبة يدها وقلنسوتها الرمادية التي تضعها فوق طاقيتها البيضاء ثم انصرفت الى عملها وهي تردد كلمات رقيقة ودودة بينما كانت مسبحتها المعلقة في نطاقها تترجح في خفوت . وجعلت تمرض المريضة المدللة التي لاتتحلى دائماً بالصبر بالنهار والليل ، ثمّ تنسحب صامتة خجولاً تقريباً من ذلك الضعف الانساني الملم بها لتحل أخت أخرى محلها ، ولتنام في بيتها قليلاً ثم تعود .

ذلك أن القنصلة كانت تتطلب خدمة دائمة بجانب سريرها وكانت كلما ساءت حالتها اتجه تفكيرها كله واهتمامها كله الى مرضها الذي كانت تراقبه في خوف وغل ساذج صريح . إنها وقد كانت سيدة من سيدات المجتمع فيما سلف من الزمان بما كانت تبدي من حب ساكن طبيعي متواصل للعيش الرغيد والحياة بوجه عام ، باتت في السنوات الأخيرة تعمر التقوى قلبها ويفعمه صنع المعروف...لماذا! لعله لم يكن منها تقديساً لذكرى زوجها الراحل فحسب ، بل كان كذلك صادراً عن دافعها الخفي الى نشدان رضى الله بكل مافيها من حيوية قوية ، والتوسل اليه أن يتوفاها وفاة وادعة على الرغم من تعلقها الشديد بالحياة ؟ لكنها لم يقدر لها أن تتوفى وفاة وادعة . وبغض النظر

عن بعض ماعانت من آلام قد كانت قامتها منتصبة لم تنحن بتاتاً وبقي بصرها سليماً . وقد كانت تحب الواجبات الطيبة وترتدي الثياب الأنيقة الثمينة وغض الطرف عما لايسر مما يصادفها أو يجري حولها فتسكت عنه وتساهم راضية في المنزلة السامية التي يتبوؤها ابنها الأكبر في كل مكان . ولقد انتاب هذا المرض ، هذا الالتهاب الرئوي ، جسمها المنتصب من دون مقدمات من عمل النفس تمهد الطريق لهذا التدمير... هذا التقويض الذي تحدثه المكابدة والألم ويفسد مابيننا وبين الحياة نفسها أو مقوماتها في بطء وعذاب . وهي مقومات تلقينا الحياة في كنفها وأيقظت فينا الشوق الحلو الى خاتمة أو مقومات أخرى أو الى السلام... كلا فقد كانت القنصلة العجوز تشعر جيداً بأنها لم تكن مستعدة للموت على مالها من أسلوب مسيحي في مزاولة الحياة . وكانت الفكرة الغامضة في أن مرضها هذا ، إذا كان الأخير ، سيحطم مقاومتها بنفسه وبعذاب جسماني في الساعة الأخيرة ، بسرعة بغيضة ويحملها على التسليم .

كانت تصلي كثيراً ، لكنها كانت أكثر سهراً على حالتها مادامت في وعيها ، تجس نبضها بنفسها وتقيس حرارتها ، وتكافح سعالها... لكن النبض كان سيئاً ، والحمى أشد ارتفاعاً بعد أن هبطت قليلاً ، فجعلت ترتعش ، وجعلت من ارتعاشها تهذي هذياناً حامياً ، وازداد سعالها المصحوب بالآلام الباطنة ، وأثار لغاطها الملوث بالدم وأزعجها ضيق التنفس . وقد كان مرجع هذا كله الى أن الرئة كانت كلها متأثرة لامجرد قطعة فيها ، وإنه كان في الجهة اليسرى آثار بينة تدل على سريان الداء والاستشراء إذا لم تكن هذه الآثار خداعاً . وقد أسمى الدكتور لانجهالز هذه الظاهرة «تكبداً» ولم يشأ التوسع في الكلام عنها... وقد ظلت الحمى تنتهب المريضة فلم تهن ، وأخذت المعدة تعجز عن تأدية وظيفتها ، وجعلت قواها تتداعى من دون ضابط وفي بطء ثابت .

كانت تراقب هذا التداعي ، وتتناول بهمة غذاءها المركز الذي يقدم اليها ماأمكنها ، وتعني أكثر من ممرضاتها بالمحافظة على مواعيد الدواء ، وكان كل هذا يستحوذ عليها الى حد أنها كانت لاتخاطب إلا الأطباء تقريباً ، وأنها كانت تبدي اهتماماً زائداً في حديثها معهم على الأقل .

وباتت تكره الزيارات وكانت تسمح بها في البداية ، وتستقبل الصديقات وأعضاء ندوة أورشليم وسيدات المجتمع المسنات وزوجات القسس على مضض أو في صورة ودودة تنطوي على تشتت الأفكار ، ثم تصرفهن على عجل... وكان ذووها يألمون من أنها لاتأبه لهم فكانت كأنها تقول : «ماذا تستطعن لي!» حتى هانو الصغير الذي دخل عليها في لحظة مؤاتية ، لم

تفعل سوى أن ربتت على خده تربيتة خاطفة ثم تحولت عنه . فكانت كأنما تريد أن تقول : «أيها الأطفال! إنكم جميعاً أحياء ـ لكن أنا ـ ربما كتب لي أن أموت» . أما الطبيبان فكانت على العكس من ذلك تستقبلهما بحرارة وحمية اهتمام لتباحثهما وتسهب في الحديث .

وذات يوم ظهرت السيدتان بنتا جيرهارت المسنتان ، وهما من نسل باول جيرهارت . جاءتا بلفاعتيهما وقبعتيهما المشبهتي الأطباق ووفاض زادهما قادمتين من زيارة الفقراء . ولم يمكن ردهما عن زيارة صديقتهما المريضة . والله وحده يعلم ماذا قالتا لها وهما جالستان على سريرها . لكنهما لما انصرفتا كانت أعينهما وأساريرهما أجلى وأرأف وأكثر انطواءً على الرحمة مما كانت من قبل ، وفي الداخل كانت القنصلة راقدة بمثل هاته الأعين والأسارير ، راقدة في سكون تام وسلام تام ، بل أتم من ذي قبل . وكان تنفسها نادراً ، رقيقاً ، تنتقل كما يرى من ضعف الى ضعف . فبعثت مدام بيرمانيدر في الحال في طلب الطبيبين بعد أن شيعت السيدتين جيرهارت بتمتمة غليظة . وما كاد الطبيبان يظهران على عتبة الباب حتى ألم بالقنصلة تبدل تام مذهل ، فاستيقظت ، وتحركت ، وانتصبت تقريباً ، ذلك أن منظر هذين السيدين ، هذين الطبيبين القليلي المعرفة قد ردها دفعة واحدة الى الحياة . فمدت اليهما كلتا يديها وأنشأت تقول : «مرحباً بكما سيداي! لقد حدث اليوم أثناء النهار...» .

لكنه كان قد حل اليوم الذي لم يمكن فيه أنكار الالتهاب الرئوي المزدوج .

فقال الدكتور جرابو وهو ممسك بيدي توماس بودنبروك : «أجل ياسيدي السناتور العزيز . إننا لم نستطع لهذا الأمر حولاً فالالتهاب الآن في الرئتين . وهذا مما يدعو دائماً الى القلق . وإنك لتعرف كما أعرف جيداً أني لاأموه عليك . فالمسألة سواء أكانت المريضة في العشرين أم في السبعين مسألة يجب على كل حال أن ينظر اليها بعين الجد ؟ وإذا سألتني اليوم مرة أخرى هل تكتب الى السيد أخيك كريستيان ولعلك تبعث اليه ببرقية صغيرة ، فإني لن أصرفك عن ذلك . وكم كنت أود أن تبقيه بعيداً... كيف حاله على فكرة ؟ إنه رجل ظريف : لقد كنت أحبه دائماً من قلبي... بربك لاتغل في الاستنتاج من كلامي ياعزيزي السناتور! لا ، على سبيل المثال ، إن هناك خطراً مباشراً... أخ ماذا ، إني لرجل أخرق إذ ترد هذه الكلمة على لساني! لكنه في مثل هذه الأحوال كما تعلم يجب أن يحسب من بعيد حساب المفاجآت... ونحن راضون كل الرضا عن السيدة المحترمة والدتك بوصفها مريضة ، ذلك أنها تعاوننا بشجاعة ولاتخلو بنا... كلا ، فهي ، من دون مجاملة ، لاتبارى كمريضة! ومن ثم نأمل ياسيدي السناتور العزيز ، نأمل! دعنا نأمل دائماً كل خير!» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكنه تأتي لحظة يكون فيها أمل الأهل شيئاً مفتعلاً غير خالص . فقد يلم بالمريض تغيير ويظهر على سلوكه شيء غريب عن الشخص الذي كانه في حياته ، فتخرج من فيه كلمات غريبة بعينها لانفهم كيف نرد عليها ، تقطع عليه بالمثل خط الرجعة وتجعله رهين الموت ، ولانستطيع أن نريد له بعد كل هذا أن ينهض ويتحرك ولو كان أحب الناس الينا ، فإذا فعل مع ذلك فسينشر الرعب من حوله كما يفعله خارج من النعش...

لقد ظهرت أمارات منكرة على الانحلال المبتدىء بينما كانت الأعضاء التي تسيرها إرادة متجلدة ماتزال تؤدي وظيفتها . ولما كانت قد تقضت أسابيع منذ ألزم الصديد القنصلة فراشها فقد ظهرت على جسمها من الرقاد عدة جروح لم تعد تندمل ، بل تحولت الى حالة مخيفة . وقد جفاها النوم أولاً . لأن الأوجاع والسعال وضيق النفس كانت تحول دونه ، ثم بعد ذلك لأنها نفسها كانت تقاوم النوم وتتشبث باليقظة ، اللهم إلا دقائق كانت تفقد في خلالها وعيها وهي نهب الحمى . لكنها أيضاً وهي في وعيها كانت تتحدث الى أشخاص ماتوا من زمن . ففي ذات يوم عند ساعة الأصيل قالت بغتة وبصوت عال ينم عن شيء من الوجل ، صادر مع ذلك عن القلب : «أجل ياعزيزي جان ، إني آتية!» وكانت صبغة هذا الرد المباشر من الخداع بحيث وهم الأهل بعده أنهم يسمعون صوت ميت يناديها .

وحضر كريستيان ، حضر من هامبورج حيث كانت أعماله على حد قوله تحتجزه ، وأقام برهة وجيزة في مخدع أمه المريضة ، ثم غادره وهو يمر يده على جبينه تائه النظر ويقول : «هذا مخيف... مخيف... إني لاأستطيع احتماله بعد الآن» .

وظهر القس برنجزهايم كذلك وحدج الأخت لياندرا بنظرة باردة وجعل يصلي عند سرير القنصلة بصوت مختلف النبرات .

ثم حدث تحسن وجيز الأمد : صحوة ، هبوط في الحمى ، عودة خادعة للقوى ، سكنة للألم ، عبارات مفعمة بالأمل أفاضت من عيون الواقفين حولها دموع الفرح...

فقال توماس بودنبروك : «أهلي! سنستبقيها ، سترون أنا سنستبقيها برغم ذلك كله . ستكون بيننا في عيد الميلاد ولن نسمح بأن ترهق نفسها كعادتها...»

لكنه في الليلة التالية بالفعل ، وبعد لحظة وجيزة من توجه جيردا وزوجها الى النوم ، بعثت مدام بيرمانيدر من شارع منج في طلبهما ، لأن المريضة تصارع الموت . وكانت الريح تقتحم المطر الذي كان ينهمر وتلطم به زجاج النوافذ .

فلمّا دخل السناتور وزوجه المخدع الذي كانت تضيئه شموع شمعدانين تحترق فوق المائدة كان كلا الطبيبين حاضراً . كذلك كريستيان كان قد استدعى من فوق واتخذ مجلسه في مكان ما أدار فيه ظهره الى سرير أمه ، واعتمد جبينه بين يديه مطأطىء الرأس ، وكانوا ينتظرون أخا المريضة القنصل يوستوس كروجر بعد أن بعثوا اليه يستدعونه . وأقامت مدام بيرمانيدر وايريكا ڤاينشنك عند موضع القدم من الفراش ينتحبان في خفوت . ولم يعد لدى الأخت لياندرا والآنسة سيڤيرن مايفعلانه ، فجعلتا تنظران حزينتين الى وجه المحتضرة .

كانت القنصلة راقدة على وسائد تسند رأسها عدة وسائد وترتعد يداها وهما تمسحان على اللحاف في عجلة ولاتكفان : هاتان اليدان الجميلتان المعروقتان تماماً ، الباديتا العروق في زرقة ، النحيلتان الآن ، وكان رأسها المغطى بطاقية النوم البيضاء يتحول بلا انقطاع من جانب الى آخر على وتيرة تثير الرعب . وكان فمها الذي بدت شفتاه مسحوبتين الى داخل ينفتح وينطبق وهو يشهق مع كل محاولة أليمة للتنفس . وكانت عيناها الغائرتان تائهتين فيما حولها تستغيثان لتستقرا بعد ذلك على أحد الحضور معبرتين عن الحسد تعبيراً يهز النفس ، ذلك أن الحاضرين كانوا يرتدون الملابس ، ويستطيعون التنفس ويملكون الحياة ، ولايسعهم إلا تقديم قربان الحب بتركيز نظراتهم على هذه الصورة . وقد تقدم الليل من دون أن يطرأ تغيير .

وسأل توماس بودنبروك بصوت خافت : « كم يطول هذا ؟ » وسحب الدكتور جرابو الشيخ الى آخر المخدع ، بينما كان الدكتور لانجهالز في هذه اللحظة يعطي المريضة حقنة ما . وكذلك انضمت اليها مدام بيرمانيدر تضع منديلها في فمها .

فأجاب الدكتور جرابو : « ليس من الممكن تحديد ذلك ياعزيزي السناتور فقد يكون خلاص السيدة والدتك في خمس دقائق ، وقد تظل ساعات أخرى في قيد الحياة... . لاأستطيع أن أقول شيئاً ، فالأمر يتعلق بما يسمى الصديد الخانق » .

فقالت مدام بيرمانيدر : « إني أعرفه » . وهزت رأسها في منديلها وجرى الدمع على خديها : « إنه يقع في الالتهابات الرئوية كثيراً... إذ يتجمع في حويصلة الرئة سائل مائي فإذا ساءت الحال تعذر التنفس... أجل إني أعرفه... »

ونظر السناتور الى سرير أمه شابكاً يديه أمامه . وهمس : « ماأشد ماتعاني! »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال الدكتور جرابو في خفوت كذلك ولكن في شعورطاغ بأنه حجة ومرجع : « كلا » وقطب وجهه المستطيل الوادع في صورة جازمة ثم استطرد يقول : « إن هذا خداع . صدقني ياصديقي العزيز . هذا يخدع! إن الوعي مشوب ، وماتراه ليس إلا حركات انعكاسية في معظمه... صدقني... »

وأجاب توماس بودنبروك : «سمع الله لك!» ـ لكن كل طفل كان خليقاً أن يرى في عيني القنصلة أنها كانت في تمام وعيها ، وأنها كانت تشعر بكل شيء...

وعاودوا مجالسهم . وكذلك اتخذ القنصل كروجر مجلسه ، إذ كان قد حضر الى جانب السرير منحنياً فوق عكازة عصاه محمر العينين .

وقد ازدادت حركات المريضة في قلق مزعج ، وخوف ، وضيق ينبو عن الوصف ، وشعور لايفارقها بتخلي غيرها عنها وبقلة حيلتها بداخل هذا الجسم الذي سلم الى الموت من قمة الرأس الى أخمص القدم . وكانت عيناها ، تانك العينان المسكينتان المتوسلتان الباحثتان مغمضتين في رأسها المتقلب الذي تنتابه حشرجة الموت . تعبران أحياناً عن الرغبة في التقيؤ أو تتسعان اتساعاً تنفر منه عروق القرنية الشعرية بلون الدم . ولا اغماء!

وبعد الثالثة بقليل رأوا كيف نهض كريستيان يقول : «لم أعد قادراً على الاحتمال» . وانصرف يتعكز على قطع الأثاث القائمة في طريقه ، وخرج من الباب وهو يعرج... هذا الى أن توجعاتها الوتيرة كانت قد هدهدت في الراجح ايريكا ڤاينشنك والآنسة سيڤيرين على السواء فغلبهما النعاس على كرسيهما وتورد خداهما في نعاسهما .

وفي الرابعة تفاقمت الحالة وازدادت سوءاً على سوء ، فأسندوا المريضة وجففوا عرق جبينها ، وهدد التنفس بالإنقطاع تماماً ، وازدادت المخاوف . وند عنها صوت : «شيئاً لأنام...! دواء!» لكنهم كانوا أعجز من أن يسعفوها بشيء يجلب لها النوم .

وبغتة أخذت ترد ثانية على شيء لم يسمعه الآخرون كما فعلت من قبل . قالت : «أجل ياجان ، لن يطول بعد الآن!» . ثم تلا على ذلك الأثر : «أجل ياحبيبتي كلارا ، إني قادمة!...»

ثم عاد الصراع من جديد... فهل كان مايزال صراعاً مع الموت ؟ كلا ، بل كان الآن صراعا مع الحياة طلباً للموت . قالت وهي تلهث : «أحب... لاأستطيع . شيئاً لأنام! سادتي ، رحمة بي! شيئاً لأنام!»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان من شأن هذه الكلمة « رحمة بي » أن انخرطت مدام بيرمانيدر عالياً في البكاء وأنّ توماس أنيناً خافتاً واعتمد رأسه لحظة بين يديه . لكن الطبيبين كانا يعرفان واجبهما . والواجب في كل الظروف أن تستبقى هذه الحياة لذويها أطول مدة ممكنة ، بينما من شأن المخدر أن يفرط في الذهن على الفور ويقضي على كل مقاومة . وليس الأطباء في العالم للتعجيل بالموت بل للمحافظة على الحياة بأي ثمن . وبهذا تقضى فوق ذلك أسباب دينية ومعنوية بعينها سمعوا بها كثيراً في الجامعات وإن لم تحضرهم في هذه اللحظة... فهم يقوون القلب على النقيض من ذلك بوسائل شتى ويثيرون التقيؤ مراراً للتخفيف الوقتي .

في الساعة الخامسة لم يمكن أن يكون الصراع أشد مما كان . فقد انتصبت القنصلة في تشنجها متسعة العينين ودفعت ذراعيها من حولها كأنما تنشد ما تستند اليه أو تطلب أيدياً ممدودة اليها ، وكانت تجيب في الهواء بلا انقطاع على نداءات صادرة من كل جهة كانت تسمعها وتبدو متزايدة ملحة دائماً . كان زوجها المتوفى وابنتها الراحلة لم يكونا وحدهما الموجودين في مكان ما بل كذلك والديها وحمويها وأقرباء آخرين سبقوها الى الدار الباقية . كانت تنادي بأسماء أولى لم يكن في وسع أحد في المخدع أن يقرر لمن من الموتى هي . كانت تصيح وهي تتجه وجهات مختلفة : « نعم! إني قادمة الآن... حالاً... هذه اللحظة بالذات...هكذا... إني لاأستطيع... دواء أيها السادة! »

وفي منتصف السادسة حلّت لحظة من الراحة ثم إذا باختلاجة تطوف فجأة بملامحها المجعدة الممزقة من الألم ، وفرحة جلودة مخيفة ، ورقة عميقة مفزعة وجلة . وفي لمح البصر بسطت ذراعيها بسرعة متدفعة مفاجئة ، حتى أحسوا أنه لم تنقض لحظة واحدة بين ذلك الذي سمعته وجوابها عنه ـ وصاحت بصوت عال يعبر عن طاعة عمياء واستسلام وتفان لاحد لهما ناطقين بالخوف والحب معاً : « هاأنذا! » ولفظت النفس الأخير .

فذعر الجميع . من كان هذا ؟ من الذي نادى ولبت نداءه في الحال ؟

وأسدل أحد الموجودين ستار النافذة وأطفأ الشموع ، بينما أغمض الدكتور جرابو بوجهه الوادع عيني الراحلة .

وارتعش الجميع في صباح ذلك اليوم من أيام الخريف ، وكان باهتاً يشيع في المخدع وسترت الأخت لياندرا مرآة الزينة بقطع من القماش .

الفصل الثاني

وشوهدت مدام بيرمانيدر من الباب المفتوح قاعدة في مخدع الراحلة تصلي وقد ألفت نفسها وحدها فركعت وانداحت في ركوعها ثياب الحداد من حولها على الأرض ، ركعت على مقربة من السرير أمام مقعد وأقرت يديها المشبوكتين عليه وجعلت تتمتم مطأطئة الرأس..وسمعت في ركوعها جيداً أن أخاها وزوج أخيها دخلا حجرة الإفطار حيث وقفا في وسطها من تلقاء نفسيهما ينتظران نهاية الصلاة . لكنها لم تتعجل لهذا الغرض بصفة خاصة ، وتنحنحت في الختام نحنحتها الجافة ، وضمت ثوبها باحتفال وتؤدة ، ونهضت ثم سارت نحو قريبتها دون أن يبدو عليها أي أثر للارتباك ملتزمة هيئة غاية في الوقار .

قالت في شيء من القسوة : «توماس ، يبدو لي فيما يتعلق بسيفيرين أن المرحومة أمي أرضعت على صدرها أفعى» .

«كيف ؟»

«إني ساخطة عليها كل السخط ، فالمرء معها يفقد صوابه وينسى نفسه ...هل لهذه الأنثى حق في أن تزيد من آلام هذه الأيام بهذه الصورة الوضيعة ؟ »

«لكن ماذا هنالك ؟»

«إنها أولاً جشعة بشكل يسخط فهي تمضي الى خزانة أمي وتخرج منها ثيابها الحريرية ، وتضمها فوق ذراعيها ، وتريد الانسحاب بها . قلت لها : ريكشن ، الى أين تريدين بهذه الثياب ؟ ـ قالت : لقد وعدتني بها السيدة القنصلة! ـ قلت وأنا ألفتها بكل تحفظ الى مافي تصرفها من عجلة : «أتظنين أن هذا ينفعك ؟ ـ ولم تكتف بالثياب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحريرية بل تناولت كذلك رزمة من البياضات وانصرفت بها . وأنا لايسعني أن أشتبك معها ، أليس كذلك... وليست هي وحدها... بل الخادمات أيضاً... فهناك سلال غسيل ملأى بالثياب والملابس الكتانية أخرجت من البيت... والخدم يقتسمون الأشياء تحت بصري لأن مفاتيح الخزائن بيد سيڤيرين ، وقد قلت لها : ياآنسة سيڤيرين إني أريد المفاتيح . فيم أجابتني ؟ أعلنت اليّ بلهجة صريحة غير مهذبة أنه ليس لي أن أوجه اليها كلاماً ، فهي لاتعمل في خدمتي ، ولا أنا استخدمها ، فهي ستحتفظ بالمفاتيح الى أن يخلى سبيلها!» .

فسألها أخوها : «أبيدك مفاتيح الأدوات الفضية ؟ ـ حسناً . دعي ماعدا ذلك يجري مجراه . فلا مناص من مثل هذا إذا انحل التدبير في بيت كانت أموره أخيراً بلا ضابط كبير على كل حال . ولست أريد أن أحدث ضجة الآن . فالبياضات عتيقة ومعيبة... . هذا الى أننا سنرى ماهنالك بعد . فهل لديك القوائم ؟ على المائدة ؟ حسناً . سنرى في الحال» .

ودخلوا مخدع النوم ليقفوا برهة ساكنين متجاورين عند السرير بعد ان سحبت مدام أنتونيا الطرحة البيضاء عن وجه الراحلة . وقد كانت القنصلة ألبست بالفعل الثوب الحريري الذي سيعرض به جثمانها في القاعة بعد ظهر اليوم . وكان قد مرّ ثمان وعشرون ساعة منذ لفظت النفس الأخير . فكان فمها وخداها بعد إبعاد أسنانها الصناعية مترهلة بفعل الشيخوخة ، وذقنها بارزاً قائماً يرسم زاوية قائمة ، وقد جهد ثلاثتهم وهم يتألمون وينظرون الى هذه الجفون المغمضة في عمق وإحكام قاسيين أن يتبينوا في هذا الوجه ماعهدوه من محيا أمهم . لكنه كان تحت القلنسوة التي كانت السيدة العجوز تضعها في أيام الآحاد ، العارية الكستنائية الضاربة الى الحمرة ، المفروقة الملساء التي كانت تضعها وهي في قيد الحياة والتي طالما تندرت بها سيدات بودنبروك القاطنات في شارع منج... وعلى اللحاف أزهار منثورة .

وقالت مدام بيرمانيدر في خفوت : «لقد جاءت أفخم الأكاليل من الأسر كافة . . . من كل الناس... وقد رفعت كلها الى الطرقة ، فلا بد لكما أيضاً جيردا وتوم من رؤيتها فيما بعد . إنها جميلة بصورة محزنة وشرائط أطلسها ذات حجم كبير...»

وسأل السناتور : «كم بلغتم في اعداد القاعة ؟»

«سينتهي فيها العمل عما قريب ياتوم . هي جاهزة تقريباً . وقد بذل الوراق چاكوبس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل جهد في سبيل ذلك . وأيضاً الــ...» وبلعت ريقها لحظة ثم استطردت تقول : « كذلك النعش سبق إحضاره ، لكنه عليكما أن تخلعا ياعزيزي! » وسحبت الطرحة البيضاء تعيدها مكانها . «هنا برد لكن غرفة الانتظار مدفأة بعض الشيء... دعني أساعدك ياجيردا . فمثل هذه اللفاعة الفاخرة يجب أن تعالج في حذر... هل تسمحين بتقبيلك ؟ فأنت تعلمين أني أحبك ، ولو أنك كنت تنفرين مني دائماً... كلا ، إني أتلف تسريحتك لو خلعت لي قبعتك... هذا الشعر الجميل ، شعرك! مثل هذا الشعر كان أيضاً لأمي أيام الشباب . لم تكن يوماً رائعة مثلك . لكنها كانت ظاهرة جميلة حقاً في وقت ماكنت فيه قد ولدت... أليس حقاً مايقول تابعكم جروبليبن دائماً : «سنفنى جميعاً ــ ؟ وهو هذا الرجل البسيط... أجل ياتوم ، هاهي ذي أهم القوائم! »

وكانوا قد عادوا الى الغرفة المجاورة وجلسوا الى المائدة المستديرة ، بينما تناول السناتور الأوراق المسجلة فيها أشياء ستوزع بين الورثة الأدنين... وظلت أنظار مدام بيرمانيدر عالقة بوجه أخيها ترعاه في انفعال وتوتر . وكان هنالك شيء ، مسألة كان يصعب عليها التحول عنها ، لأن تفكيرها كله كان مركزاً عليها في وجل . ولابد أن يدور حولها الكلام في الساعة التالية...

وشرع السناتور يقول : «أحسبنا مستمسكين بمبدأ رد الهدايا حتى... »

فقاطعته زوجته قائلة : «معذرة ياتوماس ، يلوح لي... كريستيان أين هو ؟ »

فصاحت مدام بيرمانيدر : «حقاً! يا إلهي! كريستيان... لقد نسيناه! »

قال السناتور : «صحيح» . وارتمى الورق من يديه . ثم قال : «ألا ندعوه اذن ؟ »

وذهبت مدام بيرمانيدر الى حبل الجرس . لكنه في نفس اللحظة كان كريستيان قد فتح الباب ودخل . دخل الى الغرفة مسرعاً تقريباً ، ولم يحرص على إقفال الباب وراءه في سكون تام . ووقف مقطب الحاجبين مجيلاً عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين من الواحد الى الآخر من دون أن ينظر الى أحد ، فاغراً مطبقاً فمه على التعاقب تحت شاربه الكث المحمر في حركة قلقة... لقد كان يلوح تحت تأثير نوع من النفسية المعاندة المهتاجة .

قال موجزاً : «سمعت أنكم هنا . فإذا كان لابد من أن يدور حديث حول الأشياء فقد كان لزاماً أن أخبر» .

فأجاب السناتور من دون اكتراث : «كنا على وشك . فاجلس فقط» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستقرت عيناه على الأزرار البيضاء التي كانت تزر قميص كريستيان...إنه نفسه كان يرتدي ملابس حداد محتشمة لاغبار عليها . وعلى قلابات قميصه البارزة ببياضها من أكمام سترته السوداء والتي يضمها عند البنيقة شريط عريض أسود ، ركبت بدون الأزرار الذهبية التي اعتاد أن يحملها ، أخرى سوداء . فلحظ كريستيان نظرته ، ذلك أنه أثناء أن كان يسحب كرسياً ويجلس عليه لمس بيده صدره وقال : «أعرف أني أحمل أزراراً بيضاء إني لم أتمكن بعد من أن أبتاع لنفسي أزراراً سوداء ، أو على الأصح فقد أغفلت ذلك . لقد كنت في السنوات الأخيرة اضطر الى أن أقترض لمسحوق أسناني خمس شلنات ، وأن آوي الى فراشي على ضوء عود من أعواد الثقاب... ولست أعلم هل الذنب في هذا ذنبي أنا وحدي دون غيري . هذا الى أن الأزرار السوداء ليست في هذا العالم أهم شيء . إني لاأحب المظاهر . ولم أعلق عليها يوماً أهمية» .

كانت جيردا تتأمله وهو يتكلم ، وتضحك في خفوت . وقد أبدى السناتور ملاحظاً : «إن الزعم الأخير لايمكن أن يكون زعمك دائماً ياعزيزي» .

«كذا ، ربما كنت تعرف هذا خيراً مني ياتوماس . إني أقول إني لاأقيم لمثل هذه الأشياء وزناً . لقد شهدت في العالم الشيء الكثير ، وعشت مع أناس مختلفين ذوي عادات أشد اختلافاً من أن...» لكنه رفع صوته فجأة بقوله : «هذا الى أني إنسان بالغ ، أبلغ من العمر الثالثة والأربعين ، فأنا سيد نفسي ، ولي أن أمنع أي انسان من التدخل في شؤوني» .

فقال السناتور متعجباً : «يلوح لي أنك متحمل مني ياصديقي . فأما عن الأزرار فلم أقل بشأنها كلمة إذا لم أكن مخدوعاً . فنظم ملابس حدادك على ذوقك لكن لاتعتقد أنك بتنزهك الرخيص عن الغرض تؤثر علي...»

«إني لاأريد أن أؤثر عليك فتيلاً...»

فقالت مدام بيرمانيدر : «توم... كريستيان... نريد أن نتحاشى كل نغمة مثيرة... اليوم... وهنا . حيث ترقد بجانبنا . استمر ياتوماس . إذن نرجع الهدايا ؟ هذا معقول» .

واستمر توماس . فبدأ بالأشياء الكبرى وخص منها بما يمكن أن يحتاج اليه بيته . شمعدانات قاعة الأكل ، الصندوق المحفور الكبير القائم في الردهة . وأبدت مدام بيرمانيدر اجتهاداً ملحوظاً في هذا الأمر ، فما أن يتردد مالك المستقبل قليلاً في شيء حتى تقول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأسلوب لا يبارى وهيئة من يدين العالم كله باستعداده للتضحية «إني مستعدة لأخذه» .
فاحتفظت لنفسها وحفيدتها بمعظم الأثاث .

وتلقى كريستيان بضع قطع من الأثاث وساعة «أمبير» قائمة ، بل أخذ الهارمونيوم وأعلن رضاه بذلك... لكنه انتقل التوزيع الى الأدوات الفضية والأتيال ، والى أطقم الطعام كذلك جعل يبدي نشاطاً أدهش الجميع وبلغ أن يكون جشعاً .

كان يقول : «وأنا ؟ أنا ؟... أرجو ألا تنسوني بحال من الأحوال...»

«من الذي ينساك ؟ لقد اختصصتك... انظر هنا ، لقد اختصصتك بطاقم كامل للشاي ومعه صينيه فضية أما طاقم يوم الأحد المذهب فليس من يستعمله سوانا و...»

وقالت مدام بيرمانيدر : «إني مستعدة لأخذ الطاقم العادي ذي النموذج البصلي» .

فصاح كريستيان : «وأنا» مبدياً ذلك الغضب الذي يمكن أن يتملكه أحياناً والذي يظهر خديه أعجف أيضاً مما هما ويوائم وجهه بصورة عجيبة... . واستطرد يقول : «أريد أن يكون لي نصيب من أدوات الأكل! فكم ملعقة وكم شوكة أتلقى إذن ؟ إني أرى أني لاأصيب شيئاً تقريباً!...»

«لكن ياعزيزي ماذا تريد أن تعمل بهذه الأشياء! إنه لن يكون لك ماتستعملها فيه... فلست أفهم . إنه لخير أن تبقى هذه الأشياء لاستعمال الأسرة...»

فقال كريستيان معانداً : «ولو على سبيل التذكار لأمي» .

فرد السناتور وقد فرغ صبره أو كاد... «ياصديقي العزيز . إنه ليس في استعدادي أن أمزح... لكنه يبدو من أقوالك كما لو كنت تريد أن تضع على مائدة الليل كتذكار من أمك صحفة حساء ؟ أرجو ألا تفرض أننا نريد غبنك ، فيما تتلقاه من المنقولات أقل ، سيعوض لك بشكل آخر على الأثر . وكذلك الأمر بالنسبة للأتيال...»

«لاأريد نقوداً ، بل أريد بياضات وأدوات أكل» .

«ولكن بربك لأي غرض ؟»

بيد أن كريستيان أجاب عندئذ جواباً كان من أثره أن التفتت اليه جيردا بودنبروك بسرعة ، وحدجته بنظرة ملغزة ، وأن رفع السناتور نظارته الشابكة على عجل ، وحملق في وجهه وأن شبكت مدام بيرمانيدر يديها . كان ماقاله : «كلمة واحدة! إني أفكر في الزواج إن قريباً أو بعيداً» .

نطق بها في خفوت تقريباً وسرعة ، وبحركة مقتضبة من يده ، كأنما يلقي الى أخيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبر المائدة بشيء ما ، ثم اتكأ على الأثر ، وجعل يجيل بصره بلا ضابط بوجه المتمرد المهان معاً ، ويبدو عليه التشتت بصورة غريبة . وحلت فترة مستطيلة قال السناتور في نهايتها : « يجب أن تعترف ياكريستيان أن هذه الخطط جاءت متأخرة قليلاً ، ويشترط بطبيعة الحال أن تكون خططاً حقيقية قابلة للتنفيذ ، لا من تلك التي صدرت عنك عن عدم التروي وعرضتها من قبل على المرحومة والدتك... »

قال كريستيان : « إن نياتي هي هي لم تتغير » . ولم ينظر وهو يقول هذا الى أحد إطلاقاً ولم يتغير تعبير وجهه بتاتاً .

« إن هذا محال بكل مراء . فقد انتظرت موت أمك لكي... »

« أجل لقد راعيت هذا . ويظهر أنك ياتوماس تميل الى الزعم بأنك وحدك من يستأثر في هذا العالم باللباقة ودقة الإحساس... »

« لست أعرف ما الذي يخولك الحق في هذه اللهجة . هذا الى أني يجب أن أعجب بمبلغ ماتبدي من مراعاة . إنك في نفس اليوم بعد وفاة أمك . تعلن عزمك على التمرد عليها... »

« لأن الحديث تناول ذلك . ثم أن المهم أن أمي لم تعد تستطيع أن تحول نيتي . وما لاتقدر عليه اليوم لم تقدر عليه قبل عام... بالله ياتوماس ، إن أمنا لم تكن على حق مطلق ، بل لعلها كانت محقة من وجهة نظرها فحسب . وقد راعيت وجهة النظر هذه طالما كانت في قيد الحياة . لقد كانت سيدة مسنة ، سيدة من زمن آخر ، لها طريقة مختلفة في النظر الى الأمور » .

ـ « والآن أبدي لك أن هذه الطريقة في النظر الى هذه النقطة التي نحن في صددها هي أيضاً طريقتي » .

ـ « لايسعني أن أوليها اهتمامي » .

ـ « سنوليها اهتمامك ياصديقي » .

فنظر اليه كريستيان .

وصاح : « كلا ـ! لايمكن! وإذا قلت لك أنني لايسعني ؟!... يجب أن أعرف ماعلي عمله . إني رجل رشيد... »

ـ « إن ماتقوله عن « الرجل الرشيد » شيء ظاهري جداً فيك! فأنت لاتعرف مطلقاً مايجب أن تفعله... »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- «بلى!... أسلك أولا مسلك الرجل الشريف . إنك لاتدري ما الموقف ياتوماس! هنا تجلس توني وجيردا... ولن يسعنا الكلام في حضرتهما بالتفصيل! لكني على التحقيق قلت لك أن عليَ التزامات! الطفلة الأخيرة ، جيزيلا الصغيرة...»

- «لاأعرف شيئاً عما يسمى جيزيلا الصغيرة ، ولاأريد أن أعرف عنها شيئاً! إني أعتقد أنهم يكذبون عليك . وعلى كل فليس من التزام حيال ذلك الشخص الذي تعنيه سوى الالتزام القانوني الذي تريد أن تمضي في تأديته كما فعلت الى الآن...»

- «شخص ياتوماس ؟ شخص ؟ إنك مخدوع في أمرها! ألينه...»

فصاح السناتور بودنبروك بصوت كالرعد : «صه!» وحملق كل من الأخوين في وجه الآخر عبر المائدة ، توماس ممتقع اللون يرتعش من الغضب ، وكريستيان يحملق بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين اللتين التهبا جفونهما بغته ، في عنف ، فاغراً فاه كذلك من الغضب حتى بدا خداه الهزيلان أجوفين تماماً وظهرت تحت العينين قليلاً بضع بقع حمراء . فجعلت جيردا تقلب بصرها بين هذا وذاك ، وعليها سيماء الساخرة تقريباً ، وتوني تعتصر يديها وتقول مناشدة : «لكن ياتوم... لكن ياكريستيان... وأمنا راقدة على مقربة!»

وعاود السناتورالكلام : «إنك مجرد من كل شعور بالخجل الى حد أن تفعل ذلك... كلا ، إن ذكرك هذا الاسم في هذا المكان وفي هذه الظروف أمر لايكلفك أي مجهود أو أي ضبط للنفس . إن تجردك من الذوق أمر شنيع ، ممرض...»

فقال كريستيان : «إني لاأفهم لماذا لاينبغي لي أن أذكر اسم ألينه!» وبلغ من شدة انفعاله وتجاوزه كل حد أن جيردا جعلت تتأمله بانتباه متزايد . واستطرد : «إنني أتوق الى أن يكون لي بيت ، أتوق الى الهدوء والسلام - وإني لاأسمح ، أتسمع ، هذه هي الكلمة ، إني لاأسمح بأي تدخل من جانبك كائناً ماكان! فأنا حر ، أنا سيد نفسي...»

- «أنت منفعل! ستعلم يوم فتح الوصية كم أنت بعيد عن أن تكون سيد نفسك! لقد اتخذت الاحتياطات ، أتفهمني ، حتى لايكون منك مبدد لثروة أمنا كما بددت من قبل ثلاثين ألف مارك . سأدير ماتبقى من ثروتك ، ولن يصل الى يديك إلا مرتب شهري . هذا ماأقسم لك عليه...»

- «الآن تعرف خيراً مما يعرف غيرك من حمل الأم على هذا الإجراء . لكنه لامناص من أن أعجب من أن الأم لم تعهد بهذا الأمر الى أحد أقرب منك وأكثر أخوة لي... » وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كريستيان هنا أشد مايكون تهيجاً ، فشرع يقول أشياء لم يكن ليرفع عقيرته بها يوماً قط . فقد انحنى فوق المائدة ودق قرصها بطرف سبابته المقوسة دفاعاً متواصلاً ، وحملق بشاربه المنتفش وعينيه المحمرّتين في أخيه الذي كان من جانبه يطل عليه ناهضاً ممتقعاً ، مغمض الجفون نصف إغماضة .

ومضى كريستيان يقول بصوت أجوف ناعق معاً : «إن قلبك مليئ نحوي بالبرود والسخيمة وعدم الاعتبار . وبقدر مايسعني التفكير قد أطلقت علي سيلاً من برودك لأنتفض دائماً من البرد وأنا معك... نعم ، قد يكون هذا تعبيراً غريباً... لكنني إذا كنت أحسه هكذا ؟... إنك تصدني ، تصدني ولو لمجرد رؤيتي... وهذه الرؤيا أيضاً لاتنالني منك قط . فما الذي يخولك الحق في ذلك ؟ إنك أيضاً بشر ، ولك نقاط ضعفك . لقد كنت دائماً لأبوينا الابن الأفضل . فإذا كنت حقاً من القرب منهما بهذا القدر فقد كان ينبغي أن يكون لك شيء من تفكيرهما المسيحي . وإذا كان ينقصك بالفعل كل حب أخوي فلا أقل من أن انتظر منك نزراً من الحب المسيحي . لكنك مجرد من الحب الى حد أنك لاتزورني مرة... لم تزرني مرة واحدة في المستشفى وأنا راقد في هامبورغ بداء المفاصل...»

ـ «إن عندي من جد الأمور ماهو أشغل لي من أدوائك ، هذا أن صحتي نفسها...»

ـ«كلا ياتوماس ، إن صحتك على مايرام! وماكنت لتجلس هنا كما تجلس إن لم تكن صحتك بالنسبة لصحتي في الذروة...»

ـ «لعلي أشد علة منك» .

ـ «إذن لكنت... كلا ، فهذا شديد! توني ، جيردا! إنه يقول أنه أشد علة مني! كذا! ألعلك رقدت في هامبورغ بداء المفاصل عرضة للموت ؟! هل قدر لك أن تصبر بعد كل اضطراب بسيط على عذاب يتعذبه جسمك ينبو عن الوصف ؟! ألعل أعصاب جنبك الأيسر جميعاً أقصر مما ينبغي ؟! لقد أكد لي من يوثق بعلمهم أن هذه هي حالتي! فهل يحدث لك أشياء من قبيل أنك إذا دخلت الى حجرتك في العشية ترى رجلاً جالساً على أريكتك يومىء اليك ، ثم لايكون له مع ذلك وجود على الإطلاق ؟!...»

وصرخت مدام بيرمانيدر مرعبة قائلة : «كريستيان! ماهذا الذي تقوله ؟... يا إلهي ، علام تتشاجران في الحقيقة ؟ إنكما تفعلان كما لو كان شرفاً لأحدكما أن يكون هو الأعلى! فإذا كان الأمر هكذا فلي وجيردا الحق للأسف في أن تكون لنا كلمة في الموضوع! . هذا وأمنا ترقد على مقربة منا...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصاح توماس بودنبروك منفعلاً : «وأنت أيها الانسان ، ألا تفقه أن كل هذه المتاعب هي عواقب رذائلك ونتائج خمولك واشتغالك بنفسك ؟! اعمل! كف عن التفكير في حالاتك والإنطواء عليها والتحدث عنها!... فإذا جننت ـ وأقول لك صراحة أن هذا ليس بمستبعد ـ فلن أستطيع أن أذرف عليك دمعة واحدة ، ، لأن الذنب يكون ذنبك أنت وحدك...»

ـ «كلا ، كذلك لن تذرف عليَ دمعة واحدة إذا مت» .

قال السناتور في ازدراء : «لن تموت» .

ـ «لاأموت ؟ حسناً ، إذن لن أموت . وسنري من منا يموت أولاً!... أعمل! فإذا لم أستطع ؟ إذا لم أستطع أن أواصل العمل ، ربنا الذي في السموات ؟! إني لاأستطيع أن أوَدي الشيء الواحد أمداً طويلاً ، فإنه يشقيني! فإذا استطعت أنت وكنت تستطيعه فاحمد الله على ذلك ، لكن لاتقم نفسك حكماً ، فلا فضل في ذلك يعود عليك ، فالله يهب هذا القوة ولايهبها ذاك» . ومضى يقول وهو مايزال مكباً بوجهه المقطب على المائدة يزداد دقه على قرصها عنفاً : «إنك ممن ينصفون أنفسهم دون الغير . انتظر فحسب ، فليس هذا ماأردت أن أقول وأن آخذك به... لكني لاأعرف أين أبتدىء . وذلك الذي سأستطيع قوله إن هو إلا جزء من ألف ، بل جزء من المليون مما أسره في نفسي . لقد نلت مكانة في الحياة ، مركزاً مكرماً . وها أنت ذا تقف الآن وترفض جامداً واعياً كل مايمكن أن يضلك لحظة ويخل توازنك . ذلك أن التوازن عندك هو أهم شيء . لكنه ليس بالشيء الأهم! إنك أناني ، أجل ، إنك لكذلك! ولازلت أحبك حين تعنف ، وحين تثير المناظر ، وحين تعصف . لكن أسوء ماهنالك كله هو صحتك ، إنه لأسوأ شيء أن تسكت بغتة على شيء يقوله أحد ، وتنسحب وتأبى كل تبعة ، وجيهاً ، سليماً ، تدع الغير لخجله وقلة حيلته... إنك مجرد من العطف والحب والتواضع...» وصاح بغتة وهو يحرك كلتا يديه خلف رأسه ثم يدفعهما بعد ذلك بعيداً الى الأمام كأنما يرد العالم أجمع عن نفسه : «أخ! لقد شبعت من كل ذلك ، من تلك اللباقة والكياسة والتوازن والوجاهة والوقار... شبعت وغصصتَ...» وكانت هذه الصيحة الأخيرة صادقة الى حد كبير . إذ كانت صادرة عن القلب ، خارجة في توكيد لما يعتمل في نفسه من نفور وضيق ذرع بلغ منه أنه كان فيه في الحق شيء قاصم ، أجل ، وأن توماس تداعى منه قليلاً ، وخفض بصره برهة ، وظل لاينطق ببنت شفة ، تبدو عليه أمارات التعب .

وقال أخيراً وصوته يرن متأثراً : «لقد أصبحت من أنا ، لأني لم أرد أن أكون من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنت . وإذا كنت قد تحاشيتك في نفسي فقد فعلت لأنه كان علي أن أتحاشاك ، لأن كينونتك وكيانك خطر علي... إني أتكلم الحقيقة» .

وسكت لحظة ثم استأنف الكلام يقول في لهجة أوجز ونغمة أكثر تمكناً : «لقد بعدنا عن الموضوع كثيراً . لقد ألقيت علي خطاباً عن خلقي... خطاباً مضطرباً بعض الشيء لعله حوى ذرة من الحقيقة . لكن الأمر الآن لايتعلق بي بل بك . فأنا تستولي عليّ فكرة الزواج ، وأحب أن أقنعك على قدر الإمكان اقناعاً كافياً أن تنفيذ الزواج بالصورة التي تدبرها محال . فأولاً ستكون الفائدة التي سأستطيع دفعها لك غير مشجعة أبداً...»

ـ «لقد ادخرت ألينه شيئاً» .

فبلع السناتور ريقه وضبط نفسه :

« كذا... ادخرت . إذن أنت ترى أن تخلط ميراثك من أمك بمدخرات هذه السيدة... »

ـ «نعم ، إني أهفو الى أن يكون لي بيت ، وأشتاق أحداً يعطف عليّ إذا مرضت . هذا الى أننا يوافق أحدنا الآخر ، ونحن كلينا مرتبكان قليلاً...»

ـ «ولنفكر بعد ذلك في تبني الأولاد..أو بالمناسبة الاعتراف بهم ؟ »

ـ «أجل» .

ـ «لكي تؤول ثروتك من بعدك الى هؤلاء الناس ؟» ـ فلما قال السناتور ذلك وضعت مدام بيرمانيدر يدها على ذراعه وهمست في أذنه متوسلة : «توماس! إن أمنا ترقد هنا على مقربة!...»

وأجاب كريستيان : «أجل ، فهذا هو الواجب» .

فصاح السناتور وقد هب واقفاً : «إذن لن تفعل شيئاً من هذا!» ونهض كريستيان كذلك ، ووقف خلف كرسيه ، وقبض عليه بإحدى يديه ، وضغط ذقنه على صدره ، ونظر الى أخيه نصف متهيب ، ونصف غاضب .

وأعاد توماس بودنبروك وهو يكاد يجن من الغضب ، شاحب اللون ، مرتعشاً تختلج حركاته ــ أعاد قوله : «لن تفعل هذا ... مادمت في قيد الحياة فلن يقع هذا... إني أقسم لك... فاحترس! وحذار... ؟ لقد كفى ماأضعنا من مال بالمصائب والحماقة والحقارة حتى تتجاسر على أن تلقي بربع ميراث أمنا في حجر هذه المرأة وحجر أولادها سفاحاً... وهذا بعد أن احتال تيبورتيوس على ربع آخر... لقد ألحقت بالأسرة من الهزء يارجل مافيه كفاء ، فلا حاجة الى أن تربطنا بمصاهرة عاهرة ، وإكساب أولادها اسمنا . إني أحظر عليك هذا ، أتسمع ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إني أمنعك منه! » قال هذا صائحاً بصوت دوى في القاعة ، وانزاحت منه مدام بيرمانيدر الى ركن الأريكة باكية . واستطرد : « وإياك أن تجرؤ على مخالفة هذا المنع! فأنا أنصحك! لقد كنت الى الآن أحتقرك فحسب ، وكنت أتخطاك بنظري... لكنك إذا تحديتني وتجاوزت الحدود فسنرى من تدور عليه الدائرة! فاحذر ، إني أقول لك... إني لن أبدي بعد الآن مراعاة! سأعلن سفهك وأحبسك وأقضي عليك! أقضي عليك ، أتفهمني ؟!... »

وبدأ كريستيان : « وأنا أقول لك... » وتحول مابينهما الى تراشق بالألفاظ ، تراشق بلا ضابط ، لاطائل تحته ، يدعو الى الأسف ، ولايتوخى موضوعاً أو يخدم غرضاً غير الإهانة وتجريح الواحد للآخر تجريحاً أليماً .

فتناول كريستيان خلق أخيه من جديد ، ونبش في ماضيه ملامح فردية وحكايات مؤلمة أراد بها توكيد أنانية توماس . ولم يكن توماس قد نسيها ، بل كان يتذكرها ويشبعها مرارة . وأجابه السناتور بكلمات غلا فيها في الاحتقار والتهديد ثم ندم عليها بعد عشر دقائق . وكانت جيردا تعتمد رأسها في يدها ، وتراقب الاثنين بعينين مقنعتين وسيماء لاسبيل الى اكتناهها . أما مدام بيرمانيدر فكانت لاتفتأ تعيد في يأس : « إن أمنا ترقد بجانبنا... أمنا قريبة منا... »

ثم جلا كريستيان أخيراً عن ميدان القتال ، وكان يغدو في الترجيعات الأخيرة في الغرفة ويروح . صاح : « حسناً ، سنرى! » وخطا الى الباب بشارب مشوش ، وعينين حمراوين وسترة مفتوحة يمسك في يده المرخاة بمنديله ، حامياً ، يغلي من الانفعال . ثمّ أغلق الباب وراءه .

ووقف السناتور في السكون الفجائي لحظة أخرى منتصب القامة ، وسدّد نظرة في الاتجاه الذي اختفى فيه أخوه . ثم جلس صامتاً ، وتناول الأوراق من جديد بحركات مقتضبة من يده ، وأنجز في عبارات جافة ماكان عليه إنجازه ، واتكأ وهو يمرر طرفي شاربه من خلال أصابعه ويستغرقه الفكر .

وخفق قلب مدام بيرمانيدر من فرط الخوف! والمسألة ، المسألة الكبرى لم يكن ينبغي تأجيلها أطول من ذلك ، فوجب أن تبحث ، ووجب أن يجيب عنها... لكن مهلاً ، فهل كانت نفسيته الآن بحيث تغلب التقوى ولين العريكة ؟

وأنشأت تقول وهي تنظر أولاً في حجرها ثم تحاول كارهة أن تقرأ في سيماه : « و... توم... الأثاث... لقد فكرت في كل شيء بطبيعة الحال ... فالأشياء التي تخصنا ، أعني ايريكا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والصغيرة ونفسي... تبقى هنا... معنا... قصارى القول... البيت ، ماذا يكون من أمره ؟ » سألته عن هذا وجعلت تفرك يديها خلسة .

فلم يجب السناتور من فوره ، بل استمر لحظة يفتل شاربه ، ويتأمل في نفسه ، ويفكر ، ثم مالبث أن تنفس الصعداء وهب واقفاً .

قال : « البيت ؟ إنه يخصنا بطبيعة الحال جميعاً ، أنت وكريستيان وأنا... والقس تيبورتيوس أيضاً ، وهو مايضحك . ذلك أن نصيبه هو ميراث كلارا . وليس لي وحدي أن أفصل في هذا الأمر مما يتطلب موافقتكما ، غير أن الحالة القائمة تجعل من البديهي أن نبيعه بأسرع مايمكن » . وكان هذا ختام كلامه وهو يهز كتفيه . ومع ذلك فقد لاح عليه كأنما أجفل من كلامه نفسه .

وكانت مدام بيرمانيدر مطرقة برأسها إطراقاً شديداً ، فكفت عن اعتصار يديها ، وأرختهما بغتة .

وأعادت بعد برهة ، حزينة ، في شيء من المرارة : « موافقتنا ، يا إلهي! إنك تعلم جيداً ياتوم أن لك أن تفعل ماتراه صواباً ، وأننا نحن الآخرين لايسعنا أن نحبس عنك موافقتنا طويلاً! لكن... » ومضت تقريباً بلا حس ، وقد جعلت شفتها العليا ترتعش : « إذا جاز لنا أن نقول كلمة...أن نرجوك . إن البيت ، بيت أمي! بيت والدينا! البيت الذي سعدنا فيه هذه السعادة! كيف نبيعه...! »

فهزّ السناتور كتفيه من جديد .

« إنك ستصدقينني ياطفلة إذا ماقلت لك أن مايسعك ابداوه لي يحركني جداً كما يحركك من دون اعتبار آخر... لكن هذا لايكون ردوداً تبدى بل عواطف . فما سوف يعمل ، أمر تقرر ، فعندنا قطعة الأرض الكبيرة هذه ، ماذا نصنع بها الآن ؟ فمنذ أمد طويل ، منذ وفاة أبينا يتداعى البناء الخلفي كله . وفي قاعة البليار تعيش أسرة طليقة من القطط ، فإذا اقترب المرء تعرض لخطر الجنوح في أرض القاعة... ثم ، لو لم يكن لي بيتي في حفرة السماكين! لكنه لي بالفعل ، فماذا أفعل به ؟ هل الأفضل أن نبيعه ؟ احكمي بنفسك... ولمن ؟ إني لو فعلت لخسرت نصف ثمنه . آه ، ياتوني ، إن عندنا الكفاء من قطع الأرض ، إن عندنا منها أكثر كثيراً مما ينبغي! المخازن وبيتين كبيرين! وقيمة قطع الأرض تكاد لاتتناسب مع رأس المال السائل! كلا ، البيع ، البيع!... »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن مدام بيرمانيدر لم تلق السمع . فقد كانت جالسة منطوية على نفسها جسماً وروحاً ، تنظر بعينيها الثريتين الى الفضاء .

وتمتمت قائلة : «بيتنا! لاأزال أذكر كيف دشناه... ولم نكن آنئذ أكبر من كذا . كانت الأسرة كلها حاضرة ، وألقى العم هوفشتيده قصيدة إذ ذاك . وهي في الملف... أعرف ذلك عن ظهر قلب... ڤينوس أنا ديومين... وحجرة المناظر الطبيعية! وقاعة الأكل! وأناس غرباء...!

«أجل ياتوني ، هكذا لابدّ أن يكون قد فكّر آنئذ أولئك الذين غادروا البيت لما اشتراه جدنا . لقد أضاعوا مالهم وكان عليهم أن ينتقلوا منه ، حق عليهم الموت ، وحق عليهم الدمار ولكل شيء أجله ، فلنفرح ولنحمد الله أننا لم نصل بعد الى الحد الذي وصل اليه إذ ذاك آل راتنكامب ، وأننا سنودّع هذا المكان في أصلح من الظروف التي كانوا فيها...! »

وقطع عليها الحديث انتحاب منه بطيء مؤلم وإجهاش للبكاء . وكان تفاني مدام بيرمانيدر في حزنها من القدر بحيث لم تفكر مرة في تجفيف دمعها الذي كان يجري على خديها .وقد كانت جالسة منحنية الى الأمام ، متهالكة ، فسقطت دمعة دافئة على يديها الباهتتين المستقرتين على حجرها دون أن تلقي اليها بالها .

واستعادت لصوتها الذي كان الدمع يهدد بخنقه خافتاً مؤثراً وقالت : «توم ، إنك لاتعلم مايعتمل في نفسي في هذه الساعة . كلا ، إنك لاتعلمه . إن الحياة كانت قاسية على أختك فعبثت بها وضارتها . لقد نزلت بي كل المصائب التي يمكن أن تخطر ببال... ولست أعلم بم استحققت ذلك . لكني تقبلت كل شيء من دون تذمر ياتوم ، هذا الذي جرى مع جرينليش . وذلك الذي وقع من بيرمانيدر ، والذي حدث مع ڤاينشنك . ذلك أني كلما قدر الله أن تستنفد حياتي قطعة قطعة لم أضع كل الضياع . كنت أعرف مكاناً ، ومرفئاً أميناً واستطعت أن ألجأ اليه من كل متاعب الحياة... ومأزال ألجأ اليه الى اليوم بعد أن انتهى كل شيء وبعد أن اقتادوا ڤاينشنك الى السجن... قلت : أماه! أتسمحين لنا أن ننتقل اليك ؟ ـ أي أطفالي تعالين... ولما كناصغاراً نلعب لعبة «الحرب» ياتوم ، كانت هناك دائماً نقطة ، بقعة محدودة كنا نستطيع أن نرتاح فيها . بيت أمنا . هذا البيت هنا كان نقطتي في الحياة ياتوم... والآن... الآن نريد بيعه» .

واتكأت ، وأخفت وجهها في منديلها وبكت بكاء مراً .

وأنزل أخوها إحدى يديها وتناولها في يده .

«إني أعرف ياعزيزتي توني ، أعرف هذا كله! ولكن ألا ما التزمنا العقل قليلاً ؟... لقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذهبت أمنا الطيبة الى رحمة الله . فلن نستعيدها . فماذا إذن ؟ إن من خطل الرأي أن نبقى في هذا البيت رأس مال ميتاً . ولابد أن أعرف هذا ، أليس كذلك ؟ فهل نحيله الى ثكنة للإيجار ؟... إنه ليشق عليك أن يسكن هنا غرباء ، لكنه خير مع ذلك ألا تشاهدي هذا معنا ، بل أن تكتري لك ولذويك بيتاً صغيراً جميلاً أو طابقاً في مكان ما قبالة «البوابة» على سبيل المثال... أو أنك تؤثرين أن تسكني هنا مع عدد من المستأجرين ؟... ثم إن أسرتك موجودة دائماً : جيردا وأنا وآل بودنبروك القاطنات في الشارع العريض وآل كروجر وكذلك الآنسة فيشبروت... ولانذكر كلوتيلده التي لاأعلم هل يوافقها الاختلاط بنا . فمنذ أن باتت سيدة من سيدات الدير جعلت تحتجب قليلاً...» .

وتنهدت تنهداً نصفه ضحك ، وحولت وجهها ، وضغطت المنديل على عينيها ضغطة أشد ، عابسة كالطفل الذي يسعى الى تخفيف ألمه بدعابة ، لكنها بعد ذلك كشفت عن وجهها في تصميم ، واعتدلت في جلستها بأن أطرحت رأسها الى الوراء ، وحاولت مع ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها كما تفعل دائماً كلما اقتضى الأمر أن تظهر شخصيتها وتبدي هيبتها .

قالت وهي تطرف بعينيها الباكيتين الى ماوراء النافذة ، وعليها سيماء الجد والتمالك : «أريد أن أبدي كذلك فهماً... وإني لكذلك... يجب أن تغفر لي... وأنت أيضاً ياجيردا...إني بكيت . فهذا يمكن أن يحصل... فهو نقطة من نقط الضعف... لكنه ظاهري فقط صدقاني... فأنتما تعلمان تماماً أني في تصميمي امرأة عركتها الحياة... أجل ياتوم . إن ماقلت عن رأس المال الميت قد بصرني بمبلغ فهمي... إني لايسعني إلا أن أكرر أن لك أن تفعل ماتراه صواباً ، يجب أن تفكر لنا وتعمل من أجلنا ، ذلك أني وجيردا امرأتان وكريستيان... كان الله معه! إننا لايمكن أن نناهضك ، ذلك أن مايمكن أن نبديه ليس بأشياء مادية بل عواطف ، وهذه موجودة . لمن تريد أن تبيع البيت ياتوم ؟ أترى أن يتم البيع عما قريب» .

«لو أني أستطيع أن أعرف هذا ياطفلتي... وعلى كل حال... لقد تبادلت صباح اليوم مع جوش السمسار القديم بضع كلمات بالفعل ، فظهر لي أنه لايرفض تولي البيع...»

«إن هذا ليكونن حسناً ، أجل حسناً ، ولسيجموند جوش بطبيعة الحال نقط ضعفه . . . تلك المتعلقة بترجماته عن الاسبانية ، حيث يقص الناس ـ لا أستطيع أن أعرف اسم الشاعر ـ فهو شيء غريب ، لابدّ أن تسلم بذلك ياتوم ، لكنه كان صديقاً لأبي ، وهو رجل ريف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ثم إن له قلباً ، وهذا مايعرف به ، وسيدرك أن الأمر هنا

لايتعلق بأي شراء وأي بيت... فما تظن يا توم ان تطلب في مقابلته ؟ أن مائة ألف مارك هي أقل ما يجب طلبه ، أليس كذلك ؟...»

ثم عادت تقول : «إن مائة ألف مارك هي أقل مايمكن ياتوم» . وكانت ممسكة بالباب حين هبط أخوها وزوجته الدرج فعلاً ، ثم وقفت في وسط الحجرة ، وبقيت وحدها ، ساكتة ، شابكة يديها المرتخيتين أمامها بحيث كانت راحتاها متجهتين الى أسفل ، وجعلت تنظر بعينين كبيرتين من حولها على غير هدى ، وتهزّ رأسها المزدان بقلنسوة من الدنتيلا السوداء ، بلا انقطاع هزّاً خفيفاً ، وهو ينخفض تدريجياً ، مثقلاً بالأفكار على كتفها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

وقف يوهان الصغير يودع جدته وهي مسجاة يطويها الموت . أمر بذلك أبوه ولم يصغ في ذلك الى اعتراض ، وإن كان خشي ماأمر به . وفي اليوم الذي صارعت فيه القنصلة الموت هذا الصراع العنيف كان السناتور وهو على المائدة وفي حضور ولده فيما يظهر ، قد أنحى على مسلك عمه كريستيان بكلمات قاسية قالها لزوجه ، إذ كان كريستيان ، والمريضة في أسوأ حال ، قد تسلل وتوجه الى النوم . فأجابته جيردا : «إنها الأعصاب ياتوماس» . لكنه رد عليها وهو ينظر الى هانو نظرة لم تفت الطفل بحال من الأحوال ، بقوله أنه لامحل هنا لكلمة اعتذار فقد عانت الأم المرحومة معاناة يجب أن يخجل المرء معها من أن يشهد ألمها بلا تألم ويتخلص بجبن من هذه المشاركة اليسيرة التي كان مرأى صراعها خليقاً أن يثيرها . وقد استخلص هانو من ذلك أنه لايجوز له أن يجرؤ على الاعتراض على زيارة الجدة وهي على فراش الموت في نعشها المكشوف .

وقد بدا له المكان الفسيح ، كما بدا في ليلة عيد الميلاد ، غريباً ، لما دخله من بهو الأعمدة بين أمه وأبيه في اليوم السابق للدفن . وكانت على قائمة سوداء نسخة من كتاب ثورد ڤالدسن «المسيح المبارك» اتخذت مكانها في الطرقة تلمع بيضاء الى جانب الخضرة الداكنة لأصص كبيرة من النباتات تتعاقب مع شمعدانات فضية عالية وتؤلف نصف دائرة . وكان يرفرف في كل مكان على الحيطان في تيار الهواء شاش أسود يستر زرقة السماء البادية في توريق الحيطان وفي ابتسامة تماثيل الآلهة البيضاء على السواء ــ تلك التي طالما شهدت ماكان يؤدب في هذه القاعة من مآدب في مرح وحبور ووقف يوهان الصغير الى جانب المحمل ينظر الى الجثمان الساكن ممدداً أمامه بين الأطلس الأبيض وعليه سيماء الصرامة والجلال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من حول يوهان أقاربه ضافية عليهم ثياب الحداد ، ومن حوله كم بزة البحار الذي يرتديها شريط الحداد العريض ، تشوب حسه تلك الروائح المتضوعة من هذه الزخرفة من باقات الزهور والأكاليل التي كان يخالطها عبير آخر غريب ، لكنه معروف مع ذلك بصورة عجيبة ، عبير خافت كل الخفوت لايلحظ إلا مع هذا النفس أو ذاك... نعم كان يوهان الصغير واقفاً هناك بالقرب من النعش ينظر في الشكل المتحجر المسجى أمامه مغطى بالساتان الأبيض في جد وقسوة .

لم تكن هذه جدته . وكان من بين ماأخذته عينه قلنسوتها التي ألفت وضعها في المجتمعات تحفها بالشرائط الحريرية البيضاء ، وشعرها الكستنائي الأحمر . لكن هذا الأنف الحاد ، وهاتين الشفتين الغائصتين ، وهذا الذقن البارز ، وهاتين اليدين الصفراوين الشفافتين المتشابكتين الباردتين المتيبّستين . كل هذا لم يكن مما عهده فيها . فهذه التي رآها كانت دمية غريبة من الشمع لو أنها فطرت على هذا النحو ليحتفل بها لأثارت الرعب . وحوّل بصره الى حجرة المناظر الطبيعية كأنما يترقب أن تظهر فيها جدته الحقيقية في اللحظة التالية... لكنها لم تأت . كانت قد رحلت واستبدل بها الموت الى الأبد هذا التمثال من الشمع الذي يغمض جفونه ويطبق شفتيه في عناد وصد اطباقاً شديداً...

كان يقف على الساق اليسرى ، حانياً الساق اليمنى بحيث تتوازن قدمه على طرفها ، يضم بإحدى يديه إنشوطة البحار على صدره وتتدلى الأخرى بجانبه . وكان رأسه مائلاً الى جنب بشعره الكستنائي الرائق المخصل ، المتهدل فوق سالفيه ، وتحت حاجبيه المقطبين عيناه العسليتان ، تحيطهما هالة مائلة الى الزرقة ، تطرفان وتنظران الى محيا الجثمان معبرتين عن النفور والتفكير . وكان يتنفس في بطء وتردد ، ذلك انه كان ينتظر مع كل نَفَس ذلك الشذى الغريب الذي يعرفه مع ذلك بصورة عجيبة والذي لم تستطع غيوم روائح الأزهار أن تمنع تضوعه . فإذا فاح وتبينه قَطَّبَ حاجبيه أشد مما يفعل واستولت على شفتيه الرعشة لحظة... وأخيراً تنهد ، لكنه كان كمن ينتحب بلا دموع حتى انحنت عليه مدام بيرمانيدر وقبلته ثم اقتادته .

وبعد أن تلقى السناتور بودنبروك مع مدام بيرمانيدر وايريكا ڤاينشنك تعازي المدينة في حجرة المناظر الطبيعية ساعات طويلة ، ووريت اليصابات بودنبروك المولودة باسم كروجر ـ التراب . وقد حضر دفنها أقرباء لها يقيمون في الخارج ، جاءوا من فرانكفورت وهامبورغ ، وضيفوا لآخر مرة في بيت شارع منج . وقد كان آل الميتة يملأون القاعة

وحجرة المناظر الطبيعية وبهو الأعمدة والطرقة لما أخذ القس برنجزهايم راعي الكنيسة العذراء مريم يلقي كلمة التأبين بين الشموع المحترقة يحف به الجلال عند رأس النعش مولياً شطر السماء وجهه الحليق الذي يتراوح تعبيره بين التعصب الجهم والتجلي الوادع ويقوم فوق تجاعيد الرقبة العريضة المتغضنة .

وقد أثنى على صفات الراحلة بعبارات يعلو فيها الصوت ويخفت ، وامتدح وجاهتها وتواضعها ومرحها واحسانها وأمانتها ، وذكر «أماسي» أورشليم و«مدرسة الأحد» ونوه في لهجته العامية البهية مرة أخرى بالحياة المديدة الغنية السعيدة الخالدة التي قضتها فوق هذه الأرض... ولما كانت كلمة «خاتمة» تحتاج الى نعت فقد تحدث في النهاية عن خاتمتها الوادعة .

وكانت مدام بيرمانيدر تعرف جيداً ماهي مدينة به في هذه اللحظة لنفسها وللجماعة كلها من هيبة وهيئة وجيهة فاحتلت هي وابنتها ايريكا وحفيدتها اليصابات أظهر أمكنة الشرف على مقربة من القسيس ، وعند رأس النعش المغطى بالأكاليل ، بينما توماس وجيردا وكريستيان وكلوتيلده ويوهان الصغير ، وكذلك القنصل كروجر الشيخ الذي كان جالساً على كرسي ـ بينما هؤلاء قد رضوا شأن أقرباء الدرجة الثانية ، أن يشغلوا في الحفلة أماكن أقل احتراماً . كانت واقفة هناك منتصبة القامة ، مرفوعة الكتفين قليلاً ، تضم يديها على منديل الباتستا ، فخورة بالدور الأول الذي كان من نصيبها في هذا الاحتفال الى حد أن فخرها هذا كان ينسيها ألمها تماماً أحياناً . وعيناها اللتان كانت تجيلهما في الجمع هنا وهناك ، فتتبين فيه أيضاً جوليا مولندروف ــ وهي من أسرة هاجنشتروم ومعها زوجها... إذ كان فرضا عليهم جميعاً أن يأتوا : آل مولندروف وكستنماكر ولانجهالز وأوڤرديك! فقبل أن تجلو توني بودنبروك عن بيت والديها يجب عليهم أن يجتمعوا هنا مرة أخرى ليقدموا اليها تعازيهم واحتراماتهم على الرغم من جرينليش وبيرمانيدر وهوجو ڤاينشنك...!

وجعل القس برنجزهايم ينكأ بتأبينه الجرح الذي أحدثه الموت ، فعرض أمام عيني كل منهم حساباً لما فقده ، وفهم كيف يفجر الدمع من أعين لم تكن لتذرفه من تلقاء نفسها . وقد حمد له المتأثرون ذلك ، فلما تناول بالكلام «أماسي أورشليم» أخذت صديقات الراحلة العجائز جميعهن ينتحبن فيما خلا مدام كيتلزن التي لم تكن تسمع شيئاً ، وكانت تنظر أمامها في اتجاه مستقيم وعليها ملامح الصماء المغلقة ، والأختين جيرهارت سلالة باول جيرهارت ، اللتين كانتا واقفتين في أحد الأركان يداً في يد ، صافيتي الذهن . ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنهما كانتا مغتبطتين بموت صديقتهما لاتحسدانها لسبب واحد هو أن قلبهما لم يكن يعرف حسداً ولا غلاً .

أما الآنسة ڤيشبروت فكانت تتمخط بلا انقطاع في نبرة وجيزة قوية . لكن سيدات بودنبروك ساكنات الشارع العريض كنّ بخيلات بدموعهن . ولم تكن هذه عادتهن ، فكانت أساريرهن وقد خفت حدتها عن المألوف ، تعبر عن رضى ، رضى عن عدالة الموت الذي لايتحيز .

ولما تلاشت آخر آمين للقس برنجزهايم ، جاء حَمَلة النعش الأربعة بقبعاتهم السوداء المثلثة الأركان يخافتون ، لكنهم مع ذلك يسرعون الى حد أن كانت معاطفهم السوداء من ورائهم منتفخة ، وألقوا أيديهم فوق النعش . كانوا أربعة وجوه خدم أجراء يعرفهم كل أحد ، ويقدمون في كل وليمة عشاء تقام في المحافل الراقية الصحاف الثقيلة ، ويشربون في الدهاليز النبيذ الأحمر الذي يبيعه مولندروف في الدوارق . كذلك لم يكن يستغنى عنهم في جنائز الطبقتين الأولى والثانية ، إذ كان حذقهم لهذا العمل كبيراً . كانوا يعرفون جيداً أن هذه اللحظة ، والنعش يتناوله غرباء من بين الباقين ويذهبون به الى غير عودة ، يجب أن تمر في لباقة ومهارة . وقد رفعوا الحمل عن المحمل الى أكتافهم بحركتين أو ثلاث خفيفة قوية لم يسمع لها حس . وقبل أن يتسع لأحد وقت لتبين رعب هذه اللحظة كان النعش المغطى بالأزهار يترنح ويختفي من المكان دون إبطاء وفي سرعة مقدرة مع ذلك ، مخترقاً بهو الأعمدة .

وتزاحمت السيدات من حول مدام بيرمانيدر وابنتها محاذرات ، متنبهات ، ليصافحنها ، خافضات أبصارهن ، متمتمات ما وجب أن يتمتم في هذه المناسبة لاأقل ولاأكثر ، بينما استعد السادة للهبوط الى المركبات...

وسار الموكب الطويل المتشح بالسواد والركبة الطويلة الوئيدة في الشوارع المعتمة الرطبة مخترقة بوابة القصر الى خارجها على امتداد الطريق العاري من ورق الأشجار ، المطير بغيث بارد متطاير حتى بلغ المقبرة حيث سار المشيعون على الأقدام خلف النعش فوق الطرقات الممهدة ، بينما كان مارش الحداد يرن خلف دغل نصف عار الى مكان ارتفعت فيه في مدفن أسرة بودنبروك على حافة الغابة لوحة أسماء غوطية متوّجة بصليب كبير من الحجر الرملي . وكان غطاء القبر الحجري المزدان برنك الأسرة المنحوت ملقى بجانب الحفرة السوداء المحاطة بالخضرة البليلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد أعد المكان هناك للقادم الجديد ، وأخلى قليلاً في الأيام الأخيرة تحت اشراف السناتور ، ونحيت رفاة بعض آل بودنبروك ممن تقادم عليهم العهد جانباً . وبينما كانت أصوات الموسيقى تتلاشى تدلى النعش من حبال الحمالين فوق الحفرة المبطنة بالحجارة وانزلق الى أسفل منها ، وأنشأ القس برنجزهايم يتكلم من جديد مدثراً معصمه ليدفئه ، وكان صوته المدرب يرن واضحاً ، مؤثراً ، عامراً بالتقوى ، فوق القبر المفتوح وعبر رؤوس الحاضرين المنحنية أو المائلة من الأسى الى جنب ، يشق هواء الخريف البارد الساكن . وأخيراً انحنى فوق الحفرة وخاطب الميتة باسمها الكامل ، وباركها بعلامة الصليب . فلما سكت وأمسك السادة بأيديهم المكسوة بالسواد قبعاتهم العالية أمام وجوههم ليصلوا ساكنين ، طلعت الشمس قليلاً ، وأقلعت السماء ، وسمع هنا وهناك تغريد الطيور وجيزاً رقيقاً متسائلاً مختلطاً بوقع القطرات التي كانت تتساقط فرادى من الأشجار والشجيرات .

ثم أخذ كل من المشيعين يصافح ابني الميتة وأخاها كرّة أخرى .

وكان توماس بودنبروك واقفاً بين أخيه كريستيان وخاله يوستوس في هذا العرض ، قد علا قماش معطفه السميك الداكن قطرات فضية دقيقة كالندى من مخلفات المطر .

وكان في العهد الأخير قد جعل يسمن قليلاً ـ وهي الأمارة الوحيدة في مظهره المعتنى به على أنه بدأ يهرم . وكان خداه اللذان جار عليهما شاربه المفتول قد استدارا لكنهما كانا شاحبين قد زايلهما الدم وجفتهما الحياة ، وكانت عيناه المحمرتان شيئاً ما تنظران الى وجه سيد احتوت يده يده لحظة في أدب فاتر .

الفصل الرابع

بعد ذلك بثمانية أيام كان يجلس في حجرة مكتب السناتور بودنبروك الخاص على المقعد الجلدي القائم الى جانب المكتب شيخ قصير القامة ، حليق الذقن ، ذو شعر أبيض ناصع البياض ، يتهدل عميقاً على جبينه وسالفيه . وكان منحنياً يسند كلتا يديه على عكازة عصاه البيضاء ، ويستقر فوق اليدين ذقنه البارزة المدببة ، يحدج السناتور بنظرة منكرة ، نافذة ، رديئة ، أطبق لها شفتيه ، وسحب زاويتي فمه ، نظرة بلغ من نكرها ونفوذها ورداءتها أن بدا من غير المفهوم كيف لم يتجنب السناتور أن يكون بينه وبين مثل هذا الانسان شيء مشترك . على أن توماس بودنبروك كان يجلس من دون أن يبدو عليه قلق ، وكان يتحدث الى هذه الظاهرة الشيطانية الرديئة كما يتحدث الى مواطن عديم الأذن... فقد كان يجري بين رئيس متجر توماس بودنبروك والسمسار سيجسموند جوش تشاور على المبلغ الذي يباع به البيت العتيق الكائن بشارع منج .

وقد استغرق هذا التشاور زمناً طويلاً ، إذ بدا العرض المقدم من السيد جوش وهو ٢٨,٠٠٠ ريال ـ بدا للسناتور جد ضئيل ، بينما قد ارتضى السمسار لنفسه أن يدخل جهنم إذا لم يكن جنوناً أن يضيف الى هذا المبلغ ولو قرشاً من الفضة . وقد تكلم توماس بودنبروك عن الموقع المركزي والنطاق غير العادي الذي تمتاز به قطعة الأرض ، لكن السيد جوش ألقى بصوت أجش ، مكتوم ، مرير ، وشفتين مزمومتين ، وسيماء تثير الرعب ، محاضرة عن المخاطرة المرهقة التي أخذها على عاتقه ، وأبدى إيضاحاً كان في تأثيره وحيويته يمكن تقريباً أن يعد قصيدة... ها! متى ولمن وبكم يمكن أن يبيع هذا البيت مرة ثانية ؟ كم مرة يمكن على كر السنين والأيام أن يطلب أحد مثل هذه القطعة من الأرض ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعل صديقه وراعيه المحترم يعده بأن يصل غداً بالقطار القادم من بيشن نائب من الهند ليقيم في بيت بودنبروك ؟ وأنه ـ سيجسموند جوش ـ سوف يقتنع بهذا... سوف يظل جالساً ويكون رجلاً مهزوماً مقضياً عليه نهائياً ، فلا يعود يجد من الوقت مايسمح له بالنهوض ، إذ يكون الأجل قد جاء ، وقبره قد حفر ـ يكون قد حفر قبره... وإذ راقته هذه العبارة فقد أضاف اليها شيئاً عن الأرواح الشريرة المرتعدة وعن التراب المهيل المهدود على غطاء النعش...

ومع ذلك لم يعلن السناتور رضاه ، فقد تكلم عن قابلية قطعة الأرض للتقسيم بصورة عظيمة ، وأكد التبعة التي ينهض بها حيال إخوته ، وأصر على أن يتقاضى ٣٠,٠٠٠ ريال ليسمع بعد ذلك في مزيج من ثورة الأعصاب والرضى رداً سديداً من السيد جوش . وقد دام هذا ساعتين كاملتين عرضت له في خلالهما مناسبة لإظهار كل فنون شخصيته ، فلعب في نفس الوقت لعبة مزدوجة ، ومُثل الخبيث المرائي . قال بصوت عذب ، وهو يميل برأسه الى جنب ، ويحول وجهه الذي تنتهبه الحركات الى ابتسامة تعبر عن سذاجة القلب ، ويمد يده الكبيرة البيضاء ذات الأصابع الطويلة المرتعشة .

قال : «اقبل ياحضرة السناتور ياراعي الشباب... اقبل ٨٤٠٠٠ مارك ، فهي عرض من رجل مسن شريف!» لكن هذا كان كذباً وغدراً! فهذا القناع المداجي الذي تطل من تحته نذالة هذا الرجل المتأصلة في صورة منكرة لما يستشفه طفل ويكشفه .

وأخيراً أعلن توماس بودنبروك أنه لابد له من وقت للتفكير ومشاورة إخوته في هذه اللحظة على موضوع محايد فاستعلم عن مبلغ ماأصاب السيد جوش في تجارته من التوفيق واستفسر عن صحته .

ولم تكن صحة السيد جوش على مايرام ، وإذ يفترض أنه يمكن أن يكون من السعداء نفى هذا الفرض بحركة جميلة كبيرة من ذراعه ، فالشيخوخة المرهقة تقترب ، بل قد حلت كما قال ، واحتفرت حفرته . وهو في المساء يكاد لايستطيع أن يدني قدح «الجروج» من فمه دون أن يريق نصفه ، فكذا يهزّ الشيطان ذراعه . ولن ينفع لعن... فالإرادة لم تعد لها الكلمة العليا... وعلى كل فإنه يستدبر حياة لم تكن لها تنطوي على البؤس . وقد رعى العالم بعينين يقظتين فمرت به ثورات وحروب ، وطافت أحداثها بقلبه كما يقولون . ها ، عليها اللعنة! لقد كان الزمن غير الزمن لما تحدى الغوغاء الحانقين الى جانب والد السناتور القنصل يوهان بودنبروك أثناء تلك الجلسة التاريخية التي عقدها مجلس المواطنين... كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك أهول مايهول! كلا ، فلم تكن حياته آنئذ تتسم بالفقر ، وكذلك في باطنه لم يكن كذلك تماماً . عليها اللعنة! كان يحس قواه تغلي وكما يقول فويرباخ : «بقدر قوتك يكون مثلك الأعلى» كان إذ ذاك مايزال يحس هذا الإحساس ، إذ ذاك لم يكن فقير النفس ، وكان قلبه مايزال فتياً ، فلم يكف ولن يكف عن أن يكون جديراً بخبرات عظيمة ، وإن يحوط مُثله العليا بحرارة ووفاء... سيحملها معه الى القبر ، مافي ذلك شك! ولكن هل المُثل العليا موجودة لكي تُبلغ وتُحقق ؟ كلا! «إن النجوم ليست مايشتهى» . بل الأمل... أوه ، الأمل ، لا التحقيق . «فالأمل وإن يكن خداعاً ، يفيد على الأقل في أن يقدنا الى نهاية الحياة من طريق مريح» هذا ماقاله لاروشفكو . وقد كان ماقال جميلاً ، أليس كذلك ؟... أجل ، إن صديقه وراعيه المحترم لم يكن بحاجة الى معرفة ذلك! ومن ترفعه موجات الحياة الحقيقية على أكتافها حتى يداعب الحظ جبينه فذلك الذي لاتعوزه مثل هذه الأشياء لتشغل رأسه . لكن من يحلم وحيداً في الأعماق طي الظلام فهو الذي يكون بحاجة اليها!

وقال فجأة وهو يضع إحدى يديه على ركبة السناتور ويتطلع اليه بنظرة غائمة : «إنك لسعيد! إنك تحتضن الحظ! لقد اختارك واستحوذت عليه بذراع قوية... بيد قوية!» مستدركاً لأنه لم يستطع أن يحتمل تكرار كلمة ذراع[1] ولما يكد يذكرها . ثم صمت . ولم يلبث أن عاود الكلام من دون أن يسمع كلمة من رد السناتور المتواضع الذي يدفع به الثناء عليه ، فتأمل وجهه وهو مستغرق في أحلامه المظلمة . وبغتة هم واقفاً . قال : «لكننا نسمر ، ونحن مجتمعون هنا لإنجاز عمل . إن الوقت ثمين ، فلا نضيعه بالوساوس! فاستمع الي! لأنك من أنت... أتفهمني ؟ لأنك...» وبدا كأنما السيد جوش يريد أن يغرق من جديد في تفكير جميل ، لكنه استجمع قواه وصاح في حركة مستفيضة ، مترامية ، حماسية : «٢٩٠٠٠ ريال ، ٨٧٠٠٠ مارك مقابل بيت والدنا! اتفقنا ؟...»

فوافق السناتور بودنبروك .

ووجدت مدام بيرمانيدر الثمن زهيداً جداً كما لم يتوقع منها . فلو أن أحداً عد ، بالنظر الى الذكريات التي تربطها بالبيت ، مليوناً على المائدة ، لوجدت هذا عملاً شريفاً ، ولاشيء غير ذلك . على أنها لم تلبث أن ألفت الرقم الذي ذكره لها أخوها بخاصة وهي تفكر وتنشد خططاً للمستقبل .

---

(١) بالألمانية arm (وهذه الكلمة معناها أيضاً فقير) والتورية هنا واضحة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد اغتبطت من قلبها بالأثاث الكثير الجيد الذي بات من نصيبها ، ومع أن أحداً لم يفكر بادىء بدء في إقصائها عن بيت أبويها ، فقد شرعت في البحث بهمة عن مسكن جديد تكتريه لنفسها وذويها . وسيكون وداعها لهذا البيت شاقاً عليها... مافي ذلك شك . فإن التفكير في ذلك كان يدفع الدمع الى عينيها . بيد أن انتظار التبديل والتجديد كان له من جهة أخرى فتنة... أفلم يكن هذا بالنسبة اليها تأثيثاً جديداً ، وجهازاً رابعاً ؟ وهكذا عادت تعاين المساكن وتشاور الورّاق چاكوب ، عادت تساوم في الحوانيت على الستائر وقماش المماشي... وقد دق قلبها حقاً ، دق قلب هذه المرأة المسنة الذي فولذته الحياة ـ دق عالياً!

وهكذا انقضت أسابيع أربعة ، خمسة ، ستة أسابيع . وتساقطت باكورة الثلج وحل الشتاء ، وطقطقت المواقد ، وفكر آل بودنبروك ، وهم حزانى ، في حفلة عيد الميلاد كيف تتم هذه السنة... وإذا بشيء يقع على حين بغتة ، شيء درامي ، شيء مفاجىء جاوز كل حد ، فجرت الأمور مجرى آخر يستحق أعظم الاهتمام وقد لقيه كذلك... وقع حادث... نزل كالصاعقة ، وكان من شأنه أن مدام بيرمانيدر كفت في غمرة أعمالها عن الحركة وتيبست!

قالت : «توماس ، هل أنا مجنونة ؟ أو لعل جوش يخرف ؟ مستحيل هذا! سخيف جداً ، لايخطر بحال على بال...» وسكتت ، وأمسكت سالفيها بكلتا يديها ، لكن السناتور هزّ كتفيه .

«أيتها الطفلة العزيزة! إن شيئاً لم يتقرر بعد ، لكن الفكرة ، الاحتمال نبت ، فإذا فكرت شيئاً ما تفكيراً هادئاً فسوف تجدين أن ليس في المسألة ما لا يخطر على بال ، حقاً أن الأمر مما يدهش قليلاً ، وأنا أيضاً قد تراجعت خطوة لما قاله جوش لي . لكن أن لايخطر على بال ؟ فما الذي يجعله إذن أمراً مستبعداً ؟...»

قالت : «إني لن أعيش بعده» . وجلست على مقعد ولم تتحرك .

فما الذي حدث ؟ ـ لقد وجد مشتر للبيت أو شخص أظهر اهتماماً به وأعرب عن رغبته في معاينة هذا الملك الرخيص معاينة دقيقة للدخول في مساومات أخرى . كان هذا الشخص هو السيد هرمان هاجنشتروم تاجر الجملة وقنصل المملكة البرتغالية .

فلما انتهت الاشاعة الأولى الى مدام بيرمانيدر شلت حركتها ، وأذهلتها ، وصدمتها ، ولم تصدقها ، وعجزت عن إدراك الفكرة وسبر غورها ، لكنه لما اتخذت المسألة مع الأيام المزيد من الشكل والتكوين ، إذ باتت زيارة القنصل هاجنشتروم لشارع منج بكل بساطة

على الأبواب ، استجمعت قواها وعاودتها الحياة . فلم تحتج ، بل هبت ووجدت كلمات حادة من نار قذفت بها كما يقذف بمشاعل الحرق وفؤوس الحرب .

«لن يقع هذا ياتوماس . لن يقع مادمت في قيد الحياة! إنك إذا بعت كلبك وجب أن تعرف لمن تبيعه . وبيت أمي! بيتنا! حجرة المناظر الطبيعية!...»

«لكني أسألك ، ما الذي يعترض هذا حقاً ؟»

«ما الذي يعترضه ، يارحمن يارحيم! ما الذي يعترضه! جبال تقوم سداً دونه ، دون هذا الشخص البدين ياتوماس! جبال! لكنه لايراها! ولايهتم بها! لأنه لاإحساس عنده لها! فهل هو من البهائم ؟... إن آل هاجنشتروم خصومنا منذ الأزل... فهنريش الكبير سبب لجدي المتاعب ، وإذا كان هرمان عجز عن أن يلحق بك شيئاً ذا بال ، إذا كان لم يعترض طريقك ، فلأنه لم تتح له فرصة لذلك... لما كنا أطفالاً صفعته في الطريق العام ولي أسبابي التي دفعتني الى هذا ، وقد خدشتني أخته الظريفة جوليا حتى كادت تقضي علي .

هذه صبيانيات... صحيح! لكنهم كانوا يتفرجون علينا وملؤهم السخر والشماتة كلما نزل بنا مصاب . وكثيراً ماكنت أنا التي تتيح لهم هذه التسلية... وهذه مشيئة الله... لكنه لابدّ أنك تعرف خيراً من غيرك ياتوم كم آذاك القنصل في عملك ، وكم سد عليك الطريق بلا خجل ، أفلست أنا التي تبصرك بذلك . ثم لما تمت لايريكا زيجة طيبة لم يهدأ لهم بال حتى تمكنوا من إزاحة المدير وسجنه بيد أخيهم . هذا الهر ، هذا النائب الشيطان... ثم هم الآن يجترئون... ولايخجلون...»

«إسمعي يا توني ، إننا أولاً لم يعد لنا دخل جدي في الموضوع ، فقد تعاقدنا مع جوش ، ومن شأنه أن يعقد الصفقة مع من يشاء . وإني لاشك أسلم لك بأن في الأمر شيئاً من تهكم الأقدار...»

«تهكم الأقدار ؟ أجل ياتوم ، هذه طريقتك في التعبير! لكني أسمي هذا عاراً ، اسميه لطماً على الوجه ، وهذه لطمة! أفلا تدرك معنى هذا ؟ فكر بربك مايمكن أن يعني هذا ياتوم! معناه : إن آل بودنبروك قد انتهوا ، قد قضي عليهم نهائياً ، معناه أنهم ينسحبون ، وإن آل هاجنشتروم يحلون محلهم بقضهم وقضيضهم... أبداً ياتوماس ، لن أشترك أبداً في هذه المسرحية! لن أمد يدي أبداً الى هذه الضعة! فليأت! ليجرأ على القدوم الينا لمعاينة البيت ، فلن أستقبله ، صدقني! سأوصد على نفسي وابنتي وحفيدتي الباب بالمفتاح في إحدى الحجرات وأمنعه من الدخول . هذا ما سأفعله . . .» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ستفعلين ياعزيزتي مايروقك ، وستفكرين قبل ذلك ، أليس من الصواب المحافظة على آداب المجتمع والحرص عليها . لعلك تعتقدين أن القنصل هاجنشتروم سيحس إهانة في مسلكك ؟ كلا ، وألف مرة كلا ، ياطفلتي . لن يسره هذا أو يسوءه... بل سيندهش ، سيندهش في برود وقلة مبالاة... والمسألة هي أنك تفترضين فيه نحوك ونحونا نفس المشاعر التي تحدوك نحوه . خطأ ياتوني . إنه لايكرهك بحال من الأحوال . ولماذا يكرهك ؟ إنه لايكره أحداً . إنه موفق وسعيد . عامر بالمرح وحسن النية فصدقيني في هذا : لقد أكدت لك أكثر من عشر مرات أنه سوف يحييك في الشارع أحسن تحية إذا استطعت أن تضبطي نفسك ، فلا تزوري عنه بهذا العداء وهذه الغطرسة . إنه ليعجب من هذا ويظل دقيقتين يشعر بالدهشة هادئاً ساخراً بعض السخر ، غير قادر على أن يخرج عن الطور إنساناً لايسع أحداً أن يسيء اليه... فما الذي تأخذينه به ؟ إذا كان في الأعمال يسد عليَ الطريق ويناهضني هنا وهناك في الشؤون العامة بنجاح ـ وليس في هذا مايعاب ـ فلا بد أن يكون تاجراً أحذق وسياسياً خيراً مني... وليس هذا سبباً بحال من الأحوال لأن تضحكي كما تفعلين بهذا الغل الغريب . لكن لنرجع الى موضوع البيت . فإن هذا البيت العتيق كاد من أمد طويل ألا يكون له أهمية بالنسبة للأسرة ، بل إن هذه الأهمية قد انتقلت بكاملها شيئاً فشيئاً الى بيتي... وإني لأقول هذا تطييباً لخاطرك على كل حال . هذا الى أنه من الجلي من جهة أخرى كيف جالت فكرة الشراء بخاطر القنصل هاجنشتروم . لقد ارتفعت هذه الأسرة ، وأخذت في النمو ، وصاهرت آل مولندروف ، وباتت نداً لأرقى الطبقات في المال والاعتبار ، لكنه ينقصها شيء . شيء خارجي كانت تستغني عنه الى الآن في ترفع وإنصاف... هذا الشيء هو التكريس التاريخي ، اضفاء الصبغة الشرعية عليها... ويظهر أنها قد اشتهت ذلك الآن ، فهي تنشد شيئاً منه بسكنى بيت كبيتنا هذا...

انتبهي ، إن القنصل سيبقي كل شيء هنا على حاله ماأمكن ، فلن يعدل في البناء ، وسيترك أيضاً على باب البيت[1] Dominus Providebit كما هي ، وإن كان الواجب أن يسلم المرء ويوافق على أنه وحده من أعان متجر سترونك وهاجنشتروم على مثل هذا النهوض السار...»

ـ «مرحى ياتوم! كم يثلج صدري أن أسمع منك كلمة سيئة واحدة عنه! هذا في الحقيقة

---

(١) أي : «في رعاية الله» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو كل ماأريد! ياإلهي ، لو كان لي رأسك لما كنت أضيف اليه! لكن هاأنت ذا واقف الآن... »

ـ « إنك ترين بلا مراء أن رأسي لايفيدني في الواقع كثيراً » .

ـ « ولكن ها أنت ذا واقف الآن ، كما أقول ، تتحدث عن المسألة بهذا الهدوء غير المفهوم وتشرح لي اسلوب هاجنشتروم في السلوك...آه ، تكلم كما تشاء ، فإن لك قلباً في جسمك مثل ما لي ، ولست أعتقد ببساطة أنك في باطنك على هذا الهدوء الذي تصطنعه! إنك ترد على شكاواي... لعلك تريد أن تعزي نفسك... »

ـ « إنك الآن ترفعين عقيرتك... إن ماأصطنعه هو الذي يسري ، أرجوك! وكل ماعداه ليس من شأن أحد » .

ـ « قل لي ياتوم ، إني أتوسل اليك ، اليس هذا بحران حمى ؟ »

ـ « تماما » .

ـ « كابوساً ؟ »

ـ « لم لا » .

ـ « مصيبة نكراء » .

ـ « كفى! حسبك! »

وظهر القنصل هاجنشتروم في شارع منج . ظهر مع السيد جوش الذي دخل يتبع القنصل الى حجرة المناظر الطبيعية ممسكاً قبعته الجيزويتية بيده ، يتطلع حوله منحنياً غادراً ، ماراً بالخادمة التي حملت بطاقتي الزيارة ، ووقفت تمسك بالباب الزجاجي مفتوحاً .

كان هرمان هاجنشتروم نمطاً من أولئك الذين ينتمون الى المدن الكبرى ، ونموذجاً بارزاً من النماذج التي ترى في أسواق المال بفروه السميك الثقيل الذي يصل الى القدم ، المفتوح من أمام ، ويبدي بذة شتوية انجليزية صفراء تضرب الى الخضرة ، متينة ذات ألياف . وكان بديناً بصورة غير عادية ، الى درجة أن الإزدواج لم يكن مقصوراً على الذقن ، بل كان يتناول كذلك الجزء الأسفل من وجهه كله ، وهو مالم تحجبه لحيته القصيرة الشقراء ، بل إن جلد فروة رأسه المقصوص كان يتغضن تغضنات سميكة كلما تحرك جبينه وتحركت حواجبه حركات بعينها . وكان أنفه مستقراً على شفته العليا أفطس مما كان ذات يوم ، يتنفس في عناء وتتخلل أنفاسه شاربه . لكن فمه كان يبادر الفينة بعد الفينة الى نجدة هذا الأنف فينفتح بنفس مديد ، ولكن يصحب هذا كعادته دائماً صوت رفيق يشبه الاصطفاق يحدثه اللسان في تخلصه التدريجي من الفك الأعلى وسقف الحلق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحال لون مدام بيرمانيدر لما سمعت هذا الصوت الذي تعرفه من قديم . فعادوت ذاكرتها مع هذا الصوت رؤيا تتمثل فيها الأرغفة المعجونة بالليمون المحشوة بالمقانق وعجينة كبد الأوز التي تحمل اسم ستراسبورغ ، وكانت هذه الرؤية حرية أن تهز مافي هيئتها من وقار متحجر لحظة من الزمان... وقد كانت جالسة على الأريكة وعلى شعرها المفروق المصقول قلنسوة الحداد ، وعلى جسمها ثوب أسود محبوك عليها بصورة رائعة مطرز الأزرار الى أعلاه قد شبكت ذراعيها ورفعت كتفيها قليلاً ، فلما دخل السيدان وجهت الى أخيها السناتور الذي ماكان ليتحمل تبعة التخلي عن أخته في هذه اللحظة ملاحظة هادئة تدل على عدم الاكتراث ... كذلك بقيت فوق ذلك جالسة ، بينما تقدم السناتور الى منتصف الحجرة لملاقاة الضيوف فحيا السمسار جوش تحية قلبية ، وبادل القنصل سلاماً مؤدباً لاغبار عليه . عندئذ نهضت هي أيضاً من جانبها ، وانحنت للسيدين في وقت واحد انحناءة متحفظة ثم اشتركت بعد ذلك من دون غلو في الاهتمام ، بالقول وباليد ، في دعوة السيدين الى التفضل بالجلوس . هذا الى أنها ألقت عينيها مغمضتين تماماً تقريباً ، إظهاراً لقلة مبالاتها وعدم الاهتمام .

وبينما كانوا يتخذون مجالسهم وفي خلال الدقائق الأولى التي تلت ذلك تكلم القنصل والسمسار كل بعد الآخر ، فرجا السيد جوش المعذرة من هذا الإزعاج في تواضع كاذب منفر يتربص خلفه مكر ظاهر للجميع . وقال أن القنصل هاجنشتروم تحدوه الرغبة في الطواف بغرف البيت ، إذ يفكر في ذلك بوصفه مشترياً ممكناً... وعلى أثره أعاد القنصل نفس الشيء مرة أخرى بكلمات أخرى وبصوت ذكّر مدام بيرمانيدر من جديد بأرغفة الليمون المحشوة . قال : أجل إن الفكرة خطرت له في الواقع فسرعان ماباتت رغبة يرجو أن يستطيع تحقيقها لنفسه ولذويه ، على شريطة ألا يكون السيد جوش قد بيّت أن يجني من وراء ذلك ربحاً وفيراً ، ها ، ها!... على أنه لايشك في أن الصفقة ستتم بما يرضي الأطراف جميعاً .

وقد كان في سلوكه على سجيته وعلى راحته عديم المبالاة ورجل دنيا ، وهو ماخلف أثره في مدام بيرمانيدر ، لاسيما وأنه كان يوجه كلماته دائماً تقريباً اليها مجاملة لها . بل لقد دخل في تبيان الأسباب التي دعت الى رغبته مسهباً وبلهجة تكاد أن تكون اعتذاراً . قال : «سعة في المكان! أمكنة أوسع! فبيتي في شارع ساند... إنك لاتصدقين ذلك ياسيدتي المحترمة ، كذلك أنت ياسيدي السناتور. بيتي هذا يبيت أضيق مما ينبغي بشكل بين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إننا أحياناً لانستطيع الحركة فيه... ولاأذكر المجتمع بحال من الأحوال... فهو في الواقع للأسرة وحدها : هونيوس ومولندروف وأسرة أخي مورتس... إننا فيه في الواقع كالرنجة . فلماذا بالله ـ أليس كذلك ؟ » .

كان يتكم بلهجة الغاضب بعض الشيء وفي تعبير وحركات من اليد تعني : سترون ذلك... فلست بحاجة الى أن أرضى بهذا... أو لكنت غبياً... فنحن والحمد لله لاينقصنا في أشد الحالات ضرورة أن نعالج هذه المسألة...

ومضى يقول : « على أني أردت الانتظار حتى تحتاج تسرلين وبوب الى بيت لأنزل لهما عندئذ عن بيتي ، وأنشد أنا بيتاً أكبر ، لكن... » وقاطع نفسه هنا بقوله : « تعلمون أن ابنتي تسرلين وبوب أكبر أبناء أخي وكيل النائب العام خطيبان من سنين طويلة... ولايجوز تأجيل العرس أكثر مما طال... على الأكثر سنتين... إنهما شابان ، وهذا خير! لكن بالإجاز ، لماذا انتظرهما وتفلت من يدي هذه الفرصة المواتية التي تعرض لي في الوقت الحاضر ؟ إنه لامعنى لهذا في الواقع... »

وسادت روح الموافقة في الحجرة ، وتلبث لحديث قليلاً عند هذه المسألة العائلية وهذا الزواج المنتظر . ذلك أنه لما كانت الزيجات المجزية بين أولاد الأخوة والأخوات شيئاً عادياً في المدينة ، لم يجد أحد غضاضة في هذا ، فاستفسر أهل البيت عن خطط الشابين ، خططهما فيما يتعلق برحلة شهر العسل... وقد فكرا في الريفيرا وفي نيس ألخ... وكانت هذه رغبتهما ، ولم لا ، أليس كذلك ؟... كذلك ذكر الأطفال الأصغر سناً فتحدث القنصل عنهم في ارتياح ورضى ـ عرضاً ـ وهو يهز كتفيه . فهو نفسه عنده خمسة أولاد وعند أخيه أربعة ، بنون وبنات... نعم شكراً ، فهم جميعاً بخير . ثم عاد الى الكلام ثانية عن نمو الأسرة وضيق السكنى في بيته فقال : « أجل هذا البيت هنا شيء آخر . وقد أمكنني أن أتبينه من الطريق وأنا صاعد اليه ـ إنه درة ، درة بلا مراء ، على شريطة أن تبقى المقارنة في حدود هذه الأبعاد ، ها ، ها!... وهذا التوريق... إني أعترف لك ياسيدتي المحترمة بأني وأنا أتكلم ، لاأكف عن الإعجاب بهذا التوريق... حجرة رائعة في الواقع! حين أفكر... في أنكم قضيتم حياتكم هنا الى الآن .... »

قالت مدام بيرمانيدر بهذا الصوت الذي يتهيأ لها أحياناً صادراً من الحلقوم : « إقامة متقطعة شيئاً ما » .

فأعاد القنصل في ابتسامة رقيقة : « متقطعة... نعم » ثم ألقى نظرة على السناتور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بودنبروك والسيد جوش ، وإذ كان السيدان منهمكين في الحديث أدنى كرسيه من مدام بيرمانيدر وهي جالسة على الأريكة ومال نحوها بحيث كان نفخ أنفه الثقيل يرن تحت أنفها . وقد منعها أدبها أن تتحول عنه أو تتجنب نفسه فتصلبت في جلستها وانتصبت على قدر الإمكان ، وخفضت بصرها اليه مرخية حاجبيها ، لكنه لم يلاحظ ماكان في موقفها من اضطرار وعدم ارتياح .

قال : « كيف ذلك ياسيدتي المحترمة . إنه يلوح لي أننا زاولنا معاً أعمالاً ذات يوم!... كان الأمر يتعلق آنئذ بطبيعة الحال... بم تعلق الأمر ؟ مأكولات ، حلوى ، أليس كذلك ؟... والآن يتعلق الأمر ببيت كامل... »

فقالت مدام بودنبروك وقد ازداد تيبس رقبتها عما كان عليه : « لاأتذكر ذلك » . أن وجهه كان قريباً منها بصورة غير كريمة لاتحتمل...!

قال : « لاتتذكرين ؟ »

« كلا ، إني لاأعرف حقاً شيئاً عن الحلوى . فالذي يغيم بخاطري شيء من أرغفة ليمون محشوة بالمقانق الدسمة... طعام إفطار تعافه النفس عيافاً تاماً... ولست أعلم هل كان هذا الطعام لي أو لك... لقد كنا إذ ذاك أطفالاً... أما مايتعلق بالبيت فهو من شأن السيد جوش وحده » .

وألقت نظرة عاجلة شاكرة على أخيها ، إذ أدرك ورطتها فخف لنجدتها بأن سمح لنفسه بسؤال السيدين ألا يوافقهما أن يعاينا البيت أولاً . وكان كلاهما مستعداً فاستأذنا مدام بيرمانيدر في التوجه الى هذه المهمة الى حين ، إذ كانا يأملان أن يتاح لهما مسرة لقائها مرة أخرى فيما بعد... وخرج السناتور بضيفيه من قاعة الأكل الى الخارج...

وجالوا بعدئذ في الحديقة الجرداء التي تغمرها ثلوج نصف ذائبة ، وألقوا نظرة على « الباب الكبير » ثم عادوا أدراجهم الى الفناء الأمامي حيث يقوم المغسل ، ليتوجهوا من هنا بين الأسوار على امتداد الممشى الضيق المبلط الى المبنى الخلفي عبر الفناء الخلفي الذي تقوم فيه السنديانة . ولم يكن ثمّ مايرى سوى مهملات من فعل الزمن ، فكان الكلأ والطحلب نابتاً رابياً بين بلاط الفناء ، ودرج البيت في تداع تام ، وأسرة القطط الطليقة المقيمة في قاعة البليار لايقلق راحتها ألا عابر يفتح الباب عليها دون دخول ، إذ كانت أرضية القاعة هنا غير مأمونة .

كان القنصل هاجنشتروم يسير صامتاً مشغولاً فيما يظهر بأفكار وخطط فلا يقول دواماً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوى : آه طبعاً ـ غير مكترث لما يلفت اليه ، ملمحاً بذلك الى أنه إذا ماأصبح يوماً سيداً هنا فلن يترك طبعاً شيئاً على هذه الحال . وبهذه السيماء وقف أيضاً برهة فوق الأرض المنبسطة على أرضية صلبة مدكوكة بالطين ، وتطلع الى أرض المخازن المقفرة وكرر : «آه طبعاً ـ» ودفع الرشاء السميك المعطوب فجعل يتراوح بما في نهايته من خطاف حديدي صدىء قد لبث هنا سنين طويلة معلقاً وسط المكان بلا حراك . ثم ارتد على عقبيه .

قال : «شكراً جزيلاً ياحضرة السناتور على مابذلت من جهد . وأظننا انتهينا» . ثم لزم الصمت تقريباً في الطريق المؤدي الى المبنى الأمامي الذي قطعه على عجل ، وفيما بعد أيضاً عندما دخل الضيفان حجرة المناظر الطبيعية دون أن يجلسا ، ليودعا مدام بيرمانيدر . ثم هبط بهما توماس بودنبروك الدرج وتقدمهما عبر الرحبة . لكنه ماأن كاد التوديع ينتهي ويلتفت القنصل هاجنشتروم الى مرافقه السمسار جوش حتى لوحظ أن الحديث أخذ ينشط نشاطاً كبيراً بين الاثنين...

وعاد السناتور الى حجرة المناظر الطبيعية حيث كانت مدام بيرمانيدر جالسة في مكانها عند النافذة منتصبة ، عليها إمارات الصرامة ، تعمل بإبرتين خشبيتين كبيرتين في حياكة ثوب صغير من الصوف الأسود لحفيدتها الصغيرة أليصابات ، تلقي هنا وهنا نظرة جانبية الى الستارة الكاشفة ، فجعل توماس يغدو ويروح برهة صامتاً ويداه في جيبي سراويله .

وقال عندئذ : «لقد تركته للسمسار ولابد من انتظار النتيجة . وأظنه سيشتري كل شيء فيسكن هنا في المقدمة وينتفع بالأرض الخلفية بصورة ما...» .

فلم ترفع اليه بصرها ، ولم تغير أيضاً من وضع جسمها الأعلى المنتصب ، ولم تكف عن شغل الأبرة ، بل تزايدت على النقيض من ذلك السرعة التي كانت تتحرك بها الابرتان في يديها إحداهما من حول الأخرى زيادة ملحوظة .

فقالت بصوت من الحنجرة : «مؤكد ، سيشتريه ، سيشتري كل شيء . ولماذا لايشتريه ، أليس كذلك ؟ فلن يكون هذا معقولاً في الواقع» .

ورفعت حاجبيها وجعلت تنظر من النظارة الشابكة التي باتت مضطرة الى استخدامها في عملها اليدوي من دون أن تحسن وضعها الصحيح بحال من الأحوال ، نظرة جامدة ثابتة الى ابرتيها اللتين جعلتا تلفان احداهما حول الأخرى في سرعة خاطفة وطقطقة خافتة .

وجاء عيد الميلاد ، أول عيد لاتشهده القنصلة ، فاحتفل في بيت السناتور بمساء اليوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرابع والعشرين من ديسمبر من دون سيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض ، ومن دون العجوزين كروجر ، ذلك أنه قد وضع حد لأيام الأطفال المنتظمة ، قد كان توماس يكره أيضاً أن يدعو كافة من كانوا يشتركون في أمسية أعياد الميلاد أيام القنصلة ، ويقدم اليهم الهدايا ، فليس سوى مدام بيرمانيدر ومعها ايريكا ڤاينشنك والصغيرة اليصابات ، ثم كريستيان وكلوتيلده سيدة الدير ، والآنسة فيشبروت ـ ليس سوى هؤلاء من دعوا ـ ولم تكف الأخيرة عن الإهداء المعتاد المصحوب بالحوادث في حجرها الحارة الصغيرة .

وقد نقصت مجموعة «فقراء البيت» التي كانت تتلقى في شارع منح الأحذية والملابس الصوفية ، وانتفى غناء مجموعة الغلمان . فأنشد في الصالون : «أيتها الليلة الساكنة ، أيتها الليلة المقدسة» في بساطة تامة ، وتلت تيريزه فيشبروت على الأثر فصل عيد الميلاد على أدق صورة بدلاً من زوجة السناتور التي كانت تكره أن تقوم بذلك خاصة . ثم انتقلوا يخترقون الغرف الى القاعة الكبيرة وهم ينشدون المقطع الأول من «ياشجرة الميلاد» بصوت وسط .

لم يكن ثمة سبب خاص لترتيبات مسرفة في إتاحة السرور ، فلم تكن الوجوه تفيض بشراً ولم يكن الحديث يحدوه المرح ، وعلام دار ؟ لم يكن في الأفق مايدعو الى التفاؤل الشديد . فدار حول الترحم على الأم ، وحول بيع البيت ، وحول الطابق النير الذي اكترته مدام بيرمانيدر في بيت لطيف يقع أمام بوابة هولستن ويطل على مباني «ميدان الزيزفون» دار الحديث على ماسوف يقع إذا ماأطلق سراح هوجو ڤاينشنك ثانية... وكان يوهان الصغير في تلك الأثناء يعزف على البيان شيئاً مما تمرن عليه مع السيد بفيل ويصاحب والدته في سوناتا لموتسارت مصاحبة لم تسلم من الخطر لكنه كانت حسنة الواقع . وقد أثنوا عليه وقبّلوه ، ثم لم يكن بد من أن تقتاده ايدا يونجمان الى النوم ، لأنه كان في ذلك المساء شاحب اللون متعباً من مغص في الأمعاء لما يكد يزول .

حتى كريستيان الذي كان يواصل العيش مع أخيه على تلك الحالة القديمة التي لاتشرفه كثيراً ، لم يعد يذكر شيئاً عن الزواج بعد ذلك الصدام الذي وقع في غرفة الإفطار ، ولم يدخل مع أخيه في حديث أو يبدي استعداداً لفكاهة . وكان يجيل عينيه في الحاضرين محاولاً محاولة وجيزة أن ينشد فيهم شيئاً من الفهم «للعذاب» الذي يزعمه في جنبه الأيسر ، وقد توجه الى المنتدى كي لايعود إلا لتناول طعام العشاء الذي كان مؤلفاً على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النحو المعهود... ثم بات آل بودنبروك يستدبرون هذا المساء من أمسية عيد الميلاد وكانوا فرحين بذلك .

وفي مستهل عام ١٨٧٢ انحل بيت القنصلة المتوفاة ، فارتحلت الخادمات عنه ، وحمدت مدام بيرمانيدر الله في اليوم الذي ارتحلت فيه سيڤيرين التي كانت حتى ذلك الوقت تنازعها السلطة في شؤون المنزل بصورة لاتطاق ، رحلت وهي تحمل ماآل اليها من الثياب الحريرية وقطع الملابس التحتانية . ثم وقفت بشارع منج عربات نقل الأثاث وابتدأ اخلاء البيت القديم ، فنقل الى بيت حفرة السماكين الصندوق الكبير المحفور والشمعدانات المذهبة وغير ذلك من الأشياء التي وقعت من نصيب السناتور وزوجته ، وانتقل كريستيان وذووه الى شقة مؤلفة من ثلاث غرف تقع بالقرب من المنتدى ، كما انتقلت أسرة بيرمانيدر ـ ڤاينشنك الصغيرة الى الدور المنير المؤثث بما لايحرمه من مظهر الوجاهة والكائن في ميدان الزيزفون ، وكان مسكناً جميلاً صغيراً ، ثبتت على باب طبقته لوحة نحاسية لامعة مكتوب عليها بخط منمق «الأرملة ا . بيرمانيدر ـ بودنبروك» .

لكنه ماكاد بيت شارع منج يخلو من ساكنيه حتى ظهرت فيه طائفة من العمال جعلت تهدم المبنى الخلفي فغام الجو بغبار الملاط القديم... فقد كانت قطعة الأرض قد انتقلت نهائياً الى يد القنصل هاجنشتروم إذ اشتراها ، وكان ظاهراً أنه يطمع في شرائها ، إذ عرض فيها سعر من بريمن على السيد سيجسموند جوش فلم يتردد القنصل هاجنشتروم في المزايدة . وقد جعل الآن ينتفع بملكه على أسلوبه الأريب الذي طالما أعجب الناس به من قديم . فلما حل الربيع كان قد انتقل بالفعل الى البيت الأمامي مع أسرته . وقد ترك فيه كل شيء على أصله ماأمكن اللهم إلا بضعة تجديدات اقتضتها المناسبة وبعض تغييرات عاجلة تطلبها العصر الحديث . فأزيلت على سبيل المثال كل الأجراس التي تدق بالحبل ، وزود البيت بالأجراس الكهربائية... على أنه سرعان ما اختفى المبنى الخلفي عن وجه الأرض ، وارتفع مكانه مبنى جديد لطيف هاو يقابل واجهته حفرة الخبازين ، ويتيح للمخازن والحوانيت أماكن فسيحة تقام عليها .

ولطالما أقسمت مدام بيرمانيدر لأخيها توماس أنه لن تحملها بعد الآن أية قوة على أن تشمل بيت والديها ولو بنظرة . بيد أنه كان من المحال أن تبر بهذا القسم ، فكان من الضروري أن تمر الفينة بعد الفينة في طريقها بالحوانيت ونوافذ العرض التي أجرت سريعاً بالمبنى الخلفي بأحسن الشروط ، أو بالواجهة الهرمية الفخمة في الجانب الآخر حيث يقرأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القنصل هرمان هاجنشتروم تحت Dominus Providebit[1] لكن مدام بيرماندر - بودنبروك كانت تشرع بعد ذلك في البكاء على قارعة الطريق وعلى مشهد من الكثيرين بصوت مرتفع ، فتطرح رأسها الى الوراء كما يفعل الطائر حينما يشرع في الغناء ، وتضغط المنديل على عينيها ، وتتأوه مرات آهات يمتزج فيها الاحتجاج والشكاة ، ثم تنخرط في البكاء غير آبهة لأحد من المارة أو لتطييبات ابنتها .

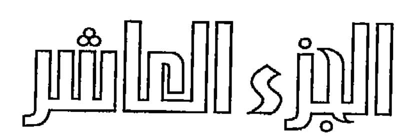
لقد كان بكاؤها هو بعينه ذلك البكاء البريء المنعش الذي كانت تذرفه أيام الطفولة ، والذي ظل على حاله كلما هبت عليها عواصف الحياة وتحطمت بها سفينتها .

---

(١) «في رعاية الله»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

كثيراً ماتساءل توماس بودنبروك كلما حلت به الأكدار ، ماذا هو في الحقيقة ، وما الذي يخوله الحق في أن يرفع قدر نفسه فوق أقدار غيره من المواطنين المستقيمين الضيقي الذهن ذوي الاستعداد البسيط ؟ لقد جفته الهمة القعساء والمثالية الطروب التي كانت له أيام الشباب . وفي العمل أثناء اللعب ، وفي اللعب أثناء العمل ، والطموح في شيء من الجد وشيء من الهزل الى أغراض يتبين فيها المرء القيمة المعنوية فحسب ، وفي تلك التسويات المنطوية على الغبطة والشك ، وتلك الأنصاف من الحلول المتسمة بالذكاء ـ في ذلك كله لابدّ من النشاط والفكاهة ومرح النفس . لكن توماس بودنبروك كان يشعر بتعب وضجر ينبوان عن الوصف .

وقد بلغ ماكان عليه أن يبلغه ، وعرف جيداً أنه قد تخطى أوج حياته إذا صح الكلام عن أوج في حياة وسط منحطة كهذه الحياة .

فأما مايتعلق بالأعمال المحضة ، فقد شاع بصفة عامة أن ثروته نقصت كثيراً ، وأن متجره يرجع القهقرى ، ومع ذلك فقد كان ، إذا جعلنا في حسابنا ميراثه من أمه ونصيبه في بيت شارع منج وقطعة الأرض ، رجلاً يملك أكثر من ستمائة ألف مارك . بيد أن رأس مال عمله معطل من سنين طويلة ، والصفقات التي تقوم بالدراهم ، والتي ألقى السناتور اللوم فيها على نفسه أيام مسألة محصول بوبنراده ، لم يطرأ عليها منذ الضربة التي أصابته إذ ذاك ، أي تحسين ، بل باتت أسوأ حالاً مما كانت . والآن في زمن تحرك فيه كل شيء نشطاً مبتهجاً ، واستطاع فيه منذ انضمام المدينة الى الاتحاد الجمركي بعض صغار التجار أن ينمّوا تجارتهم في بضع سنوات الى تجارة محترمة بالجملة ، الآن تركد أعمال متجر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوهان بودنبروك دون أن يجني من مغانم العصر أي فائدة . وقد سئل عن سير أعماله فأجاب بحركة واهنة صادرة من يده يقول : «ليس في هذه الأعمال مايسر كثيراً...» . وقد صرح منافس أنشط منه من أصدقاء هاجنشتروم الأدنين أن توماس بودنبروك في البورصة لايخرج في الواقع عن كونه حلية . فكانت هذه النكتة التي عرض فيها بمظهر السناتور الأنيق مما أعجب به وضحك منه المواطنون ، بوصفها تعبيراً تجاوز الحد من تعبيرات اللهجة الكيسة .

فإذا كان السناتور في عمله المتواصل من أجل المتجر القديم الذي خدمه ذات يوم بهذه الحماسة الشديدة قد وهن بما أصابه من سوء الحظ وألم به من فتور فقد توخى في تصعيده في شؤون المدينة العامة حدوداً خارجية لم يمكن تخطيها . فمنذ سنين ، ومنذ انتخابه لمجلس الشيوخ بلغ في هذا المجلس ماكان عليه أن يبلغه ، فكانت هناك مراكز يحافظ عليها ووظائف يتولاها ، لكنه لم يكن ثم شيء يحصل عليه فوق ذلك . كان هناك حاضر وواقع تافه . لكنه لم يعد هناك مستقبل ولاخطط يرسمها الطموح . وحقاً لقد عرف أن يمد في سلطانه في المدينة الى أبعد مايستطيع غيره في مكانه ، ولم يكن من السهل على أعدائه أن ينكروا أنه «يد المحافظ اليمنى» ، لكن توماس بودنبروك لم يستطع أن يكون محافظاً ، ذلك أنه كان تاجراً ولم يكن من رجال العلم . لكنه وهو الذي كان يملأ ساعات الفراغ من قديم بمطالعاته في التاريخ والأدب ، والذي كان يشعر بتفوقه على محيطه بأكمله في الذهن والفهم والتعليم الداخلي والخارجي ، لم يستطع التغلب على ضيقه من أن انتقاء مؤهلاته النظامية قد جعل من المحال ان يكون له المحل الأول في الدولة الصغيرة التي ولد بين ظهرانيها ، قال لصديقه ومريده ستيفان كستنماكر ذات مرة : «ماأغبى ماكنا» . لكنه كان يعني نفسه وحدها بضمير «نا» - «إذ بادرنا الى العمل في المتجر مبكرين هكذا ، ولم نؤثر إتمام دراستنا» . وأجابه كستنماكر : «أجل ، إنك محق في هذا!... ولماذا ؟»

كان السناتور يعمل الآن في أغلب الأحيان وحده في حجرة مكتبه الخاص جالساً الى مكتبه المصنوع من خشب الموغنا ، أولاً لأن أحداً لم يكن يراه هناك وهو يعتمد رأسه في يده ويفكر مغمض العينين ، ولكن في الغالب لأن شريكه السيد فريدريك فلهلم ماركوس كان قد نفره من مكانه المجاور للنافذة في المكتب العام بحذلقته المتناهية إذ يعني قبالته بتنظيم أدواته والمسح على شاربه .

لقد أصبح تدقيق السيد ماركوس المسن على مر السنين مرضاً كاملاً وعجباً من

العجب . أما أن هذا التدقيق قد بات في العهد الأخير شيئاً لايطاق بالنسبة لتوماس بودنبروك وأمراً مثيراً مهيناً فقد خلق ظرفاً وجد فيه نفسه مضطراً الى أن يلاحظ على نفسه مراراً وتكراراً شيئاً شبيهاً بهذا مما أثار رعبه . فكذلك عنده ، وهو من كان فيما مضى يكره التفاهات جميعاً ، قد نشأ لون من الحذلقة ، وإن كان مصدره مزاجاً مغايراً وحالة نفسية أخرى .

كان في نفسه فراغ فلم يرَ مشروعاً مشجعاً ولا عملاً مقيداً يتوفر عليه مسروراً مرتاحاً . لكن دافعه الى العمل ، وعجز رأسه عن الراحة ، ونشاطه الذي كان دائماً شيئاً مغايراً في أساسه لما كان يحدو آبائه من رغبة طبيعية متواصلة في العمل : كل شيء قد كان أمراً مصطنعاً ، كان توتراً في أعصابه ، مخدراً في أساسه يحكى السكائر الروسية الحامية الصغيرة التي كان يدخنها في هذه الحالة... هذه السيجاره لم تتركه ، وقد قلّ تحكمه فيها عن ذي قبل ، وباتت لها عليه اليد العليا ، أصبحت عذاباً حيث باتت باعثة على الاهتمام بطائفة من أشياء لاقيمة لها . كانت تطارده خمسمائة تفاهة عديمة الشأن لاتتناول في معظمها سوى المحافظة على مظهر بيته وعلى زينته ، وقد كان يرجئهما ضيقاً بهما ويعجز رأسه عن الجمع بينهما ، ولا يقر له معهما قرار ، لأنه كان يبذل لهما من تفكيره ووقته ما لايتناسب معهما .

وقد تزايد عنده بصورة من الصور ماكان الناس في المدينة يسمونه «عجباً» ، وماكان يخجل منه من أمد طويل ، دون أن يقدر على الخلاص من العادات التي نمت فيه من هذه الناحية . ومن تلك اللحظة التي دخل فيها حجرة لباسه على السيد ڤنتسل الحلاق القديم برداء نومه بعد ليلة قضاها نائماً نوماً لم يكن بالمضطرب لكنه كان خاملاً غير منعش — وكانت الساعة التاسعة وهو الذي ألف من قبل أن ينهض من نومه أكثر محافظة على موعد نهوضه بكثير - من تلك اللحظة كان يستنفد ساعة ونصف ساعة كاملة على لباسه الى أن يشعر بأنه فرغ من ارتداء ملابسه وبأنه مصمم على بدء يومه ، فيهبط لتناول الشاي في الطابق الأول . وكانت زينته من التدقيق بحيث تسير على ترتيب مفرداتها من «الدش» البارد في الحمام الى الختام حين تكون آخر غبرة على سترته قد أبعدت ويكون طرفا شاربه قد سويا بالمقص الكاوي ، وكانت من ثبات النظام وعدم التغير بحيث كان كر هذه القبضات والعمليات الصغيرة التي لاتحصى المتكررة دائماً يدفعه كل لحظة الى اليأس . ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن أن يغادر حجرته وهو واعٍ لأن يكون ترك شيئاً لم ينجزه أو أنجزه خطفاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فحسب ، خشية أن يفقد هذا الشعور بالانتعاش والراحة والكمال ، وهو ماكان يفقده بعد ساعة واحدة ومالم يكن بد من تجديده عند الضرورة .

كان يدخر من كل شيء مادام هذا ممكناً ، وعلى أن لايتعرض من جرأته لكلام الناس ـ إلا مايتعلق بثيابه التي كان يخيطها له أرشق خياط في هامبورغ ولايبخل على صيانتها بأية كلفة . وكان هناك باب يظهر أنه يؤدي الى غرفة أخرى ، يقفل الحنية الواسعة المجوفة في حائط حجرة اللباس ، وفيه صفوف طويلة من المشاجب فوق قوالب محنية من الخشب علقت عليها جاكتات وسموكنات وريدنجوتات وفراكات لكافة فصول السنة وحسب درجات حفلات المجتمع ، بينما جمعت السراويل مثناة في عناية فوق عدة مقاعد . لكنه في الخزانة المركبة عليها مرآة ضخمة ، والمغطاة قرصتها بالأمشاط والفرش والمستحضرات الخاصة بتزيين شعر الرأس واللحية ، كان خزين من مختلف الملابس التحتانية يبدل دائماً ويغسل ويستعمل ويكمل...

في هذه الحجرة لم يكن يمضي وقتاً طويلاً في الصباح فحسب بل أيضاً قبل كل عشاء وكل جلسة لمجلس الشيوخ وكل اجتماع عام ، وقصارى القول دائماً قبل أن يقتضيه الأمر ظهوراً وحركة بين الناس ، وقبل كل وجبة عادية في البيت كذلك حيث لايكون على المائدة فيما عداه سوى زوجه ويوهان الصغير وايدا يونجمان . فإذا خرج ضمن له الجديد مما يلبس ، والأناقة الكاملة المحتشمة البادية على بزته ، ووجهه المغسول جيداً ، ورائحة البريانتين في شاربه ، والمذاق الحامي البارد لما يستعمل من ماء للغرغرة ـ ضمن له هذا كله شعور الارتياح والاستعداد الذي يتوجه به الممثل الى خشبة المسرح وقد استكمل في كل التفاصيل قناعه... حقاً إن كيان توماس بودنبروك لم يعد شيئاً آخر غير كيان الممثل ، ممثل باتت حياته كلها حتى في أتفه شيء فيها وأدخله في باب للعادة تمثيلاً وحيداً ، تمثيلاً يستنفد كل قواه ويستهلكها فيما خلا بضع ساعات قليلة وجيزة يمضيها وحده مسترخياً... وقد جعله ماينقصه كل النقص من حمية خالصة كان يمكن أن يفيد منها في أن يخفي بكل الوسائل ماأصاب باطنه من فقر وإقفار بلغ من قوته أنه كان يشعر دائماً بشدة وطأته تقريباً كما لو كان في أسى راسخاً ، هذا الى عهد باطني لايهن وتصميم لايلين بأن يكون له مظهر الوقور ـ أقول جعله هذا الذي أسلفنا ذا كيان مصطنع واعٍ متكلف ، وجعل من كل كلمة وكل حركة وكل عمل من أتفه أعماله ، يصدر عنه بين الناس ، تمثيلاً مجهداً مثيراً .

وقد تجلت في ذلك تفصيلات غريبة ، حاجات فريدة تبينها في نفسه كارهاً متعجباً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان على النقيض من أناس لايؤدون أي دور ويريدون أن يراقبوا فحسب في سكون تام ، لايلحظهم أحد ولاترعاهم الأنظار ـ كان هو على النقيض من هؤلاء الناس لايحب أن يكون ضوء النهار في ظهره ، وأن يكون هو في الظل والناس في ضوء ساطع... كان أحب اليه أن يشعر بالضوء يعشي بصره ، وأن يرى جمهوره ، أولئك الذين كان يؤثر فيهم بوصفه رجل مجتمع رقيق الحاشية ، أو تاجراً نشيطاً ، ورئيس متجر وجيهاً ، أو خطيباً عاماً ، مجرد كتلة يغمرها الظل . وقد أكسبه هذا شعور بالانفصال والأمن ، أكسبه تلك النشوة العمياء التي يحدثها التمثيل الذاتي الذي يهدف به الى النجاح والتوفيق . أجل إن حالة التصرف هذه التي تشبه النشوة هي التي أصبحت تدريجاً بالنسبة له مما يحتمله كل الاحتمال . فإذا وقف بالمائدة وكأس النبيذ في يده وعلى وجهه امارات الرقة المصطنعة ، يشرب نخباً متلطفاً مبدياً عبارات صائبة تنم عن الحذق ، وتطلق المرح والاستحسان ، أمكن أن يظهر على الرغم من شحوبه بمظهر توماس بودنبروك في سالف الزمان ، وأصعب عليه وأشق من هذا أن يضبط نفسه وهو جالس وحده صامتاً لايؤدي عملاً . عندئذ ينتابه التعب والضيق يكدران عينيه ويسلبانه السيطرة على عضلات وجهه وهيئة جسمة . هنا تحدوه رغبة وحيدة : أن يستسلم لهذا اليأس الموهن ، أن ينسل منه ويضع رأسه في بيته على وسادة باردة .

●

لقد تناولت مدام بيرمانيدر طعام العشاء في بيت حفرة السماكين وحدها ، ذلك أن ابنتها ، وقد دعيت كذلك ، كانت قد رأت زوجها بعد الظهر في السجن فشعرت ، كما هي عادتها في مثل هذه الحالة ، بالتعب والتوعك ، فالتزمت البيت من جراء ذلك .

وقد تحدثت مدام أنتونيا عن هوجو ڤاينشنك الذي قالت أن حالته النفسية محزنة جداً ، ثم عرضت مسألة على بساط البحث هي : متى يمكن رفع التماس بالعفو الى مجلس الشيوخ ويكون ثمة أمل في قبوله . وكان الأقرباء الثلاثة يجلسون في غرفة الانتظار من حول المائدة الوسطى المستديرة تحت مصباح الغاز الكبير . وكانت جيردا بودنبروك وأخت زوجها جالستين ، إحداهما قبالة الأخرى ، مشغولتين بعمل يدوي . السناتورة مكبة بوجهها الجميل الأبيض على مطرزة حريرية بحيث بدا شعرها الثقيل الذي يضيئه نور المصباح ، متوهجاً في ظلمه ، ومدام بيرمانيدر ، وعلى أنفها النظارة الشابكة منحرفة كل الانحراف بحيث لاتؤدي وظيفتها ، تثبت بأصابع ماهرة شريطاً كبيراً بديعاً في حمرته على سلة صغيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفراء كانت هدية عيد ميلاد لإحدى معارفها . لكن السناتور كان يجلس مجانباً ، فوق كرسي ساند عريض منجد منحرف الظهر ، يقرأ في صحيفته متعامد الساقين بينما يمتص دخان سيجارته الروسية حيناً بعد حين وينفثه ثانية من ثنايا شاربه تياراً رمادياً أشهب...

وكان مساء يوم أحد دافىء من أيام الصيف ، والنافذة العالية مفتوحة تدخل الهواء الفاتر المشبع بشيء من الرطوبة ليملأ الغرفة ، ويستطيع المرء من المائدة أن يرى النجوم عبر الأسطح الهرمية في البيوت المقابلة ، وبين السحب وهي تسير سيرها الوئيد . وكان النور مايزال مضيئاً هناك في دكان الأزهار الصغير الذي يملكه ايڤرسن ، ويلي ذلك صعوداً في الشارع الساكن كانت تعزف هارمونيكا يد يرتكب عازفها أخطاء كثيرة ولعله كان أحد صبية السائق دانكوارت . وبين الحين والحين ترتفع أصوات هناك في الخارج . فتمر جماعة من البحارة تغني وتدخن وتتشابك أذرعهم آتين من حانة مشبوهة من حانات الميناء ، قاصدين الى حانة أكثر منها شبهة يمرحون ويمجنون . وقد تلاشت أصواتهم الخشنة وخطاهم المتأرجحة في شارع قاطع .

ونحى السناتور الصحيفة بجانبه على المائدة ودس نظارته الشابكة في جيب صدريته ، ومسح بيده على جبينه وعينيه .

قال : «ضعيفة ، ضعيفة جداً هذه «الاعلانات» فكل مرة يخطر لي ماقاله جدي عن ألوان الطعام التافهة غير المحبوكة : إن طعمها كذلك الذي تذوقه إذا أدليت لسانك من النافذة... فأنت تنتهين منها في ثلاث دقائق مملة ، فليس فيها بكل بساطة شيء ...»

فقالت مدام بيرمانيدر وهي تفلت عملها وتنظر الى أخيها عبر النظارة الشابكة : «أجل ياتوم! ولك أن تعيد ماقرأت متعزياً ، علم الله! وماذا يمكن أن يكون فيها أيضاً ؟ لقد ذكرت هذا عنها وأنا لاأزال طفلة غريرة صغيرة جداً : فهذه «الاعلانات» المنسوبة الى المدينة صحيفة أسيفة! وأنا أقرأها أيضاً بالتأكيد ، لأنه ليس في المتناول غيرها... أما أن تاجر الجملة القنصل فلان يفكر في الاحتفال بعيد زواجه الفضي فما لاأجده من جانبي أمراً ذا بال . ينبغي أن تقرأ صحفاً أخرى كصحيفة كونجزبرج الهارتونجية أو صحيفة الرين . ففيها يمكن...»

وقاطعت نفسها وكانت قدتناولت الصحيفة وبسطتها مرة أخرى ، وأجالت نظرها أثناء الكلام في أعمدتها مستهينة . لكنه استوقف نظرها الآن موضع ، خبر وجيز في أربعة أو خمسة أسطر... . فصمتت ومدت إحدى يديها الى نظارتها وقرأت الخبر الى آخره بينما كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمها يتسع رويداً رويداً ، ثم أطلقت صيحتين تدلان على الذعر وضغطت وجنتيها بكلتا راحتيها وأبقت مرفقيها بعيدين من جسمها .

« محال!... محال!... لاياجيردا... توم ... أأمكن أن يفوتك هذا ؟ هذا مرعب... مسكينة ياأرمجارد! هكذا يصيبها الرزء... »

فرفعت جيردا رأسها عن عملها ، والتفت توماس الى أخته منزعجاً ، وجعلت مدام بيرمانيدر تتلو الخبر بصوت مرتفع مرتعش صادر من الحنجرة ، يؤكد كل كلمة أملاها القدر . وكان الخبر من روستوك ينبىء « أن رالف فون مايبوم من أصحاب الضياع انتحر ليلة أمس في حجرة مكتبه ببيت الأسرة في بوبنراده ، بأن أطلق على نفسه رصاصة من مسدس . وختمت تلاوتها بهذا : ويبدو أن الباعث على الانتحار ضيق مالي . وقد خلّف السيد فون مايبوم زوجة وثلاثة أولاد » . وأسقطت الصحيفة في حجرها ، وأسندت ظهرها ، ونظرت الى أخيها وزوجه صامتة متخاذلة بعينين نادبتين .

وكان توماس بودنبروك وهي ماتزال تقرأ قد تحول عنها ، ووجه بصره عبر الستائر الى ظلام الصالون ، فسأل بعد أن ساد السكون دقيقتين : « أبمسدس ؟ » ثم عاد بعد فترة من الصمت يقول بصوت خافت وئيد فيه رنة السخر : « نعم ، نعم . مثل هذا الفارس!... »

ثم استغرق في الأفكار من جديد . وكان مايفتل به أحد طرفي شاربه بين أصابعه من سرعة يناقض مايبدو على ناظره من تشتت وحملقة وجمود لايستهدف شيئاً .

فلم يأبه لندب أخته ولا للتخمينات التي أبدتها فيما يتعلق بحياة صديقتها أرمجارد البعيدة ، لكنه لاحظ أن جيردا من دون أن تدير اليه رأسها ، قد وجهت اليه عينيها العسليتين المتقاربتين ، اللتين كانت تظلل مآقيها هالة تميل الى الزرقة ، وركزتهما عليه تركيزاً ثابتاً مستطلعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

لم يقدر توماس بودنبروك قط أن ينظر الى مستقبل يوهان الصغير بنظرة الاستياء الواهن الذي يتوقع بها بقية حياته ، فروح الأسرة أو ذلك الاهتمام الموروث والمكتسب ،المتجه الى الأمام والى الوراء ، العامر بالتقوى ، ذلك الاهتمام بتاريخ بيته الخاص قد كان يحول بينه وبين ذلك . والتوقع المنطوي على الحب أو الفضول التي كان ينظر الى ابنه به أصدقاؤه ومعارفه في المدينة وأخته بل سيدات بودنبروك القاطنات بالشارع العريض أيضاً ، كان يؤثر في أفكاره فكان يقول لنفسه في ارتياح ، بالغاً مابلغ شعوره بالضيق واليأس من نحو شخصه ، إنه من نحو وريثه الصغير كفء لأن تراوده على الدوام أحلام محببة عن مستقبل حافل بالحذق والعمل المجدي الجريء والتوفيق والكسب والسلطان والغنى والألقاب.. أجل وإن حياته الفاترة المفتعلة تتحول عند هذه النقطة الى سعي وخوف وأمل دافىء خالص .

فكيف إذا أمكنه مستقبلاً أن يتبين من زاوية مريحة عودة الزمن القديم ، عهد جد هانو الأكبر ؟ فهل هذا الأمل معدوم كل العدم ، لقد كان يحس عداوته للموسيقى . لكن ألهذا في الحقيقة دخل في ذلك ؟ وإذا سلمنا بأن حب الصغير للعزف الحر من دون مجسدة ينم عن موهبة لا يستهان بها ، فإن في دروسه المنتظمة مع السيد بفيل لم يتقدم بحال من الأحوال تقدماً يذكر . فالموسيقى ، وليست بأمر ذي بال ، هي تأثير أمه عليه ، فلا عجب أن يكون لهذا التأثير في سني الطفولة الباكرة اليد العليا . لكنه قد حان الوقت لأن تتاح للأب فرصة يؤثر فيها أيضاً من ناحيته في ابنه ، ويجذبه قليلاً الى جانبه ، ويوقف بانطباعات مضادة من جانب الرجولة ماكان الى الآن من مؤثرات نسوية . وكان أن صمم السناتور على ألا يدع مثل هذه الفرصة تفلت منه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونقل هانو ـ وكان الآن في الحادية عشرة ـ نقل هو وصديقه والكونت الصغير مولن بشق الأنفس وبملحق امتحان في الحساب والجغرافيا الى الفرقة الرابعة ، وقد تقرر أن يدخل المرحلة الثانوية الفنية ، إذ كان من البديهي أن يصبح تاجراً ، وأن يتولى متجر أبيه في المستقبل ، وقد سأله أبوه هل يحس من نفسه الرغبة في مهنته المستقبلية فأجاب بالإيجاب... أجاب بنعم بسيطة هيابة لم يزد عليها ، حاول السناتور بالإلحاف في أسئلة أخرى أن يجعلها أكثر حرارة وتفصيلاً بعض الشيء فلم يفلح في الغالب .

ولو كان للسناتور بودنبروك ولدان لجعل الأصغر يدرس ، لكن المتجر كان يتطلب وريثاً . وبغض النظر عن هذا فقد كان يعتقد أنه يولي الصغير معروفاً إذا هو جنبه متاعب لاضرورة لها في تعلم اليونانية . وقد كان من رأيه أن منهاج الثانوي الفني أسهل عليه ، وأن هانو بمزاجه الخامل في الكثير من الأحيان ، وشروده الحالم ، وجسمه الرقيق الذي كثيراً ما اضطره الى التخلف عن المدرسة ، سوف يسير في المرحلة الثانوية الفنية الى الأمام وأسرع وأنجح مما يمكن أن يسير في غيرها من دون اجتهاد ، فإذا قدر ليوهان بودنبروك أن يؤدي يوماً ما ذلك الذي خلق له والذي يعقد أهله الرجاء عليه فيه ، فيجب أن يحرص قبل كل شيء على تقوية بنيته الصغيرة وتنميتها بالمراعاة من جهة والتقشف من جهة أخرى...

لقد كان يوهان بودنبروك بشعره الكستنائي المفروق الآن من الجنب والممشط عن جبينه الى الوراء في ميل ، لكنه مع ذلك يحرص على أن يلتصق بسالفيه خصلاً ناعمة ، وبأهدابه العسلية الطويلة وعينيه العسليتين الرائقتين ، يتميز في فناء المدرسة وفي الشارع قليلاً عن الأنماط الاسكندناوية من رفاقه الشقر ، الزرق العيون زرقة الصلب . وقد نما جسمه في العهد الأخير تقريباً ، لكن ساقيه في جوربيهما الأسودين ، وذراعية في أكمامهما الداكنة الزرقة المنتفخة المضربة ، كانت نحيفة ناعمة كسيقان الفتيات وأذرعهن . ومازالت له كأمه تلك الظلال المائلة الى الزرقة من حول مآقيه وعينيه اللتين ترسلان إذا وجهتا من الجنب خاصة ، نظرة ذات تعبير ينم عن الوجل والصد ، بينما يبقى فيه دائماً مطبقاً على تلك الصورة الآسية ، أو بينما يحرك هانو طرف لسانه على إحدى أسنانه التي تثير ظنونه ، مفكراً يشد شفتيه شداً خفيفاً ، ويبدو عليه كما لو كان يرتعش من البرد .

وكان لضعف هانو وشحوب جلده في رأي الدكتور لانجهالز الذي بات يتولى كافة أعمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدكتور جرابو المسن وأصبح طبيب بيت بودنبروك ، سبب قوي هو أن النظام العضوي عند الصغير لاينتج الكريات الحمراء المهمة هذه الأهمية بالعدد الكافي للأسف ، بيد أنه كان لتلافي هذا النقص وسيلة وعلاج عظيم جدا وصفه الدكتور لانجهالز بكميات كبيرة : زيت الكبد الطيب الأصفر الدسم الكثيف ، زيت كبد الحوت الذي كان يؤخذ منه ملء ملعقة من البورسلين مرتين في اليوم . وقد عنيت ايدا يونجمان بناء على أمر السناتور الحازم وبصرامة حبيبة بأن يتناول هانو هذا في مواعيده . وحقاً أنه في بادئ الأمر يتقيأ بعد كل ملعقة ، وأن معدته فيما يبدو لاتقوى على استيعاب زيت كبد الحوت الطيب . بيد أنه لم يلبث أن اعتاده ، فإذا تناول عقب ابتلاعه مباشرة قطعة من خبز الشعير ومضغها محتبس الأنفاس هدأ اشمئزازه قليلاً .

وقد كان كل ماعدا ذلك من شكاواه مترتباً على هذا النقص في كريات الدم الحمراء ، فهي كما قال الدكتور لانجهالز وهو يتأمل أظافره « ظاهرات ثانوية » لكن هذه الظاهرات الثانوية أيضاً يجب أن يقضى عليها بلا شفقة . فأما عن معالجة الأسنان وحشوها وخلعها عند الضرورة فما يسكن من أجله السيد برشت في شارع الطاحونة مع ببغائه جوسيفوس . وزيت الخروع موجود في الدنيا لتنظيم الهضم ، زيت الخروع الثخين اللامع كالفضة الذي يتناول في ملعقة الأكل فينزلق من الحلقوم كالعظاءة المتسللة . ويظل المرء ثلاثة أيام كاملة يشعر في حلقه برائحته وطعمه أنى ذهب وحيث وقف... آه ، لماذا كان كل هذا شيئاً مكروهاً لايمكن التغلب عليه الى هذا الحد ؟ لقد رقد هانو ذات مرة في فراشه وكان مريضاً حقاً ، وكان قلبه تنتابه اضطرابات من نوع خاص ، فعمد الدكتور لانجهالز في هذه المرة الوحيدة وفي اضطراب عصبي بعينه الى وصف دواء سر له يوهان الصغير وارتاح اليه راحة لامثيل لها . وكان هذا الدواء يتألف من حبوب الزرنيخ ، وكان هانو يسأل بعد ذلك عنه كثيراً مدفوعاً بحاجة تكاد تكون رفيقه الى هذه الحبوب الصغيرة الحلوة المسعدة ، لكنه لم يعد يحصل عليها .

وكان زيت الكبد وزيت الخروع من الأشياء الطيبة ، لكن الدكتور لانجهالز كان متفقاً مع السناتور كل الاتفاق على أن هذين الزيتين لم يكونا وحدهما كافيين لأن يجعلا من يوهان الصغير رجلاً حاذقاً شديد المراس ، إذ هو لم يساعد بنفسه على ذلك . فكان هناك على سبيل المثال ألعاب رياضية يديرها معلم الجمباز السيد فريتشه وتقام كل اسبوع في ظاهر المدينة فوق « ميدان القصر » ويجد فيها فتيان المدينة فرصة لإظهار

شجاعتهم وقوتهم وحذقهم وحضور ذهنهم وتنمية هذه الصفات . غير أنه أغضب الأب أن هانو صد عن هذه الألعاب المواتية للصحة ولم يبد سوى كراهية تنطوي على التحفظ والترفع تقريباً... فلماذا لم يتصل في هذا أي اتصال برفاقه في الفصل ولداته في السن وهم الذين سوف يعيش ويعمل معهم في المستقبل ؟ لماذا يقبع دائماً مع كاي الصغير الناقص النمو الذي كان مع طيبته كائناً تحوطه بعض الشكوك ويكاد لايصلح صديقاً له في المستقبل ؟ إنه يجب على الغلام أن يعرف منذ البداية كيف يكسب ثقة واحترام البيئة التي تنمو معه والتي لامناص له من تقديرها في حياته كلها ، فهناك ابنا القنصل هاجنشتروم وأحدهما في الرابعة عشرة والآخر في الثانية عشرة وكلاهما غلام رائع ، بدين ، متهور ، يدير في غابات محيطة ملاكمات حقيقية ، وكلاهما خير من يزاول الرياضة في المدرسة ، يسبحان ككلاب البحر ، ويدخنان السيجار ، وكلاهما مستعد لارتكاب أية موبقة . وقد كانا موضع خشية الرفاق وحبهم واحترامهم . أما ابنا عمهما وكيل النائب العام الدكتور موريتس هاجنشتروم فكانا من جهة أخرى أرق حاشية وألين عريكة . امتازا ذهنياً وكانا نموذجين بين التلاميذ ، طموحين ، متفانين ، هادئين ، نشيطين كالنحل ، شديدي الانتباه ، يكادان يتحرقان توقاً الى أن يكون كل منهما الأول في الترتيب وأن تكون شهادتهما الأولى . وقد حصلا عليها وعادا باحترام رفاقهما ممن هم أقل ذكاء وأبلد ذهناً . لكنه بغض النظر عن معلمي هانو ماذا كان رفاقه في المدرسة يعدونه وهو التلميذ الوسط غاية الوسط ، الناعم ، الرخو الى ذلك ، الساعي الى تجنب أي شيء وتهيبه وهو الخليق بأن يبذله له شيئاً من الشجاعة ، والقوة ، والحذق ، والمرح ؟ وقد كان السناتور بودنبروك كلما مر في طريقه الى حجرة لباسه بالشرفة الكائنة فوق هناك ـ وكانت غرفة هانو منذ أن كبر وشب عن أن ينام مع ايدا يونجمان في مخدع واحد نغمات الهارمونيوم أو صوت كاي المستتر الخافت يقص حكاية...

أما كاي فكان يتحاشى الألعاب الرياضية لأن الدربة والنظام المقرر كانا يمضانه على حين لم يكن بد من مراعاتهما أثناء هذه الألعاب . كان يقول : «لا ياهانو ، إني لاأذهب الى هناك . فهل تذهب أنت ؟ الى الشيطان بهذه الألعاب...إنه ليس فيها شيءمن المتعة» . ومثل عبارة «الى الشيطان» كان يسمعها من أبيه ، لكن هانو كان يجيبه بقوله : «نستطيع أن نتكلم في هذا الموضوع إذا أمكن أن تفوح يوماً واحداً من السيد فريتشية رائحة غير رائحة العرق والجعة... أجل ياكاي ، دعنا من هذا وامض في حكايتك ، فإن ماقصصته عن الخاتم

الذي التقطته من المستنقع لم ينته بعد من أمد طويل...» فيقول كاي :«حسناً . لكنني حين أومىء اليك يجب أن تعزف» . ويمضي كاي في حكايته .

فإذا جاز لنا أن نصدق كاي فقد هبط من عهد قريب منحدراً زلقاً عميقاً بعيد الغور في ليلة مقبضة ، في ناحية غريبة مجهولة ، فوجد في سفحه في الضوء الباهت المتوهج من شعلة الماء[١] ، ماء مستنقع أسود تصعد الى سطحه بلا انقطاع فقاقيع لامعة كالفضة تقرقر قرقرة جوفاء . لكن فقاعة منها كانت تعود على الدوام قريبة من الضفة ، بعد أن تنفقع ، وكانت على شكل خاتم ، فوفق الى اقتناصها بعد جهود طويلة خطرة ، فلم تنفجر عندئذ ، بل لصقت باصبعه حلقة جامدة ملساء . أما هو ، وقد اعتقد أن لهذا الخاتم خواص غير عادية ، فقد صعد بمعونته المنحدر الزلق الشديد الانحدار ثانية ، ووجد غير بعيد منه قصراً أسود يلفه ضباب أحمر ، يرنق عليه مثل صمت الأموات ، ويخفر خفارة قوية ، فتسلل اليه وقام اليه بمعونة الخاتم بأعمال سحرية وأخرى للتخليص من السحر تستحق أجزل الشكر . لكن هانو كان في أغرب اللحظات التي تمر به أثناء القصة يعزف على هارمونيته متتابعات ائتلافية عذبة... وكان كذلك يعرض هذه الحكايات على مسرح الدمى تصحبها الموسيقى ما لم يقع في سبيلها عقبات لاسبيل الى تذليلها بالمنظر... أما الألعاب الرياضية فلم يكن هانو يذهب اليها إلا خضوعاً لأمر صريح حازم يصدر من أبيه... وعندئذ كان كاي الصغير يرافقه .

ولم تكن الحال تختلف عن هذا في التزحلق على الجليد وقت الشتاء ، والاستحمام في الصيف في حمام السيد أزموسن الخشبي القائم تحت على النهر . وقد كان الدكتور لانجهالز يقول : «الاستحمام! والسباحة! يجب أن يستحم الغلام ويسبح» . وكان السناتور موافقاً على هذا كل الموافقة . لكن الذي منع هانو في الغالب من الاستحمام والتزحلق والألعاب الرياضية ، ما أمكن هذا المنع ، قد كان ولدا القنصل هاجنشتروم اللذين كانا يساهمان في كل هذه الأشياء بجدارة ؛ كانا يقصدانها معه . ومع أنهما كانا يسكنان في بيت جدته ، كانا لايدعان فرصة تمر دون أن يذلاه ويعذباه بقوتهما ، فكانا يخدشانه ويستهزئان به في الألعاب الرياضية ويدفعان به الى نفاية الثلوج على طريق الزحلقة ، ويندفعان اليه في ماء حوض السباحة يزعقان ويهدران... فلم يكن هانو

---

(١) شعلة الماء ، هي اللمعان المتوهج على سطح الماء الراكد من تحلل الفسفور المنبعث من بعض المواد النباتية والحيوانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحاول الفرار . ولو فعل ماأفاده الفرار كثيراً . كان يقف بذراعيه اللتين تشبهان أذرع الفتيات ، في الماء الكدر الى بطنه تقريباً ، وكان على سطح الماء تلك المجموعة الخضراء من الأعشاب المسماة علف الأوز تتحرك ، فينظر الى كليهما مقطب الحاجبين ، نظرة منخفضة مظلمة ، ويزم شفتيه زماً خفيفاً وهما مقبلان عليه يقفزان قفزات طويلة يتولد منها الزبد ، واثقين من الغنيمة . وكانت لكلا الفتيين ، ولدي هاجنشتروم ، عضلات في الذراعين يطوقانه بها ويغطسانه ، يغطسانه طويلاً جداً حتى يبتلع الكثير من الماء القذر ويجاهد للتنفس والترنح... وذات مرة جاء من ينتقم له شيئاً ما . إذ أنه في الوقت الذي كان فيه ولدا هاجنشتروم يضغطانه عصر يوم تحت سطح الماء ، ندت عن أحدهما بغتة صرخة أطلقها الحنق والألم فرفع إحدى ساقيه السمينتين وهي تقطر دماً . ثم ظهر بجانبه الكونت كاي مولن الذي حصل على رسم الدخول الى حوض السباحة بشكل أو بآخر وسبح اليهم تحت الماء على غير انتظار ، وعض الفتى هاجنشتروم - عضة في ساقه بجمع أسنانه كما لو كان كلباً صغيراً مسعوراً . وكانت عيناه الزرقاوان تبرقان من بين شعره الأشقر الضارب الى الحمرة ، المتهدل فوقهما مبللاً . وقد لقي على فعلته تأديباً قاسياً ، ذلك الكونت الصغير ، وخرج من الحوض على أسوأ حال . غير أن ابن هاجنشتروم القوي كان يعرج عرجاً شديداً وهو يتوجه الى بيته...

كانت الموارد الغذائية والتمرينات الرياضية أساس الجهود التي يبذلها السناتور بودنبروك لتعهد ابنه ، لكنه لم يكن أقل من ذلك عناية بالسعي الى التأثير في ذهنه وتزويده بانطباعات حية من واقع الحياة العملية التي كتبت عليه .

فبدا يعرفه قليلاً في دائرة نشاطه في المستقبل ، فاصطحبه في غدواته وروحاته المتصلة بأعماله ، وهبط به الى الميناء ، وتركه يحضر أحاديثه مع عمال المطافىء على الرصيف بلغة هي مزيج من الدانيماركية والألمانية العامة ، ومباحثاته في مكاتب المخازن الصغيرة المظلمة مع مديري الأعمال ، ويستمع اليه وهو يصدر الأوامر الى العمال في الخارج ، أولئك الذين يرفعون أعدال الحبوب الى الصوامع وهم يتنادون نداءات مديدة جوفاء... وقد كانت هذه القطعة من العالم في الميناء وبين السفن والمخازن والمستودعات حيث تتصاعد الروائح من الزبد والسمك والماء والقطران والحديد المزيت - كانت لتوماس بودنبروك منذ الحداثة أحب مقام له وأحوزه على اهتمامه . ولما لم يبد ابنه من نفسه غبطة بهذه القطعة من العالم ومشاركة فيها ، فقد كان على أبيه أن يحرص على إثارة هذه الغبطة وهذا الاهتمام... فيسأله :

ماذا تسمي البواخر التي تتعامل مع كوبنهاجن ؟ نايادن ...هالمشتات... فريدريكا أوفرديك... ويقول : «والآن وأنت تعرف هذا في الأقل يا بني ، فهو شيء يذكر ، وستلقى بالك أيضاً الى الأسماء الأخرى .

ومن الناس الذين يرفعون الأعدال هناك من له مثل اسمك ياعزيزي لأنه عمد باسم جدك... بين أولادهم من يسمى كثيراً باسمي... وكذلك باسم والدتك... ومن ثم نهدي اليهم شيئاً في كل عام... والآن نمر بهذا المخزن ولانحادث عماله ، فليس لدينا مانقوله لهم فهم يتبعون منافساً لنا...»

وقال مرة أخرى : «أتأتي معي ياهانو ؟ إن سفينة جديدة تابعة لشركة ملاحتنا تنزل اليوم الى البحر وسأعمدها... فهل ترغب في المجيء ؟»

وقال هانو أنه راغب . وصحب أباه ، وسمع خطاب التعميد الذي ألقاه ، وشهد كيف حطم زجاجة الشمبانيا على مقدمة السفينة ، وتبع السفينة بعينين مستغربتين وهي تنزلق فوق سهل منحدر مدهون كله بصابون أخضر ، الى الماء وقد تعالى زبده...

وفي أيام بعينها من السنة ، في أحد السعف عندما يثبت الأطفال المسيحيون في دينهم ، أو في يوم رأس السنة ، يطوف السناتور بودنبروك بمركبته يؤدي الزيارات لطائفة من البيوتات التي يرتبط بها اجتماعياً ، ولما كانت زوجته تؤثر الاعتذار في هذه المناسبات باضطراب أعصابها وبالصداع كان يطلب الى هانو مصاحبته ، وكان هانو يرغب في ذلك أيضاً فكان يصعد مع أبيه المركبة ، ويجلس بجانب أبيه صامتاً في غرف الاستقبال ويراقب بعينين ساكنتين مسلكه السهل اللبق المتنوع في عناية ملحوظة ، ويشهد كيف يضع ذراعه لحظة في ممانعة وود حول كتف المقدم السيد فون رنجلن قومندان المركز الذي أكد له وهو يودعه أنه يعرف كيف يقدر شرف هذه الزيارة كل التقدير . وكيف تلقى في مكان آخر مثل هذه الملاحظة في هدوء وجد ، وكيف ردها في موضع ثالث بتحية أسرف فيها في السخر... كل ذلك في احتفال وخبرة بالكلمة والمسلك كان يحب أن يبديهما فيما يظهر ليثير اعجاب ابنه ، إذ كان يؤمل أن يكون لهما عليه تأثير وفيهما تبصير...

لكن يوهان الصغير رأى أكثر مما كان ينبغي له وراقبت عيناه المستحيتان العسليتان الرائقتان ، الظليلتان بهالة تضرب الى الزرقة ، أكثر مما يجب ، بل رأى كذلك ـ بنظرة جديدة غريبة عذبته ـ رأى كيف كان من العسير جداً اصطناع هذا اللطف وكيف كان أبوه عقب كل زيارة يقل كلامه ويزداد امتقاع لونه ، وكيف كان يتكيء في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ركن المركبة مغمض العينين محمر الجفون . فإذا بلغا عتبة البيت التالي رعى هانو أباه والرعب يملأ قلبه ، يسدل على نفس الوجه قناعاً فتعاود المرونة المباغتة حركات نفس الجسم من جديد... فلا يتخذ مظهر أبيه بين الناس وحديثه معهم ومسلكه حيالهم وتأثيره فيهم ومعاملته إياهم ـ لايتخذ هذا كله في عين يوهان الصغير تلك البساطة الطبيعية المعبرة في شبه وعي عن مصالح عملية يشارك فيها بعض الناس أو يبغي فرضها على الآخرين ، بل نوعاً من الغرض الذاتي وجهداً واعياً مفتعلاً تبدو فيه بدل المشاركة البسيطة الباطنة الخالصة ، فذاذة بالغة العسر ، مضنية غاية الاضناء في الهيئة وانتصاب القامة... وإذ يفكر هانو في أن أباه ينتظر منه يوماً أن يظهر في المجتمعات العامة ، وأن يستخدم لسانه ويراعي هيئته تحت وقر الأنظار جميعاً ، أغمض عينيه مرتعداً مما داخله في وجل وكراهية لهذا الذي ينتظر منه...

لم يكن هذا بالأثر الذي نشده توماس بودنبروك من تأثير شخصيته على ابنه! فقد كان يطمع أن يزايله الخجل وألا يبالي ، وأن يوقظ فيه فهماً للحياة العملية ، فهذا لاغيره ماكانت أفكاره تدور حوله...

كان يقول لهانو إذا طلب نصيباً آخر من الحلوى أو نصف فنجال من القهوة بعد الأكل : « يلوح لي ياعزيزي أنك تحب العيش الرغيد . إذن يجب أن تكون تاجراً حاذقاً لتكسب مالاً وفيراً! فهل تريد ذلك ؟ » فيجيب الغلام بنعم .

وحين تدعى الأسرة بين الحين والحين الى مائدة السناتور وتأخذ العمة أنتونيا أو العم كريستيان جرياً على عادتهما القديمة في التندر على العمة كلوتيلده المسكينة ومحاكاة لهجتها المديدة المتواضعة الودودة في التحدث اليها كان يقع أن يلجأ هانو من جانبه تحت تأثيرالنبيذ الأحمر الثقيل على خلاف العادة ، الى هذه اللهجة فيستعملها لحظة مع العمة كلوتيلده ويوجه اليها سخرية ما ، وعندئذ يضحك ، توماس بودنبروك ضحكة عالية صادرة من القلب مشجعة ، على المرح . بل لقد كان يأخذ في سند ابنه وينضم اليه في معاكستها : وحقاً لقد كان يستعمل هذه اللهجة من زمن طويل مع هذه القريبة المسكينة . وكان من اليسير عليه دون التعرض للخطر بحال أن يثبت تفوقه على كلوتيلده الضيقة الذهن ، الذليلة ، الهزيلة ، النهمة على الدوام حتى أنه على الرغم من كل انتفاء للأذى في هذا ، كان يشعر بما في ذلك من حقارة ، ويحس الرغبة في الإقلاع عنه بتلك المجاهدة اليائسة التي كان لابد أن يقاوم بها في حياته العملية كل يوم طبيعته التي لاابالي ، وذلك حين يعود مرة أخرى فلا

يدرك ، لايستطيع أن يفهم كيف يكون بالإمكان تبين موقف واجتلاءه ثم استغلاله مع ذلك من دون شعور بالخجل... لكنه كان يقول لنفسه إن استغلال موقف من دون شعور بالخجل هو حذق الحياة!

لكنه ماكان أشد شعوره بالبهجة والسعادة وأعمر صدره بالأمل حين يغتبط بأبهت أمارة على حذق الحياة هذا يتبينها في يوهان الصغير!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

منذ بضع سنوات كان آل بودنبروك قد أبطلوا عادة السفر في الصيف وهو ماكانوا في ذلك الوقت يألفونه . وحتى لما أبدت زوجة السناتور رغبتها في الربيع الفائت أن تزور أباها الشيخ في أمستردام وتعزف معه بعد هذا الزمن الطويل بضع ثنائيات على الكمان كرّة أخرى ، لم يوافق زوجها على رغبتها هذه إلا بصورة مقتضبة . إما أن تنتقل جيردا والصغير والآنسة يونجمان كل سنة الى حمام الاستشفاء في تراڤيمنده لقضاء عطلة الصيف فأمر بقيت عادته في الغالب تتمشى مع صحة هانو...

عطلة الصيف تقضى على البحر! فهل كان أحد كائناً من كان يفهم تماماً مايعنيه هذا من سعادة ؟

اعتكاف هادىء خال من الهم طيلة أربعة أسابيع بعد أيام أمضاها في المدرسة لاتعد ولاتحصى ، وسارت فيها الأمور على وتيرة مستعصية حافلة بالهموم... اعتكاف تفعمه رائحة أعشاب البحر وصوت تلاطم الموج الواهن على الساحل... أربعة أسابيع ، وقت لاسبيل في بدايته الى اغفاله وقياسه ، أما الاعتقاد في نهايته فمحال ، وأما الكلام عن هذه النهاية فجلافة . ولم يفهم الصغير قط أن يرفع هذا المدرس أو ذاك صوته في ختام الدراسة بعبارات من قبيل : «سنستأنف العمل هنا بعد العطلة وننتقل الى هذا وذاك...» بعد العطلة! يلوح أن هذا الرجل غير المفهوم الذي يرتدي سترة لامعة مبرومة الفتلة مسرور بذلك . بعد العطلة! فهل هذه الفكرة مما يخطر ببال! إن مايقع بعد هذه الأسابيع الأربعة لبعيد جداً تطويه غيوم!

وفي بيت من البيتين السويسريين اللذين يربطهما مبنى وسط مستطيل ، ويؤلفان مع محل الحلواني والمبنى الرئيس للحمام خطاً مستقيماً ما كان أجمل النهوض من النوم أول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صباح بعد أن اجتاز في اليوم السابق محنة الإطلاع على شهادة المدرسة على خير أو على شر ، وبعد قطع الرحلة في المركبة المحملة! وقد تنبه مذعوراً من شعور غامض بالهناء سرى في جسمه وانكمش له قلبه... ففتح عينيه وألم نظرة متشهية بالأثاث القديم القائم في حجرته الصغيرة النظيفة... وكانت ثانية من الاضطراب الهنيء الوسنان ، ثم أدرك أنه في تراقيمنده! لأربعة أسابيع لاتحد في تراقيمنده! فلم يتحرك بل بقي مستلقياً على ظهره ، ساكناً في سريره الخشبي المستطيل الذي رق تيله ونعم بفعل الزمن ، وكان يغمض عينيه الفينة بعد الفينة ويشعر كيف يرتعد صدره في تنفسه العميق الطويل من الهناء والقلق .

وكان يغمر الغرفة ضوء النهار المصفر الذي نفذ اليها من الشماسة المخططة بينما كان كل ماحوله يرنق عليه السكون ، وايدا يونجمان وأمه على السواء ماتزالان نائمتين . لم يكن شيء يسمع سوى الصوت الوتير الهادىء الذي يسوي فيه خادم الدار حصى حديقة الحمام تحت ، وطنين ذبابة لاتني تهاجم لوح الزجاج بين الشماسة والنافذة ، ويرى المرء ظلها منطلقاً فوق التيل المخطط في خطوط متعرجة طويلة... سكون! صوت المسلفة الوحيد والطنين الوتير! وكان هذا الهدوء الذي يشيع فيه من الحياة هذا النذر الهين يفعم الصغير يوهان من ذلك الحين بشعور لذيذ يحدوه من ذلك الاعتكاف الهادىء المتميز الذي تحوطه العناية في الحمام والذي كان يحبه هذا الحب فوق كل شيء . كلا ، الحمد لله أنه لم يأت الى هذا المكان أحد من ذوي الأردية اللامعة ذات الفتلة المبرومة الذين يمثلون على الأرض الحساب والنحو . وكيف يأتون الى هذا المكان والمقام فيه كثير التكاليف...

وألمت به نوبة من الفرح جعلته يقفز من سريره ويجري الى النافذة حافي القدمين ليرفع الشماسة ويفتح مصراعاً من مصراعي النافذة بفك العقفة المدهونة باللاكية الأبيض ويتتبع الذبابة بنظرة وقد انطلقت فوق طريق الحصباء وأحواض الورد في حديقة الحمام . وكان هيكل الموسيقى تحف به أشجار الزان مايزال خالياً ساكناً يواجه أبنية الحمام . و« المساحة المنيرة » التي اكتسبت اسمها من المنارة القائمة في مكان ما الى اليمين تمتد تحت السماء المكتسية بالبياض الى أن ينتقل كلؤها القصير الذي يتخلله بعض البقع الجرداء الى نباتات عالية صلبة تنمو على الساحل ، فإلى الرمال بعدئذ ، هناك حيث يفرق بين صفوف الأخصاص الخشبية الخاصة الصغيرة وسلال الجلوس المطلة على البحر . وكان البحر هادئاً يغمره ضوء الصباح ترتسم على صفحته خطوط خضراء وزرقاء ، ملساء وجعداء . وجاءت باخرة تسير بين البراميل المدهونة بالأحمر التي تعيّن لها طريق المرور ـ جاءت من كوبنهاجن من دون

أن يحتاج المرء أن يعرف هل تسمى «نايادن» أو «فريدريكا أوڤرديك» . واستنشق هانو بودنبروك النسيم يعبق برائحة كرائحة التوابل ، ويبعث به البحر اليه ، في عمق وهناء صامت ، وحياه بالعينين تحية رقيقة شاكرة محبة .

ثم بدأ النهار الأول في تلك الثمانية والعشرين المسكينة التي بدت أول الأمر هناء أبدياً ، ثم لم تلبث بعد أن انقضت الأيام الأولى أن جرت مسرعة تبعث على اليأس... وكان يتناول طعام الإفطار فوق المطلة أو تحت شجرة الكستناء الكبيرة تجاه ساحة لعب الأطفال ، هناك حيث الأرجوحة الكبيرة المعلقة ـ وقد أبهج الصغير يوهان كل شيء : رائحة مفرش المائدة المغسول بسرعة والندل ينشره على المائدة ، وفوط الورق الحريري ، والخبز الذي لاعهد له به ، وأن البيض لايؤكل ، كما هي الحال في مدينته ، بملاعق شاي مصنوعة من العظم ، بل بملاعق عادية ومن أوعية معدنية .

أما ماتلا فكان كله منظماً تنظيماً سهلاً حراً ، كانت حياة رغيدة معنياً بها يتخللها فراغ عجيب وتسير سيرة لايعكر صفوها شيء ،ولا يكدرها هم : الصباح فوق هناك ، وهذا الاستلقاء وهذه الاستراحة عند قدم سلة الجلوس ، وهذا اللعب الرفيق الحالم بالرمل الناعم الذي لايلوث ، وهذا الجولان والشرود بالعينين فوق اللانهاية الخضراء الزرقاء التي يهب منها في هسيس رقيق نسيم قوي ، منعش ، جارف ، عبق ، رائع يداعب الأذنين ويخلف دواراً مريحاً وتخديراً مكبوحاً يفقد الوعي للزمان والمكان ولكل شيء محدود ، في سكون وغبطة... وبعد ذلك الاستحمام الذي كان شيقاً أبعث على السرور من الاستحمام في حمام السيد أرنولدسن ، ذلك أنه لم يكن هنا «علف أوز» ، والماء الرائق الخضرة الصافي كالبلور يزبد بعيداً كلما استثير ، والقاع الرملي الخفيف المتموج يداعب باطن القدم بدلاً من أرضية الألواح اللزجة ، هذا الى أن ولدي القنصل هاجنشتروم كانا يقيمان بعيداً ، بعيداً جداً في بلاد النرويج أو التيرول . وكان القنصل يحب أن يقوم في الصيف برحلة استجمام طويلة ـ ولم لا ، أليس كذلك ؟... ونزهة للتدفئة سيراً على الأقدام على امتداد الساحل الى «صخرة طائر النورس» أو هيكل البحر ولقمة تتناول في سلة الجلوس ـ قد اقتربت الساعة التي يصعد فيها الى الغرف للاستراحة ساعة قبل الاستعداد للمائدة . وكانت المائدة مفرحة وحجرة الحمام في الردهة ، وكثيرون هم أسر صديقة لآل بودنبروك وأناس من هامبورغ بل كذلك سادة من الانجليز والروس ، كانوا يملأون القاعة الكبرى في الدار ، وعلى مائدة حافلة صغيرة يقدم سيد يرتدي الملابس السوداء حساءً من سلطانية فضية لامعة ويناول أربعة

ألوان من الطعام ألذ طعماً وأكثر توبلة وأشد بصورة ما شبهاً بالولائم على كل حال مما يقدم في البيت . وفي مواضع من الموائد الطويلة كانت تحتسى الشمبانيا . وكثيراً ماكان يقدم في المدينة سادة فرادى لم يشاءوا أن تقيدهم أعمالهم طيلة الأسبوع فكانوا يتسلون ويديرون الروليت قليلاً : القنصل بيتر دولمان الذي ترك ابنته في البيت . وكان يقص بصوت رنان وباللغة العامية حكايات مجردة من الحياء الى حد أن السيدات الهامبورجيات كن يسعلن من شدة الضحك ويرجونه أن يستريحوا لحظة ، والسناتور الدكتور كريمر رئيس البوليس المسن والعم كريستيان وصديقه في عهد المدرسة السناتور جيزيكه الذي كان هناك بلا أسرة كذلك ، يدفع عن كريستيان كل شيء... وفيما بعد حين يتناول الكبار القهوة على أنغام الموسيقى تحت سطح خيمة الحلواني كان هانو يجلس على كرسيه أمام درجات «الهيكل» وينصت من دون ملال... وكان لأوان العصر أشياؤه ، فكان هناك محل للرماية في حديقة الحمام ، وإلى يمين البيتين السويسريين اسطبلات عامرة بالخيل والحمير والأبقار التي يتناول المرء ألبانها دافئة مزبدة عبقة في ساعة التصبيرة . وقد كان في الإمكان القيام بنزهة سيراً على الأقدام الى المدينة الصغيرة على امتداد «الصف الأول» وكان في الوسع العبور من هناك بقارب الى «البريفال» الذي كان يوجد على ساحله الكهرمان ، أو الاشتراك في شوط في الكروكيت في ساحه لعب الأطفال أو أن يدع ايدا يونجمان تقرأ له على مقعد مديد من مقاعد الربوة المشجرة القائمة خلف الفنادق والمعلق فوقها جرس المائدة الكبير... ومع ذلك فقد كان خير مايفعل هو العودة الى البحر وتأمل الأفق المترامي في ساعة الغروب والجلوس فوق قمة الحصن والتلويح للسفن الكبيرة المارة بالمنديل والإنصات الى الموجات الصغيرة وهي تصطفق في مناجاة خافتة بكتل الصخر ، والى الأزيز الخفيف البديع الذي كان يملأ كل هذا الفضاء من حوله يوهان الصغير ويناجيه متلطفاً ويحمله على أن يغمض عينيه ناعماً شديد الارتياح . لكنه عندئذ تقول ايدا يونجمان : «تعال ياصغيري هانو ، يجب أن نذهب ، لقد حان وقت العشاء . ولو فكرت في النوم هنا للحق بك سوء...» وقد كانا يعودان دوماً من البحر بقلب هادئ مطمئن منتظم ، فإذا ما تناول طعام عشائه في حجرته ومعه اللبن أو الجعة السوداء الشديدة التخمير ، بينما تتعشى أمه بعد ذلك في مطلة الحمام في مجتمع أكبر ، هبط عليه النعاس ولما يكد يستلقي بين أغطية فراشه الكتانية التي رقعت بفعل الزمن ، دون خوف أو حمى ، مستنيماً الى دقات هذا القلب المطمئن بالذات ـ تلك الدقات الرفيقة الكاملة ـ والى الإيقاعات الخافتة التي تتناهى اليه في حفلة المساء الموسيقية .

وظهر السناتور يوم الأحد بين ذويه أسوة ببضعة غيره من السادة الذين احتجزوا خلال الاسبوع عن أعمالهم في المدينة ، وبقي الى صباح الاثنين . ومع أنه كان يقدم على المائدة المثلجات والشمبانيا ، وكانت ترتب ركبات على الحمير ونزهات شراعية الى عرض البحر المترامي ، كان يوهان الصغير لايحب هذه الأيام ـ أيام الآحاد ـ كثيراً ، لأنها تؤثر على هدوء الحمام والاعتكاف فيه . إذ كان الكثيرون من القادمين من المدينة الذين ليس هذا مكانهم ، والذين أسمتهم ايدا يونجمان في شيء من الاستخفاف ينطوي على حسن النية : «ذباب اليوم الواحد المنتمي الى الطبقة الوسطى» يزحمون حديقة الحمام والساحل بعد الظهر ليتناولوا فنجاناً من القهوة ، ويستمعوا الى الموسيقى ويستحموا ، وآثر هانو أن يغلق على نفسه الحجرة وينتظر ارتحال هؤلاء المعكرين للسلام الذين جاءوا حريصين على حسن الهندام... كلا ، إنه كان يغتبط حين يجري كل شيء ثانية مجراه العادي في يوم الاثنين ، وحين لاتكون هناك أيضاً عينا أبيه ، هاتان العينان اللتان يظل بعيداً عنهما ستة أيام ويحس أنهما تتركزان عليه طيلة يوم الأحد فاحصتين باحثتين...

وانقضت أربعة عشر يوماً وقال هانو لنفسه وأكد لكل من أراد سماعه ، أنه سيحل الآن وقت في طول عطلة ميكائيل . بيد أن هذا قد كان عزاء خادعاً ، ذلك أنه وقد بلغت العطلة ذروتها بدأت تميل وتتجه نحو النهاية بسرعة ، وبسرعة مخيفة الى حد أنه ود لو تعلق كل ساعة حتى لايدعها تمر ، وأن يعوق كل نسمة يتلقاها من البحر حتى لايهدر هناؤه وهو غافل...

لكن الوقت كان يمر دون أن يعتاقه شيء يتعاقب فيه المطر وضوء الشمس ، وتتناوب ريح البحر وريح البر ، والدفء الساكن المرهق والعواصف الصاخبة التي لم يكن لها قبل بعبور البحر ولاكانت لها فيما يظهر نهاية . كانت هناك أيام تغرق فيها ريح الشمال الشرقي الجون بفيض أخضر قاتم يغطي الساحل بالعشب والمحار والريات ويهدد الأخصاص ، ثم يكسو البحر الكدر الفائر طولاً وعرضاً بالزبد ، وكانت موجات كبيرة قوية تدرج نحو الشاطىء في هدوء عنيد يشيع الخوف ثم يميل في جلال وتستدير خضراء قاتمة لامعة كالمعدة ثم تنتفض فوق الرمل مزمجرة ، وتنهد ناشة مرعدة... وكانت هناك أيام أخرى ينجزر فيها البحر من ريح الغرب فينكشف قاعه متموجاً بديعاً الى مسافة بعيدة وتظهر في كل مكان شواطىء رملية مجردة ، بينما ينهمر المطر أنهاراً وتذوب السماء والأرض والماء بعضها في بعض ، وتعصف الريح بالمطر يلطم ألواح النوافذ بلا تساقط فوقها قطرات بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينساب جداول فتتعذر منها الرؤية ، عندئذ كان هانو في الغالب يعتكف في قاعة الحمام جالساً الى البيان المتأثر بعض الشيء من فرط العزف عليه في حفلات رقص الفالس والاسكتلندي ، لايوائم هانو في التقسيم بأصوات ملائمة كما يوائمه البيان في بيته ، لكنه يمكنه أن يستوحيه تأثيرات مرفهة غاية الترفيه بنغمة الغرد الأمين... وعادت أيام أخرى حالمة ، صاحية ، ساكنة الريح ، شديدة الدفء ، يطن فيها البحر صامتاً عاكساً كالمرآة لاتهب عليه نسمة ولا تلم به حركة . فإذا ماكان الباقي من العطلة ثلاثة أيام قال هانو لنفسه وأوضح لكل إنسان أنه مايزال بعد وقت في طول عطلة الفصح بأسرها . وعلى أنه لم يكن هناك مطعن على هذا الحساب قد كان نفسه لايؤمن به بل كان قد دخل في روعه من أمد طويل أن صاحب الرداء اللامع ذي الفتلة المبرومة كان مع ذلك على حق في أن الأسابيع الأربعة الى انتهاء ، وأنه سيستأنف حيث وقف وينتقل الى هذا الدرس أو ذاك...

وقد وقفت المركبة المحملة أمام الحمام ، إذ كان يوم الرحيل قد حل . وكان هانو قد ودع البحر والساحل في الصباح الباكر كما ودع الندل الذين تلقوا رواشنهم وهيكل الموسيقى وأحواض الورد وهذه الفترة كلها من الصيف . ثم تحركت المركبة بين انحناءات موظفي الفندق ، فمرت بالشارع الرئيسي المؤدي الى المدينة الصغيرة ، وسارت على امتداد «الصف الأول» ، وضغط هانو رأسه في ركن المركبة وتخطى ببصره الى خارج النافذة ايدا يونجمان التي كانت جالسة تجاهه على المقعد الخلفي يقظة العينين ، بيضاء الشعر ، بادية العظام . وكانت سماء الصباح بيضاء ، ونهر تراڤيه يرسل موجات صغيرة تلاحقها الريح ، وقطرات المطر تنقر بين الحين والحين على ألواح الزجاج . وكان عند مخرج «الصف الأول» أناس جالسون أمام الأبواب يرتقون الشِبّاك ، وأطفال حفاة جاءوا يعدون ويتأملون المركبة مستطلعين ، ثم بقوا حيث هم...

فلما استدبرت المركبة آخر البيوت انحنى هانو الى الأمام ليلقي نظرة أخرى على المنارة ثم ارتد مسنداً ظهره وأغمض عينيه . وقالت ايدا يونجمان بصوت عميق فيه نبرة العزاء : «سنعود في العام القادم ثانية ياصغيري هانو» . وقد كان ينقصه هذا الكلام ليحرك ذقنه ويرعشها ويفجر دمعة تحت أهدابه الطويلة .

لقد اسمرّ وجهه ويداه من هواء البحر . لكنهم إذا كانوا قد ابتغوا من هذه الإقامة في الحمام أن يجعلوه أصلب عوداً ، وأعظم همة ، وأنعش نفساً ، وأقدر على الاحتمال ، فقد خاب فألهم بصورة أسيفة . لقد كانت هذه الحقيقة العديمة الأمل تداخله ، وكان قلبه مفعماً

في هذه الأسابيع الأربعة بعبادة البحر وحب السلام ، لكن هذه الأسابيع الأربعة جعلته أنعم مما كان كثيراً ، مدللاً عما كان كثيراً ، وأكثر استرسالاً في الأحلام وأرهف احساساً . كذلك جعلته أعجز مما كان كثيراً عن الاحتفاظ برباطة الجأش عند مرأى مسائل حساب السيد تيدجه وعدم التخاذل تماماً عند التفكير في حفظ أرقام التاريخ وقواعد اللغة عن ظهر قلب ، والتخلص من الكتب في طيش موئس ، والنوم العميق تجنباً لكل شيء ، وفي الخوف الذي يساوره في الصباح ومن الدروس ، وفي الكوارث التي تنزل به وعدوان ابني هاجنشتروم عليه ، وفي المطالب التي يقتضيه أبوه إياها .

على أن رحلة الصباح أبهجته بعد ذلك قليلاً ، وكانت رحلة غردت فيها الطيور ومرت بطرقات الشارع السلطاني المغمورة بالماء ، وقد فكر في كاي ولقائه ، في السيد بفيل ودروس البيان ، وفي البيان والهارمونيوم . هذا الى أن غداً كان الأحد ، وأول يوم في الدراسة وهو بعد غد ، كان مايزال عديم الخطر . أخ ، لقد أحس قليلاً من الرمل في حذائه المزرور ذي العنق... فانتوى أن يرجو جروبليبين العجوز أن يدعه فيه... وليبدأ كل شيء من جديد ، رداء الفتلة المبرومة ومتاعب ابني هاجنشتروم وغير ذلك . وليحصل مايحصل ، فسيلوذ بذكريات البحر وحديقة الحمام إذا مادهمه كل شيء من جديد . ونزر يسير من التفكير في الخرير الذي يصاحب الموج الصغير الآتي في سكون المساء من بعد غارق في سبات محفوف بالأسرار ، والمصطفق بالحصن ، كفيل بأن يعزيه وأن يقية السوء...

وجاءت بعدئذ المعدية وشارع قرية اسرائيل وجبل أورشليم وساحة القصر ، وبلغت المركبة بوابة القصر التي تقوم بجانبها عن اليمين أسوار السجن حيث يقيم العم ڤاينشنك ، ودرجت على امتداد شارع القصر وعبر كوبرج واستدبرت الشارع العريض ، وهبطت في ضبط حفرة السماكين شديدة الانحدار ؟ وهنا الواجهة الحمراء ذات الخارجة والركائز البيضاء ، فلما دخلت من الشارع الذي يغمره حر الظهيرة الى برودة الرحبة الحجرية أقبل السناتور والقلم في يده خارجاً من مكتبه لاستقبالهم .

وشيئاً فشيئاً تعلم الصغير يوهان من جديد ، ودموعه الخفية على خديه ، أن يفتقد البحر وأن يعاوده الوجل ، وأن يضجر الضجر الشديد ويتمثل ابني هاجنشتروم على الدوام وأن يتعزى عن ذلك بكاي وبالسيد بفيل والموسيقى ، وما أن رأته سيدات بودنبروك ساكنات الشارع العريض والعمة كلوتيلده حتى وجهن اليه السؤال : كيف مذاق المدرسة بعد العطلة ــ وجهنه اليه وهن يتغامزن بأعينهن مكايدة وفهماً لموقفه ، ويبدين تلك الغطرسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغريبة التي تصدر عن الكبار والتي يتندر بها ماأمكن بكل مايتعلق بالصغار ويعالج من السطح . وقد صمد هانو لهذا السؤال...

وظهر الدكتور لانجهالز طبيب البيت في « حفرة السماكين » عقب العودة بثلاثة أو أربعة أيام ليتحرى تأثير الحمام . وبعد أن تباحث طويلاً مع السناتورة عرض عليه هانو نصف عار ليكشف عليه كشفاً دقيقاً ـ على حالته الراهنة كما يقول الدكتور لانجهالز ـ فتأمل أظافره ، وفحص عضلاته الضعيفة وصدره ، وكيف يؤدي قلبه وظيفته ، وتحرى عن كل مظاهر حياته ، وجذب أخيراً بإبرة الحقنة نقطة دم من ذراعه النحيل ليحللها في البيت ، وبدا عليه عدم الارتياح بوجه عام .

قال وقد قبل هانو الواقف أمامه وجمع يده الصغيرة التي يعلوها شعر أسود على كتفه ورفع بصره الى السناتورة والآنسة ايدا يونجمان : «لقد اسمر لوننا تقريباً لكنه لايزال لنا هذا الوجه المكتئب دائماً » .

فأبدت جيردا بودنبرك : « إنه يحن الى البحر » .

فقال الدكتور لانجهالز : « كذا ، كذا . إذن أنت تؤثر البقاء هناك » . وتأمل وجه يوهان الصغير عينيه اللتين تنمان عن العجب . فتبدل لون هانو وتساءل : مامعنى هذا السؤال الذي كان الدكتور لانجهالز ينتظر عليه الجواب . وداخله أمل جنوني عجيب بعثه اقتناعه الحالم بأنه لامحال عند الله ولو كره أصحاب الأردية ذات الفتلة المبرومة جميعاً .

قال : « نعم... » وهو يحملق بعينيه المتسعتين ، غير أن الدكتور لانجهالز لم يكن يعني بسؤاله شيئاً على الإطلاق .

فقال وهو يربت بيده على كتف يوهان الصغير :« على أن تأثير الحمامات والهواء الجيد سوف يظهر فيما بعد... أجل ، فيما بعد! » ثم نحاه ونهض منهياً الاستشارة ، حانياً رأسه للسناتورة وايدا يونجمان حنية متعالية ، خيرة ، مشجعة هي انحناءة رأس الطبيب العالم الذي يعلق المرء نظره بعينيه وشفتيه . وقد وجد هانو في عمته أنتونيا أوسع فهم لتألمه وحنينه الى البحر ولجرحه الذي كان يندمل في بطء شديد فإذا مسته قوة الحياة اليومية عاد فالتهب وأخذ يدمي . وكانت عمته قد سمعته يتحدث في غبطة ظاهرة عن الحياة في تراڤيمنده . وأصغت الى مديحه المفعم بالشوق بقلب متحمس .

قالت :أجل ياهانو . إن ماهو حقيقي يبقى الى الأبد حقيقياً . وتراڤيمنده مكان جميل! وسأظل الى آخر نسمة من حياتي أذكر بالغبطة أسابيع الصيف التي قضيتها هناك ذات مرة

وأنا فتاة صغيرة غريرة ، أتعرف! كنت أسكن عند أناس أحببتهم وأمكن أن يحبوني كما بدا لي ، إذ كنت إذ ذاك مخلوقة متوثبة ـ هذا مايسعني قوله الآن أنا الإمرأة العجوز ـ مرحة النفس دائماً تقريباً . وإني لأقول لك أنهم كانوا قوماً أخياراً ، شرفاء ، طيبي القلب ، مستقيمي التفكير ، مهرة الى ذلك ، متعلمين ، متحمسين كما لم أشهد مثلهم في الحياة بعد ذلك تماماً . لقد كان اختلاطي بهم ملهماً بصورة غير عادية . وقد تعلمت هناك الكثير من الآراء والمعارف التي نفعتني في حياتي كلها . ولو لم يعترض مقامي هناك أشياء أخرى ، أحداث مختلفة... كما يقع في الحياة بالإيجاز... لجنيت أنا الغبية منافع أخرى . فهل تريد أن تعرف كم كنت غريرة إذ ذاك ؟ كنت أريد أن استخرج من الريات[1] نجوماً زهرا ، إذ حملت الى البيت كمية كبيرة جداً منها في منديل ووضعتها في الشرفة في الشمس لكي تتبخر... وتتخلف النجوم! حسناً... فلما غدوت عليها وجدت مكانها بقعة مبللة كبيرة تقريباً يتصاعد منها قليل فحسب من رائحة عشب البحر العفن...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

في بداية عام ١٨٧٣ وافق مجلس الشيوخ على طلب العفو عن هوجو ڤاينشنك ، وأفرج عن المدير السابق قبل انتهاء مدة العقوبة بنصف سنة .

فلو لزمت مدام بيرمانيدر في كلامها لسلمت بأن هذا الحادث لم يسرها كثيراً ، وأنه كان أحب اليها لو بقي الأمر الى نهايته كما كان ذات مرة ، ذلك أنها كانت تعيش مع ابنتها وحفيدتها في ميدان الزيزفون في سلام ، تختلط بالبيت الكائن في حفرة السماكين وبصديقة المثوى أرمجارد فون مايبوم المولودة بإسم فون شيلنج التي سكنت المدينة بعد وفاة زوجها . فقد كانت تعرف من أمد أنها تحس مع ذكريات ميونيخ ومع معدتها التي كانت تزداد مع الأيام ضعفاً وقابلية للهياج ، وحاجتها المتزايدة الى الراحة ميلاً الى الانتقال في سنها هذه مرة أخرى الى مدينة كبرى في الوطن الموحد أو الى الخارج .

قالت لابنتها : «أيتها الطفلة العزيزة! أريد أن أسألك شيئاً ، شيئاً جديا!... أما زلت تحبين زوجك من كل قلبك ؟ أتحبينه بحيث تتبعينه مع طفلتكما الى حيث يتجه ، إذ كان بقاؤه هنا ليس بالأمر المستحب للأسف ؟» .

وإذا أجابت مدام ايريكا ڤاينشنك المولودة باسم جرينليش على هذه الأسئلة باكية تذرف دموعاً يمكن أن تعني كل شيء ، بنفس ماأجابت به توني نفسها أباها ذات مرة في مثل هذه الظروف في ڤيلاها بهامبورج ، أي ما يميله عليها الواجب ، فقد جعلت الأم وابنتها تنتظران انفصالاً قريباً...

وكان يوماً يكاد يكون مرعباً كذلك اليوم الذي اقتيد فيه المدير ڤاينشنك مقبوضاً عليه ، يوم جاءت مدام بيرمانيدر بزوج ابنتها من السجن في مركبة مقفلة . وقد أحضرته

الى مسكنها في ميدان الزيزفون فمكث هناك بعد أن حيا الزوجة والطفلة مضطرباً حائراً ، في الغرفة التي أخليت له ، وجعل يدخن من البكور الى وقت متأخر دون أن يجرؤ على الخروج الى الشارع ، بل في الغالب دون أن يتناول وجبات طعامه مع ذويه ، انساناً وجلاً أبيض الشعر! ولم تستطع حياة السجن أن تلحق بصحته البدينة شيئاً لأن هوجو ڤاينشنك كان قوي البنية ، لكنه كان فريسة للكآبة ، وكان من المرعب أن ترى أن هذا الرجل لم يقترف على الأرجح شيئاً لم يجنه معظم من حوله من الزملاء بقلب مطمئن كل يوم والذي كان حرياً أن يمضي في طريقه مرفوع الرأس مرتاح الضمير لو لم يضبط ـ قد انهار كل الانهيار من الناحية المعنوية وبالحقيقة الواقعة في أن القضاء أدانه ، وبهذه السنوات الثلاث التي قضاها في السجن . ولقد أقسم أمام القضاء عن اقتناع مكين على ماأكده له الخبراء وهو أن المناورة الجريئة التي قام بها للشركة ولنفسه قاصداً الاكرام والمصلحة أمر مألوف في عالم الأعمال . لكن رجال القانون ، وهم سادة لايفهمون في رأيه شيئاً من هذه الأشياء ، ويعيشون وفق مفاهيم مغايرة ورأي مختلف كل الاختلاف في النظر الى العالم ، قد حكموا عليه وأدانوه بالغش ، واستطاع هذا الحكم الذي تسنده سلطة الدولة ، أن يزعزع تقديره لنفسه الى حد أنه لم يعد يجرؤ على النظر في وجه أحد . إن مشيته المهتزة وأسلوبه الجريء في تحريك خصر ردنجوته ، والتوازن بقبضتيه ، وإدارة عينيه ، والنشاط غير العادي الذي يلقي به اسئلته ويروي حكايته على أحسن وجه مطلاً من علياء جهله وعدم تعليمه ـ كل هذا قد زال! وبلغ من زواله أن ذويه كانوا يقشعرون من فرط قبوعه ، وجبنه ، وانتفاء هيبته بصورة جهمة .

وبعد أن انشغل السيد هوجو ڤاينشنك ثمانية أو عشرة أيام بالتدخين وحده بدأ يقرأ الصحف ويدبج الرسائل . وكان من نتيجة ذلك بعد ثمانية أو عشرة أيام أخرى أن جعل يعلن بعبارات غامضة أنه عرض عليه فيما يظهر مركز جديد في لندن ، لكنه يريد أن يسافر وحده أولاً الى هناك لينظم المسألة بنفسه ، فإذا جرت الأمور بما يشتهي يستدعي زوجته وطفلته .

وركب الى المحطة بصحبة ايريكا في مركبة مقفلة ، وسار من دون أي قريب آخر من أقربائه مرة أخرى .

وعقب ذلك ببضعة أيام وصل من هامبورج ، وكان مايزال بها ، رسالة موجهة الى زوجه أبدى فيها أنه مصمم على ألا يجتمع ثانية بزوجه وطفلته أو يبلغهما خبر عنه الآ بعد أن يكون قد استطاع تهيئة عيشة مناسبة لهما . وكان هذا آخر شيء دل على أن هوجو ڤاينشنك على قيد الحياة . ومن ذلك الحين لم يسمع أحد أي شيء عنه . ومع أن مدام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيرمانيدر ، هي الخبيرة بمثل هذه الأمور ، الهمامة ، الحذرة ، قد قامت بتحريات عن صهرها لتبرر بالهجران عن سوء قصد طلب الطلاق تبريراً كاملاً ، وصرحت بذلك تصريحاً اصطنعت فيه الأهمية ، فإنه بقي منقطعة أخباره . وهكذا حدث أن استمرت ايريكا ڤاينشنك مقيمة مع الصغيرة اليصابات عندها في الطابق النير بميدان الزيزفون كما كان شأنها الى ذلك الحين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

كان الزواج الذي أنجب الصغير يوهان يحتفظ بكامل إثارته في المدينة كموضوع يدور حوله الحديث . وكما كان مؤكداً أن كلا الزوجين كان على شيء من الاسراف والألغاز ، كذلك كان مؤكداً أن هذا الزواج نفسه يصطبغ بصبغة غير عادية هي موضع تساؤل . وإنها لمهمة صعبة فيما يظهر لكنها مجزية أن يتوارى خلف الضوء قليلاً لتتقصى العلاقة القائمة بين الزوجين بعض الشيء بغض الطرف عن الوقائع الظاهرية الناقصة..وقد كان الناس يكثرون من الحديث عن جيردا وتوماس بودنبروك في حجر الجلوس ومخادع النوم ، أو في المنتديات والكازينات ، بل في البورصة كذلك كلما قلَّ اطلاعهم على أحوالهما...

كيف وقع أحدهما على الآخر وكيف يقف كل منهما من الآخر ؟ وقد تذكروا التصميم العنيد الذي تابع به توماس بودنبروك قبل ثمانية عشر عاماً وهو في الثلاثين من عمره ، غايته فكان شعاره : « أما هي أو لاأحد » . ولابد أن هذه كانت حال جيردا أيضاً ، ذلك أنها كانت في السابعة والعشرين من عمرها ترد الخطاب فلما جاء هذا الخاطب أصغت اليه . إذ كان الزواج عن حب ، هذا كان رأي الناس ، وعلى أنه كان يشق عليهم ، فقد سلموا بأن الآلاف الثلاثمائة لم تلعب إلا دوراً ثانوياً في المسألة . لكنه من جهة أخرى لم يكن ثم مايتبين منذ البداية من حبهما أو من ذلك الذي يفهمه الناس من كلمة الحب إلا النزر اليسير . فمنذ البداية لم يكن هناك سوى الأدب في التعامل ، أدب غير مألوف بين الزوجين بحال ، سليم مشبع بالاحترام ، أدب من غير المفهوم ألا يصدر عن تباعد وغربة في النفوس بل عن ثقة ومعرفة متبادلتين ، عميقتين ، صامتتين ، فريدتين الى حد كبير ، ومراعاة وتسامح متبادلين على الدوام ، لم تبدل السنون منهما شيئاً ما . والتغيير الذي أحدثته الأيام

لايعدو أن مابينهما من فرق السن الآن على ماهو عليه من نسبة ضئيلة جداً ، أخذ يبدو بصورة تسترعي الانتباه...

فقد كان الناس ينظرون اليهما فيتبينون الزوج رجلاً على شيء من البدانة يهرم سريعاً الى جانب زوجة شابة . ويجدون أن توماس بودنبروك يبدو متهدماً ـ أجل ، هذه هي الكلمة الصحيحة الوحيدة التي تناسبه على الرغم من ذلك العجب الذي جعل يخلف في النفس بالتدريج أثراً مضحكاً بعض الشيء ، ويستند به نفسه ، بينما كانت جيردا لم تتغير في هذه السنين الثماني عشرة فتيلاً . وقد لاحت بالمثل مصوناً في ذلك البرود في الأعصاب الذي تعيش فيه وتبثه . وقد احتفظ شعرها الأحمر الداكن بلونه كاملاً ، واستبقى وجهها المليح الأبيض هيئته بالضبط ، وقدها رشاقته ووجاهته السامية . وكانت تلك الظلال المزرقة ماتزال ترابط من حول مآقيها ـ مآقي عينيها العسليتين الصغيرتين شيئاً ما ، المتقاربتين كذلك شيئاً ما أكثر مما ينبغي... ولم يكن أحد يأمن لهاتين العينين ، فقد كانت نظراتهما غريبة ، وماكان مكتوباً فيهما لم يكن الناس يستطيعون اكتناهه ، فهذه المرأة التي كان كيانها بهذا البرود والإنطواء والاستغلاق والتحفظ والصد ، والتي بدا أنها لاتجد القليل من دفء الحياة إلا في موسيقاها ، كانت تثير ريباً غامضة . وقد لجأ الناس الى معرفتهم الناقصة بالنفس البشرية ليطبقوها على السناتورة بودنبروك . والماء الساكن عميق في الغالب . وبعض الناس ماكر لعين... وإذا كانوا يرغبون حقاً في تقريب المسألة الى علمهم خطوة أخرى ، والإلمام بأي شيء فيها ، واستيعابه ، فقد ساقهم خيالهم المتواضع الى افتراض أنه ليس في الأمر إلا أن الحسناء جيردا تخون زوجها الذي يتقدم في السن ، قليلاً .

وقد توخوا الحذر حقاً ، لكنه لم يمر طويل وقت حتى كانوا متفقين على أن جيردا بودنبروك في علاقتها بالسيد الملازم فون تروتا تجاوزت ، إذا راعينا الاعتدال في القول ، حدود الاستقامة .

ورينيه ماريا فون تروتا المولود في بلاد الراين ، ملازم ثان في أورطة من المشاة مرابطة في المدينة . وقد كانت بنيقته الحمراء تلائم جيداً شعره الأسود المفروق من الجنب ، الممشط يمنة الى الخلف ، يرفع الشعر من جبينه في قمة عالية كثيفة مخصلة . لكنه مع طول قامته وعرضها كان مظهره بأكمله وحركاته وأسلوبه في الكلام والصمت بالمثل يوحي كله بأنه بعيد كل البعد عن التكوين العسكري . فقد كان يحب أن يدس يده بين أزرار سترته المفتوحة نصف فتحة أو يجلس مسنداً خده الى يده .وقد كانت انحناءاته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعوزها الانتصاب ، ولم يسمع أحد أثناء تأديتها تضارب عقبيه . وكان يعالج الزي العسكري الذي يرتديه على جسمه المفتول بنفس التهاون والهوى اللذين يعالج بهما زيه المدني . حتى شاربه الصغير ـ شارب الفتيان الرفيع المتدلي على زاويتي الفم ، الذي يتعذر فتله ونصبه ، كان يساعد على تقوية ماينطبع في النفس من أثر جمالي لتكوينه غير العسكري . بيد أن أغرب ما فيه قد كان عيناه اللتان يبلغ من سوادهما أن تبدوا كما لو كانتا عميقتين متوهجتين لا يسبر غورهما : عينين تستقران على الأشياء والوجوه حالمتين جادتين وضاءتين...

ولاشك أنه دخل الجيش رغم أنفه أو كارهاً لهذا الدخول ، ذلك أنه على الرغم من قوة جسمه قد كان خاملاً في الخدمة مكروهاً بين الرفاق الذين لم يشاطرهم اهتمامهم ولهوهم ذينك الاهتمام واللهو اللذين يكونان لضباط شباب عادوا من أمد وجيز من حملة مظفرة ، فكان بينهم غريباً ، ثقيلاً ، مسرفاً ، يقوم وحده بنزهات على الأقدام ولايعلق خيلاً أو صيداً أو لعباً أو نساءً ولايتجه ذهنه إلا الى الموسيقى . ذلك أنه كان يعزف على عدة آلات ، وكانت يشاهد في كافة الأوبرات والحفلات الموسيقية بعينيه المتوهجتين وهيئته المسرحية المنافية للتكوين العسكري ، غير اللائقة في نفس الوقت ، على حين كان يزدري المنتدى والكازينو...

كان يؤدي الزيارة للأسر الراقية للضرورة القصوى إن خيراً وإن شراً ، لكنه كان يرفض كل الدعوات تقريباً ولايخالط في الحقيقة سوى بيت بودنبروك... أكثر من اللازم كما رأى الناس ، أكثر من اللازم كما رأى نفس السناتور...

ولم يحزر أحد ماكان يدور بخلد توماس بودنبروك ، ولاجاز لأحد أن يحزره ، وبالذات هذا : وكان من العسير جداً أن يبقى العالم جاهلاً غمه وبغضه وعجزه! فأخذ الناس يجدونه مضحكاً بعض الشيء ، لكنهم لعلهم كانوا يحسون العطف عليه ويكتمون مشاعرهم لو أنهم خمنوا بأي انفعال وجل كان يتحاشى مايعرّضه للسخرية ، وكيف رأى هذا يقترب من بعيد فأحسه قبل أن يقع في خواطرهم أي شيء منه . كذلك «عجبه» ، ذلك العجب الذي طالما تهكموا عليه ، فقد كان مرد معظمه الى هذا الهم . لقد كان أول من تأمل بعين المستريب هذا النشاز المتزايد في مظهره الخاص وعدم مبالاة جيردا بصورة غريبة ، والآن وقد دخل السيد فون تروتا البيت ، كان عليه أن يجاهد همه ويخفيه بما تبقى له من قوة ، ووجب عليه ذلك حتى لايعرض اسمه بإبداء همه للابتسام العام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد وجدت جيردا بودنبروك الضابط الشاب الفريد ووجدها في ميدان الموسيقى كما هو مفهوم . كان السيد فون تروتا يعزف على البيان والكمان والڤيولا والڤيولونشيل والناي ـ يعزف على هذا كله عزفاً رائعاً وكثيراً ما كان السناتور يعلن سلفاً بالزيارة القادمة حين يرى تابع السيد فون تروتا يحمل صندوق التشيلو على ظهره ماراً بخارجات نافذة مكتبه الخاص المفروشة بالنبات الأخضر ، ويختفي في البيت..عندئذ كان توماس بودنبروك يظل جالساً الى مكتبه ينظر حتى يرى أيضاً صديق زوجته نفسه يدخل البيت ، وحتى تتهادى الانسجامات فوق رأسه في الصالون ، وتتعالى أصوات الغناء والشكوى والهتاف الذي لاعهد به للبشر ، تمتد فيه الأيدي في نفس الوقت بالمثل ، وتتشبث ، ثم يتلاشى بعد ذلك كل الهناء الضال المبهم في ضعف وشهيق ، ويطويه الليل والصمت . ثم يدرج ويضج ، ويبكي ويهلل ، ويحتضن ويفر ، ويسلك المسلك الذي يفوق الطبيعة ماشاء! فالسيء الذي يعذب في الحق هو ذلك السكون الذي كان يعقب ذلك ويسود الصالون فوقه أمداً طويلاً جداً ، والذي كان أعمق وأنفى للحركة من أن لايثير الرعب . لاخطوة تهزالسقف ، ولامقعد يتحرك ، هدوء متحفظ ، صامت ، كتوم ، لايسمع فيه حس... وعندئذ كان توماس بودنبروك يلازم مجلسه شديد الوجل الى حد أنه كان يئن أحياناً أنيناً خافتاً .

فما الذي كان يخشاه ؟ لقد رأى الناس السيد فون تروتا يدخل البيت ثانية ، ورأى هو بأعينهم كذلك وكما تصور لهم الأمر ، هذه الصورة : نفسه الرجل الذي يهرم ويضنى وتسوء نفسيته يجلس تحت في المكتب بجوار النافذة بينما تعزف امرأته الجميلة فوق مع فارسها ولاتقتصر على العزف... أجل ، هكذا كان الناس يتصورون الأشياء فهو يعلم ذلك . وكان مع ذلك يعلم أن كلمة «فارس» قليلة جداً في الحقيقة لوصف السيد فون تروتا . آه ، لكان سعيداً لو أنه جاز له أن يسميه بهذا الاسم ، ويفهمه على هذا النحو ، وإنه أمكنه أن يفهمه ويحتقره بوصفه فتى أرعن ، جاهلاً ، منحطاً ، يفيض تهوره في شيء من الفن يغزو به قلوب النساء . إنه لم يدع شيئاً لم يحاوله لدمغه بمثل هذه الصورة . وقد ناشد لهذه الغاية غرائز آبائه وحدها دون غيرها في نفسه وأهاب بها : سوء ظن التاجر المقيم . المقتصد الذي يصعد به عن طبقة المحاربين المغامرة ، الطائشة ، المزعزعة في الأعمال التجارية . وقد كان يسمي السيد فون تروتا في فكره وحديثه على السواء «بالملازم» دوماً ، ويؤكد هذه التسمية مزدرياً ، شاعراً في هذا كل الشعور بأن هذا اللقب هو أبعد مايصلح للتعبير عن كيان هذا الشاب...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما الذي كان يخشاه توماس بودنبروك ؟ لاشيء... لاشيء يذكر . آه لو أن هناك شيئاً ملموساً ، بسيطاً ، وحشياً يمكن أن يدفعه عن نفسه! إنه كان يحسد هؤلاء الناس في الخارج على بساطة الصورة التي يتمثلون بها هذا الأمر . لكنه وهو جالس هنا معتمداً رأسه بين يديه ، ينصت معذباً ، كان يعزف جيداً جداً . إن «الخديعة» و«الخيانة الزوجية» ليستا لفظين يمكن أن تسمى بهما الأشياء الصادحة الساكنة مع ذلك سكون القبر التي كانت تقع هناك فوق .

وأحياناً حين ينظر في الخارج الى الأسطح الهرمية الغبراء والى المواطنين العابرين ، وحين تتركز عيناه فوق تلك اللوحة التذكارية المعلقة أمامه ، هدية العيد التذكاري للمتجر ، وعلى صور آبائه ، ويتذكر تاريخ بيته ، كان يقول لنفسه أن هذا هو نهاية كل شيء ، وإن ذلك الذي يجري الآن قد كان في غني عنه ، أجل ، كان في غنى عن أن يصبح شخصه عرضة للسخرية ، واسمه وحياة أسرته مضغة في الأفواه ، فيطفح بذلك الكيل... بيد أن هذه الفكرة كادت تبعثه على الارتياح ، بالنسبة إلى الاستغراق في التفكير في هذا اللغز الدنس ، هذه الفضيحة الخفية التي تقع فوق رأسه...

لم يعد يطيق هذا ، فهو يزحزح كرسيه الى الور اء ، ويغادر المكتب ، ويصعد الى البيت . فإلى أين يتوجه ؟ الى الصالون ليحيي السيد فون تروتا بشجاعة مطلاً عليه من عل ، ليدعوه الى تناول طعام العشاء ويتلقى جواباً بالرفض كما حدث الى الآن عدة مرات ؟ ذلك أن الشيء الذي لم يكن في الحق يطاق هو أن الملازم كان يتحاشاه كل التحاشي ، ويرفض كل دعوة رسمية تقريباً ، ولايروقه إلا هذا الاختلاط الخاص الحر بزوجة السناتور...

أينتظر ؟ في مكان ما ، ربما في حجرة التدخين ، ينتظر ريثما ينصرف ، ثم يتقدم من جيردا ويصارحها ويناقشها الحساب ؟ ـ إن جيردا لم تناقش الحساب يوماً ولم تصارح! وارتباطها به قائم على التفاهم والمراعاة والصمت . فلا ضرورة لأن يقف أيضاً أمامها موقفاً مضحكاً . والقيام بدور الغيران معناه أن الناس في الخارج على حق ، معناه إعلان فضيحة وأن يتيح لها الذيوع... فهل أحس الغيرة ؟ ممن ؟ ومم ؟ أخ ، لايوجد شيء من هذا! فمثل هذا الشيء القوي يثير تصرفات ، ربما كانت خاطئة ، خرقاء ، لكن فيها معنى التدخل والتحرير . أخ ، كلا ، فليس يشعر إلا ببعض الخوف ، شي معذب مطارد من الخوف من كل ماهنالك...

وصعد الى حجرة لباسه ليلطف حرارة جبينه بشيء من الكولونيا ، ثم هبط ثانية الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطابق الأول مصمماً على أن يهتك حجاب الصمت المخيم على الصالون بأي ثمن . لكنه لما أمسك بقبضة الباب الأبيض المذهبة السوداء رنت الموسيقى ثانية بصوت عاصف جياش فتراجع .

ونزل من درج الخدم الى الطبقة الأرضية فالردهة فالمدخل ، وخرج الى الحديقة ، ثم عاد ثانية وتوجه الى الردهة التي يقوم فيها الدب المحشو ، فإلى قاعدة الدرج الرئيسي الموجود عندها حوض السمك الذهبي ، كمن يبغي شيئاً ، غير قادر على أن ينشد الراحة في أي مكان ، منصتاً ، متربصاً ، مفعماً بالخجل والغم ، رازحاً تحت الخوف من الفضيحة الخفية والعلنية يطارده شبحها...

وذات مرة ، في الساعة التي كان يستند فيها الى دهليز الطابق الثاني ويطل من بئر السلم الى أسفل حيث كان كل شيء صامتاً ، خرج يوهان الصغير من حجرته وهبط درجات الشرفة الى الطرقة ليتوجه الى ايدا يونجمان في أمرٍ ما . فأراد وهو يمس الحائط على امتداده بالكتاب الذي يحمله ، أن يمر بأبيه خافضاً بصره ، محيياً إياه بتحية خافتة ، لكن السناتور وجه اليه الكلام :

« أي هانو ماذا تصنع ؟ »

« أعمل أبي ، أريد التوجه الى ايدا لأترجم أمامها... »

« كيف حالك ؟ وماذا عندك ؟ »

فأجاب هانو وهو مايزال خافضاً أهدابه ، لكنه فيما يبدو كان جاهداً لتوه في التماس رد صحيح ، واضح ، يدل على حضور ذهن ـ أجاب بعد أن بلع ريقه بسرعة : « عندنا تحضير نص لاتيني لكوزيليوس نيبوس وتسوية حساب تجاري ، وأجروميه فرنسية ، وأنهر أمريكا الشمالية... وتصحيح إنشاء ألماني... »

وصمت مبتئساً في أنه لم يضف في الآخر شيئاً ، وأنه خفض بصره في صورة حاسمة ، ذلك أنه لم يكن يحضره مايزيده فجاء جوابه كله مقتضباً متردداً . قال بقدر ما استطاع من توكيد : « لاأكثر » وإن كان لم يرفع بصره . لكنه يظهر أن أباه لم يلتفت الى ذلك ، فقد أمسك بيد هانو الطليقة بين يديه ، وجعل يعبث بها ، مشتت الفكر ، لم يستوعب فيما يظهر مما قاله ابنه شيئاً ، وتحسس من دون وعي وفي بطء مفاصل يده الرقيقة ثم صمت .

وسمع هانو عندئذ شيئاً على حين بغتة لايرتبط بحال بالحديث الأصلي ، ـ سمع صوتاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خافتاً يحركه الخوف ، ويكاد يتوسل اليه ، ولاعهد له به ، ـ صوت أبيه مع ذلك يقول : «الآن ، أمضى الملازم ساعتين بالفعل عند أمك ياهانو...»

وانظر! لقد رفع الصغير يوهان عينيه العسليتين الذهبيتين ووجههما واسعتين ، رائقتين ، مفعمتين بالحب كما لم يوجههما من قبل قط ، الى وجه أبيه ، هذا الوجه ذي الجفون المحمرة تحت الحاجبين الرائقين والخدين المنتفخين قليلاً ، اللذين يلامسهما طرفا شاربه المنتصبان . ويعلم الله مبلغ مافهم هانو . لكن شيئاً كان مؤكداً ، وقد أحسه كلاهما ، وهو أنه في هذه الثواني التي التقت فيهما نظراتهما قد زالت كل غربة وبرود بينهما ، كل كلفة وسوء فهم ، وأن توماس بودنبروك هنا وفي كل مكان لايتعلق الأمر فيه بالهمة والحذق والنشاط اليقظ بل بالخوف والألم ، قد ضمن ثقة ابنه وتفانيه...

إنه لم ينتبه الى ذلك ، بل كان يقاوم الانتباه اليه ، فجذب هانو في هذه اللحظة بأشد مما كان يفعل من قبل الى تمرينات عملية أولية في حياته العاملة المستقبلة ، وامتحن قواه الذهنية ، وغاص فيه وراء تعبيرات جازمة عن الرغبة في مزاولة المهنة التي كانت تنتظره ، وكان كلما لاحت له إمارة على المقاومة والوهن يستشيط غضباً... ذلك أنه بهذه الأمارة كان توماس بودنبروك البالغ من العمر الثامنة والأربعين يعتبر أمامه على مر الأيام معدودة ، وينتظر الموت في القريب...

وقد ساءت صحته البدنية واضطره أرقه وانعدام شهيته ودواره ، وتلك الرعشة التي كان يتعرض لها دائماً ـ اضطره هذا كله مراراً وتكراراً الى استشارة الدكتور لانجهالز . لكنه لم ينجح في اتباع أوامر الطبيب ، لأن قوة إرادته التي أوهنتها سنوات مليئة بالتعطل الشاغل المثير ، لم تبلغ هذا المبلغ... وقد بدأ ينام في الصباح طويلاً ، وإن كان في كل مساء يعقد النية غاضباً ، على أن ينهض مبكراً ليقوم قبل تناول الشاي بالنزهة المطلوبة منه على الأقدام . وقد نفذ هذا في الحق مرتين أو ثلاثاً... شأنه في كل أمر . وكان إجهاده إرادته على الدوام على خير جدوى ومن دون ارتياح ، ينال من احترامه لنفسه ويدخل عليه اليأس... كان من المتعذر عليه جداً أن يحرم نفسه متعة تخدير السجائر الروسية الصغيرة الحامية التي لبث منذ صباه يدخن منها مقادير كبيرة في كل يوم . وقد قال للدكتور لانجهالز من دون لف أو دوران في وجهه الذي تبدو عليه إمارات العجب : «انظر يادكتور! إن واجبك هو أن تحظر عليّ تدخين السجائر...وهو واجب سهل جداً ، موات جداً ، حقاً! أما تنفيذ هذا الحظر فأمر يخصني!... ويصح أن تتبين ذلك... كلا ، إننا نريد أن نتعاون على حفظ صحتي ، لكن

الأدوار موزعة بيننا توزيعاً غير عادل ، فنصيبي من هذا العمل أكبر مما ينبغي! لاتضحك... فليست هذه نكتة... إنني وحيد بصورة مخيفة... إني أدخن ، فهل تتفضل ؟ »

وقدم اليه علبته .

لقد تناقصت قواه ، والذي قوى وحده فيه هو اقتناعه بأن كل هذا لايمكن أن يدوم طويلاً ، وإن أجله قريب . وقد داخلته تصورات غريبة حادسة ، ودهمه مرة على المائدة شعور بأنه لايجالس عليها ذويه في الحقيقة ، بل يتطلع اليهم عن بعد غير واضح المعالم . كان يقول لنفسه سأموت . واستدعى هانو مرة أخرى اليه وحاول إقناعه بقوله : «قد أذهب أبكر مما نظن الى رحمة الله يابني ، فيجب أن تكون عندئذ على المكان! فكذلك أنا قد استدعيت مبكراً... فافهم حقاً أن عدم اكتراثك يعذبني! فهل صح منك العزم ؟... نعم - نعم - ليست جواباً! ليست أبداً جواباً! إني أسألك هل صحت عزيمتك في شجاعة وغبطة ؟... هل تظن أن عندك مالاً كافياً ، وأنك لن تحتاج الى العمل ؟ إنك لاتملك شيئاً... إن ماتملكه جد ضئيل... فسوف تعتمد كل الاعتماد على نفسك! فإذا أردت الحياة ، وأن تعيش في رغد فسوف يكون عليك أن تعمل عملاً شاقاً وأقسى مما أديته أنا...» لكن هذا لم يكن كل شيء ، لم يكن كل ماهنالك انشغاله بمستقبل ابنه وبيته . إن شيئاً آخر ، شيئاً جديداً قد استولى عليه ، قد استحوذ عليه وساق أفكاره الكدرة أمامه... فإنه بمجرد أن كف عن اعتداد انتهاء الأجل ضرورة بعيدة نظرية غير ذات بال ، وأن اعتدها شيء دانياً في متناول اليد يجب أن تعد لها المعدات المباشرة ، جعل يدمن التفكير ، وينقب في نفسه ، ويمحص موقفه من الموت والأمور السماوية ، فلم يلبث أن أسفرت هذه المحاولات الأولى عن نتيجة هي فجاجة الخير فيها ، وعدم استعداد ذهنه للموت .

إن الايمان الحرفي ، ومسيحية الانجيل الحالمة التي عرف أبوه أن يربط بينها وبين روح تجارية عملية جداً والتي انتقلت الى الأم من بعد أبيه ، قد كان كله غريباً عنه . فمنذ بدأت حياته وهو أميل الى أن يعالج الأشياء الأولى والأخيرة بتشكك رجل الدنيا الذي كان لجده . ولأنه كان أشد حاجة الى العمق والذكاء وماوراء الطبيعة من أن يكتفي بسطحية يوهان بودنبروك الكبير الراضية ، فقد أجاب عن مسائل الأبدية والخلود من الناحية التاريخية وقال لنفسه أنه عاش في أشخاص أجداده وسيعيش في أشخاص خلفائه . ولم يكن هذا يتفق فحسب ومايحدوه من روح الأسرة والوعي الذاتي بأنه من طبقة الأعيان ، وتقواه التاريخية ، بل كان أيضاً يستنده في أعماله وطموحه وأسلوب معيشته بأسره ويقويه . لكنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد بدا الآن أن هذا قد اختفى والموت يقترب أمام ناظره الثاقب ، وتلاشى ، وعجز عن أن يتيح ساعة واحدة من الهدوء والاستعداد .

ومع أن توماس بودنبروك قد تظاهر في حياته هنا وههنا بميل قليل الى الكثلكة فقد كان الشعور الجدي ، والعميق ، العنيد ، القاسي ، الذي يبلغ في قسوته أن يكون عذاباً للنفس ، كان هذا الشعور بالتبعة الذي يحدو البروتستانتي الأصيل المتحمس يعمر قلبه . كلا ، إن ماهو أسمى وماهو آخر لايجد من الخارج عوناً ولاوساطة ولا ابراء ولاتخديراً ولاعزاء! فلابد للمرء من أن يحل اللغز وحده ، مستقلاً عن غيره ، وبجهده الخاص في عمل حامٍ نشط قبل أن يفوت الوقت . لابد أن ينتزع من نفسه استعداداً بيناً أو يذهب يائساً الى رحمة الله . وتحول توماس بودنبروك خائب الأمل عديم الرجاء عن ابنه الوحيد الذي أمل أن يواصل العيش فيه قوياً ، فتياً ، وجعل يبحث في عجلة عن الحقيقة التي لابد أن تكون في انتظاره في موضع ما .

وفي أوج الصيف في عام ١٨٧٤ والسحاب الفضي المستدير ، يسير في السماء الشديدة الزرقة فوق الوضع الأنيق الذي تتخذه حديقة المدينة ، والطيور تسقسق بين فروع شجرة الجوز في توكيد السائل ، ونافورة الماء يسمع خريرها وسط أكليل الزنبق الملون بلون الليلاق المحيط بها ، وعبق الليلاق يختلط للأسف برائحة الشراب التي يحملها تيار الهواء الدافىء من معمل تقطير السكر القريب ، كان السناتور كثيراً مايغادر المكتب في هذه الأوقات في وطيس العمل ليتمشى في الحديقة ويداه وراء ظهره أو يسوي الحصباء أو يتصيد الطمي من النافورة أو يسند عوداً من الورد فيدهش الموظفون... وكان وجهه ذو الحاجبين الرائقين اللذين يرتفع أحدهما عن الآخر قليلاً يبدو في هذه الانشغالات جاداً متنبهاً ، لكن أفكاره كانت تجري مجراها الخاص المضني بعيداً في الظلام...

كان أحياناً يجلس فوق مرتفع المطلة الصغرى في الخص المكتسي كله بورق العنب وينظر عبر الحديقة الى الجدار الخلفي لبيته دون أن يركز بصره على شيء معين . وكان الهواء دافئاً حلواً وكأنه فيه تناجيه الأصوات الهادئة المتصاعدة من حوله ملطخة مهدئة وتبغي أن تهدهده . وقد كان يغمض عينيه الحين بعد الحين مجهداً من الحملقة في الفضاء ومن الوحدة والصمت ، ليستجمع بعد ذلك حواسه من جديد ، وينفي عن نفسه السلام على عجل . قال بصوت يكاد يكون مرتفعاً : يجب أن أفكر . يجب أن أنظم كل شيء قبل فوات الأوان...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكنه هنا ، في هذا الخص ، وعلى المقعد الصغير الهزاز المصنوع من البوص الأصفر ، كان أن أمضى ذات يوم أربع ساعات كاملة يقرأ متأثراً تأثراً متزايداً في كتاب وقع في يده مصادفة أو سعى هو إليه . فبعد أن تناول طعام الإفطار الثاني وجده ، والسيجار في يده ، وهو في غرفة التدخين ، في ركن غائر من خزانة الكتب متوارياً خلف مجلدات أنيقة ، فتذكر أنه اشتراه مرة من سنين وأيام من الكتبي بثمن زهيد دون أن يلقي باله اليه : سفر ضخم مطبوع طبعاً رديئاً ، ومجلد تجليداً رديئاً ، يمثل الجزء الثاني فقط من مذهب ميتافيزيقي شهير... وقد حمله معه الى الحديقة وجعل وهو شارد الذهن يقلبه ورقة ورقة...

لقد غمره رضى عظيم ، لاعهد له به وشكر الله عليه ، وشعر بارتياح لامثيل له من أنه رأى كيف أن عقلاً متفوقاً بدرجة هائلة تغلب على الحياة ، هذه الحياة القوية القاسية الساخرة الى هذا الحد ليخضعها ويصدر عليها حكمه... ارتياح المتألم الذي يبقى ألمه على الدوام طي خجله وتبكيت ضميره خافياً عن قر الحياة وقسوتها ، فإذا هو يتلقى فجأة من يد عظيم ، حكيم ، حقه المبدئي الرسمي في أن يعاني في هذا العالم ، خير العوالم التي يمكن أن تخطر بالبال جميعاً ، بعد أن أثبت في سخرية وتورية أنه شر العوالم التي يمكن أن تخطر بالبال جميعاً .

ولم يفقه توماس بودنبروك كل شيء في الكتاب ، فالمبادىء والمقتضيات بقيت في نظره شيئاً مبهماً ، وفهمه الذي لم يمارس هذه المطالعات من قبل لم يستطع متابعة مجرى بعينه من الأفكار . بيد أن تناوب النور والظلام وقصور الفهم الخامد والحدس الغامض والضوء الساطع المباغت ، قد شغله فمرت الساعات دون أن يرفع بصره عن الكتاب أو يغير حتى جلسته على الكرسي .

وقد ترك في البداية بضع صفحات بلا قراءة ، ثم مضى قدماً ، في غير وعي ، وفي سرعة ، ينشد ما هو مهم في الحقيقة ، ويستوعب من الفقرات هذه أو تلك مما استوقفه . لكنه وقع بعدئذ على فصل مستفيض قرأه من البداية إلى النهاية ، مطبق الشفتين ، مقطب الحاجبين ، تلوح عليه إمارات جد كامل ، كاد يزول ، لاتؤثر فيه حركة من حركات الحياة القائمة من حوله . وكان عنوان هذا الفصل : «الموت وعلاقته بعدم قابلية وجودنا للدمار في ذاته» .

كانت تنقصه بضعة أسطر لما أقبلت الخادم في الحديقة تدعوه الى المائدة ، فأومأ برأسه ، وأتم بقية الجمل ، وأقفل الباب ، وأدار بصره فيما حوله... وقد شعر بكيانه كله وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتسع بصورة هائلة وأفعم نشوة ثقيلة مظلمة . وأحس ذهنه يغيم وينتشي كل الانتشاء من شيء ما ينبو عن التعبير في جدته واغرائه وتبشيره ويذكر بأول لوعة للحب عامرة بالرجاء . لكنه لما أودع الكتاب قمطر خوان الحديقة بيدين باردتين مضطربتين ، كان رأسه المضطرم الذي يسوده ضغط غريب وتوتر يشيع الخوف كأنما سينفجر فيه شيء ، عاجزاً عن استيعاب فكرة كاملة .

فماذا كان هذا ؟ هذا ماتساءل عنه أثناء أن كان يدخل البيت ، ويصعد الدرج الرئيسي ، ويجلس في قاعة الأكل مع ذويه... ماذا حدث لي ؟ ماذا سمعت ؟ ماذا قيل لي ، أنا توماس بودنبروك سناتور هذه المدينة ورئيس متجر توماس بودنبروك للحبوب... ؟ هل كنت المقصود به ؟ هل يسعني تحمله ؟ إني لاأعرف ماهو ؟... أعرف فقط أنه أكثر مما ينبغي ، أكثر مما يمكن أن يتحمله دماغ مواطن...

في هذه الحالة من الانحدار الشديد ، المظلم ، الفاقد الوعي ، الخالي من الفكر بقي النهار بطوله . لكنه لما حلّ المساء بعدئذ توجه الى النوم قبل الميعاد ، عاجزاً عن أن يبقي رأسه فوق كتفيه أطول من ذلك ، فنام ثلاث ساعات كاملة نوماً عميقاً بعيداً كأن لم ينم في حياته . ثم إذا هو يستيقظ فجأة مرتاعاً ارتياعاً لذيذاً كما يستيقظ المرء وحيداً وفي قلبه حب يتكون .

كان وحده في مخدع النوم الفسيح لأن جيردا كانت تنام إذ ذاك في حجرة ايدا يونجمان التي انتقلت أخيراً الى حجرة من حجرات الشرفة الثلاث لتكون مع يوهان الصغير... وكان الليل كثيفاً من حوله ، إذ كانت ستائر النافذتين العاليتين مسدلة محكمة ، وكان مستلقياً على ظهره ينظر في الظلام في سكون عميق ووحدة خفيفة الوطأة .

وانظر! لقد كان يتبدد الظلام بغتة أمام عينيه ، وينشق حائط الليل المخملي وينكشف من بعيد ضوء أبدي بعيد الغور... فقال توماس بودنبروك بصوت قارب أن يكون مرتفعاً : سأعيش . وشعر بصدره يخفق وباطنه يجيش . هذا هو الدليل على أني سأعيش! على أنه ستكون هناك حياة . وكوني لم أقصد بالحياة على التعيين قد كان مجرد خطأ ، كان غلطة سيصحبها الموت . فهكذا هي!... لماذا ؟ ـ وماكاد يسأل هذا السؤال حتى انطبق الليل ثانية لناظريه . رأى ذلك ، ولم يعرف أو يفهم ثانية شيئاً منه ، وترك رأسه يندس في الوسائد الى أعمق مما كان وقد بهره وأنهك قواه تماماً ذلك القليل من الحقيقة الذي جاز أن يطالعه من هنيهة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقد ساكناً ، وترقب في حرارة ، وأحس دافعاً يديه الى الدعاء كي تعود الرؤيا لتهديه ، وعادت الرؤيا وبقي مستلقياً يشهد ، شابكاً يديه ، لايقوى على حراك...

ماذا كان الموت ؟ لم يبد له الجواب عن ذلك في الكلام الهزيل وفي التقعر : فقد كان يحس الموت ويشعر به في الصميم . كان الموت سعادة بعيدة الغور لاسبيل الى اكتناهها إلا في لحظات رحيمة كهذه اللحظة . كان الأوبة من ضلال أليم ينبو ألمه عن الوصف ، وتصويب خطأ كبير ، وتحريراً من روابط وحواجز بغيضة ، وتعويضاً عن مصاب أسيف .

النهاية والانحلال ؟ إن كل من يحس هذه المعاني الهامة مخاوف ، يستحق الرحمة ثلاث مرات! فما الذي سينتهي وما الذي سينحل ؟ جسده هذا... وشخصيته وفرديته هذه ، وهذه العقبة البليدة ، العنيدة ، الخاطئة ، البغيضة التي تعترض صيرورة المرء شيئاً آخر ، شيئاً خيراً مما هو!

ألم يكن كل انسان غلطة وعثرة ، ألم يزج به منذ ولادته في حبس مؤلم ، في سجن! سجن! روابط وحواجز في كل مكان! إن الانسان ليحملق من بين قضبان نافذة فرديته ، في أسوار ظروفه الخارجية المحدقة به عديم الرجاء حتى يأتيه الموت فيدعوه الى العودة الى موطنه والى الحرية .

الفردية!...آه ، إن ماهية الانسان ، ومايستطيعه ، ومايملكه ، ليبدو ناقصاً ، أغبر ، متعذراً ، مضجراً ، لكن ماليس يكونه الانسان ، ومالايستطيعه ومالايملكه فهو ما ينظر اليه الانسان بعين الحسد والاشتهاء ، الحسد الذي يصبح حباً لأنه يخشى أن يصبح بغضاً .

إني أحمل في نفسي البذرة والبداية والإمكان لكل جدارة وكل عمل في العالم... فأين كان يمكن أن أكون إذا لم أكن هنا! من ، ماذا ، كيف يمكن أن أكون ، إذا لم أكن أنا من أنا ، إذا لم تفصلني ظاهرتي الشخصية هذه وتفصل وعيي عن وعي كل أولئك الذين ليسوا «أنا»! النظام العضوي! فورة الإرادة المتدفعة ـ تلك الفورة العمياء ، الخرقاء ، الأسيفة! خيراً حقاً أن تنسج هذه الإرادة حرة في ليل لا يعرف المكان والزمان من أن تضنى في سجن تضيئه شعلة الذكاء المرتعشة المترنحة بالضرورة!

لقد أملت أن أواصل العيش في ولدي ؟ في شخصية هي أخوف وأضعف وأكثر تردداً من شخصيتي ؟ إلا أن هذه لحماقة صبيانية ضالة! ماذا ينفعني الابن ؟ إني لست بحاجة الى ابن!... حيث أكون يوم أموت ؟ لكن الأمر بسيط كل البساطة! سأكون في كل أولئك الذين

قالوا في كل مرة «أنا» ويقولون وسيقولون ، وعلى الأخص في أولئك الذين يقولونها أكمل مما يفعل غيرهم وأقوى وأمرح نفساً...

إنه في مكان ما ينمو غلام مزوداً تزويداً حسناً ، موفقاً توفيقاً كبيراً ، موهوباً لأن ينمي كفاياته ، شب مستقيماً ، لايكدر صفوه شيء ، نقياً ، قاسياً ، مرحاً ، واحد من أولئك الناس ، يزيد منظره السعداء سعادة ، ويدفع منظره البؤساء الى القنوط : هذا هو ابني ، وهذا أنا ، عمّا قريب... عما قريب بمجرد أن يخلصني الموت من الجنون الأسيف ، إذ أتصور أني لست موجوداً ، لاأنا ولاهو...

هل أبغض الحياة يوماً ، الحياة النقية ، القاسية القوية ؟ حمق وسوء فهم! فلم أبغض سوى نفسي لأني لم أقو على احتمالها ، لكن أحبكم... أحبكم جميعاً أيها السعداء ، ولن يفصلني عنكم عما قريب سجن ضيق ، قريباً سأصبح منطوياً على حبكم ، ويصبح حبي لكم حراً .

وبكى ، وضغط على وجهه في الوسائد ونشج ، يرتعش من كل جسمه وكأن هناء لايدانيه هناء في الدنيا في حلاوته المؤلمة يرفعه في نشوته . كان هذا ، كل هذا ، ماأفعمه منذ عصر أمس نشوة وغموضاً ، وماتحرك في فؤاده في جوف الليل وأيقظه كأنه حب يتكون ، وإذا أمكنه أن يفهمه ويتبينه ـ لا في كلمات وأفكار متلاحقة بل في تجليات مباغتة مسعدة في صميمه ـ فهل بات حراً ؟ هل فك إساره فعلاً ، وانطلق من كل الحواجز والروابط الطبيعية والصناعية على السواء ؟ إن أسوار مدينة آبائه التي تضمه مريداً واعياً قد انكشفت وفتحت لناظره العالم ، كل العالم الذي شهدت فيه طفولته هذه القطعة وتلك ، والذي وعده الموت إياه . إن التبينات الخادعة للمكان والزمان وللتاريخ أيضاً ، والاهتمام بمواصلة حياة مجيدة تاريخية في شخص خلفائه ، والخوف من أي انحلال وتفكك نهائي تاريخي ــ هذا كله حرر ذهنه ، ولم يعد يحول دون فهمه للأبدية الخالدة . فلم يبدأ شيء ولم ينته . بل كان هناك حاضر لاينتهي . وتلك القوة الكامنة فيه التي أحبت الحياة بحب متدفع مشتاق أليم في حلاوته والتي كان شخصه مجرد تعبير خاطىء عنها ـ هذه القوة كانت حرية أن تعرف كيف تجد دائماً مداخل هذا الحاضر .

وهمس في وسادته : سأعيش . وبكى... ونسى في اللحظة التالية موضوعه ، فقد تعطل مخه ، وانطفأ علمه ، ولم يعد فيه على حين بغتة شيء سوى الظلمة الخرساء . لكنه أكد لنفسه أن الرؤيا ستعود وتساءل : ألم أملكها ؟... وبينما كان يشعر كيف ألقت الغيبوبة

والنوم عليه ظلالهما أقسم قسماً مغلظاً أن لايفلت هذا الهناء العظيم ثانية ، بل أن يستجمع قواه ، وأن يتعلم ويقرأ ويدرس حتى يجعل كامل الرأي والنظرة الى العالم الذي صدر ذلك كله عنها ، ورأياً له ونظرة ثابتة لايتخلى عنها .

على أن هذا لم يمكن ، ففي الصباح التالي بالفعل ، وقد استيقظ يحدوه شعور طفيف بالخجل من ترهات أمس الذهنية استشعر شيئاً من عدم قابلية هذه النيات الجميلة للتنفيذ...

وقد نهض من نومه متأخراً ، وكان عليه أن يشترك في مناقشات إحدى جلسات مجلس المواطنين ، فعادت الحياة العامة العملية للمدنية في الشوارع ذات الأسطح الهرمية والزوايا في هذه المدينة التجارية الوسطى تستحوذ على ذهنه وعلى قواه من جديد . ولما كان مايزال مشغولاً بنية معاودة القراءة العجيبة أخذ يسائل نفسه حقاً هل ماعاشه تلك الليلة شيء خاص به في الحقيقة ، وهل إذا واجهه الموت يثبت هذا من الناحية العملية ؟ وقد عارضت هذا غرائز المواطن فيه . كذلك تحرك عجبه ؛ الخوف من دور عجيب مضحك . هل تلائمه مثل هذه الأشياء ؟ أتليق به ، بالسناتور توماس بودنبروك رئيس متجر يوهان بودنبروك ؟...

ولم يتيسر له مرة أخرى أن يلقي نظرة على الكتاب الغريب الذي يخفي هذه الكنوز الكثيرة فضلاً عن الاهتداء الى بقية أجزاء هذا السفر العظيم ، إن الحذلقة المضطربة التي استولت عليه مع الأيام كانت تستنفد أيامه ، وقد كان ومئات التوافه تطارده ويجهد نفسه في تنظيمها وإنجازها أضعف إرادة من أن يستطيع توزيع وقته توزيعاً معقولاً مثمراً . وبعد عصر ذلك اليوم الذي استحوذ على تفكيره باسبوعين تقريباً وصل الأمر الى أنه تخلى عن كل شيء وأمر الخادمة أن تحمل الى أعلى البيت كتاباً يحتويه قمطر في خوان الحديقة حيث لاينبغي أن يكون وتضعه في خزانه المكتب .

هكذا حدث أن توماس بودنبروك الذي مد يديه متلهفاً الى الحقائق الأخيرة الرفيعة هبط مجهداً الى المعاني والصور التي مارس طفولته في ظلها وهو مؤمن بها . فجال وتذكر الإله الواحد أبا الانسان الذي بعث الى الأرض جزءاً شخصياً من ذاته لكي يألم من أجلنا ويدمى في سبيلنا والذي سيقيم العدالة في اليوم الآخر ويعوض عند قدميه المنصفون من أحزان هذه الدار الأسيفة ، في الأبدية التي تبدأ عندئذ... هذه الحكاية الغامضة بعض الشيء ، السخيفة بعض الشيء التي لم تتطلب فهماً بل إيماناً وطاعة والتي ستكون حاضرة في عبارات ثابتة بنوية إذا ماحل الفزع الأخير... حقاً ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هنا أيضاً لم يجد السلام سبيله الى هذا الرجل الذي ينتهبه الهم والقلق على شرف بيته وعلى زوجه وابنه واسمه وأسرته ، هذا الرجل المنهوك القوى الذي حفظ جسمه أنيقاً ، مستقيماً ، منتصباً بما بذل له من جهد وابتدع من فن . لقد ضايق نفسه عدة أيام بالسؤال عما يكون المصير! هل تصعد الروح الى السماء بعد الموت مباشرة أو يبدأ الهناء بعد بعث الجسد أول مايبدأ... ثم أين تقيم الروح في انتظار ذلك؟ هل علمه أحد يوماً ذلك في المدرسة أو الكنيسة ؟ وكيف تكون تبعة ترك الانسان في مثل هذه الجهالة ؟ ـ لقد كان على وشك الذهاب الى القس برنجهالز يسأله الرأي والعزاء ، لكنه عدل في اللحظة الأخيرة خشية التعرض للسخرية .

وأخيراً عدل عن كل شيء وسلم أمره لله . لكنه لما كان قد انتهى بنظام شؤونه الأبدية الى نهاية غير مرضية فقد قرر أن يزاول على الأقل شؤونه الأرضية بذمة وضمير فيحقق بذلك نية ظلت تحدوه طويلاً .

ففي ذات يوم سمع يوهان الصغير بعد تناول طعام الغداء ، في حجرة الجلوس حيث يتناول أبواه القهوة كيف أنبأ أبوه أمه أنه ينتظر اليوم المحامي الدكتورفلان ليكتب معه وصيته التي لايجوز أن يؤجلها على الدوام الى ماشاء الله . بعد ذلك تمرن هانو ساعة في الصالون على البيان . لكنه لما أراد بعدئذ أن يعبر الطرقة التقى بأبيه ومعه سيد آخر يرتدي معطفاً طويلاً أسود يصعدان الدرج الكبير .

فقال السناتور بإيجاز : «هانو!» فوقف يوهان الصغير ، وبلع ريقه ، وأجاب في عجلة وصوت خافت : «نعم ياأبتي...»

فاستأنف أبوه الكلام قائلاً : «إن عندي مع هذا السيد أمراً هاماً أؤديه . فأرجوك أن ترابط بهذا الباب» ـ وأشار الى مدخل غرفة التدخين . «واجعل بالك الى ألا يزعجنا أحد على الإطلاق ، أسمعت ؟»

فقال يوهان الصغير : «سمعاً وطاعة ياأبي» ورابط أمام الباب الذي أقفل خلف السيدين .

ولبث واقفاً يمسك بإحدى يديه أنشوطة البحار المتدلية على صدره ويدير لسانه على سن من أسنانه لايطمئن اليه وينصت الى الأصوات الجادة المكتومة التي كانت تنفذ اليه من داخل الحجرة . وكان يميل جانباً برأسه ذي الشعر الكستنائي الرائق المتهدل خصلاً على سالفيه ، وينظر جانباً بعينيه العسليتين الرائقتين المحوطتين بظلال تميل الى الزرقة ، مقطب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحاجبين ، يطرف بعينيه المتعبتين عن التفكير والسأم تعبيراً يشبه كل الشبه ذلك الذي كان له وهو يستنشق عند محمل جدته رائحة الأزهار مع ذلك العبير الآخر الغريب الذي كان يعرفه مع ذلك بصورة عجيبة .

وقد جاءت ايدا يونجمان وقالت : «هانو الصغير ، أين أنت ؟ ماذا تبغي من وراء وقوفك هنا ؟»

وجاء تلميذ المتجر الأحدب من المكتب يحمل برقية في يده ويسأل عن السناتور .

وكان هانو في كل مرة يمد ذراعه بكم البحار الأزرق المطرزة فوقه المرساة ، في وضع أفقي عند الباب ، ويهز رأسه ، ويقول بعد لحظة من الصمت وبصوت خافت ثابت : «محظور الدخول على أحد ـ فأبي يكتب وصيته» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

قال الدكتور لانجهالز في الخريف وهو يقلب عينيه الجميلتين كما لو كان سيدة : «الأعصاب ياسيدي السناتور.. الأعصاب هي سبب كل شيء... وهنا وهناك أيضاً لاتقوم الدورة الدموية بكل وظيفتها . فهل تسمح لي بنصيحة ؟ ينبغي أن تشد الرحال قليلاً في نفس هذا العام! فإن بضعة أيام الآحاد التي قضيتها قريباً من هواء البحر لم تنفع بطبيعة الحال كثيراً . إننا في آخر سبتمبر والحركة ماتزال قائمة في ترافيمنده . فهي لم تقفر تماماً من مرتاديها . سافر الى هناك ياحضرة السناتور واجلس قليلاً على الشاطىء . فأسبوعان أو ثلاثة أسابيع تصلح بالفعل بعض الشيء... »

وقال توماس بودنبروك نعم وآمين . لكنه لما علم ذووه بهذا التصميم طلب كريستيان أن يصحبه . وقال له في بساطة : «اذهب معك ياتوماس ، وأظن ألا أعتراض لديك» . ومع أن السناتور كان لديه على ذلك اعتراضات جمة فقد قال مرة أخرى : نعم وآمين!

والمسألة هي أن كريستيان كان آنئذ أملك لوقته مما كان من قبل . ذلك أنه ألفى نفسه لصحته المعتلة مضطراً الى التخلي عن العمل التجاري الذي كان يزاوله أخيراً وهو الوساطة في تصريف الشمبانيا والكونياك... ومن حسن حظه أن الصورة الوهمية التي كان يتخيلها لرجل جالس على أريكته في الأصيل يومىء اليه لم تعد تعاوده ، لكن ذلك «العذاب» الدوري في جنبه الأيسر بات حيثما ظهر أسوء مما كان . ومع هذا العذاب طائفة كبيرة من المضايقات كانت محل ملاحظة واهتمام عند كريستيان فكان يصفها بأنف أجعد حيث ذهب وأقام . وكثيراً ماكانت عضلات البلع عنده تتعطل كما كانت حاله من قبل الى حد أن يجلس واللقمة في حلقه زائغ البصر بعينيه الصغيرتين الغائرتين . وكثيراً أيضاً ، كما كانت حاله من قبل ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماكان يعاني من شعوره بالخوف من فالج مفاجيء في لسانه ، وحلقومه ، وفي أطرافه ، بل كذلك في قدرته على التفكير . وهو شعور غير معين لكنه يعجز عن التغلب عليه . وحقاً إن شيئاً فيه لم يشل ، لكن ألم يكن خوفه من الشلل أسوأ تقريباً من الشلل نفسه ؟ كان يفيض في الكلام عما وقع له ذات يوم وهو يعد شاياً ، إذ أمسك بعود الثقاب المشتعل فوق فوهة قارورة الكحول بدلاً من أن يضعه فوق جهاز الطهي ، فكان حرياً ألا يكون سبباً لهلاكه هو فحسب ، بل كذلك لهلاك بقية سكان البيت ، ولعله أيضاً لحرق البيوت المجاورة ، على أشنع صورة .

ولقد أسرف بهذا في الحديث . لكن ماوصفه بإسهاب خاص ولجاجة وجهد ليحمل سامعيه على فهمه كل الفهم ، كان شذوذاً شنيعاً تبينه أخيراً في نفسه وهو أنه كان في أيام بعينها أي في جو بعينه وحالة نفسية بعينها لايستطيع أن يشهد نافذة مفتوحة من دون أن يحس دافعاً كريهاً لايبرره شيء الى القفز منها ... دافعاً عنيفاً يكاد لايمكن قمعه ، ونوعاً من التهور الجنوني المنطوي على اليأس! وفي يوم أحد كانت الأسرة تتناول فيه الطعام في بيت حفرة السماكين وصف كيف زحف على يديه ورجليه الى النافذة المفتوحة ليقفلها مبدياً في سبيل ذلك كل مايملك من قوى معنوية . لكنه عند هذه النقطة صرخ الجميع في وجهه وأشاحوا بوجوههم عنه لايريدون سماعه .

كان يقرر هذه الأشياء وأمثالها مرتاحاً ارتياحاً مفزعاً . لكن الذي لم يلاحظه ولم يتحراه ، والذي لم يعه فازداد من تأثيره سوءاً كان انعدام اللباقة فيه بصورة غريبة . وهو مابات على توالي السنين خصيصة من خصائصه . فكان من المؤذي أن يروي في محيط الأسرة نوادر من طبيعتها ألا تلقى على الأكثر إلا في المنتدى . بيد أنه كانت ثَمَّ أمارات مباشرة على أن إحساسه بالخجل الجسماني كان بسبيل الانعدام ، فهو ، لكي يرى زوجة أخيه جيردا التي توطدت صداقته لها ، كيف أن جواربه الإنجليزية متينة الصناعة ، وكيف أنه الى ذلك قد بات نحيلاً لم يتورع عن أن يحسر أمام عينيها سرواله الواسع المخطط بالمربعات الى مافوق الركبة ، مبدياً اهتماماً ، مجعداً أنفه ، مشيراً الى ساقه المعروقة المقوسة الى الخارج تقويساً شديداً في سروالها الصوفي الأبيض البارزة منه ركبته الهزيلة بصورة محزنة ، ويقول : «انظري كيف أصبح بهذا الهزال... أليس هذا غريباً يسترعي الأبصار ؟» .

وقد تخلى الآن كما قلنا عن كل نشاط تجاري . بيد أن ساعات النهار التي لاينفقها في

المنتدى ، يسعى الى شغلها بصورة أخرى ، فكان يحب أن ينوه تنويهاً بيناً بأنه على الرغم من كل الموانع لم يكف قط عن العمل ، فكان يقول أنه يوسع معارفه في اللغات ، وأنه أخذ أخيراً ، حباً في العلم وبلا غاية عملية ، في تعلم اللغة الصينية وبذل فيها مجهوداً كبيراً خلال أسبوعين . أما الآن فهو مشغول «بتكملة» قاموس انجليزي ـ ألماني يبدو له أنه ناقص . لكنه لما كان بحاجة متجددة الى تبديل الهواء لأمد وجيز ، وكان من المستحب أخيراً أن يكون مع السناتور من يرافقه ، فلن يرهنه هذا العمل بالمدينة .

وسافر الأخوان الى البحر ، سافرا في الطريق السلطاني والمطر يطبل فوق سقف المركبة ويجعل من الطريق كله بُركة ، فلم يتبادلا كلمة... كان كريستيان يجيل بصره فيما حوله كمن ينصت الى شيء أثار ريبته ، وكان توماس يجلس متدثراً بمعطفه ، مرتعشاً ، ينظر بعينين تعبتين محمرتين ، ويصل طرفا شاربه المفتولان الى خديه الشاحبين ، منتصبين . هكذا دخلا بمركبتيهما الى حديقة الحمام بعد الظهر ، فكانت عجلات المركبة تسحق حصباءها العائمة . وكان السمسار العجوز سيجسموند جوش جالساً فوق المطلة الزجاجة في المبنى الرئيس يحتسي جروج الروم ، فنهض عن مكانه وهو يفح بين أسنانه ، فاتخذا مجلسهما بجانبه ليتناولا هما أيضاً شيئاً ساخناً ريثما تُنقل أمتعتهما الى فوق .

وكان السيد جوش مايزال كذلك من ضيوف الحمام أسوة بالقلائل وبأسرة انجليزية ، وسيدة هولندية ، وهامبورغي أعزب ، تأخذهم سُنَة من النوم قبل الطعام ، وكان الضيوف يهوون النوم . أما السيد جوش فلم يكن ينام بالنهار . وإنه ليحمد الله على أن أمكنه أن يظفر بالليل ببضع ساعات يفقد فيها الوعي ، وكان عليلاً ، إذ يحتاج الى هذا الاستشفاء المتأخر بهواء البحر علاجاً للرعشة... رعشة أعضائه... عليها اللعنة! ولم يكن يقوى على الامساك بقدح الجروج ، ثم ماهو ألعن! لم يكن يستطيع الكتابة إلا نادراً حتى تلكأت ترجمته لجملة أعمال لوب دي فيجا تلكؤاً يدعو الى الأسف . وكانت حالته النفسية هابطة ، ولعناته لايصحبها البهجة الواجبة . كان يقول : «دعها تسر!» ويظهر أن هذا التعبير قد بات تعبيره المختار لأنه كان يكرره على الدوام ، وغالباً من دون مناسبة إطلاقاً .

والسناتور ؟ كيف حاله ؟ وكم يرى السيدان أن يبقيا ؟ وأجاب السناتور : أخ ، إن الدكتور لانجهالز قد بعث به الى هنا لأن أعصابه مجهدة ، وقد أطاعه على الرغم من هذا الجو اللعين . وما الذي لايعمله المرء خوفاً من طبيبه! وقد شعر بأنه في الحقيقة بائس قليلاً ، وسيبقى هو وأخوه الى أن تتحسن صحته...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال كريستيان : «هذا الى أني أيضاً صحتي سيئة جداً» . قالها والحسد والمرارة يملآن صدره ، لأن توماس لم يتكلم إلا عن نفسه . وقد كان على وشك أن يقص حكاية الرجل الذي يومىء اليه برأسه وقارورة الحكول والنافذة المفتوحة ، لما نهض أخوه ليتسلم الغرف .

ولم يخف المطر ، بل قلب الأرض ، وجعل قطره المتوثب يرقص فوق البحر المنحسر عن الشاطىء مرتعشاً من ريح الجنوب الغربي . وكانت الغبرة تطوي كل شيء ، والبواخر تمر كالظلال وسفن الأشباح تظهر وتختفي في الأفق المتلاشي .

كان الاجتماع بالضيوف الغرباء على مائدة الطعام . وكان السناتور يتمشى مع السمسار جوش مرتدياً معطفاً من المطاط وكسوة للحذاء ، بينما كان كريستيان هناك في محل الحلواني يحتسي مع سيدة البوفيه البنش السويدي .

وبعد الظهر في أيام كان يبدو فيها أن الشمس ستطلع كان بعض المعارف يظهرون على المائدة قادمين من المدينة ، وكانوا يحبون كثيراً أن يتجاذبوا أطراف الحديث بعيدين عن ذويهم : السناتور الدكتور جيزيكه ، رفيق كريستيان أيام الدراسة ، والقنصل بيتر دولمان الذي كان الى ذلك يبدو معتل الصحة لأنه أتلف نفسه بالإدمان على ماء هونيادي بانوس . ثم يجلسون مرتدين المعاطف تحت سقف خيمة الحلواني قبالة هيكل الموسيقى حيث لاتعزف موسيقى ، فيتناولون قهوتهم ويهضمون أدوار الشراب الخمسة بالنظر الى حديقة الحمام التي يرنق عليها الخريف ، وبالحديث... يدور حول أحداث المدينة والفيضان الأخير الذي تسرب الى الكثير من الأقبية والذي كان الناس معه يتنقلون بالزوارق في المنخفضات السفلى ، وعن حريق شب في أحد مخازن الميناء ، وعن انتخاب لمجلس الشيوخ... إذ انتخب الفريد لاورتسن من أصحاب متجر شتيرمان ولاورتسن تجار البقالة بالجملة والتجزئة في الاسبوع الفائت . ولم يكن السناتور بودنبروك موافقاً على هذا الانتخاب ، وكان جالساً متدثراً بمعطفه ذي البنيقة ، يدخن السجائر ويلقي عند هذه النقطة من الحديث فحسب ببضع ملاحظات . قال : «أنه لم يعط السيد لاورتسن صوته ، فليس في هذا شك . حقاً إن لاورتسن رجل شريف وتاجر عظيم بلا مراء ، لكنه من أوساط الناس ومن طبقة وسطى طيبة ، وكان أبوه يخرج بيده الرنجة الحامضة للخادمات من البراميل ويلفها... وقد غضب جد توماس بودنبروك مرة من أكبر أولاده لأن هذا أحرز حانوتاً بالزواج ، فهكذا كانت الأمور إذ ذاك . أما الآن فالمستوى ينخفض . ومستوى مجلس الشيوخ الاجتماعي بسبيل

الانحطاط . إن مجلس الشيوخ تدركه الديمقراطية ياعزيزي جيزيكه . وهذا ليس بالأمر الحسن . والمهارة التجارية لاتؤدي وظيفتها على أكمل وجه .

ومن رأيي أن لانكف عن طلب المزيد من الكفايات . وتصورالفريد لاورتسن في قاعة المجلس بقدميه الضخمتين ووجهه الذي يشبه وجه «المراكبي» أمر أعده إهانة لي... لست أعلم مايداخلني ، فهذا ينافي كل شعور بالأسلوب ، وبالإيجاز ، قلة ذوق» .

لكن هذا القول مسّ السناتور جيزيكه . فهو آخر الأمر مجد ابن لمدير مطافىء ... كلا ، إن للتجارة تاجها ومن هنا نحن جمهوريون . وقال : «هذا الى أنه لاينبغي أن تدخن بهذه الكثره يابودنبروك . فإن هواء البحر لايفيدك عندئذ أية فائدة» .

فقال توماس : «نعم ولأمسك!» وألقى بعقب سيجارته وأغمض عينيه .

ومضى الحديث متثاقلاً ، بينما كان المطر الذي عاد ينهمر كما كان منتظراً ، يغيم المنظر ، ودار حول الفضيحة الأخيرة التي وقعت في المدينة ، حول تزوير صك ، حول تاجر الجملة كاسباوم ، ب . فيليب كاسباوم وشريكه المسجون الآن ، ولم ينشط الحديث عن هذا ، فقد نعتوا فعلة التاجر كاسباوم بأنها غباوة ، وضحكوا ضحكاً مقتضباً وهزوا الأكتاف . وقص السناتور الدكتور جيزيكه أن تاجر الجملة ظل محتفظاً بفكاهته وطلب على الفور في مقامه الجديد أن يؤتى له بمرآة للزينة كانت تنقصه في خليته وقال : «إني لا أقيم هنا سنين بل سنوات ، ولذا يجب أن أحصل على مرآة» . وقد كان ، مثل كريستيان بودنبروك وأندرياس جيزيكه ، تلميذاً للمرحوم مرسيلوس شتنجل .

وعاد السادة يضحكون ضحكاً مقتضباً يخرج من أنوفهم دون أن يظهر على ملامحهم . وأوصى سيجسموند جوش بإحضار جروج الروم في توكيد كما لو كان يريد أن يقول : «مانفع الحياة الشحيحة ؟... ووافق القنصل دولمان على زجاجة من أكوافيت ، وعاد كريستيان يحتسي البنش السويدي الذي طلبه السناتور جيزيكه لنفسه وله . ولم ينقض طويل وقت حتى أخذ توماس بودنبروك يدخن من جديد .

كانوا يتحدثون دائماً بلهجة متثاقلة متهاونة تنطوي على الازدراء والتشكك ، عن الاعمال ، اعمال كل فرد في قلة اكتراث وخمود ذهن خلفه الأكل والشرب وانهمار المطر . ومع ذلك لم ينعش هذا الموضوع أحداً منهم .

فقال توماس بودنبروك وهو يضيق بالحديث : «أخ ليس في هذا مايسر كثيراً» . وسند رأسه برماً فوق رأس الكرسي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستفسر السناتور جيزيكه وهو يتثاءب : «وأنت يادولمان ؟ هل استسلمت كل الاستسلام الى الأكوافيت ؟»

فقال القنصل : «ومم تدخن المدخنة! إني أذهب الى المكتب كل بضعة أيام وأطل مرة . والشعر القصير يسهل تمشيطه» .

ولاحظ السمسار جوش متكدراً ، مسنداً مرفقه أمامه بعيداً فوق المائدة ، معتمداً رأسه الأشيب الرديء في يده : «كل شيء ذي شأن قد استحوذ عليه شترونك هاجنشتروم» .

وقال القنصل دولمان : «إذا خبثت رائحة المرء هانت جنب كومة من القمامة» . قالها بلهجة جهد ان تكون منحطة إلى درجة لم يكن مناص من أن يكدر كلاً منهم هذا الخبث الذي لاصلاح له . ثم استطرد يقول : «وأنت يابودنبروك ، هل تؤدي عملاً آخر ؟»

فأجاب كريستيان : «كلا ، فلم أعد أستطيع شيئاً» . وزحلق قبعته بغتة على جبينه منحرفة وجعل يتكلم عن مكتبه في ڤالباريزو وعن جوني ثندرستوم من دون مقدمات ، ولكن لأنه فحسب يفهم الحالة النفسية السائدة بين السادة ويريد أن يزيدها سوءاً . قال : «آه من الحر ، يا الهي!... نعمل ؟ لاياسيدي ، كما تريد ياسيدي... ونفخوا دخان السجائر في وجه الرئيس . يا الهي!...» وكانت ملامحه وحركاته تعبر تعبيراً لايبارى عن خمول يجمع بين التحدي الجريء والتسكع الرضي . وقد لبث أخوه لايحرك لذلك ساكناً .

وحاول السيد جوش أن يرفع الجروج الى فمه ، لكنه رده وهو يفح ، وهوى بقبضتيه على ذراعه الشديدة المراس ، ثم عاد يرفع الكأس من جديد الى شفتيه الضيقتين فأراق منه الكثير ، وأفرغ الباقي في جوفه دفعة واحدة وهو حانق...

فقال دولمان : «أنت ورعشتك ياجوش! ينبغي أن تدع الأمور تجري كما أفعل . هذا الهونيادي يانوس اللعين... إني ليصيبني الكساح إذا لم أحتس لتراً منه كل يوم . الى هذا الحد وصلت . فإذا احتسيته أصابني الكساح عندئذ مع ذلك . أتعرف مايكون إذا لم يتخلص المرء قط أو يوماً واحداً من طعام غدائه... أعني إذا بقي هذا الطعام في معدته ؟...» وسرد بعض التفاصيل المنفره عن صحته فاستمع كريستيان اليه في اهتمام مرعب ، وأنف أجعد ، وأجاب عنه بوصف «عذابه» وصفاً موجزاً لجوجاً .

وعاد المطر فاشتد . انهمر كثيفاً عمودياً ، وعم خريره السكون في حديقة الحمام وتيراً ، خاوياً ، عديم الرجاء .

وقال السناتور جيزيكه وقد شرب كثيراً جداً : «ألا إن الحياة وبال» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال كريستيان : «وددت لو لم أكن فوق هذه الأرض» .

فقال السيد جوش : «دع المقادير تجري» .

وقال السناتور جيزيكه : «هاهي ذي فيكن دالبك قادمة» .

وكانت صاحبة حظيرة البقر مارة تحمل إجانة لبن وتبتسم للسادة ، بدينة ، جريئة قد ناهزت الأربعين .

فنظر اليها السناتور جيزيكه بعينين متشهيتين .

وقال : «ياله من صدر!» وربط القنصل دولمان بهذه الملاحظة نكتة نابية نبواً كبيراً كان على أثرها أن عاد السادة يضحكون من أنوفهم ضحكاً مقتضباً يدل على الإزدراء .

ثم نودي على النادل الذي كان في خدمتهم فقال له دولمان : «لقد فرغت الزجاجة ونستطيع في هذه الحالة أن ندفع... فلا بد من الدفع إن عاجلاً وإن آجلاً... وأنت ياكريستيان ؟ أظن جيزيكه سيدفع عنك» .

هنا نشط السناتور بودنبروك ، وكان ملتفاً بمعطفه ذي البنيقة ، واضعاً يديه في حجره والسيجارة في زاوية فمه ، يكاد لايشترك مع رفاقه ، لكنه نهض بغتة وقال في حدة : «ألا تحمل نقوداً ياكريستيان ؟ إذن اسمح لي أن أدفع عنك هذا الشيء البسيط» .

وخرج السادة فاتحين مظلاتهم ليتنزهوا قليلاً...

وكانت مدام بيرمانيدر تزور أخاها بين الحين والحين فيذهب كلاهما الى «حجرة النورس» أو الى «هيكل البحر» متنزهاً ، وتستحوذ على توني بودنبروك في كل مرة نفسية مرحة متحمسة بصورة غامضة لايعرف لها سبب . كنت تؤكد مراراً وتكراراً حرية الناس وتساويهم وتستهجن بإيجاز كل تمييز بين الطبقات ، وتنحى باللائمة على الامتيازات والتحكم ، وتطلب صراحة أن يكون للجدارة تاجها ، وأدارت الحديث عن حياتها فأجادت وسلّت أخاها على خير وجه . فقد كانت هذه المخلوقة السعيدة لاتحتاج ، مادامت تجوب هذه الأرض ، الى كتمان شيء ، الى ابتلاع أتفه الأشياء والتغلب عليها بالصمت . فلم تسكت عن مجاملة أو إهانة صادفتها في الحياة . وكل شيء! كل هناء وكل أسى تعود فتذكره بفيض من الكلمات الرخيصة الصبيانية التي ترضي رغبتها في الحكاية كل الرضى . ولم تكن معدتها صحيحة كل الصحة ، لكن قلبها كان مرحاً ، طليقاً ، لاتعلم نفسها الى أي حد . لم تطو ضلوعها على شيء لم تصرح به ، ولم ترهقها مشاهدة صامتة . ومن ثم لم يكن عندها ماتحمله من ماضيها ، فهي تعلم أن القدر رماها بمصائر أليمة رديئة ، لكن كل هذا لم

يخلف لها عسراً ولاتعباً ، وهي لم تعتقده في أساسه ، وإذا كان أمراً واقعاً يعترف به كل الناس فقد كانت تستغله وتباهي به وتتحدث عنه في صورة جادة بالغة الجد... فهي تنحى باللائمة ، وتذكر بالسخط الحقيقي آخذاً منها كل مآخذ أسماء من أساءوا اليها ، فأساءوا بالتالي الى أسرتها ، وبات عددهم مع الأيام عظيماً . كانت تصيح : «جرينليش ، بيرمانيدر ، تيبورتيوس ، ڤاينشنك ، آل هاجنشتروم! وكيل النائب العام! سيڤيرين! يالهم من أوغاد ياتوماس! سوف يعاقبهم الله ذات يوم ، ولن أتخلى عن إيماني بذلك» .

ولما وصلا الى «هيكل البحر» كانت ساعة الأصيل قد حلت ، فقد كان الخريف يتقدم ، فوقفا في إحدى الغرف المطلة على الجون وكان يشم منها رائحة الشجر كما تشم من أكشاك الاستحمام . وكانت جدرانها المصنوعة في صورة خشنة مغطاة بالنقوش الكتابية والأحرف الأولى والقلوب والأشعار ، وجعلا ينظران جنباً الى جنب الى البحر الكدر عبر المنحدر المكسو بالخضرة البليلة وشريط الشاطىء الضيق الحجري .

وقال توماس بودنبروك : «موج عريض... يأتي ويتكسر... يأتي ويتكسر ، ثم يأتي ويتكسر ، موجة بعد موجة ، لانهاية له ولاغاية ، خال ضال . ومع ذلك فهو مهدىء معز ككل شيء بسيط ضروري . لقد تعلمت شيئاً فشيئاً أن أحب البحر... ولعلي آثرت الجبل فيما مضى لسبب واحد هو أنه مترام . لكني الآن لم أعد أحب أن أقصد اليه . وأظنني إذا قصدت اليه ستتولاني الخشية منه والخجل ، فهو مسرف في التحكم وعدم الانتظار والتعدد... حقاً إني عندئذ خليق بأن أشعر بأني مغلوب على أمري . من هم الناس الذين يؤثرون ركوب البحر ؟ يلوح لي أنهم أولئك الذين يطيلون التأمل والتعمق في مشاكلهم الباطنية حتى يقتضوا شؤونهم الظاهرة شيئاً واحداً على الأقل هو البساطة... إن أقل مايمكن هو أن يتسلق المرء الجبل مقداماً ، شجاعاً ، بينما يقر المرء على البحر في الرمل هادئاً . على أني أعرف النظرة التي يلقيها المرء على أحدهما والأخرى التي يجل بها المرء الآخر . إن الأعين المطمئنة المتحدية السعيدة ، المفعمة بالشجاعة والثبات وحب الحياة تطوف بالقمم ، قمة ، قمة . لكنه على البحر المترامي الذي تدرج أمواجه بهذه الجبرية الصوفية الشالة تحلم النظرة المقنعة اليائسة العازفة التي أطلعت ذات مرة في مكان ما في الأعماق على اضطرابات محزنة... الصحة والمرض ، هذا هو الفرق . يتسلق المرء في جرأة الى تلك الظاهرات المتعددة العجيبة الشامخة المتشققة ليجرب قوة الحياة فيها وهي لم تبدد بعد . لكن المرء يسكن الى البساطة البعيدة المدى في الأشياء الظاهرة ، تعباً كما هو من فوضى الباطن» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت مدام بيرمانيدر صامتة تنصت الى قوله تتملكها الرهبة ولايواتيها الإحساس بالراحة اليه ، كما يصمت عديمو الأذى إذا ما ارتفع في مجلس بغتة صوت يتناول الطيب والجاد . كانت ترى أن مثل هذا لايقال قطعاً ، تتطلع الى بعيد حتى لاتلتقي عيناها بعينيه . ولكي تستغفره في سكون من أنها خجلت نيابة عنه جذبت ذراعه في ذراعها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

لقد حل الشتاء ، ومرت ليلة عيد الميلاد ، وجاء يناير من عام ١٨٧٥ . ورابط الثلج الذي كسا الأرصفة كتلة مطروقة يختلط فيها الرمل والغبار على جانبي الطريق أكواماً عالية تزداد على الدوام غبرة وتشققاً ومسام ، ذلك أن الهواء كان على درجة من الحرارة . وكان البلاط مبللاً قذراً ، والقطرات تتساقط من الأسطح الهرمية . لكن السماء كانت تبسط رواقها زرقاء ، رقيقة الزرقة لاتشوبها شائبة ، وتبدو فيها مليارات من الذرات الضوئية تتلألأ كالبلورات في اللازورد وتتراقص .

وكان وسط المدينة يجيش بالحياة لأن اليوم كان يوم سبت ، ويوم سوق ، وتحت العقود المدببة في بوائك البلدية أقام القصابون حواملهم ، يزنون بضاعتهم بأيد ملطخة بالدماء . لكنه في ميدان السوق نفسه وحول النافورة كانت سوق السمك . فكانت هناك نساء بدينات يلففن أيديهن في فراء منحول نصف شعره ، ويدفئن أرجلهن على مدفئة فحم ، جالسات يخفرن أسماكهن الباردة ويرغبن فيها الطاهيات وربات البيوت بكلمات عريضة . ولم يكن ثمة خطر من الغش ، فقد كن متأكدات من شراء شيء طازج ، إذ كانت الأسماك ماتزال حية كلها تقريباً ـ تلك الأسماك السمينة العضلة... وبعض السمك كان حسن الحظ ، إذ كان يسبح ، ولو في ضيق ، في اجانات ماء ، مرحاً لايعاني ، وبعض آخر ملقى أنجل العينين بشكل مخيف تلعب خياشيمه ، ويتشبث بالحياة ، ويعاني على لوحته العذاب ، يضرب بذيله في قسوة ويأس حتى يقبض عليه ، وتقطع رقبته بسكين مدببة ملطخة بالدم ، فيسمع لهذا القطع صريف . وكانت قراميط طويلة سمينة تتلوى وتتحوى على صور عجيبة ، وتزخر دنان بسرطانات من بحر البلطيق تسود الدنان منها ، وأحياناً تنكمش سمكة قوية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في حركة تشنجية وتنطلق من فرط الخوف بعيداً عن خوانها الى بلاط الأرض الزلق الملوث بالنفايات ، فتضطر صاحبتها الى الجري وراءها وردها الى مكانها ، وهي تكيل لها كلاماً مقذعاً تعبر به عن استيائها...

وكان المرور حوالي الظهر نشطاً في شارع منج . فأطفال المدارس وعلى ظهورهم الحقائب كانوا قادمين يملأون الجو بالضحك ويضجون ويتقاذفون الثلج نصف المذاب ، والفتيان من تلاميذ المتاجر من أبناء الأسر الكريمة كانوا يمرون وعلى رؤوسهم كسكت البحارة الدانماركيين أو مرتدين الملابس الأنيقة على الطراز الانجليزي وفي أيديهم الحوافظ ، وعلى وجوههم سيماء الوقار ، فخورين بإفلاتهم من المدارس الثانوية ، وبعض المواطنين الرزناء الشيب الأكابر يدفعون بعصيهم الى الأمام وعليهم إمارات العقيدة الراسخة التي يدين بها الأحرار ، يتطلعون الى واجهة البلدية المغشاة بالقرميد المزجج يقف ببابها حارسان . ذلك أن مجلس الشيوخ كان منعقداً ، وكان جنديا المشاة الحارسان يقطعان الشقة المحدودة بينهما ويرتديان معطفيهما ويسندان البندقية الى الكتف ، يطئان الأرض في رباطة جأش فوق كتلة الثلج المائعة الموحلة . وقد كانا يلتقيان في وسط المسافة قبالة المدخل فينظر كلاهما الى الآخر ويتبادل معه في نفس الوقت الإعجاب ببعض السيدات الشابات في بيت كبير –حينذاك يقف كل من الحارسين أمام كشكه ، ويتأمل نفسه من فوق الى تحت ، ويؤدي التحية... وكان مايزال لديهما برهة طويلة قبل أن يخرج الشيوخ من المجلس ويؤديا لهم التحية . وقد استغرقت الجلسة الى ذلك الحين ثلاثة أرباع الساعة وستنتهي نوبتهما في تلك الأثناء...

لكنه على حين بغتة سمع أحد الجنديين صوتاً مقتضباً من داخل الدار ، ولمعت في الوقت نفسه بباب المجلس سترة الحاجب أوليشيلد الحمراء ، ظاهراً بقبعته المثلثة الأركان حاملاً سيفه ، مشغولاً الى أقصى حد ، قائلاً بصوت خافت : «انتباه!» ثم انسحب ثانية في عجلة ، بينما كان يسمع صوت خطوات تقترب وأقدام تقع في الداخل على البلاط الرنان...

واتخذ جنديا المشاة هيئة العرض ، وضربا الكعبين ، ونصبا رقبتيهما ، ودفعا صدريهما إلى الأمام ، ووضعا البندقية على الأقدام وأديا التحية بقبضتين سريعتين مصطفقتين . وخطا بينهما مسرعاً تقريباً سيد يكاد يكون متوسط القامة يهوى قبعته العالية ، ويرفع أحد حاجبيه الرائقتين قليلاً ، ويصل طرفا شاربه المفتولان المشدودان الى خديه الشاحبين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك هو السناتور بودنبروك الذي كان يبارح اليوم قاعة المجلس قبل انفضاضه بوقت طويل .

وقد عرج الى اليمين ، ولم يسلك الطريق المؤدية الى بيته وكان يسير مستقيماً ، نظيفاً ، أنيقاً ، لاغبار عليه ، ويخطو خطوته الخاصة التي يحجل فيها قليلاً ، على امتداد شارع منج يحيي دائماً على كل جانب . وكان يحمل قفازين أبيضين من الجلد اللامع ويضع عصاه ذات القبضة تحت ذراعه اليسرى ، ترى من تحت قلابه فروة ربطة فراكه البيضاء . بيد أن رأسه المنظم كان يدل على أنه سهر الليل . وقد لاحظ مختلف الناس وهو يمر بهم أن الدموع تفجرت بغتة من عينيه المحمرتين ، وإنه يطبق شفتيه بصورة غريبة كل الغرابة ، مقتضبة كل التقبض ، تنطوي على التنبه الشديد ، وكثيراً ماكان يبتلع ريقه كما لو كان فمه غاصاً بسائل ، وعندئذ كان يمكن أن يلاحظ من حركات العضلات في الخدين والسالفين أنه كان يحرق الأرم .

وقال له أحدهم عند مدخل شارع الطواحين ولم يكن رآه قادماً : «ماخطبك يابودنبروك ، أهارب أنت من الجلسة ؟ إن هذا منك لشيء جديد!» وكان الذي واجهه بغتة هو ستيفان كستنماكر صديقه المعجب به الذي يعتنق في المسائل العامة كل رأي من آرائه . كانت له لحية يحلقها مستديرة ويخطها الشيب ، وكان له حاجبان كثان وأنف طويل بادي المسام . وكان قد انسحب من متجر الخمور من بضع سنوات مضت بعد أن جنى مبلغاً كبيراً من المال ، فمضى أخوه ادوارد في إدارته مستقبلاً . ومن ذلك الحين يعيش على ايراده . لكنه إذا كان في الواقع يخجل من أن يكون من طبقة ذوي الايراد كان يتظاهر على الدوام بأنه مرهق من أعماله . قال وهو يمسح بيده على رأسه الأشيب الذي موجّه مقص الكي : «إني آخذ بأسباب النشاط وإلا فهل المرء في الدنيا إلا لينشط في كل مكان ؟» . كان يقف الساعات في البورصة وهو يصطنع الاهتمام من دون أن يكون له فيها مايبغيه ، وكان يشغل قدراً كبيراً من الوظائف عديمة الأهمية . وأخيراً تولى وظيفة مدير حمام من حمامات المدينة . وأبدى نشاطاً كمحلف وسمسار ومنفذ وصايا . ومسح العرق عن جبينه...

وأعاد : «إن الجلسة منعقدة بلا ريب وأنت تتنزه ؟»

فقال السناتور بصوت خافت صادر عن شفتين تكرهان أن تتحركا : «آه ، أهذا أنت ؟ إني لاأستطيع أن أرى . ولي على هذه الحال بضع دقائق . إني أكابد ألماً شنيعاً» .

«ألماً ؟ أين ؟»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وجعاً في الأسنان شعرت به منذ أمس . لم أغمض عيناً بالليل... ولم أذهب الى الطبيب بعد ، لأنه كان لدي في المتجر في الصباح مايشغلني ، ثم لم أرد بعد ذلك أن تفوتني الجلسة ، وهاأنذا لاأستطيع أن احتمل الطريق الى برشت... »

« وأين موضع الألم ؟ » .

« هنا تحت الى اليسار... إنه ضرس... وهو نخر بطبيعة الحال... لايطاق... الى اللقاء ياكستنماكر! أنت مدرك عجلتي... »

« أجل ، لكن هل تظن أني لست متعجلاً ؟... إن أعمالي كثيرة جداً... الى اللقاء! ولابأس عليك! اخلعه! اخلعه في الحال... فهذا خير... »

وتابع توماس بودنبروك سيره ، وهو يضغط على أسنانه وإن كان هذا مما زاد الحالة سوءاً ، إذ كان الألم الذي يحسه طاغياً ، ملهباً ، ناخراً ، ألماً شديداً استولى على كل الجانب الأيسر من الفك الأسفل ، ناجماً عن ضرس مريض . وكان الالتهاب يدق فيه بمطرقة مضطربة حتى انتشرت حرارة الحمى في وجهه وتفجر الدمع من عينيه . وقد أجهدت أعصابه ليلته المؤرقة اجهاداً شنيعاً ، وكان من هنيهة يتمالك نفسه وهو يتكلم حتى لاينقطع صوته .

ودخل الى شارع الطاحونة بيتاً مدهوناً بزيت بُني ضارب الى الصفرة ، وصعد الى الطابق الأول حيث يقرأ على لوحة نحاسية فوق الباب « طبيب الأسنان » . ولم يرَ الخادم التي فتحت له . وكانت رائحة البفتيك والقنبيط منتشرة دافئة في الطريق فتنفس بغتة هواء حجرة الانتظار الحاد حيث دعي الى الدخول .

وسمع صوت امرأة عجوز تصيح : « تفضل اجلس... لحظة! » وكان صاحب الصوت چوزيفوس ، وكان جاثماً في قفصه الأبيض في مؤخرة المكان يحملق فيه بعينيه الصغيرتين السامتين حملقة بادية الانحراف والمكر .

واتخذ السناتور مكانه الى المائدة المستديرة وحاول أن يتأثر بنكات يحتويها مجلد « للصحف الطائرة » لكنه لم يلبث أن أقفل الكتاب مشمئزاً ، وضغط على خده بالفضة التي يزدان بها مقبض العصا ، وأغمض عينيه الملتهبتين وجعل يتأوه . وكان السكون يحيط به ، وليس سوى چوسيفوس من يسمع وهو يقرص السياج المحيط به فيسمع من هذا القرص صريف أسنانه... وكان من عادة السيد برشت أن يدع الغير ينتظر برهة حتى ولو لم يكن مشغولاً .

ونهض توماس بودنبروك متعجلاً ، وتناول من ابريق قائم على مائدة صغيرة قدحاً من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الماء تفوح منه رائحة الكلوروفورم وله طعمه . ثم فتح الباب المؤدي الى الطرقة ونادى في نبرة يبدو فيها الانفعال أن يتفضل السيد برشت ـ لم يمنعه شيء عاجل ـ بالاسراع قليلاً لأنه يتألم .

وظهر على الأثر بالباب المؤدي الى حجرة العمليات طبيب الأسنان بشاربه الذي وخطه الشيب ، وأنفه الأقنى ، وجبهته الصلعاء يقول : «تفضل!» ، فصاح چوسيفوس كذلك : تفضل! وقد لبى السناتور الدعوة من دون أن يضحك . وقال السيد برشت لنفسه : هذه حالة شديدة . وامتقع لونه .

وهرول كلاهما في الحجرة النيرة الى الكرسي الكبير المتحرك المنجد عند موضع الرأس والمكسو بالمخمل الأخضر فوق سنادتي الذراعين ، وكان قائماً أمام إحدى نافذتين . وبينما كان توماس بودنبروك يتّخذ مجلسه عليه أوضح ماهنالك بإيجاز وطرح رأسه الى الوراء وأغمض عينيه .

وعدّل السيد برشت في وضع الكرسي قليلاً وجعل يفحص الضرس بمرآة صغيرة وقضيب صغير من الفولاذ . وكانت تفوح من يده رائحة صابون اللوز ومن نفسه رائحة البفتيك والقنبيط .

وقال بعد برهة ووجهه يزداد امتقاعاً : «يجب أن نشرع في الخلع» .

فقال السناتور : «اشرع ولاتبطىء» وأحكم إطباق جفونه .

وكان لابد عندئذ من فترة انتظار ، إذ كان السيد برشت يعد شيئاً من خزانة ويخرج بعض الأدوات . ثم اقترب من المريض من جديد .

وقال : «سأفرش قليلاً» وأخذ في الحال ينفذ هذا القرار ويمس اللثة بالكثير من سائل حاد الرائحة . ورجا السناتور على الأثر بصوت خافت عطوف أن يلازم الهدوء ، ويفتح الفم أوسع مايكون ، وبدأ عمليته .

وأحكم توماس بودنبروك على سنادتي الذراعين كلتا قبضتيه وهو لايكاد يحس وضع الكماشة وقبضها . لكنه لاحظ بعد ذلك من الخشخشة في فمه ومن الضغط المتزايد الذي جعل يشتد ألمه وحنقه ويتعرض له رأسه بأكمله ، لاحظ أن كل شيء يجري على مايرام ، فقال في نفسه : على بركة الله! والآن لابدّ أن تجري العملية مجراها . فجعل هذا المجرى يشتد ويشتد حتى تجاوز كل حد وكل احتمال ، ووصل الى الكارثة بعينها ، والألم البالغ الصارخ القاسي الذي يمزق المخ بأكمله . فقال في نفسه : سيجتاز هذا . ولابد لي من انتظاره .

واستغرق هذا المرة ثلاث أو أربع ثوان خبر فيها جسم توماس بودنبروك بأجمعه كل ما ندّ عن السيد برشت من قوة وبذل من جهد مهتز . وقد رفع طبيب الأسنان السناتور عن مقعده قليلاً ، وأسمعه صوتاً خافتاً صادراً عن الحلق... وبغتة حدثت صدمة مخيفة ، رجة أحس السناتور أنها تدق عنقه ، صحبتها طقة وصوت تكسر ، ففتح عينيه على عجل... لقد ارتفع الضغط ، لكن رأسه لم يصخب والألم يعج حاراً في الفك الملتهب المُساء معالجته ، وشعر بجلاء بأن هذا لم يكن ماأراد ، لم يكن الحل الحقيقي للمسألة ، بل كان كارثة وقعت قبل الأوان ، وزادت الموقف حرجاً... وقد تراجع السيد برشت ، واستند الى خزانة الأدوات ، وكانت تبدو عليه سيماء الأموات وقال : «التاج ... وقد توقعت ذلك» .

وبصق توماس بودنبروك قليلاً من الدم في الصفحة الزرقاء التي الى جانبه ، ذلك أن اللثة كانت مجروحة . وسأل وهو نصف واعٍ : «ماذا توقعت ؟ ماذا جرى للتاج ؟»

«لقد قضم التاج ياحضرة السناتور . وكنت أخشى ذلك... فالضرس معيب بصورة غير عادية... لكنه كان من واجبي أن أقدم على هذه التجربة» .

«وماذا والحالة هذه ؟»

«اعتمد عليّ في كل شيء ياحضرة السناتور»...

«ما الذي لابد من حدوثه ؟»

«يجب استئصال الجذور بالعتله... وهي أربعة بالعدد...»

«أربعة ؟ إذن لابد من المحاولة والجذب أربع مرات ؟» .

«للأسف» .

قال السناتور وهو يهم بالنهوض على عجل : «في هذه الحالة حسبنا اليوم ماتم!» لكنه بقي على الرغم من ذلك واقفاً والقى رأسه الى الوراء .

وقال : «ياسيدي العزيز ، ينبغي أن تطلب مايحتمل فحسب . فإني لاأستطيع الوقوف على قدمي... وقد خارت قواي في هذه المرة على كل حال... فهل تتفضل بفتح النافذة لحظة» .

وقد فعل السيد برشت هذا ثم رد قائلاً : «إنه لأحب الي ياحضرة السناتور لو تكرمت بالمرور غداً أو بعد غد في أي وقت تشاء ، وأرجأنا العملية الى ذلك الحين . وإني لأعترف بأني نفسي... اسمح لي بإجراء غسيل ومس لتخفيف الألم مؤقتاً...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأجرى الغسيل والمس ، وانصرف السناتور بعدئذ يصحبه هز الكتف المعبر عن الأسف والذي بذل فيه السيد برشت الشاحب اللون في بياض الثلج آخر قواه .

وصاح چوسيفوس : «لحظة...من فضلك» وهما ماران بحجرة الانتظار . وصاح به ثانية وتوماس بودنبروك يهبط الدرج .

بالعتلة!... أجل ، أجل . فهذا يجري غداً . فماذا الآن ؟ الغدو الى البيت والراحة ومحاولة النوم . ويظهر أن ألم الأعصاب قد خدر ، فليس في فمه سوى التهاب غامض ثقيل . فإلى البيت إذن... وسار في الطريق بخطى بطيئة يرد التحيات التي تقدم اليه بصورة آلية وبعينين مفكرتين شاردتين ، كأنما يفكر فيما يجول بخاطره حقاً .

وبلغ حفرة السماكين ، وأخذ يهبط الى الافريز الأيسر وبعد عشرين خطوة غثت نفسه ففكر : لن يكون مفر من دخولي في الحانة هناك وطلب كأس من الكونياك ، وجعل يجتاز طريق المرور ، فلما توسطه حدث له مايلي : كان بالضبط كمن يتوقع أن تنتهب مخه وتطوح به قوة لاتقاوم بسرعة متزايدة مخيفة ، وترسم به دوائر مركزة واسعة تضيق على الدوام ، ثم ترطمه أخيراً بمركز هذه الدوائر الصلد كالحجر في شدة ووحشية لاتعرف اعتدالاً ولا رأفة . فإذا به قد تطوح نصف تطويحة وارتمى فوق بلاط الشارع البليل على وجهه باسطاً ذراعيه .

ولما كان الشارع شديد الانحدار فقد كان الجزء الأعلى من جسمه أعمق فيه مستوى من قدميه . وقد ارتمى على وجهه ، وتكونت بركة من الدماء جعلت تتسع ، وتدحرجت قبعته مسافة فوق طريق المرور ، وتطاير الوحل وماء الثلج على فرائه . واستقر قفازاه الأبيضان اللامعان ممددين في نقرة .

هكذا كان يرقد ، وهكذا ظل راقداً حتى أقبل بعض الناس فأداروه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

وصعدت مدام بيرمانيدر الدرج وهي تجمع ثوبها بيد وتضغط بالأخرى فروة اليدين على خدها . وقد كانت تقع وتتعثر أكثر مما كانت تتمشى ، وكانت قبعتها التي تشبه قلنسوة القباء موضوعة على رأسها في غير الوضع السليم ، وكانت وجنتاها ملتهبتين وعلى شفتها العليا المدفوعة قليلاً قطرات صغيرة من العرق . ومع أن أحداً لم يقابلها فإنها كانت تخاطب نفسها بلا انقطاع في هرولتها ، وتخرج من همسها بين الحين والحين كلمة تلفظها بغتة ويكسبها الخوف وقعاً عالياً . كانت تقول : «لاشيء ... ليس في هذا مايقلق . إن الله الرحيم لن يريد هذا... فهو العليم بما يفعل... سأحافظ على يقيني... فليس في الأمر شيء على التحقيق... آه ياربي ، لن أكف يوماً عن الصلاة...» كانت تهرف ببساطة من الخوف ، وتنهب الدرج الى الطابق الثاني وإلى الطرقة نهباً...

وكان الباب المؤدى إلى الردهة مفتوحاً ، وهناك لاقتها زوجة أخيها...

وكان وجه جيردا بودنبروك الصبوح الأبيض قد علته قترة ، وشاع فيه النفور وعيناها المتقاربتان العسليتان المزرق ماحولهما من ظلال تطرفان في نظرتهما ، غاضبتين ، مضطربتين تنمان عن الضيق . فلما تبينت مدام بيرمانيدر أومأت اليها سريعاً باسطة ذراعيها وعانقتها بأن وارت رأسها فوق كتفها .

وصاحت مدام بيرمانيدر :«جيردا ، جيردا . ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟... مامعنى هذا ؟ تقولين وقع ؟ مغشياً عليه ؟ كيف هو ؟ إن الله لن يريد به سوءاً... خبريني بالله رحمة بي!»

لكنها لم تتلق جواباً في الحال ، بل أحست فحسب كيف كانت قامة جيردا ترتجف من الفرع الى القدم ، ثم ألمت فوق كتفها بهمس فهمت منه« كيف كان منظره حين جاءوا به!

وهو الذي لم تلم به في حياته ذرة من غبار... إنه لمن السخرية والمهانة أي تأتى الخاتمة على هذه الصورة...! »

وانتهت الى سمعها حركة مكبوتة ، إذ فتح باب غرفة اللبس ووقفت على عتبته ايدا يونجمان مقرحة العينين في ميدعة بيضاء ، تمسك في يديها بصحفة ، فنظرت الى مدام بيرمانيدر وتراجعت مطرقة لتفسح الطريق . وكانت ذقنها مثنية ترتعش .

وحرك تيار الهواء ستائر النوافذ العالية المزهرة لما دخلت توني تتبعها زوج أخيها الى مخدة النوم ، فهبت عليها رائحة الكاربول والأثير وغير ذلك من العقاقير ، وكان توماس راقداً على ظهره في سريره العريض المصنوع من خشب الموغنا تحت لحاف أحمر يرتدي قميص نوم مطرزاً ، متجرداً من ملابسه وعيناه نصف مفتوحتين ، كسيرتين مقلوبتين ، وتحت شاربه المنتفش شفتاه تتحركان بتمتمة وتند عن حلقه بين الحين والحين أصوات كالغرغرة... وكان الطبيب الشاب لانجهالز منحنياً فوقه يرفع رباطاً ملوثاً بالدم عن وجهه ويغمس آخراً جديداً في صحفة موضوعة على منضدة الليل . ثم أصغى الى صدر المريض وجس النبض... وكان يوهان الصغير جالساً فوق منضدة البياضات عند قدم السرير يفتل أنشوطة البحار على صدره ، وينصت خلفه الى الأصوات التي كانت تند عن أبيه وعلى وجهه تعبير المدقق المنتبه .. وكانت قطع الملابس الملطخة معلقة في مكان ما فوق أحد الكراسي .

وقبعت مدام بيرمانيدر الى جانب السرير ، وتناولت يد أخيها وكانت باردة ثقيلة ، وحملقت في وجهه... وبدأت تدرك أنْ الله أراد به سوءاً على كل حال...

وجعلت تندب : «توم ، لاتتبينني ؟ كيف حالك ؟ أتريد الرحيل عنا ؟أنك لاتريد بالتأكيد أن ترحل عنا ؟آه ، أنه لايجوز...! »

ولم يقع ماكان يمكن أن يكون جواباً . فتطلعت الى الدكتور لانجهالز تناشده العون . وكان واقفاً يخفض عينيه الجميلتين ، ويعبر ، وهو راض عن نفسه ، عن ارداة الله...

ودخلت ايدا يونجمان ثانية لتؤدى مايطلب من مساعدة ، وحضر الدكتور الشيخ جرابو بشخصه ، وصافح الكل بوجه ممدود وادع ، ورعى المريض وهو يهز رأسه ، وفعل بالضبط مافعله الدكتور لانجهالز من قبل... وقد سرى الخبر في المدينة بأسرها بسرعة الريح ، فكان الجرس يدق عى الدوام عند الصفة وأصوات الاستفسار عن صحة السناتور تنفذ الى مخدع النوم ، وكانت حالته على ماهي عليه ، لم تتغير... فكان الكل يتلقون نفس الجواب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورأى كلا الطبيبين أن تستقدم لليل على كل حال أخت من أخوات الرحمة ، فبعث في طلب الأخت لياندرا ، فأتت . ولم يبد على وجهها أي أثر للدهشة والذعر حين دخلت . وقد وضعت هذه المرة أيضاً حافظتها الجلدية وقلنسوتها وعباءتها في هدوء جانباً ، وأخذت في عملها وتحركاتها الرقيقة الودود .

وظل يوهان الصغير جالساً على منضدته ساعة بعد ساعة ، ينظر الى كل شيء ويصغى الى الأصوات المتصاعدة كالغرغرة . وكان حرياً في الحقيقة أن يتوجه الى درس الحساب الخاص . لكنه أدرك أن هذه حوادث يجب أن يخرس أمامها أصحاب الأردية ذات الفتلة المبرومة . كذلك كان يفكر في واجباته المدرسية قليلاً في شيء من السخرية... وأحياناً حين تخطو مدام بيرمانيدر إليه وتحتضنته يذرف الدمع . لكنه في الغالب كان يطرف بعينين جافتين وعلى وجهه امارات النفور والتفكير ، يتنفس حذراً تنفساً عميقاً غير منتظم ، كأنما يترقب ذلك التعبير الغريب الذي يعرفه مع ذلك بصورة عجيبة...

وحوالي الساعة الرابعة عقدت مدام بيرمانيدر النية على أمر ، فدعت الدكتور لانجهالز أن يوافيها الى الغرفة المجاورة ، وشبكت ذراعيها وطرحت رأسها الى الوراء ، محاولة على الرغم من ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها...

قالت : «ياحضرة الدكتور ، إنك تملك شيئاً بعينه وإياه أرجوك!صارحني بالحقيقة ، افعل هذا! اني امرأة عركتها الحياة... تعلمت أن أحتمل الحقيقة ، صدقني!... هل يكون شقيقي غداً في قيد الحياة! تكلم بصراحة!»

وحول الدكتور لانجهالز عينيه الجميلتين ، وتأمل أظافره ، وتكلم عن الاغماء البشري ، وعن استحالة الاجابة عن السؤال : هل يعيش شقيق مدام بيرمانيدر الى غد أو يتوفاه الله في اللحظة التالية...

فقالت : «اذن أنا أعرف مايجب علي فعله» . وخرجت من الغرفة ، وبعثت في طلب القسيس برنجزهايم .

وظهر القس في نصف حلته الكهنوتية لايحمل تخريمة الرقبة ، لكنه يرتدي ثوبه الطويل . وقد رمق الأخت لياندرا بنظرة باردة ، وجلس بجانب السرير على الكرسي الذي قام اليه . ورجا المريض أن يتبينه ويعيره بعض سمعه . لكنه لما لم تثمر هذه المحاولة اتجه رأساً الى ربه وخاطبه بلهجة أهل فرانكوينا وتحدث اليه بصوت ملحن في ألفاظ مبتورة تارة غامضة وتارة مباغتة يتناوب فيها التعصب الجهم والتجلي الرحيم على وجهه . وبينا كانت

الراء تدرج في سقف حلقه في صورة حاذقة فريدة كان يوهان الصغير يتصوره في وضوح وقد تناول من هنيهة قهوة وخبزا بالزبد .

قال القس إنه والحاضرين هنا لم يعودوا يطمعون في حياة هذا العزيز الغالي لأنهم تبينوا ارادة الله المقدسة في أن يتوفاه . لكنهم مازالوا يتوسلون الى الله أن يرحمه بالتهوين عليه... ثم تلا بأحكام فعال صلاتين أخريين مألوفتين في مثل هذه الحال ونهض . وقد ضغط على يد جيردا بودنبروك ومدام بيرمانيدر ، وتناول رأس الصغير يوهان بين يديه ونظر دقيقة الى أهدابه المرخاة وهو يرتعش من الأسى والتأثر ، وحيا الآنسة يونجَمان ، وحدج الأخت لياندرا مرة أخرى بنظرة باردة ، وتحول للانصراف .

ولما عاد الدكتور لانجهالز الذي كان توجه الى بيته لحظة ، ألقى كل شيء على حاله ، فتبادل مع الممرضة كلمات وجيزة ، واستأذن في الانصراف . كذلك مرّ الدكتور جرابو مرة أخرى واهتم بوجه رحيم بما يصلح أن يتخذ وانصرف .

ومضى توماس بودنبروك يحرك شفتيه كسير العين ، ويخرج أصواتاً كالغرغرة . وحلت ساعة الأصيل . وكان في الخارج شيء من شفق الغروب الشتوي ألقى من النافذة ضوءاً خفيفاً على الملابس الملطخة المعلقة في مكان ما على المقعد .

وفي الساعة الخامسة ارتكبت مدام بيرمانيدر حماقة إذ شرعت بغتة وهي جالسة بجانب السرير تجاه زوجة أخيها في ترتيلة بصوت مرتفع خارج من جوزة العنق ، مطبقة اليدين . قالت : « أنهِ أيها الرب . . . » فأصغى الجميع إليها دون حراك : « أنهِ شدته ، ثبت قدميه ويديه وهون عليه إلى أن يحين الأجل... » . لكنها كانت تصلي من صميم قلبها الى حد أنها لم تكن تنشغل إلا بالكلمة التي تلفظها ، ولم تكن تفكر في أنها لاتعرف كيف تنهي المقطع فتحصر بعد ثالث شطرة بشكل يرثى له . وقد فعلت هذا وارتج عليها وهي ترفع صوتها ، وعوضت الختام بما عززت من وقارها . وانتظر كل من في المخدع ، وانكمش من الخجل ، وتنحنح الصغير يوهان في عسر بلغ منه أن كان لنحنحته وقع الأنين . ثم لم يكن في السكون السائد في المخدع مايسمع سوى مايشبه الغرغرة في صوت توماس بودنبروك العذب .

وكان من قبيل التسرية أن أعلنت الخادم أن في الغرفة المجاورة مايؤكل . لكنه لما أن أخذوا في تناول شيء من الحساء في مخدع النوم الذي تستعمله جيردا ظهرت الأخت لياندرا بالباب وأومأت في لطف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد قضى السناتور ، شهق مرتين أو ثلاثاً في خفوت ثم صمت وكف عن تحريك شفتيه . وكان هذا هو كل ما ألم به من تغيير ، إذ كانت عيناه من قبل قد فارقتهما الحياة .

وجاء الدكتور لانجهالز بعد ذلك ببضع دقائق ، ووضع سماعته السوداء على صدر الميت وأصغى بعض الوقت وقال بعد فحص أرضى فيه ضميره :

«أجل ، إنها النهاية!»

وأغمضت الأخت لياندرا جفون الراحل ببنصر يدها الشاحبة الرقيقة .

وهنا ارتمت مدام بيرمانيدر الى جانب السرير على ركبتيها ودست وجهها في اللحاف ، وبكت بكاءً عالياً ، وأسلمت نفسها بلا ضابط الى ثورة من تلك الثورات العاطفية المنعشة التي تستجيب اليها طبيعتها السعيدة... ونهضت بوجه غمره الدمع ، قوية مرتاحة مع ذلك ، متوازنة النفس تماماً ، قادرة في الحال على التفكير في اعلان النعي الذي كان يجب أن يتم بلا ابطاء وبأسرع مايمكن ـ حزمة هائلة من اعلانات مطبوعة طبعاً أنيقاً...

وحضر كريستيان المشهد . وكان من مسلكه أنه تلقى نبأ سقوط السناتور في الشارع وهو في المنتدى ، فخرج أيضاً في الحال . لكنه قام بنزهة طويلة على الأقدام الى «البوابة» خوفاً من أي منظر منفر ، فكان أن لم يعثر عليه أحد .

ومهما يكن من أمر فقد حضر الى البيت وعلم وهو في الردهة أن أخاه فارق الحياة .

فقال : «هذا محال بالتأكيد» ومضى يصعد الدرج وهو يعرج زائغ البصر .

ثم وقف بين أخته وزوج أخيه أمام سرير الميت . وقف هناك برأسه الأصلع وخديه الغائرين وشاربه المرتخي وأنفه الأحدب الهائل ، على ساقين مقوستين ، هزيلتين ، منحرفاً قليلاً ، يرسم بعض الشيء علامة الاستفهام تحدق عيناه الصغيرتان الغائرتان في وجه أخيه ، الذي بدا صامتاً ، بارداً نافراً ، بريئاً ، مستعصياً على كل حكم بشري ... وكانت زاويتا فم توماس منسحبتين الى أسفل تعبران تقريباً عن الاحتقار ، ومن أخذ عليه كريستيان قوله عنه ، أنه لن يبكيه بعد موته ، ميت الآن . مات من دون أية كلمة تقال وبكل بساطة ، وانسحب وجيهاً سليماً الى وادي الصمت ، تاركاً لغيره بلا رأفة أن يعروه الخجل كما كان يعروه غالباً في الحياة ، فهل أحسن أو أساء حين كان يقابل على الدوام بالاحتقار الجاف آلام كريستيان «وعذابه» والرجل الذي يومئ اليه ، وزجاجة الكحول ، والنافذة المفتوحة ؟ لم يعد محل لهذا السؤال فقد بات عديم المعنى ، اذ ميزه الموت في تحيز عنيد لايدرك كنهه، وبرر عمله ، وقبله واستقبله ، وأناله بالأمر الاهتمام المستحيي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العام . بينما استخف بكريستيان ، وبينما هو قد يمضي في الاستهزاء به فيضايقه ويعانده عشرات المرات ، لايأبه له فيها أحد . أن توماس بودنبروك لم يؤثر في أخيه قط كما أثر فيه في هذه الساعة . فتوفيقه حاسم . والموت وحده هو الذي يكسبنا احترام الغير لآلامنا . كذلك أسخف الآلام تستحق عنده الاحترام . وقال كريسيتان في نفسه : لقد كنت على حق ، فأنا أخضع ، وخر جاثياً على ركبتيه بحركة سريعة خرقاء ، وقبل اليد الباردة الملقاة على اللحاف . ثم ارتد الى الوراء . وجعل يجيل نظره في المخدع بعينين طائفتين .

وحضر زوار آخرون ، حضر العجوزان كروجر ، الزوج والزوجة وسيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض والسيد المسن ماركوس ، كذلك جاءت كلوتيلدة المسكينة ووقفت بادية الهزال مغبرة اللون الى جانب السرير ، وأطبقت يديها المستورتين بقفاز من الخيط ، جامدة المنظر وقالت وهي تتمطى وتشكو : «يجب ألا تعتقدا ، توني وجيردا ، أني قاسية القلب ، لأني لاأبكي ، فقد جف دمعي...» فصدق الجميع كلامها بالحرف الواحد . وكانت تعلوها فترة محرومة من الأمل ، قد جف عودها كما هو شأنه...

وأخيراً أخلى الجميع الميدان لشخص امرأة ، مخلوقة عجوز ، ثقيلة الدم ، ذات فم مَضّاغ أدرد ، جاءت لتغسل الجثة مع الأخت لياندرا وتلبسها .

●

كانت جيردا بودنبروك ومدام بيرمانيدر وكريستيان ويوهان الصغير مايزالون جالسين في حجرة الاستقبال يعملون بهمة الى ساعة متقدمة من المساء تحت مصباح الغاز الكبير ، من حول المائدة الوسطى المستديرة ، وكان الأمر يتعلق بقائمة بأسماء أولئك الذين يجب أن يتلقوا رقاع النعي ، وبكتابة العناوين على الغلاف ، وكانت كل الأقلام تصر ، وبين الحين والحين يخطر ببال أحدهم خاطر ، ويضاف الى القائمة اسم جديد... حتى هانو كان عليه أن يساعد لأنه كان حسن الخط وكان الوقت يأزف .

وكان الهدوء يشمل البيت والشارع ، ونادراً مايعلو وقع خطوات ثم يتلاشى . وكان مصباح الغاز ينفخ نفخاً خافتاً ، وكان يتمتم باسم أو تحف ورقة ، وأحياناً كان الجميع ينظر بعضهم الى بعض أو يذكر بعضهم بعضاً بما وقع .

وكانت مدام بيرمانيدر تنبث بالقلم في همة فائقة لكنها كانت تكف عن الكتابة كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خمس دقائق ، وترفع يديها مطبقتين الى ارتفاع فمها ، وتصيح نادبة ، صارخة :«لست أعي ماوقع» تريد أنها أخذت تعي تدريجاً ماحدث في الواقع . وصاحت على غير انتظار بتاتاً وفي يأس بين :«لكنه قد انتهى كل شيء!» ولفت ذراعيها باكية بكاءاً عالياً حول جيد زوجة أخيها ، وكأنها استشعرت القوة من هذا فعادت ثانية الى مافعلته .

أما كريستيان فكان من شأنه شأن المسكينة كلوتيلدة . فلم يذرف بعد دمعة واحدة ، ولم يخجل من ذلك كثيراً ، والشعور بالخجل يغلب فيه أي شعور آخر . كذلك كان اشتغاله الدائم بحالاته وغرائبه الخاصة قد استغرقه وبلد ذهنه ، فكان ينهض هنا وهنا ويمسح بيده جبينه الأصلع ،ويقول بصوت مكبوت :«حقاً أن هذا لمحزن أشد الحزن!» . كان يقول هذا لنفسه ، ويتعسف مع نفسه ، ويحمل عينيه على أن ترطبا قليلا...

وبغتة حدث شيء أزعج الجميع . فقد ضحك يوهان الصغير ، إذ وقع أثناء الكتابة على اسم ، على رنين ما غريب لم يستطع مقاومته ، فكرره ، وانبهر نفسه ، وانحنى الى الأمام وارتعش وشهق ولم يسعه التماسك . فظنوا أول الأمر أنه يبكي . لكنه لم يكن بكاءً . فنظر اليه الكبار مندهشين ، غير مصدقين ثم صرفته أمه لينام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع

بضرس... لقد مات السناتور بودنبروك بضرس... هذا ماكان يقال في المدينة . لكن بحق الشيطان! فالمرء لايموت بهذا! لقد كان يتألم فقصف السيد برشت تاج الضرس ثم وقع على الأرض في الشارع ببساطة !فهل سُمع بمثل هذا ؟...

بيد أن هذا سيان ، فهذه مسألة تخصه . أما ماعنى الناس بعد ذلك ، فأنهم بعثوا بالاكاليل ، الأكاليل الكبيرة الغالية ، أكاليل أمكن أن تقدم تكريماً ، وستذكرها الصحف : وقد رأى الناس فيها أنها من أناس مخلصين ، قادرين على الدفع . وقد أرسلت وتدفقت من كل مكان ، من الهيئات والأسر والأفراد على السواء أكاليل من الغار ومن أزهار عبقة ، ومن الفضة ، بأشرطة سوداء وأخرى تحمل ألوان علم المدينة ، عليها اهداء مكتوب بأحرف سوداء ، وأخرى بأحرف ذهبية ، وسعف نخل هائل...

وجنت محلات الأزهار من وراء ذلك ربحاً وفيراً . وليس أقلها محل ايفرس الكائن تبالة بيت بودنبروك . وقد كانت مدام ايفرسن تدق باب الصفة عدة مرات في اليوم تحمل باقات وأكاليل مختلفة الأشكال من السناتور فلان والقنصل فلان ، ومن هذا القسم وذاك من أقسام الموظفين... وذات مرة سألت لعله يسمح لها بالصعود برهة لرؤية جثمان السناتور . فسمح لها ، وتبعت الآنسة يونجمان فوق الدرج الأكبر ، وألقت وهي تصعد نظرات صامتة على بئر السلم الفخم .

كانت تسير متثاقلة لأنها كانت حاملاً كالمعتاد ، وقد انحط مظهرها في العموم مع الأيام والسنين ، لكن عينيها السوداوين المستطيلتين وعظمتي الوجنتين المشبهتين أمثالهما

في الملايو كانت فاتنة . وقد كان الناس يرون أنها لابد قد كانت ذات يوم فاتنة الجمال... قد أدخلت الصالون حيث كان السناتور بودونبروك مسجى .

كان راقداً وسط الحجرة الواسعة النيرة التي أبعد أثاثها ، بين الوسائد الحريرية البيضاء فوق نعشه ، مرتدياً حريراً أبيضَ ومسجى به ، يفوح منه عبير وهو مزيج من الياسمين البحري والبنفسج وعشرات من النباتات الأخرى ، وعند رأسه كتاب يسوع المبارك لثورن ڤالدسن في نصف دائرة من الشمعدانات الفضية على حوامل مكرنشة . وكانت ضفائر الزهور والأكاليل والسلال والباقات قائمة وملقاة على امتداد الحيطان فوق الأرض وعلى اللحاف ، وكانت سعفات النخل مسندة الى المحمل ، مائلة فوق قدمي الراحل . كان وجهه مشوهاً في مواضع منه وعلى الأخص أنفه الذي كان بادية رضوضه ، لكن شعر رأسه كان مسرحاً كعهده في حياته ، وشاربه الذي شدّه السيد مينتسل المسن بالمكواة كرة أخرى ، قائماً ممدوداً يجاوز خديه الأبيضين .

وقد وقفت مدام ايڤرسن بالباب وجعلت تنظر من هناك الى المحمل وهي تطوف بعينيها ، فلما ظهرت مدام بيرمانيدر في ثياب حدادها مزكومة من أثر البكاء ، لما ظهرت بين الستائر خارجة من حجرة الجلوس ودعتها في كلمات رقيقة الى الدخول تشجعت عندئذ على التقدم خطوات أخرى فوق الأرض الباركية ووقفت ويداها مطبقتان فوق بطنها البارز ، ونظرت بعينيها السوداوين الضيقتين الى النباتات والشمعدانات والشرائط وكل الحرير الأبيض وتأملت وجه توماس بودنبروك . وأنه لمن العسير أن نسمي بالاسم تعبير الملامح الباهتة الشاحبة على وجه هذه الحامل . لكنها قالت أخيراً «نعم...»وشهقت مرة - مرة واحدة - شهقة موجزة جداً ، غامضة جداً ، وتحولت بالذهاب .

كانت مدام بيرمانيدر تحب أمثال هذه الزيارات فلم تخرج من البيت وكانت تهيمن بهمة لاتكل على الترتيبات التي كان الناس يهرعون الى تأديتها لجثمان أخيها . وكانت تتلو بصوتها الصادر عن جوزة العنق وتعيد تلاوة مقالات الصحف التي كانت تطري مناقبه كما فعلت بمناسبة عيد المتجر ، وتندب الخسائر التي لاتعوض بفقده . كانت حاضرة في حجرة الاستقبال في كل زيارات التعزية التي تتلقاها جيردا في الصالون وكانت لا تحصى ويؤلف عددها فرقة . وكانت تجري مع مختلف الناس مباحثات تتعلق بالجنازة التي يجب أن تكون في وجاهتها فائقة الحد . ونظمت مشاهد الوداع فاستدعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موظفي المكتب ليقولوا لرئيسهم كلمة الوداع الأخيرة . وقد وجب بعد ذلك أن يأت عمال المخازن فكانوا يتدافعون على أقدامهم الضخمة فوق الباركية ويسحبون زوايا أفواههم جانباً ، وينشرون رائحة هي مزيج من العرق وطباق المضع والعمل الجثماني . وقد شاهدوا عرض الجثمان ـ ذلك العرض الفخم ، وهم يديرون قبعاتهم في أيديهم ، وتعجبوا بادئ ذي بدء ثم أدركهم الملل ، فلما أوتي أحدهم الشجاعة وهم بالانصراف تبعه جميعهم وساروا في أثره... واغتبطت مدام بيرمانيدر ، وقد زعمت أن دموع العديدين كانت تغسل لحاهم الخشنة . ولم يكن هذا صحيحاً بكل بساطة ، فمثله لم يحدث . لكنها إذا كانت حقاً قد رأت هذا وكان مارأته قد أسعدها ؟

وأقبل يوم الدفن . فكان النعش المصنوع من المعدن مغلقاً لاينفذ منه الهواء ، مغطى بالأزهار ، وكانت الشموع تحترق فوق الشمعدانات ، والبيت غاصاً بالناس ، والقسيس برنجزهايم واقفاً جليلاً عند رأس النعش ومن حوله الراثون من الأهل والغرباء ، يستقر رأسه المعبر كرنيشة الرقبة العريضة كأنها الطبق .

وكان أجير حاذق مدرب ، شيء نشط وسط بين المشرف والمنظم ، يتولى الادارة الخارجية للاحتفال ، فكان يهبط الدرج الأكبر على عجل ، ممسكاً بقبعته العالية ، مخافتاً في حركته ، ينادي همساً ، وينفذ همسه عبر الردهة التي كانت تزخر بموظفي الضرائب في زيهم ، وحمالي الحبوب في قمصانهم وسراويلهم وقبعاتهم العالية قائلاً : « إن الغرف مكتظة ، لكنه مايزال بالطرقة مكان خال... »

وران الصمت على كل شيء حين أنشأ القس برنجزهايم يتكلم ، فعم لسانه الذرب البيت بأسره ، بنغمه ولحنه . لكنه بينما كان هناك في أعلى البيت يعتصر يديه أمام وجهه ويمدهما مباركاً ، وقفت تحت أمام البيت مركبة الموتى يجرها أربعة جياد تحت سماء الشتاء الشهباء ، تراصت خلفها بقية المركبات في صف طويل منحدرة في الشارع حتى النهر . وكانت هناك ثلة من الجند مرابطة قبالة باب البيت ، تضع البنادق عند أقدامها ، وتقف صفين بقيادة الملازم فون تروتا الذي كان يتطلع بعينيه المضطرمتين الى الخارجة والسيف المجرد الى ذراعه... وكان الكثير من الناس يمدون أعناقهم رابضين في النوافذ المحيطة ، مرابطين على بلاط الشارع .

وأخيراً نشأت حركة في الطرقة ، فرنت كلمة الأمر من الملازم خافتة فأدى الجند التحية

مصطفقة ، ونكس السيد فون تروتا سيفه ، وظهر النعش محمولاً على أكتاف أربعة رجال يرتدون المعاطف السوداء والقبعات المثلثة الأركان ، يتهادى في رفق الى خارج البيت ، وحملت الريح عبير الأزهار فوق رؤوس الطلعة ، فرفرت في الوقت نفسه حزمة الريش الأسود التي تعلو سطح عربة الموتى ، وعبثت بمعارف الخيل التي كانت مصطفة حتى النهر في أسفل ، وحركت الثقاب الأسود فوق قبعة الحوذي وسيّاس الاسطبل ، ثم هطلت من السماء هشاش الثلج فرادى شحيحة جداً في أقواس كبيرة بطيئة .

وتحركت خيول عربة الموتى المتشحة تماماً بالسواد حتى لايرى منها سوى أعينها القلقة ، يقودها السياس الأربعة في تؤدة وتضام الجنود وسارت سائر المركبات الواحدة تلو الأخرى . وصعد كريستيان بودنبروك الى المركبة الأولى مع القسيس ، وتبعه يوهان الصغير بصحبة قريب من هامبورغ يبدو عليه الشبع ، ومضت جنازة توماس بودنبروك رويداً رويداً ، ممتدة ، يرنق عليها الوقار ويشوبها الكدر ، بينما كانت الريح تلطم البيوت جميعاً بالرايات المنكسة عليها… وكان الموظفون وحمالو الحبوب يسيرون على الأقدام .

فلما اقترب النعش من مدفن آل بودنبروك مجتازاً طرق المقبرة ، يتبعه أهل الميت ، ماراً بالصلبان والتماثيل والكنائس ومراعي المدافن ، كانت ثلة الشرف واقفة من قبل فأدت التحية من جديد ، وارتفعت خلف أحد الأدغال نغمات مارش جنائزي في ايقاع ثقيل مكتوم .

وعادوا يزيحون لوحة القبر الكبيرة المحفور عليها رنك الأسرة ، ووقف مرة أخرى سادة المدينة على حاشية الأشجار الجرداء يحيطون بالحفرة المبطنة التي أنزل اليها توماس بودنبروك إلى جانب والديه ، وقف هناك ذوو الحيثية والثراء مطرقي الرؤوس ومميليها أسى الى جنب ، وبينهم أعضاء مجلس الشيوخ تميزهم قفازاتهم وربطات أعناقهم البيضاء ، لكنه على مبعدة منهم كان الموظفون وحمالو الحبوب وموظفو المكتب وعمال المخازن يتزاحمون .

وصمتت الموسيقى وتكلم القسيس برنجزهايم . فلما تلاشت كلمات البركة في الهواء البارد تأهب الجميع لمصافحة أخي الراحل وابنه كرّة أخرى .

وكان عرضاً مرهقاً تلقى فيه كريستيان كل التّعازي وعلى وجهه سيماء الشارد

الفكر المرتبك ، وكانت من لازماته في الاحتفالات . وكان يوهان الصغير واقفاً بجانبه يرتدي سترة البحار السميكة ذات الأزرار الذهبية يغض بصره الى الأرض بعينيه المزرق ماحولهما من ظلال ، لا ينظر الى أحد ، ويميل برأسه منحرفاً نحو الريح وعلى وجهه امارات الحساسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الحادي عشر


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

يتذكر المرء هذا الشخص أو ذاك ويتساءل كيف حاله . ثم يخطر بباله فجأة أنه لم يعد يتجول في الطرقات وأن صوته لم يعد يرن مع سائر الأصوات ، بل أنه اختفى الى الأبد ببساطة من الميدان وأنه في مكان ما تحت الأرض هناك أمام باب المدينة .

لقد ماتت القنصلة بودنبروك المنحدرة من أسرة شتيونج أرملة العم جوتهولد ، وكانت ذات يوم سبباً لخلاف شديد في الأسرة ، توجها الموت بتاج الكفارة والرحمة ، وباتت بناتها الثلاث فريدريكه وهنرييت وفيفي يشعرن الآن بحقهن في أن يقابلن تعازي الأقرباء بسحنة من أهين ، كما لو كن يردن أن يقلن :«هاكم انظروا ، لقد شيعتم من استهدف لاضطهادكم الى القبر!» وإن كانت القنصلة بلغت من العمر أرذله...

كذلك مدام كيتلزن قد حلت بدار السلام . فبعد أن ظلت تعاني النقرس في السنوات الأخيرة رحلت وادعة ساذجة ، تؤمن ايمان الأطفال ، محسودة من أختها المثقفة التي كانت ماتزال تكافح هنا وهناك ضد الجدل العقلي ، رهن هذه الأرض الرديئة ببنيتها التي ازدادت صلابة بقدر ماازدادت هي حدباً وضآلة على مر الأيام .

وتوفى الله القنصل بعد إذ بدد ثروته كلها وصرعه شراب الهونيادى يانوس وخلف لابنته دخلاً قدره ألفا مارك في السنة أودعه إحدى دور البر العامة باسم دولمان للانفاق عليها منه بقبولها في دير يوحنا .

كذلك توفي يوستوس كروجر ، وكانت وفاته نكبة ، ذلك أن أحداً لم يعد يمنع زوجته الضعيفة أن تبيع آخر قطعة فضية عندها لتستطيع موافاة ابنها المنحل جاكوب بالنقود ، ذلك الذي يهيم على وجهه في بلاد الله في مكان ما في الخارج .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما مايتعلق بكريستيان بودنبروك فقد بحث الناس عنه في المدينة على غير جدوى ، إذ لم يعد يقيم بين جدرانها ، ذلك أنه لم يكد ينقضي عام على وفاة أخيه السناتور حتى انتقل الى هامبورج حيث عقد لنفسه أمام الله وأمام الناس على سيدة كان على صلة بها من قديم وهي الآنسة ألينة بيفوجل . ولم يقدر أحد على أن يحول بينه وبين ذلك الزواج . حقاً أن ميراثه من أمه ، وكان نصف فائدته يتحول دائماً إلى هامبورج ، كان يديره السيد ستيفان كيستنماكر ، مالم يستنفده سلفاً ، وهو الذي عينته لهذا الغرض وصية صديقه المتوفى . لكن كريستيان كان فيما خلا ذلك سيد نفسه ومالك إرادته... فما كادت تفوح رائحة زواجه حتى وجهت مدام بيرمانيدر الى مدام ألينة بودنبروك في هامبورج خطاباً عدائياً مسهباً بدأ بكلمة : مدام! وحوى في عبارات مسمومة بعناية اعلاناً اليها بأنها - أي مدام بيرمانيدر - لاتنوي أن تعترف بها - أي المخاطبة - أو بأولادها يوماً ما أقرباء لها .

وكان السيد كستنماكر منفذاً للوصية ومديراً لثروة بودنبروك . ووصياً على الصغير يوهان . وقد أحسن القيام على هذه الوظائف . وأتاحت له نشاطاً على أعظم جانب من الأهمية ، إذ كانت تخوله الحق في أن يلمس على شعر رأسه في البورصة وعليه كل إمارات الاجهاد ، ويؤكد أنه يضني نفسه... ولاننس أنه يتقاضى على عمله في مواعيد مضبوطة اثنين في المائة من الايراد . لكنه فيما عدا ذلك لم يكن يلقى نجاحاً كبيراً في أعماله ، ولم يلبث أن جر على نفسه استياء جيردا بودنبروك .

وجرت الأمور مجرى اقتضى التصفية وأن يختفي المتجر في خلال عام . وقد كان هذا ماقرره السناتور كآخر إرادة له . وقد أبدت مدام بيرمانيدر تأثرها الشديد من ذلك وتساءلت : « ويوهان!يوهان الصغير!هانو ؟ » فقد خيب آمالها وأملها كثيراً أن أخاها تخطى ابنه ووريثه وأنه لم يرد أن يبقى له المتجر حياً . فكانت تذرف الدمع ساعات على التخلي عن اسم المتجر المحترم . عن هذه الدرة التي توارثوها أربعة أجيال ، وعلى اختتام تاريخها مع وجود وريثها الطبيعي... لكنها عندئذ كانت تعزي نفسها بأن نهاية المتجر لاتعني نهاية الأسرة ، وأن ابن أخيها سوف يبدأ عملاً فنياً جديداً ليؤدي رسالته الرفيعة التي تتألف من ابقاء اسم آبائه لامعاً رناناً ، والعمل على أن تزداد الأسرة ازدهاراً . وليس عبثاً أنه كانت فيه هذه المشابه الكثيرة من جده الأكبر...

وإذن فقد بدأت تصفية الأعمال بادارة السيد كستنماكر والسيد ماركوس العجوز . وقد جرت هذه التصفية مجرى أسيفا بصورة غير عادية ، وكانت المهلة المحددة وجيزة أريد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحافظة عليها بدقة حرفية ، وكان الوقت يمر ، والسنون المعلقة تنجز في عجلة وبصورة غير صالحة . وتلت البيوع بعضها بعضا في تسرع وخسارة ، وحول المخزن والصوامع الى نقود بثمن بخس ، وما لم يتلفه السيد كستنماكر بشططه أتلفه السيد ماركوس العجوز ببطئه وهو الذي يحكي عنه الناس في المدينة أنه في وقت الشتاء وقبل أن يخرج لايدفئ معطفه وقبعته فحسب على الموقد بعناية ، بل يدفئ كذلك عصاه ، وأنه إذا عرضت له مرة مناسبة مؤاتية يدع الفرصة تفلت من يده بالتأكيد ، وقصارى القول أن الخسائر تراكمت ، وكان توماس بودنبروك قد خلّف ثروة قدرت على الورق بمبلغ ٦٥٠٠٠٠ مارك ، فثبت بعد فتح الوصية بسنة واحدة أن هذا التقدير كان أبعد مايكون عن الواقع...

وراجت اشاعات مبالغ فيها تفتقر الى الاثبات عن التصفية الخاسرة وغذيت هذه الإشاعات بخبر مضمونه أن جيردا بودنبروك تفكر في بيع البيت الكبير . وتناقل الناس أشياء عجيبة عما حملها على ذلك ، وعن ذوبان ثروة آل بودنبروك . وهكذا أمكن أن تسود المدينة تدريجياً من نحو السناتورة الأرملة وفيما يتعلق بتدبير المنزل نفسية مصحوبة أولاً بالدهشة والاستغراب ثم بالاستياء المتزايد... فإنها لما روت ذات يوم لأخت زوجها أن عدة من العمال والمتعهدين ألحوا بصورة لاتليق في ضرورة تصحيح حسابات كبرى ظلت مدام بيرمانيدر مبهوتة فترة طويلة ثم أغرقت في الضحك بصورة مخيفة... فبلغ من غضب جيردا بودنبروك أنها أسمعتها بصوت عال شيئاً كأنه أمر لم تصمم عليه كل التصميم ، وهو أنها ستبارح المدينة مع يوهان الصغير وتنتقل الى أبيها الشيخ في امستردام لتعود الى العزف الثنائي معه . بيد أن هذا أثار عند مدام بيرمانيدر زوبعة من الرعب بلغ منها أنها اضطرت جيردا الى العدول مؤقتاً عن هذه النية .

وكما كان المنتظر امتدت احتجاجات مدام بيرمانيدر أيضاً الى مسألة بيع البيت الذي بناه أخوها فأبدت أسفها عالياً للأثر السيء الذي يمكن أن يحدثه البيع ، وشكت من أن هذا يمكن أن يعني خسارة جديدة في مكانة الأسرة . لكنه كان لابد من أن تسلم بأن المضي في سكنى هذا البيت الفسيح الفخم الذي كان بمثابة هواية لتوماس بودنبروك كلفته كثيراً وصيانته ليسا بالشيء العملي ، وأن رغبة جيردا في ڤيللا صغيرة مريحة أمام باب المدينة تحيط بها الخضرة لها مايبررها .

وطلع على السيد جوش ، السيد السمسار جوش نهار سعيد ، فقد أضاءت شيخوخته واقعة أقصت عن أعضائه رعشة مدى ساعات . حدث أن سمح له بالظهور في صالون جيردا

بودنبروك والجلوس على كرسي ساند قبالتها ، العين في العين ، يفاوضها على ثمن بيتها ، ويغير شعره الأبيض من كل جانب على وجهه كالثلج ، ويحملق في وجهها بذقن مرتفعة في صورة منكرة ، ويكسب منظره صورة كاملة من الأحدب . وكان صوته يفح لكنه كان يتكلم ببرود في الموضوع ، وليس ماينم فيه عن هزة النفس . وقد آلى على نفسه أن يستولي على البيت فمد يده وعرض في ابتسامة خبيثة خمسة وثمانين ألف مارك . وكان هذا السعر مقبولاً لأنه لامفر من الخسارة في هذه الصفقة ، لكنه لم يكن بد من سماع رأي السيد كستنماكر ولا من صرف السيد جوش من دون تعاقد . وقد ظهر أن السيد كستنماكر لم يكن يرى أن يتدخل أحد في عمله بأي شكل من الأشكال ، فأهمل عرض السيد جوش وضحك منه ، وأقسم ليحصلن على أكثر منه كثيراً . لكنه جعل يقسم حتى ألفى نفسه مضطراً إلى أن يبيعه بمبلغ خمسة وسبعين ألف مارك إلى أعزب متقدم في السن ، عائد من سفار بعيدة ، يريد الاقامة في المدينة...

وأتم السيد كستنماكر أيضاً شراء البيت الجديد وهو ڤيللا لطيفة صغيرة لعلها اشتريت أغلى مما ينبغي قليلاً ، لكنها وهي واقعة أمام باب القصر على شارع مغروس بشجر الكستناء العتيق ومحوطة بحديقة جميلة للزينة والانتفاع ، تحقق رغبات جيردا بودنبروك... وقد انتقلت السناتورة الى هذه الڤيللا في خريف سنة ١٨٧٦ مع ابنها وخدمها وجانب من أثاث البيت ، بينما خلف جانب آخر بين ولولة مدام بيرمانيدر ، ولا بد أن يصبح ملكاً للأعزب المتقدم في السن .

وكأنه لم يكف ما تم من تغييرات! فالآنسة يونجمان ، ايدا يونجمان لازمت بيت بودنبروك منذ أربعين سنة ، خرجت من خدمة الأسرة ، وعادت وطنها بروسيا الغربية لتقضي عند أقربائها مابقي من العمر . ولكي تقول الحق ، فصلتها السناتورة . لقد وجدت هذه النفس الطيبة يوهان الصغير لما شب الجيل السابق عن الطوق ، فأمكنها أن تخصه باعزازها ورعايتها ، وتقص عليه أقاصيص جريم Grimm ، وتروي له حكاية العم الذي مات من الغصص . لكن يوهان الصغير لم يعد الآن صغيراً ، فقد كان في الخامسة عشرة من عمره ، فلم يعد في مقدورها أن تفيده كثيراً على الرغم من رقة تكوينه... ثم أنها منذ أمد طويل تكاد علاقتها بأمه تكون سيئة . فهذه السيدة التي دخلت في الأسرة بعد مادخلتها هي بكثير لم تكن تنظر اليها على أنها من الأسرة ولاتعترف بسلطانها عليها ، ومن جهة أخرى جعلت هي كلما تقدم الزمن تغلو في تصرفاتها في زهو الخادم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي طال عليها الأمد في الخدمة ، وقد كانت تسيء اليها بما كانت تخلعه على نفسها من أهمية وماكانت ترتكبه في تدبير المنزل من تجاوز هنا وههنا ، وهكذا لم تعد الحال مما يحتمل إذ وقعت مناظر بدأ فيها الانفعال وهاجت النفوس ، ومع أن مدام بيرمانيدر قد تشفعت لها بنفس الفصاحة التي وجهت بها الرجاء في شأن البيوت الكبيرة والأثاثات فقد استغنى عن ايدا المسنة .

لقد بكت بكاء مراً لما دنت الساعة التي ودعت فيها يوهان الصغير ، وقد احتضنها ثم وضع بعدئذ يديه على ظهره واتكأ على إحدى ساقيه واقفاً بالقدم الأخرى على أطراف أصابعه ، وتابع انصرافها بنفس النظرة المدققة الدفينة التي اتخذتها عيناه العسليتان المزرق ماحولهما من ظلال على جثمان جدته وعند موت أبيه وعند انحلال الادارات المنزلية الكبيرة ، وفي مشاهدات من هذا القبيل أخفى مظهراً . وقد جاء الاستغناء عن ايدا المسنة في رأيه مكملاً بطبيعته للحوادث الأخرى التي حضرها ودلت على تفتت الأسرة ونهايتها وختامها وتقطيع أوصالها ولم تعد هذه الحوادث تدهشه قط . وأحياناً حين يرفع رأسه بشعره الكستنائي الرائق المخصل ، وشفتيه المقبوضتين دائماً قليلاً ، ويتفتح منخراه من فرط الحساسية ، كان يلوح كأنما يتنشق الجو المحيط به ، وجو الحياة الذي يعيش فيه ، في احتراس ، منتظراً أن يشم العبير الغريب الذي يعرفه بصورة عجيبة والذي لم يستطع كل ماكان يتصاعد من مجمل جدته من عبق الأزهار أن يغمره .

وكانت مدام بيرمانيدر كلما مرت بزوجة أخيها جذبت اليها ابن أخيها لتحدثه عن الماضي وعن ذلك المستقبل الذي يدين به آل بودنبروك بعد فضل الله للصغير يوهان . وكلما كان الحاضر لايبشره في مظهره ، قلت جدوى الأوصاف التي تصف بها الحياة كيف كانت في بيوت والديها وجديها وكيف كان جد هانو الأكبر يجوب البلاد في مركبة تجرها أربعة من الجياد... وذات يوم أصابتها نوبة حادة من تقلصات المعدة كانت فريدريكا وهنرييت وفيفي بودنبروك سبباً لها إذ زعمن في صوت واحد أن آل هاجنشتروم صفوة المجتمع .

وكانت الأخبار عن كريستيان مكدرة ، إذ بدا أن الزواج لم يوات صحته فظهرت عليه من جديد أفكار جنونية سيئة وتخيلات متفاقمة ، فنُقل الى مصحة عملاً باشارة زوجه ونصيحة طبيب . ولن ترقه الاقامة فكتب الى ذويه رسائل يندب فيها سوء حظه وأعرب عن

رغبته الشديدة في الخروج من هذه المصحة التي ظهر أنهم عاملوه فيها بقسوة ، واطلاق سراحه من جديد . لكنهم كانوا يشددون احتجازه وكان هذا في الحق أنسب شيء له . وعلى كل فقد مكن هذا زوجه من أن تواصل حياتها السابقة المستقلة دون مبالاة أو عائق مع الاحتفاظ بالمنافع العملية والنظرية التي تدين بها للزواج .

الفصل الثاني

كان جهاز المنبه يخشخش بشدة مؤدياً واجبه وهو يلهث . وكان صوته هذا أبح يتفجر ، واصطفافاً أكثر منه رنيناً ، ذلك أن الجهاز كان قديماً بالياً ، لكنه عاش طويلاً ، لا أمل في عيشه الطويل ، وكان ذلك لأنه يملأ ملئاً كاملاً .

وقد ذعر هانو من الصميم إذ كانت أمعاؤه تتقبض كل صباح عند انطلاق هذه الضوضاء الرديئة المخلصة معاً ، فوق مائدة الليل ، لصق أذنه ، غيظاً وشكاة ويأساً ، أما في الظاهر فقد كان هادئاً ، لايغير وضعه في السرير ، بل يفتح عينيه سريعاً ، ويستيقظ في حلم الصباح الزائل .

وكان الظلام حالكاً في الحجرة التي تقرها برودة الشتاء ، فلم يكن يميز شيئاً أن يسعه قراءة عقارب المنبه ، لكنه عرف أن الساعة كانت السادسة ، لأنه كان في مساء أمس قد ضبط المنبه على هذه الساعة... أمس ... أمس... وبينما هو مستلق على ظهره ، متوتر الأعصاب ، يغالب تصميمه على إضاءة المكان ومغادرة الفراش ، عاد كل ما أداه أمس شيئاً فشيئاً الى وعيه...

وكان أمس يوم أحد ، فبعد أن اضطر الى ترك السيد برشت يسيء علاجه عدة أيام متوالية سمحت له أمه بمصاحبتها الى المسرح للاستماع الى «لوهنجرين» تعويضاً له مما لاقى ، وكان التهلف على هذا المساء يسم حياته منذ أسبوع . والشيء الوحيد المؤسف هو أنه قبل مثال هذه الحفلات كان كثير مما لايحب ينيخ على الأمل الطليق السار في شهودها ويفسده الى اللحظة الأخيرة ، بيد أنه في النهاية يكون وقت المدرسة قد انقضى حقاً في يوم السبت ، وآلة السيد برشت قد انتهت من الحفر في فمه لآخر مرة بأزيزها المؤلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالآن قد فرغ من كل شيء ، لأنه كان قد أجل واجبات المدرسة في تصميم سريع الى الشطر الآخر من مساء يوم الأحد ، وما جدوى يوم الاثنين ؟ فهل كان من الممكن أن يبدأ شيئاً فيه ؟ إن أحداً لايؤمن بيوم الاثنين ، متى تقرر أن يسمع في مساء الأحد الى «لوهنجرين»... وأراد أن ينهض في يوم الاثنين أكثر تبكيراً وأن ينجز هذه الأشياء السخيفة - وكفى بهذا! فالآن يتجول على حريته ، ويرعى مسرة قلبه ، ويحلم على البيان ، وينسى كل مايمضه .

وأصبح الهناء حقيقة ، وقد حل بكل بركاته وفرحاته ، بارتجافاته الخفية وهزاته ، بشهقاته الباطنة المفاجئة ونشوته الفياضة النهمة... ولامراء في أن آلات الكمان الرخيصة في الفرقة الموسيقية قد قصرت في الافتتاحية بعض التقصير ، وأن إنساناً بديناً مغروراً ذا لحية شقراء كان مقبلاً في زورق يتقدم متدافعاً .

كذلك كان في المقصورة المجاورة الوصي السيد ستيفان كستنماكر ، فدمدم لما رأى الغلام يرفه عنه على هذه الصورة ، ويصرف عن واجباته . لكن الجلال العذب المتجلي الذي كان ينصت اليه لم يلبث أن صرفه عن هذه الدمدمة...

وأخيراً جاء الختام . فصمت الهناء الشادي المتلألئ وانطفأ ، وعاد الى موطنه في حجرته محموم الرأس ، وتبين أن بضع ساعات فحسب ينامها هناك على سريره تفرق بينه وبين حياته اليومية ، وهنا انتابته نوبة ذلك الوجل التام الذي يعرفه جيداً ، فعاد يشعر كيف يؤلم الجمال ، وكيف يهبط الجمال عميقاً يعروه اليأس الذي بداخله الحنين ، وكيف يستهلك كذلك الشجاعة والصلاحية للحياة العامة . لقد كانت هذه الحالة تبهظه بصورة مخيفة عديمة الأمل فكأنه يرزح تحت جبل . حتى قال لنفسه مرة أن مايرهقه لابد أن يكون شيئاً أكثر من همومه الشخصية ، عبئاً ينيخ من البداية على روحه الى أن يزهقها ذات يوم...

وضبط المنبه ، ونام نوماً عميقاً ميتاً كما ينام المرء حين لايريد أن يستيقظ قط . وجاء يوم الاثنين مع هذا ، وكانت الساعة السادسة ولم يعمل ساعة واحدة!

ونهض وأشعل الشمعة القائمة على مائدة الليل ، لكنه لما مس البرد ذراعيه وكتفيه في الحال ، وكان شديداً في الهواء البارد كالثلج ، هرع الى الارتماء في فراشه وسحب الغطاء عليه .

وكان العقربان يشيران الى السادسة وعشر دقائق... فلا معنى لنهوضه الآن والشروع في العمل . فما كان عليه أن يؤديه قد كان أكثر مما ينبغي . وكل واجب يستغرق في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحفظ ساعة تقريباً فلا فائدة من البدء بشيء . وقد تخطى الوقت الذي حدده للعمل على كل حال . فهل من المؤكد كما بدا له أمس أن الدور سيأتي عليه اليوم في اللغة اللاتينية والكيمياء على السواء ؟ كان هذا مفروضاً ، أجل ، ومحتملاً كما يتوقع . فأما مايتعلق بأوفيد فقد نوديت الأسماء حديثاً ، وبدأ أصحاب الأحرف الهجائية الأخيرة ، والمفروض أن يبدأ اليوم ومن الأمام بحرفي أ و ب ، لكن هذا ليس مؤكداً على كل حال ، ليس مؤكداً كل التأكيد ، بل أنه لأمر مشكوك فيه! فقد خرج من قبل على القاعدة !لكن الصدفة كما تفعل أحياناً وأيم الله!... وبينما كانت تستغرقه هذه التأملات الخادعة المتعسفة تداخلت أفكاره وسبح بعضها في بعض وغلبه النعاس من جديد .

وشمل السكون حجرة التلميذ في ضوء الشمعة المترنح باردة خاوية ، تعلو سريره فيها صورة عذراء هيكل سيستين محفورة على النحاس ، وتقوم في وسطها مائدة مما يطوى وينشر ، هذا الى رف خاص بالكتب مبعثرة عليه بلا ترتيب ، ودرج قائم الأرجل من خشب الموغنا ، والهارمونيوم ومائدة الاغتسال الضيقة .

وكانت أزهار الثلج يانعة على النافذة التي لم ينزل شباكها لينفذ ضوء النهار . وقد كان هانو بودنبروك نائماً يضغط خده في الوسادة ، مفتر الشفتين ، مرخياً أهدابه في عمق وإحكام ، تبدو عليه إمارات الاستسلام للنوم في حرارة وألم ، ويغطي شعره الكستنائي الرائق المخصل صدغيه . ورويداً رويداً فقد لهيب الشمعة القائمة على مائدة الليل ضوءه الأصفر الضارب الى الحمرة ، إذ نفذ الصباح الواهن من قشرة الثلج العالقة بزجاج النافذة الى الحجرة جامداً باهتاً .

ولما كانت الساعة السابعة استيقظ ثانية مرعوباً... فكذلك فاتت هذه المهلة الآن ، فلينهض ، وليأخذ على عاتقه مايحمله اليوم ، فليس من ذلك مناص ، إنه ليس على بدء الدراسة سوى ساعة وجيزة... فالوقت يأزف ، ولاتسل عن واجباته . ومع ذلك فقد ظل راقداً غاصاً بالمرارة والكآبة والشكوى من هذه الضرورة الوحشية التي تحتم عليه مغادرة فراشه الدافئ ، في هذا الضوء الخابي الصاقع ، والخروج في ضيق وخطر الى أناس صارمين يبغون به شراً . وسأل وسادة رأسه في رقة سيالة «لاتزال هناك دقيقتان هينتان ، أليس كذلك ؟ وعندئذ منح نفسه في نوبة من التحدي خمس دقائق كاملة ليغمض عينيه قليلاً وليفتح احداهما بين اللحظة واللحظة ويحدق في العقرب الذي يمضي في سبيله بليداً ، جاهلاً ، مستقيماً...

وفي الساعة السابعة وعشر دقائق انتزع نفسه من فراشه انتزاعاً وجعل يغدو في الغرفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويروح في عجلة متناهية . وكانت الشمعة ماضية في احتراقها ، ذلك أن ضوء النهار وحده لم يكن قد كفى بعد . فلما نفث في إحدى زهور الثلج رأى أن الضباب الكثيف منتشر في الخارج .

كان يرتعش من البرد ارتعاشاً شديداً ، وكان الصقيع يهز جسمه كله أحياناً في رجفة أليمة ، وكانت أطراف أصابعه تحرقه ، وكانت متورمة الى حد أنه عجز عن استعمال فرشاة أظافره ، فلما أخذ يغسل أعلى جسمه أسقط الاسفنجة من يده التي كانت ميتة تقريباً على الأرض ، فوقف لحظة جامدة عديم الحيلة يدخن كما يفعل الحصان العرقان .

وأخيراً وقف بالمائدة التي تفتح وتقفل ، مستعداً مع ذلك ، وتناول الحافظة الجلدية واستجمع من قوى ذهنه مالم يجهز اليأس عليه ليضع في الحافظة مايلزم من الكتب لحصص اليوم .

وقف ينظر الى الجو مجهداً ، ويتمتم مذعوراً : «ديانة... لاتيني... كيمياء...» ويدس الأجزاء المعيبة الملوثة بالمداد المجلدة بالورق المقوى بعضها الى بعض...

نعم ، لقد كان يوهان الصغير طويل القامة تقريباً ، وكان يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ولم يعد يرتدي سترة بحار كوبنهاجن ، بل يلبس جاكته بنية فاتحة ذات ربطة للعنق ، زرقاء منقطة بالأبيض . وكان على صدريته سلسلة الساعة الذهبية الطويلة الرفيعة التي انتهت اليه من جده الأكبر ، وعلى اصبعه الرابع من يده اليمنى العريضة قليلاً ، الرقيقة التكوين مع ذلك الخاتم الموروث ذي الفص الأخضر الذي بات الآن بالمثل ملكاً له . . . وقد لبس الجاكتة الصوفية السميكة ، ووضع القبعة على رأسه ، واختطف الحافظة ، وأطفأ الشمعة وهبط الدرج مسرعاً الى الطابق الأرضي ماراً بالدب المحشو ، معرجاً الى اليمين قاصداً الى قاعة الأكل .

وكانت الآنسة كليمانتين وصيفة أمه الجديدة في انتظاره تعد له طعام الافطار وكانت فتاة نحيلة تتدلى خصلها على جبينها ، ذات أنف حاد ، وعينين ضعيفتي البصر .

وسأل بين أسنانه :«كم الساعة حقاً ؟» وكان يعرفها بالضبط .

فأجابته :«الثامنة إلاّ ربعاً» . وأشارت الى ساعة الحائط بيدها النحيلة الحمراء التي تبدو كأنها مصابة بالنقرس . ثم استطردت تقول :«فاعمل على أن تنصرف سريعاً ياهانو...» ووضعت القدح الساخن في مكانه ، ودفعت اليه بسلة الخبز وبالزبد والملح وظرف البيض .

ولم يزد على كلمته شيئاً ، بل مد يده الى رغيف صغير ، وبدأ وهو واقف ، والقبعة على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأسه والحافظة تحت ذراعه ، يتناول الكاكو وقد آلمه الشراب الساخن كثيراً في ضرسه الذي كان السيد برشت يعالجه ولما يكد . وقد ترك نصفه في القدح ، وعزف عن البيض ، وأخرج من فمه المزموم صوتاً خافتاً للمرء أن يفسره بأنه «الى اللقاء» وغادر البيت مسرعاً .

وكانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق لما اجتاز الحديقة الأمامية واستدبر الڤيلا الصغيرة الحمراء وأخذ يسرع الخطى الى اليمين على امتداد الشارع الشتوي... لاتزال بعد عشر ، تسع ، ثماني دقائق . والطريق بعيد ، والرؤية تكاد تتعذر من الضباب ، مهما قطع المرء من الطريق ، وكان يشهق في هذا الضباب الكثيف البارد كالثلج ويزفر بكل ماوسع صدره الضعيف من قوة ، ويثبت لسانه على ضرسه الذي كان مايزال يؤلمه من الكاكاو ، ويجهد عضلات ساقيه أيما جهد . وقد تصبب عرقه ، وكان يشعر مع ذلك أن كل عضو من أعضائه يتجمد . وأخذ يحس وخزاً في جنبه ، وتمرد الفطور الهزيل الذي تناوله في معدته في هذه المشية الصباحية وغثيت نفسه ، ولم يصبح قلبه سوى شيء يخفق ويرفرف دون توقف ويكتم نفسه .

وبلغ باب القصر ، باب القصر فحسب . وكانت الساعة الثامنة إلا أربع دقائق . وبينما كان يجاهد ، وهو يخترق الشوارع في عرقه البارد وألمه وغثيان نفسه وضيقه ، كان يتطلع الى كل جانب علّه يرى تلاميذ غيره... لاأحد... لاأحد... فالجميع كانوا في أماكنهم ، فقد بدأت الساعة تدق الثامنة ، ورنت الأجراس في كل الأبراج يخترق رنينها الضباب ، وعزف من في كنيسة السيدة مريم ابتهاجاً بهذه اللحظة«اشكروا الله جميعاً» وكان العزف في رأي هانو خطأ من أساسه ، تبينه حانقاً يائساً ، وجردهم من كل فكرة عن الايقاع ، وعاب التوقيع أكبر عيب... لكن هذا كان أهون ماهنالك . فقد وصل متأخراً ، مافي ذلك شك . وكانت ساعة المدرسة متأخرة قليلاً ومع ذلك فقد وصل بعد الميعاد على التحقيق . كان يحملق في وجوه المارة وهم متوجهون الى مكاتبهم وأعمالهم غير مسرعين ، لايهددهم شيء . وكان بعضهم يرد نظرته المعبرة عن الحسد والشكوى ، ويتأمل مظهره المفكك ، ويبتسم ، وقد غاظته هذه الابتسامة فماذا يظن هؤلاء أنفسهم ، وكيف يحكم هؤلاء المطمئنون على موقفه ؟ لقد كان حرياً أن يصيح بهم أن ابتسامكم هذا أيتها السيدات والسادة خشونة منكم! لكانوا خلقاء أن يدور بخلدهم أنه يشتهى لو سقط ميتاً أمام باب القصر الموصد...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد باغت أذنه رنين الجرس مجلجلا ، مستمراً ، يعلن بدء صلاة الاثنين ، لما كان على بعد عشرين خطوة من السورالطويل الأحمر الذي تعترضه بوابتان من الحديد المصبوب ويفصل الفناء الأمامي للمدرسة عن الشارع . ولكي يستمد قوة أخرى تعينه على توسيع الخطى والمشي السريع ، كان يدفع جسمه الأعلى ببساطة الى الأمام ، ويكلف ساقيه أن خيراً وإنْ شراً أن تمنعا انكفاءه فيمضي يحركهما إلى الأمام متعثراً ، متراخياً ، حتى بلغ البوابة الأولى بعد أن كف الجرس عن الرنين .

وكان المشرف السيد شليميل : وهو رجل ، ربعة ، ذو وجه خشن اللحية يشبه وجوه العمال ، يوشك أن يقفلها فقال :«ها...» وترك التلميذ بودنبروك يدلف منها... فلعله نجا ، فالمهم أن يتسلل الى حجرة الفصل من دون أن يلحظه أحد وينتظر هناك خفية حتى تنتهي الصلاة التي كانت تقام في قاعة الألعاب الرياضية ، ويفعل كما لو كان كل شيء على مايرام . وجرّ نفسه الى الداخل جراً عبر الفناء المبلط بالطوب الأحمر من أحد الأبواب المسحورة المزودة بألواح من الزجاج الملون ، وهو متخشب ، منهوك القوى ، يلهث ويتصبب عرقاً بارداً...

وكان كل شيء هنا في المعهد نظيفاً جميلاً ، وكان الزمن قد نال منه وسويت بالأرض الأجزاء الغبراء المتداعية من مدرسة الدير فيما مضى من الزمان ، تلك الأجزاء التي كان آباء الجيل الحاضر يتلقون فيها العلم ، لتحل محلها مبان جديدة هاوية فخمة ، وقد حافظوا على أسلوب الأبنية القديمة وامتدت فيها القبوات القوطية بصورة تبعث الهيبة فوق الطرقات والممرات المتعامدة . أما ما يتعلق بالاضاءة والتدفئة وبفسحة الفصول وقداستها وتوفير الراحة في غرف المدرسين والتأثيث العملي لقاعات الكيمياء والطبيعة والرسم ، فقد كانت وسائل الراحة كافة في العصر الحديث متوافرة فيها . . .

كان هانو بودنبروك المنهوك القوى يزحف على امتداد الحائط ويتلفت حوله... الحمد لله . إن أحداً لم يره . وقد كانت ضوضاء التلاميذ والمدرسين تتناهى اليه وهم يتسكعون الى قاعة الألعاب الرياضية ليستمدوا هناك لأعمال الأسبوع شيئاً من قوة الدين . أما هنا في المقدمة فكان كل شيء ساكناً لاتشيع فيه حياة ، وكذلك الطريق الى الدرج العريض المفروش بالشمع قد كان خالياً ، فجعل يتسلل الى فوق حذراً ، يصعد على أطراف أصابعه ، كاتماً نفسه ، ينصت في انتباه شديد ، وكان قسمه وهو الثاني الأسفل في المدرسة الثانوي يقع في الطابق الأول قبالة الدرج ، وكان بابه مفتوحا ، فجعل على الدرجة العليا يتجسس وقد

حتى جسمه إلى الأمام ، على امتداد الدهليز الذي اصطنعت على جانبيه مداخل الفصول المختلفة مزودة بلوحات من الخزف . ثم خطا إلى الأمام ثلاث خطوات سريعة لم يسمع لها صوت ودخل الفصل .

وكان خاليا ، والنوافذ العريضة الثلاث ماتزال ستائرها مسدلة ، ومصابيح الغاز المشتعلة المتدلية من السقف يسمع لها هسيس خافت ، وتوزع مظلاتها الخضراء الضوء على ثلاث صفوف من الأدراج ذات المقعدين المصنوعة من خشب رائق تقابلها المنصة يكتنفها الظلام ويحف بها جلال التأديب والتحفظ ، وعلى رأسها سبورة . وكان يغطي الجزء الأسفل من الحيطان تغشية خشبية صفراء ، ومن فوقها مسطحات الكلس العالية تزدان ببضع خرائط . وكانت هناك لوحة ثانية على حامل إلى جانب المنصة .

وقصد هانو الى مكانه وسط الحجرة تقريبا ودفع بحافظته في القمطر ، وارتمى على المقعد الجامد ، واتكأ بذراعيه فوق قرصة الدرج المائلة وتوسدهما ، وداخله شعور لا يوصف بالارتياح . وقد كانت هذه الحجرة الجامدة الجرداء دميمة بغيضة وكان قلبه يرزح تحت مايهدده من ذلك الصباح بأسره من أخطار لاتحصى . لكنه قبل كل شيء كان آمناً ، كان جسمانياً مصوناً يستطيع أن يدع الأمور تمر . والحصة الأولى ، حصة الديانة عند السيد بالرشتيت عديمة الأذى تقريباً... وقد كان يشهد من ذبذبة لسان الورق هناك فوق ، أمام الفتحة الدائرية التي تخترق الحائط كيف يتدفق الهواء الدافئ إلى الداخل ، كذلك كان لهب الغاز يدفئ المكان . وكان في وسعه التمدد وإرخاء الأعضاء الرطبة المتخشبة وتدفئتها رويداً رويداً . وقد سرت الى رأسه حرارة مريحة غير سليمة ، وطنت أذناه ، وغامت عيناه...

وبغتة ألمَّ من خلفه بصوت جعله ينتفض ويلتفت وراءه... ونظر : فقد ظهر خلف المقعد الأخير الجزء الأعلى من جسم كاي ، كونت مولن ، وبدا السيد الفتي يهم ويحاول الخروج من مخبئه ويقف على قدميه ، ثم ينفض يديه بخفة وسرعة ليزيل ماعلق بهما من غبار ، ويخطو الى هانو متهلل الوجه .

قال :« إنه أنت ياهانو! وقد انسحبت هناك الى الوراء لما جئت ، إذ حسبتك بعض هيئة التدريس » .

وقد انقطع صوته أثناء الكلام يريد التبادل كما بدا ، وهو مالم يكن شأن صديقه بعد .

وكان يشبهه في نموه لكنه بقي ما كان تماماً ، فما زال يرتدي بزة لا سبيل إلى تعيين لونها ، ينقصها زر هنا وهناك ، ويؤلف مقعدها رقعة كبيرة ، وماتزال يداه غير نظيفتين لكنهما

نحيلتان جميلتا التكوين بصورة غير عادية ، ذو أصابع نحيفة طويلة ، وأظافر مرسلة مدببة . ومايزال شعره الأصفر الضارب الى الحمرة ، المفروق من الوسط على عجل ، يتهدل على جبين أبيض كالمرمر ، خلواً من الشوائب ، تبرق من تحته في عمق وحدّة معاً عيناه الزرقاوان الرائقتان... وقد تجلى الآن أكثر من أي وقت مضى تعارض مابين زينته المهملة بصورة رديئة ، ونقاء جنس هذا الوجه الرقيق العظم بأنفه الخفيف التقويس جداً وشفته العليا المقبوة شيئاً ما .

قال هانو ، وهو يزم فمه ويحرك احدى يديه في مكان القلب :«لاياكاي! كيف يسعك أن تزعجني هكذا!لماذا أنت هنا فوق ؟ لماذا كنت تختبئ! هل أتيت أنت أيضاً متأخراً ؟ »

فأجاب كاي :«حاشا لله! انى هنا من أمد طويل... وفي صباح الاثنين لايتوقع المرء أن يصل في النهاية الى المعهد . وأنت نفسك خير من يعرف ذلك ياعزيزي... كلا ، لقد بقيت هنا فوق على سبيل المزاح . لقد كان الاشراف للمدرس الأول العميق فلم ير ضيراً في أن يدفع الشعب الى أسفل ليؤدي الصلاة . وقد حرصت على أن أكون دائماً خلفه ، ملاصقاً له . حتى وهو يدور ويلتفت من حوله هذا الصوفي كنت دائماً خلفه ، ملاصقاً له ، الى أن انصرف ، وهكذا أمكنني أن أبقى هنا فوق... » . ثم قال مبدياً عطفه على هانو ، جالساً على المقعد بجانبه في حركة رقيقة :«لكن أنت... لابد أنك كنت تجري ، أليس كذلك ؟ يالك من مسكين! إن منظرك يدل على ماكنت فيه من عجلة . وشعرك ملتصق بصدغيك... » وتناول مسطرة من الدرج ، وأرخى بها شعر الصغير يوهان في جد وعناية ، وقال : «اذن لقد غلبك النوم » . وقاطع نفسه وهو يتلفت من حوله ثم قال :«هذا الى أني أجلس هنا في مكان أدولف توتناوبت في المكان المقدس المخصص للتلميذ الأول! ماعلينا ، فلابأس هذه المرة... اذن لقد أخرك النوم ؟ »

وكان هانو قد عاد يتوسد ذراعيه المتعامدين فقال بعد تنهيدة عميقة :«لقد كنت مساء أمس في المسرح » .

«آه ، حقاً لقد نسيت ذلك . أكان جميلاً ؟ »

فلم يتلق أي جواب .

ومضى يحاول اقناعه :«انك في نعمة ، فيجب أن تفكر في هذا ياهانو . انظر ، انني لم أغش يوماً مسرحاً ، ولايحدوني أمل لسنة طويلة قادمة أن أغشاه... »

فقال هانو مكروباً : «لو لم يكن هذا الصداع! »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانحنى كاي فوق قبعة صديقه ومعطفه ، وكانا ملقيين على الأرض بجانب المقعد ، فتناولهما وحملهما مخافتاً الى الدهليز في الخارج .

فلما عاد سأله :«اذن أنت لاتستذكر قصيدة التحولات (لأوفيد)جيدا ؟»

قال هانو :«كلا» .

«أو لعلك مستعد للارتجال في علم تقويم البلدان ؟»

قال :«كلا ، ولاأستطيع شيئاً مطلقاً» .

«ولا كيمياء ولا لغة انجليزية ؟ حسناً . فكلانا صديق صدوق زميل في المعركة» .

وبدا الارتياح على كاي وأعلن مبتهجاً : «إنني في الموقف نفسه بالضبط ، لم أعمل في يوم السبت لأن غده هو الأحد ، ولم أعمل في يوم الأحد تدينا... كلا ، كلا... سخف... على الأكثر لأنه كان عندي ماأعمل خيراً من عملي ، طبعاً» . قال ذلك في جد مفاجئ أحمر له وجهه قليلاً«أجل ياهانو ، من المحتمل أن يكون اليوم مسلياً» .

فقال يوهان الصغير :«وإذا عذرت مرة أخرى فسأظل جالساً ، وسأؤنب بالتأكيد إذا سُئلت في اللاتينية . والدور على حرف «ب» ياكاي ، ولن يمكن منع ذلك...»

«فلننتظر! إن قيصر سيخرج . وقد هددتني الأخطار دائماً من الخلف ، فإذا أبصرت جبين قيصر... ولم يتم استشهاده فقد ساءت معنويته هو أيضاً فاتجه نحو المنصة وجلس عليها ، وجعل يهتز فوق الكرسي السائد منقبض الأسارير . واستمر هانو بودنبروك واضعاً جبينه فوق ذراعيه المتعامدين وجلس كلاهما على هذا المنوال ، أحدهما قبالة الآخر .

وبغتة سمع من بعيد لغط مكتوم لم يلبث أن بات هديراً وأصبح في نصف دقيقة دانياً مهدداً .

فقال كاي في مرارة :«الشَعَب ، يا إلهي كيف انتهوا بهذه السرعة! إن الحصة لم تقصر ولاعشر دقائق» .

ونزل عن المنصة وتوجه الى الباب ليختلط بالقادمين . أما هانو فقد رفع رأسه لحظة فحسب وزم فمه وبقي جالساً ببساطة .

واقتربت الضجة : تثاقل في المشي ، ووطء بالأقدام ، وأصوات مذكرة مختلطة بعضها حادة والأخرى رخوة ، وتوالى هذا الفيض صعداً فوق الدرج وانتشر في الدهليز وتدفق أيضاً الى هذه الحجرة التي زخرت فجاءة بالحياة والحركة والضوضاء ، ودخل الفتية رفاق هانو وكاي تلاميذ القسم الثانوي يبلغ عددهم الخمسة والعشرين يتسكعون ، أيديهم في

جيوب سراويلهم ، أو يطوحون أذرعهم ، متجهين الى أماكنهم حيث فتحوا أناجيلهم . وكانت هناك وجوه مريبة ، بعضها صحيح معافى ، وبعضها عليل ، أشقياء ، طوال القامة أقوياء يريدون أن يصبحوا قريباً من التجار أو يذهبوا الى البحار ، فهم لايبغون أكثر من ذلك ، وصغار يتجاوزن أعمارهم بجدهم واجتهادهم فهم لامعون في المواد التي تتطلب الحفظ عن ظهر قلب ، بيد أن أدولف توتناوبت أول الفرقة كان عليما بكل شيء ، لم يعيه الجواب عن سؤال في يوم من الأيام . ويرجع هذا في بعضه الى جده المتسم بالسكون والحمية ، وفي البعض الآخر الى أن المدرسين كانوا يتجاوزون سؤاله عن شيء خشية ألا يستطيع الاجابة عنه فيتألموا ويخجلوا ، ويتزعزع ايمانهم بالكمال البشري إذ صمت أودلف توتناوبت عن الإجابة عن سؤال لهم . وكانت له جمجمة حدباء بصورة غريبة يلتصق بها شعره الأشقر مصقولاً كالمرآة ، وكانت له عينان رماديتان يحيط بهما سواد ، ويدان مديدتان سمراوان تطلان من كُميه القصيرين في سترته المفرشة النظيفة . وقد جلس بجانب هانو بودنبروك يبتسم ابتسامة رفيقة ماكرة بعض الشيء ، ويحيي جاره تحية الصباح بلهجة عامية دارجة يركن اليها ، وتزم الكلمة الى لفظ جريء ينطوي على الاستهانة .وجعل يدرس في كتاب الفصل وهو صامت يحرك قلمه تحريكاً سليماً لايبارى بأصابع نحيفة ، مديدة ، مستقيمة ، بينما كان كل من حوله يتحادثون بصوت خافت ويستعدون ويتثاءبون ويضحكون .

وبعد دقيقتين سمع وقع أقدام في خارج الفصل فنهض شاغلو المقاعد الأمامية عن أماكنهم متمهلين ، وحذا حذوهم في المقاعد الخلفية هذا وذاك ، بينما لم ينصرف غيرهم عما كانوا مشتغلين به فكادوا لايلحظون دخول السيد المدرس الأول بالرشتيت في الفصل ، وأنه علق قبعته على الباب وتوجه الى المنصة .

كان في الأربعين من عمره بدينا معتدل البدانة ، ذا صلعة منتشرة ولحية صفراء تميل الى الاحمرار ، قصير الشعر ، وردي اللون ، على شفتيه عذوبة تمتزج بشدة الحساسية . وقد تناول مفكرته وتصفحها صامتاً . لكنه لما كان الهدوء لم يستتب في الفصل رفع رأسه ومد ذراعه فوق قرصة الدرج وحرك قبضته الضعيفة البيضاء مرات الى أعلى وإلى أسفل ، بينما انتفخ وجهه قليلاً قليلاً ، وعلته حمرة بلغ من دكانتها أن بدت لحيته صفراء فاقعة . وقد ظلت شفتاه في ذلك تختلجان نصف دقيقة على غير جدوى ليلفظ في النهاية مالايعدو كلمة «والآن...» كلمة موجزة مضغوطة تئن . ثم جاهد برهة في سبيل تعبيرات أقوى من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجرد التعذير ، وأخيراً التفت ثانية الى مفكرته ، وهبطت نفخته ، وشعر بالارتياح . هذه كانت طريقة المدرس الأول بالرشتيت وهذا أسلوبه .

وقد أراد فيما مضى من الزمان أن يكون واعظاً ، لكن نزوعه الى التهتهة وحبه لرغد العيش قدرا له أن يؤثر التربية . وكان أعزب يملك بعض الثروة ، ويحمل ماسة صغيرة في اصبعه ، ويحب الطعام والشراب من قلبه ، كان ذلك المدرس الأول الذي لايختلط بزملائه إلا أثناء العمل ، لكنه فيما خلا ذلك يخالط في الغالب الأعازب من رجال دنيا التجار ، بل كذلك ضباط الحامية ، يأكل مرتين في اليوم في أكبر مطعم ويغشى «المنتدى» بوصفه من أعضائه . فاذا التقى في الثانية أو الثالثة صباحاً بتلاميذ كبار في مكان ما من المدينة انتفخت أوداجه وحياهم بتحية الصباح وترك المسألة تنتهي بالنسبة له ولهم... ولم يكن ثم مايخشاه هانو بودنبروك منه أو مايسأله المدرس عنه ، إذ طالما اجتمع المدرس الأول بعمه كريستيان مراراً وتكراراً على نحو انساني بحيث لايمكن أن يسره أن يكون مع ابن أخيه في المدرسة على خلاف .

وقال مرة أخرى : « والآن... » وتلفت حوله في الفصل ، وحرك قبضته المرتخية بماستها الصغيرة ، ونظر في مفكرته ونادى : «بيرلمان! المجمل!»

ونهض بيرلمان في مكان ما من الفصل ، فكاد لا يلحظ أحدٌ أنه نهض ، فقد كان أحد الصغار المتقدمين . قال في خفوت وأدب ، ماداً رأسه الى الأمام في ابتسام ووجل : «المجمل : ينقسم سفر أيوب الى ثلاثة أقسام ، أولاً حالة أيوب قبل أن يحل به البلاء وتأديب الرب ، الباب الأول ، من الآية الأولى الى السادسة ، ثانياً البلاء نفسه وماأصابه فيه ، الباب...»

فقاطعه السيد بالرشتيت قائلاً : «أصبت يابيرلمان» وقد تأثر بما أبداه بيرلمان من الرغبة الشديدة في ارضائه ـ تلك الرغبة التي يشوبها الوجل ، وسجل له في مفكرته درجة طيبة . ثم نادى : «هينريش ، تابع!» .

وكان هينريش من الأشقياء الفارعين الذين لايعنون بشي ، فدفع في جيب سرواله بالمدية المتينة القبضة التي كان منشغلاً بها ، ونهض وهو يحدث في نهوضه ضوضاء شديدة ، ومطّ شفته السفلى ، وتنحنح بصوت خشن غليظ كأصوات الرجال ، فساء الجميع أن يلي مثله في الدور بيرلمان الوديع . وكان التلاميذ يحلمون ويرخمون في الحجرة الدافئة في شبه نوم تحت لهيب الغاز الطنان ، وكانوا جميعاً متعبين من يوم الأحد ، تنهدوا في

الصباح البارد الذي كان يلفه الضباب ، وزحفوا من أسرتهم الدافئة تصطك منهم الأسنان ، وودّ كل منهم لو ظل الصغير بيرلمان طيلة الحصة يهسهس ، بينما المؤكد أن هينريش كان سيثير النزاع...

وقال هذا يؤكد بفظاظة :«لم أكن حاضرا هذا الدرس» .

فانتفخت أوداج السيد بالرشتيت ، وحرك قبضته الضعيفة واختلجت شفتاه ، وحملق في وجه الفتى هينريش بحاجبين مرتفعين . وكان رأسه الأحمر الداكن يرتجف من الجهد والاجهاد حتى تمكن آخر الأمر من أن يلفظ :«والآن...» ففك بها السحر ، وكسب المعركة ، ومضى يقول في يسر وقدرة على الكلام : «منك لايرجى شئ ، وأعذارك دائماً حاضرة ياهنريش . فإذا كنت قد مرضت في الحصة الفائتة فقد كان في مقدورك أن تنقل من غيرك ماحصلوا فيها ، وإذا كان الباب الأول يتناول حالة أيوب قبل أن ينزل به البلاء والثاني يتناول البلاء نفسه فقد كان يسعك أن تعد في النهاية على أصابعك فتجد الباب الثالث يتناول حالته بعد البلاء . لكنه ينقصك الاخلاص الحق ، ولست فحسب إنساناً ضعيفاً ؛ بل أنت كذلك مستعد على الدوام لتبرير نقط ضعفك والدفاع عنها . لكنه لعلك تلاحظ أنه طالما كانت هذه حالك فلن يكون هناك أمل يا هنريش في رِفْعَةٍ أو تحسن . اجلس! ڤاسر فوجل . تابع!»

فجلس هينريش في صفاقة وتحد ، يرفس ويدمدم ، ويهمس الى جاره بقحة ما ، ثم أخرج مديته المتينة القبضة من جديد . ونهض التلميذ ڤاسر فوجل ، وكان غلاماً ذا عينين ملتهبتين ، وأنف مقلوب ، وأذنين مطرطقتين ، وأظافر مقضومة ، فأتم المجمل بصوت مرضوض ، وبدأ يحكي عن أيوب الرجل الذي كان يقيم بأرض عوص ومأأصابه . وكان قد فتح التوراة خلف الجالس أمامه يقرأ منها وعلى وجهه امارات البراءة التامة والاستغراق في التفكير ، ثم جعل يحملق في موضع من الحائط ويترجم الى لغة ألمانية حديثة غير مسعفة مايأخذه بصره من التوراة وهو يتوقف ويسعل سعالاً أشبه بالنقيق... وقد كان فيه ماينفر الى حد بعيد ، لكن السيد بالرشتيت أثنى على كل جهوده هذه ثناءً مستطاباً . وكان حظ التلميذ ڤاسر فوجل الى ذلك الحين حسناً في الحياة ، إذ كان يحلو للمدرسين أن يثنوا عليه وعلى فضائله ليروه ويروا أنفسهم ويروا الآخرين أن دمامته لاتحملهم بحال من الأحوال على ظلمه...

وجرت حصة الديانة مجراها فنودي أيضاً على فتيان مختلفين ليقيموا الدليل على علمهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأيوب الرجل الذي كان في أرض عوص ، وقد تلقى جوتليب كاسباوم ابن تاجر الجملة الذي لقي حتفه في حادث ـ تلقى على الرغم من أحوال أسرته المنهارة درجة رفيعة ، لأنه أمكنه أن يثبت بالدقة أنه كان لأيوب سبعة آلاف رأس من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة بقرة وخمسمائة أتان وخدم كثيرون جداً . .

ثم أذن للتلاميذ بفتح الأناجيل ، وكان معظمها مفتوحاً من قبل ومضى التلاميذ يقرأون فاذا ورد موضع رأى السيد بالرشتيت أنه بحاجة الى ايضاح انتفخ وقال : «والآن...» ثم ألقى بعد الاستعدادات المألوفة محاضرة وجيزة ممزوجة باعتبارات أخلاقية عامة عن النقطة التي يكون بصددها ، ولم يكن أحد يصغي اليه ، فالسلام ومداعبة النعاس كانا يرنقان على الفصل ، وكانت الحرارة شديدة تقريباً من التدفئة المستمرة ، ومصابيح الغاز ، والهواء الذي تنفثه هذه الأجسام الخمسة والعشرون المتنفسة المتبخرة فاسداً . كان الدفء والهسيس الرفيق المنبعث من اللهب ، والصوت الوتير المتصاعد من المحاضر يضغط كله على الأذهان المتمردة ، ويهدهدها الى الغفلة والخمول . وكان كاي كونت مولن يفتح أمامه عدا انجيله «الأحداث الغامضة والأعمال الخفية» لإدجار ألان بو يقرأ فيه وهو معتمد رأسه الارستقراطي على يده ـ ذلك الرأس الذي لم ينظف تماماً . أما هانو بودنبروك فكان جالساً ، متكئاً ، متهاوياً ، ينظر بفم متراخٍ وعينين ساخنتين عائمتين الى سفر أيوب الذي كانت تختلط سطوره وحروفه أمام عينيه ، وتتماوج زاخرة غائمة . وأحياناً يتذكر موضوع القديس جرال أو الممشى المؤدي إلى كنيسة الأسقفية يرخي جفونه رويداً رويداً ، ويشعر كأنه ينتحب في باطنه ، وكان قلبه يصلي لله ويدعوه ألا تنتهي أبداً حصة الصباح هذه التي ينتفي فيها الخطر ويرفرف السلام .

ومع ذلك فقد حدث ماهو في نظام الأشياء ، إذ دق جرس المشرف يعوي ويصرخ ويرن ويجلجل في الطرقات ، فانتزع الأذهان الخمسة والعشرين ربدتها الدافئة .

فقال السيد بالرشتيت : «الى هنا»! وكلف من يناوله كراسة الفصل ليسجل فيها بإمضائه أنه أعطى هذه الحصة من تكاليفه .

وطوى هانو بودنبروك انجيله ، وتمطى وهو يرتعش ويتثاءب بصورة عصبية ، لكنه لما أرخى ذراعيه وأعضاءه لم يكن بد من أن يتنفس بسرعة وصعوبة لينشط قلبه الذي عجز برهة عن أداء وظيفته ضعيفاً مترنحاً . وحَلّتْ الآن حصة اللاتينية . . فألقى إلى كاي ، حيث كان ، نظرة جانبية ، فلم يبد عليه أنه لحظ انتهاء الحصة ، بل كانت تستغرقه مطالعاته الخاصة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخرج من حافظته نسخة أوفيد المجلدة بالورق المقوى الموكت ، وفتح صفحة الأبيات التي كان عليهم حفظها اليوم . كلا لاأمل في استظهاره الآن ولو القليل من هذه الأسطر السوداء المتراصة المستقيمة المرقوقة بخمسة والمزودة بعلامات بالقلم الرصاص ، وكانت تحدق فيه غامضة مجهولة لاتبعث على الأمل . كان لايفقه معناها ، بله أن يستطيع القاء واحد منها عن ظهر قلب . ومن تلك الملحقة بها والمطلوب اعدادها لليوم لم يستطع أن يحل لغز جملة واحدة .

والتفت الى أدولف توتنهاوبت الذي كان بجانبه مشغولاً بكراسة الفصل ، وسأله بصوت فيه رنة اليأس : « ما معنى إذن deciderapt patula Jovis arbore, glandes? إن هذا كله سخف يراد به المضايقة فحسب... »

قال توتنهاوبت وهو يواصل الكتابة : « كيف ؟ تمر شجرة جوبيتر... وهي هذه البلوطة... نعم ، إني نفسي لاأعرف ذلك تمام المعرفة... »

ورجاه هانو وهو ينحي الكتاب : «لقني شيئاً ياتوتنهاوبت إذا جاء الدور على... »

ثم انزاح عن المقعد ونهض واقفاً بعد أن تأمل هزة رأس الطالب الأول بنظرة مظلمة واشارته الدالة على عدم الاهتمام وقلة الاكتراث .

وقد تغيرت الحالة وبارح السيد بالرشتيت الحجرة ، ووقف الآن على المنصة بدلاً من رجل قصير القامة ، ضئيل الجسم ، ضعيف البنية ، منهوك القوى ، ذو لحية هزيلة بيضاء ، تطل رقبته الحمراء من بنيقة مقلوبة ضيقة ، ويستبقي بإحدى يديه اللتين يعلوهما شعر أبيض قبعته العالية أمامه متجهة الفتحة الى أعلا ، وكان يعرف بين التلاميذ بالعنكبوت ، ويسمى في الحقيقة الاستاذ ياكوب . ولما كان قد عهد اليه خلال فترة الاستراحة هذه الأشراف في الطرقة فقد كان عليه أن يلقي باله كذلك الى مايجري في الفصول... فقال وهو يخلع على صوته الضئيل كل ماوسعه من قوة الأمر والنهي ، ويحرك ذراعيه في الهواء كمن يدير مرفقاً ، يريد أن يتظاهر بالشدة فيتولاه الارتباك . قال : «أطفئوا المصابيح! ارفعوا الستائر! افتحوا النوافذ!! اهبطوا كلكم ، واخرجوا الى الهواء الطلق قبحكم الله! »

فاطفئت المصابيح ، ورفعت الستائر ، وعم الحجرة ضوء النهار الباهت ، وتدفق هواء الضباب البارد من النوافذ العريضة الى الداخل ، بينما تدافع تلاميذ الفصل الى الخارج مارين بالاستاذ ياكوب ما عدا أول الفرقة الذي كان يجوز له وحده البقاء .

وتلاقى هانو وكاي عند الباب ، وسارا جنباً الى جنب يهبطان الدرج المريح الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسفل عبر الرحبات ذي الطراز وكان كلاهما صامتاً ، تلوح على هانو أمارات الإبتئاس المحزن ، ويستغرق كاي في الأفكار . فلما بلغا الفناء الكبير أخذا ببعض ضاجين غاديين رائحين...

وكان يتولى الاشراف هنا تحت شاب ذو لحية مدببة شقراء هو المدرس الأول الظريف الدكتور جولدينر الذي يدير مدرسة داخلية للأولاد يزورها أبناء الملاك الأغنياء النبلاء القادمون من هولشتين وميكلينبورج . وقد كان معنياً بمظهره على نحو لم يألفه زملاؤه بأية حال ، متأثراً بأولئك الذين يرعاهم من الفتية الإقطاعيين فكان يلبس ربطة رقبة من الحرير الملون ، وسترة مما يرتدي المتأنقون ، وسراويل ذات ألوان رقيقة تربط بسيور تحت النعل ، ومناديل معطرة ملونة الحاشية . وإذ كان ينتمي إلى أسرة رقيقة الحال لم تكن هذه الفخفخة مما يلائمه ، بل إن قدميه المتجاوزتي الحد في الكبر على سبيل المثال كانتا في حذائه المزرور ، المدبب الطرف تشذان بصورة مضحكة تقريباً . ومن غير المفهوم أنه كان مزهواً بيديه الغليظتين الحمراوين اللتين لم يكن يكف عن فركهما وشبكهما وتأملهما فاحصاً لهما راضياً عنهما . وكان من عادته أن يُصَعِّرَ خده فيميل برأسه منحرفاً إلى الوراء ، ويطرف بعينيه ، ويعبس ، مغضناً أنفه فاتحاً فمه نصف فتحة كأنه بسبيل أن يقول : «ماذا هنالك من جديد ؟»... ومع ذلك فقد كان أوجه من ألا يتغاضى بصورة متميزة عن كل المحظورات التافهة التي كان يمكن أن تقع في الفناء . كان يغض الطرف عن مثل هذا التلميذ أو ذاك إذا حمل معه الى الفناء كتاباً استعداداً للدرس القادم في اللحظة الأخيرة . يتغاضى عمّا يفعله تلاميذه الداخليون ، إذ يناولون المشرف السيد شليميل نقوداً ليشتري لهم بها خبائز ، وعن تجربة صغيرة للقوة بين تلميذين من السنة الثالثة تنتهي بشجار تتجمع حوله في الحال حلقة من الخبراء ، وأن يأمر رفاق الفصل أحدهم بالتوجه معهم الى الآلة الضاخة ليغسلوا بمائها عاره إذ يكون أبدى على صورة ما مسلكاً ينطوي على الجبن وعدم الشرف ولا يتفق والزمالة . . لقد كان الجمهور الصاخب الذي يجول بينه هانو وكاي غاديين رائحين نوعاً جريئاً من البشر قليل التهذيب . فهم ، وقد نشأوا في جو وطن منتصر في الحرب مجدد الشباب ، كانوا يمجدون ما يصاحب الرجولة الخشنة من عادات ، فكانوا يتكلمون رطانة بخسة لاذعة معاً ، زاخرة بالمصطلحات . وإدمان التدخين والشراب ، والقوة الجسمانية ، وحب المصارعة ، كان كله يلقى منهم تقديراً كبيراً ، والنَعومة والغندرة كانتا في نظرهم من أحق الرذائل بالاحتقار ، فمن يُلْقَ رافعاً بنيقة سترته يجروه إلى الآلة الضاخة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن من ير في الشارع ممسكاً بعصا للنزهة يؤدب في قاعة الألعاب الرياضية تأديباً علنياً على أفضح صوزة وآلمها...

فما كان يتحدث به هانو وكاي كان يضيع بوصفه شيئاً غريباً أجنبياً في ضجيج الأصوات التي كان الجو البارد الرطب يزخر بها . وهذه الصداقة القائمة بينهما كانت معروفة من أمد طويل في المدرسة كلها . فكان المدرسون يطيقونها كارهين ظانين بها الظنون والخروج . وكان الرفاق لعجزهم عن إدراك كنهها ، قد ألفوا أن يدعوها وشأنها في شيء بعينه من الكراهية والتهيب وأن يعدوا الرفيقين طريدين شاذين غريبين . يجب أن يتركا وشأنهما . . . على أن الكونت كاي مولن كان يتمتع بقسط من الاحترام لما يعهدونه فيه من وحشية وتمرد مفرط . لكنه فيما يتعلق بهانو بودنبروك لم يكن حتى هينريش الطويل الذي كان يعتدي على الناس جميعاً لتطاوعه نفسه على أن يضع يده عليه لغندرته وجبنه بل تهيبا غامضاً منه لنعومة شعره ، ورقة أعضائه ، ونظرته الكئيبة الهيابة الباردة .

وقال هانو لكاي وهو يقف بجانب أحد الجدران الجانبية للفناء ، ويستند إليه ، ويحكم جاكته من حوله ، يتثاءب من رعشة البرد : « إني خائف ياكاي خوفاً سخيفاً يؤلمني في كل موضع من جسمي . فهل السيد مانتلزاك هو الرجل الذي يخشى هذه الخشية ؟ قل نفسك!! لو أن حصة أوفيد هذه كانت مرت وسجل لي اللوم في كراسة الفصل ، وبقيت فيه جالساً وجرى كل شيء مجراه! إني لاأخشى هذا ، ولكني أخشى الضجة التي تصاحبه... »

وكانت أفكار كاي تستغرقه ، فقال سريعاً وعلى حين بغتة : « إن رودريج أشر هذا هو أعجب شخصية ابتكرت... وقد لبثت الحصة كلها أقرأ... فليتني أستطيع أن أكتب يوماً حكاية ممتعة كهذه! »

والمسألة هي أن كاي كان يأخذ نفسه بالكتابة . وكان هذا هو ماعناه صباح اليوم حين قال أن لديه ما يؤديه خيراً من إنجاز واجبات المدرسة ، ففهم هانو ما يعنيه . فقد نشأت عن ميله الى القصص ذلك الميل الذي ظهر عليه وهو غلام صغير ، محاولات للكتابة ، فنظم حديثاً قصيدة ، نظم أقصوصة هي مغامرة خيالية محض ، يمضي فيها كل شيء في ضوء خاب مما يبدو في المعادن وفي الجمار الخفية في أعمق وأقدس مصانع الأرض ودخائل النفس البشرية في الوقت نفسه ، وتختلط فيه القوى الأزلية للطبيعة والنفس بصورة غريبة ، وتوجه وتحول وتصفى ـ كتبها بلغة صميمة ، دالة ، فيها غلو قليل وفيها حنين ، صادرة عن عاطفية رقيقة...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان هانو يعرف هذه القصة جيداً ويحبها حباً جماً ، لكنه لم يكن مستعداً الآن للكلام عن أعمال كاي أو عن ادجار ألان بو ، فقد عاد يتثاءب ، ثم تنهد وهو ينغم في الوقت نفسه خطة ابتدعها حديثاً على البيان . فقد كانت هذه عادته . ألف أن يتنهد ، وأن يتنفس تنفساً عميقاً حين تلح به الحاجة الى تحويل قلبه المضطرب الى مجرى تنبض فيه البهجة قليلاً ، واعتاد أن يجعل نفسه موضوعاً موسيقياً أو لحناً ما من وضعه أو من ابتكار غيره...

وقال كاي :«انظر ، هاهو ذا الرب الحبيب يتجول في حديقته» .

فقال هانو : «حديقة لطيفة» . وضحك ضحكاً عصبياً ، لم يستطع الكف عنه ، ووضع منديله على فمه ، وأرسل طرفه عبره إلى ذلك الذي وصفه كاي بالرب الحبيب .

وكان من ظهر في الفناء هو المدير الدكتور موليكه ناظر المدرسة :رجلاً فارع الطول ، يلبس قبعة من اللباد ، وله لحية قصية ، وبطن بارز ، وسراويل أقصر مما ينبغي كثيراً ، وأساور أكمام قذرة دائماً تشبه القمع . كان يسير بوجه يبدو من الغضب وكأنه يتألم ، يخطو سريعاً فوق البلاط الحجري ، ويشير بذراعين ممدوتين الى المضخة التي كان الماء يتدفق منها ، يعدو عدد من التلاميذ أمامه ، ويتزاحمون لاصلاح الضرر بأقفال المحبس . لكنهم كانوا أيضاً يلبثون عندئذ طويلاً وقوفاً ، ويتأملون بوجوه مضطربة آلة الضخ تارة والمدير تارة أخرى وهو يتلفت إلى الدكتور جولدنير مهرعاً إليه بوجهه الأحمر يحاول اقناعه بصوت بعيد القرار ، خامد ، متأثر . وقد كان كلامه تتخلله ألفاظ تخرج من الشفتين غير مبينة كالهمهمة...

كان هذا المدير موليكه رجلا مخيفا ، وكان خلفا للسيد المسن المرح المحب للناس الذي درس عليه أبو هانو وعمه والذي سرعان ما وافاه الأجل في الحادية والسبعين . اذ ذاك دعا الدكتور موليكه ليخلفه وكان إلى ذاك الحين أستاذاً في مدرسة ثانوية بروسية ، فسرى بدخوله المدرسة روح آخر جديد . فحيث كان التعليم الكلاسيكي وقتئذ غاية بهيجة في ذاتها يتوخاها المرء في هدوء وفراغ ومثالية سارة ، بلغ الآن مفهوم الواجب والسلطة والسلطان والخدمة والمهنة أرفع درجة من الهيبة وأصبح «الأمر المطلق» عند فيلسوفنا كانط هو العلم الذي يرفعه الدكتور موليكه في كل خطبة رسمية مهددا . فباتت المدرسة دولة في الدول تسودها الشدة البروسية بصورة هائلة حتى شعر التلاميذ بله المدرسين أنهم موظفون كل همهم الترقي والحرص من أجل ذلك على رضى ذوي السلطان .

كذلك بعد دخول المدير الجديد ، وارتقاء وجهات النظر من ناحية الصحة وعلم الجمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يلبث ان بدىء بتحوير بناء المعهد ، وتأثيثه من جديد ، وانجاز كل شيء على احسن وجه . على انه كان للمرء ان يتساءل «ألم يكن المعهد من قبل ونصيب غرفة من وسائل الراحة في العصر الحديث أقل ، ومن لين العريكة والشعور القلبي ، والمرح ، وحب الخير ، وراحة النفس أوفر قليلاً ـ ألم يكن وهذه حاله أحب إلى النفس وأحفل بالبركة .

أما ما يتعلق بشخص المدير موليكه فقد كان من ذلك النمط المستسر الغامض العنيد الذي تأكله الغيرة ويبعث رعب اله «العهد القديم» . كان مخيفا في ابتسامه وغضبه على السواء ، وكانت السلطة الهائلة التي يملكها تجعل منه انسانا هوائيا لا يؤمن جانبه بشكل مرعب . كان في مقدوره ان يقول شيئا فيه فكاهة فاذا أضحكت أحدا انقلب مرعبا . فلم يكن أحد في مخلوقاته المرتجفة يدري أي مسلك يسلك معه فلا يبقى إلا أن يحترمه ، يبقى جاثياً على ركبتيه ويتحاشى في ذلة بالغة أن يفترسه غيظه وأن يحطمه بعدالته الكبرى . . .

وقد كان الاسم الذي اطلقه كاي عليه لايستعمله سواه وهانو بودنبروك . وقد تحرزا من نطقه أمام الرفاق خشية عدم الفهم وما يتبعه من نظرة محملقة باردة يعرفانهاجيدا... كلا ،فليس ثمة نقطة يتبادل كلاهما فيها فهما مع الزملاء . بل لقد كان اسلوب المعارضةوالانتقام الذي يأخذ به الآخرون غريبا عليهما ، ومن ثم لم يلتفتا الى نعوت الزراية المألوفة لأنها تنطق بفكاهة لا تؤثر فيهما ولا تحملهما مرة على الابتسام . وقد كان من التفاهة والرخص وعدم الفكاهة أن تسمي الأستاذ ياكوب «العنكبوت» والمدرس الأول بالرشتيت «الكوكتوه»* . كان هذا نوعا هزيلا من التعويض عما تفرضه خدمة الدولة! كلا! حقاً لقد كان الكونت مولن شرساً بعض الشيء ، وقد استن لنفسه وهانو عادة هي أن يذكر المدرسين باسمائهم الصحيحةالمعروفين بها كمواطنين مع إضافة كلمة السيد اليهما ، فيقولا «السيد بالرشتيت» و«السيد مانتلزاك» و«السيد ياكوب» . وكانت هذه التسمية تنطوي بالمثل على قلة الاكتراث وعلى النفور والتهكم وعلى التباعد والشذوذ... وكانا يتكلمان عن «هيئة التدريس» ويتسليان خلال فترات كاملة من الاستراحة بان يتصورا تحت هذه التسمية مخلوقا موجودا حقا ، ونمطا خياليا بشع الصورة من الغيلان . كانا يقولان في العموم«المعهد» كما لو كان الأمر يتعلق بالمصحة التي ينزل بها كريستيان عم هانو...

* نوع من الببغاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد بات كاى في حالة نفسية طيبة لما ان رأى« أيوب الحبيب »الذي حول كل شيءالى مظهر من الرعب الشاحب وهو يهمهم همهمة مخيفة ، ويشير الى الورق الذي كان ملفوفا به خبز الزبد ، وكان منتشرا في كل الجهات ، ملقى هنا وهناك فوق البلاط . وسحب هانو معه الى احد الابواب التي كان المدرسون القاصدون الى الحصة الثانية يدخلون منها الى الفناء ، وجعل ينحني انحناءً عميقا بصورة هائلة لطلبة المعهد المحمرة اعينهم ، الشاحبة وجوههم ، الرقيقي الحال ، وهم يتوجهون الى تلاميذ الفرقتين السادسة والسابعة عبر الافنية الخلفية . وكان يسرف في الانحناء ، ويرخي ذراعيه ، وينظر من تحت الى فوق الى هؤلاء الشبان ، متفانيا كل التفاني . لكنه لما ظهر معلم الحساب الشيخ السيدتيتجه وهو يضع يده المرتعشة بما فيها من كتب على ظهره ، يحول بعينيه الى باطنه على نحو يعد ضربا من المحال ، مقوسا ، ممتقع اللون ، يبصق على الارض ، قال بصوت رنان :« عم صباحا ايها الرمة » . وحول بعدها نظرته الحادة الى ناحية ما في الهواء . . . .

في هذه اللحظة جلجل الجرس فأخذ التلاميذ يتدفقون إلى المدخل من كل حدب وصوب . لكن هانو كان ما يزال يضحك ، يضحك وهو يصعد الدرج حتى ان رفاقه في الفصل المحيطين به وبكاي كانوا يحدجونه بنظرات باردة تنم عن الاستغراب ، بل عن شيء من النفور من هذه البلاهة الجمة...

وشمل السكون الفصل ونهض الجميع نهضة واحدة حين دخل المدرس الاول الدكتور مانتلزاك ، وكان الاستاذ الحق ، وكانت العادة ان يحترم . وجذب الباب وراءه ، منحنيا ، مادا عنقه ليرى هل وقف الجميع ، معلقا قبعته على المشجب ، مسرعا بعد ذلك إلى المنصة ، رافعا خافضا رأسه في تناوب سريع . وهنا أتخذ وضعا بعينه ، ونظر قليلا عبر النافذة الى الخارج ، محركا سبابته التي يضع فيها خاتما كبيرا للختم بين البنيقة والعنق يمنة ويسرة وكان ربعة في الرجال ، خفيف الشعر ، أبيضه ، ذا لحية جعداء كلحية جوبتير ، وعينين جاحظتين ضعيفتي البصر في زرقة اللازورد ، تبرقان خلف زجاج النظارة الحاد . كان يرتدي سترة طويلة مفتوحة مصنوعةمن قماش رمادي ناعم يحب ان يتحسسها برفق عند الخصر بيده المتجعدة القصيرة الأصابع . وكانت سراويله كما هي حال المدرسين كافة فيما خلا الدكتور جولدينيرالأنيق ، أقصر مما يجب تبدي زوجا ، عنقى زوج من الأحذية الطويلة ، عريضاً بصورة غير عادية ، لامعاً من الدهان كالمرمر .

وفجأة حول رأسه عن النافذة . وتنهد تنهيدة تنم عن الرضى ، وألقى على الفصل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الساكن نظرة قائلاً :«نعم ، نعم» مبتسماً ابتسامة صميمية لعدد من التلاميذ : لقد كان في حالة نفسية طيبة كما هو واضح ، فكان أن سرت في المكان حركة تدل على الارتياح . والكثير بل كل شيء كان يتوقف على نفسية الدكتور مانتلزاك طيبة هي أم سينة . ذلك أنهم كانوا يعرفون أنه يدع نفسه لنفسياته غير واع ، أو من دون أن يأخذ نفسه بأي نقد . كان يظلم ظلماً استثنائياً ساذجاً لايقف عند حد ، وكان يرضى رضى ظريفاً لطيفاً كأنه الهناء . وكان دائماً يصطفي اثنين أو ثلاثة يخاطبهم من دون كلفة بأسمائهم الأولى . وكانوا ذوي اليسار الذين يعيشون كأنهم في الفردوس ،كانوا تقريباً يقولون ما يريدون ،وكان مسلكه مع هذا سليماً ، فإذا انتهت الحصة سامرهم الدكتور مانتلزاك كأحسن مايكون الإنسان . على أنه ذات يوم ، ولعل ذلك كان عقب العطلة ، والله وحده يعلم لماذا ، حدث ذات يوم أن أسقط الدكتور أحد التلاميذ وقضى عليه وأُقصي وطُرد ونودي غيره بالاسم الأول ، وكان الدكتور مانتلزاك يؤشر لهؤلاء المحظوظين على أخطائهم في البدهيات في تسامح وتنميق بحيث تحتفظ أعمالهم في حالة الخطأ الشنيع بمظهر نظيف . أما في الكراسات الأخرى فكان يجول بقلم عريض مستشيطاً غضباً ، ويغمرها بالأحمر بحيث تترك في النفس أثراً مرعباً مما يشبه التخريب . وإذ كان لا يُحصي الأخطاء ، بل يعطي الدرجات على قدر ما يكون في الكراسة من الحبر الأحمر ، فقد كان ذوو الحظوة عنده يعودون من تصحيحه بغنم كبير . وكان مسلكه هذا لايحمله على أدنى تفكير ، بل كان يجده سليماً كل السلامة ، لايخطر له الغرض ببال ، ولايرى فيه تحيزاً أو تحاملاً . فإذا أوتي أحد التلاميذ شجاعة أسيفة فاحتج على ذلك ، فقد الأمل في أن يخاطبه الدكتور يوماً بلا كلفة أو يناديه باسمه الأول . وهذا أمل لم يفرط فيه أحد...

والآن تتعامد ساقا الدكتور مانتلزاك وهو واقف يقلب صفحات مفكرته وكان هانو بودنبروك منكباً الى الامام يعتصر يديه تحت الدرج ، إذ كان الدور على حرف الباء ، فحالا سيرن اسمه ، فيقف ولايدري حرفاً واحداً ، فتكون فضيحة وكارثة مخيفة صاخبة مهما كانت نفسية الأستاذ طيبة... وقد طالت الثواني وهو يتعذب . «بودنبروك...» الآن سيقول :«بودنبروك...»

لكن الدكتور مانتلزاك قال : «ادجار» وطوى مفكرته على سبابته ، وتبوأ مجلسه فوق المنصة ، كما لو كان كل شيء على خير مايرام .

ماذا ؟ كيف حدث هذا ؟ ادجار... هذا اسم ليدرز ، ليدرز البدين الجالس هناك عند

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النافذة ، والحرف هنا حرف اللام ، ولم يكن الدور عليه بحال من الأحوال! كلا ، أممكن هذا ؟ لقد كان الدكتور مانتلزاك من الرضى بحيث اختار كثيراً ممن يصطفيهم ، فلم يهمه بحال من الأحوال من الذي يأتي دوره حسب النظام...

ووقف ليدرز البدين ، وكان له وجه كلب صغير أفطس الأنف ، وعينان عسليتان جامدتان . ومع أنه يشغل مكاناً مؤاتياً يستطيع أن يقرأ منه في الكتاب بكل راحة ، فقد كان أبلد من أن يفعل ذلك . كان يشعر أنه آمن في فردوسه فأجاب ببساطة :«لم أستطع أمس أن أحفظ شيئاً لصداع ألم بي» .

فقال الدكتور مانتلزاك متكدراً :«أوه ، أتخذلني ياادجار ؟... أتريد ألا تسمعني شعر العصر الذهبي ؟ وأسفاه ياصديقي! أكان رأسك يؤلمك ؟ لكنت خليقاً أن تنبئني بذلك عند بدء الحصة وقبل أن أنادي عليك... ألم يلم بك الصداع أخيراً مرة من قبل ؟ كان ينبغي أن تعالجه بشيء ياادجار ، ذلك أن هناك خطراً عليك من التخلف... تيم ، أتريد أن تنوب عنه ؟ »

وجلس ليدرز بعد أن عاد في هذه اللحظة بكراهية الجميع . فقد تبينوا جلياً أن نفسية الأستاذ هبطت هبوطاً كبيراً ، وأن ليدرز قد ينادي في الحصة التالية باسم أسرته... ونهض تيم عن مقعد من أبعد المقاعد في مؤخرة الفصل ، وكان فتى أشقر ، عليه مظهر الريف ، يرتدي جاكتة بنية فاتحة ، وله أصابع قصيرة عريضة . كان فمه يتخذ شكل القمع ، ويعبر تعبيراً ينم عن حمية وحمق ، ويعدل في عنف وضع كتابه المفتوح وينظر مجهداً أمامه في استقامة... وأطرق برأسه وجعل يقرأ بصوت مديد وتير ويتوقف بين الحين والحين ، كأنه طفل يتلو في كتاب مبادئ القراء "Aurea Frima sata est aestas" .

لقد وضح أن الدكتور مانتلزاك كان يسأل في هذا اليوم ، خارجاً عن كل نظام ، وأنه لم يكن يهتم أي اهتمام بمن لم يكن امتحن من أمد طويل... فلم يعد في الراجح يهدد هانو أن ينادي اسمه ، اللهم إلا أن يقع هذا بفعل الصدفة المنحوسة . وقد تبادل مع كاي نظرة هنيئة ، وبدأ يرخي أعضاءه ويشعر بالراحة قليلاً...

وبغتة قوطع تيم في القائه . أما لأن الدكتور مانتلزاك لم يفهم الملقى حق الفهم وأما لأنه رغب في الحركة : فقد غادر المنصة وجعل يتنقل في الفصل متمهلاً وعلى هواه ، ثم وقف وكتاب أوفيد في يده أمام تيم مباشرة ، وكان قد أزاح كتابه في حركة مقتضبة خفية ، وعجز تام . كان يتنفس بصعوبة من فمه الشبيه بالقمع ، وينظر الى الأستاذ بعينين زرقاوين تشعان اخلاصاً وتنمان عن الارتباك لايستطيع لفظاً .

وقال الدكتور مانتلزاك «والآن ياتيم... لِمَ توقفت مرة واحدة ؟»

وأمسك تيم برأسه ، ودرجت عيناه ، وتنفس في عسر ، وقال أخيراً وعلى وجهه ابتسامة ضالة «لقد ارتبكت حين وقفت عندي ياحضرة الدكتور!»

وابتسم الدكتور مانتلزاك ؛ ابتسم وقد أطربه ماقيل وقال «استجمع نفسك الآن واستمر» . وعاد بذلك الى المنصة .

واستجمع تيم نفسه ، وسحب كتابه ثانية أمامه ، وفتحه وهو يجاهد لاستعادة طمأنينته في صورة ظاهرة ، وأجال بنظره في الحجرة ، ثم أطرق برأسه ، واستعاد رباطة جأشه .

وقال الأستاذ لما فرغ تيم «إني مرتاح . لقد حفظت جيداً ، مافي ذلك شك . فقد ينقصك الاحساس بالايقاع ياتيم . إنك ملم بالروابط . ومع ذلك لم تراع في القائك الوزن السداسي . إنه ليخيل إلي أنك حفظت كل شيء على أنه نثر... لكنك كما قلت قد اجتهدت وبذلت قصاراك ، ومن يجد ويجتهد دائماً . . . يمكنك أن تجلس» .

وجلس تيم فخوراً متهلل الوجه ، ورصد له الدكتور مانتلزاك درجة مرضية خلف اسمه ، لكن الغريب أنه في هذه اللحظة لم يكن المدرس وحده بل تيم نفسه ورفاقه كافة أيضاً من رأوا مخلصين أن تيم تلميذ طيب مجتهد حقاً وصدقاً ، تلميذ استحق درجته الجيدة كل الاستحقاق . كذلك هانو بودنبروك لم يسعه أن يشذ عن هذا الرأي ، وإن كان قد شعر بأن شيئاً فيه ينفر من هذا... وعاد ينصت في انتباه الى الاسم الذي سيرن بعد ذلك...

ونادى الدكتور مانتلزاك : «مومه! مرة أخرى : Aura prima»

اذن هو مومه! شكر لله! فقد بات هانو آمناً الآن لن يكون بد من القاء الأبيات لثالث مرة ، وفي التحضير الجديد كان الدور من هنيهة على حرف الباء...

ونهض مومه ، وكان انساناً طويل القامة ، شاحب اللون ، ذا يدين مرتعشتين ونظارة مستديرة كبيرة بصورة غير عادية ، فقد كان يعاني من عينيه ، قصير النظر الى حد أنه كان محالاً أن يقرأ وهو واقف في كتاب موضوع أمامه ، فكان عليه أن يحفظ ، وقد حفظ... لكنه لم يكن موهوباً بصورة يرثى لها وكان إلى ذلك لا يعتقد أنه سينادى عليه اليوم ، لم يستذكر سوى القليل ، ثم ارتج عليه بعد الكلمات الأولى ، فأعانه الدكتور مانتلزاك على التذكر ، وساعده للمرة الثانية بصوت أكثر حدة ، وفي ثالث مرة انفعل أشد انفعال ؛ فلما لم يتحرك مومه استشاط الأستاذ غضباً .

قال : « إن هذا غير كاف يا مومه! اجلس! إنك شخص يرثى له ، تأكد من ذلك أيها الأبله! إن الغباوة والكسل أكثر مما ينبغي للطيب... »

فتهاوى مومه ، وكان منظره هو البؤس بعينه . ولم يكن في الحجرة في هذه اللحظة من لم يحتقره . ومرة أخرى شعر هانو بودنبروك بتقزز ، بنوع من غثيان النفس يخنقه... لكنه في الوقت نفسه كان يراقب بوضوح مرعب ما يجري أمامه في الفصل . فقد رسم الدكتور مانتلزاك بعنف علامة سيئة المعنى خلف مومه ، وقلب نظره في مفكرته مقطب الحاجبين ، وانتقل من غضبه الى جدول الأعمال وبحث عمن عليه الدور في الحقيقة . وكان هذا جلياً! فلما بده هانو ما تبينه كل البداهة سمع اسمه أيضاً ينادى ، سمعه وكأنه حلم مزعج .

« بودنبروك! » ـ لقد نادى الدكتور مانتلزاك :« بودنبروك » وكان النداء « بودنبروك! » مايزال صداه في الجو . ومع ذلك لم يصدقه هانو وقد طنت أذناه وظل جالساً .

كانت عيناه تتسمان بزرقة الياقوت الأزرق وتلمعان خلف زجاجة نظارته... « هل تتكرم » ؟

حسناً . إذن هذا هو المراد . وكان لابد أن يقع على خلاف ماتوقع تماماً . فالآن قد ضاع كل شيء ، وقد بات الآن في وعيه ، فهل تعلو زمجرة هائلة ؟

لقد نهض وكان بسبيل أن يقدم اعتذاراً سخيفاً مضحكاً ، بسبيل أن يقول أنه « نسي » أن يحفظ الشعر لولا أنه تبين فجأة أن التلميذ الذي يجلس أمامه أمسك له بالكتاب مفتوحاً .

وكان الجالس أمامه هانس هرمان كيليان ، فتى قصير القامة ، أسمر اللون ، دهن الشعر ، عريض المنكبين . كان يريد أن يصبح ضابطاً ، وكانت تحدوه روح الزمالة الى حد أنه لم يخذل يوهان بودنبروك الذي لم يكن يحبه . بل أنه شار له بسبابته الى الموضع الذي يبدأ عنده...

وحدق هانو فيما هنالك وشرع يقرأ بصوت مضطرب ، وهو مقطب حاجبيه وزامٌ شفتيه ، عن العصر الذهبي الذي نبت أولاً من دون « مقتصين » ، يفعل مابدا له بلا قوانين ، ثم رعى الوفاء والحق . قال باللاتينية :« لم يكن القصاص والخوف قائمين ، ولم يكن يقرأ على لوحات من النحاس عبارات تهديد أو يهاب أصحاب الرجاء وجه قاضيهم... » كان يقرأ وعلى وجهه تعبير من الألم والاشمئزاز ، وكان يقرأ الرغبة في القراءة قراءة غير منسقة ، ويغفل قصداً بضع روابط مؤشراً عليها في نسخة كيليان بالقلم الرصاص ، وكان يلقي الأشعار تعتورها الأخطاء ، ويرتج عليه ، ويجاهد كما يّظهر في المضي قدماً لايغيب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبداً عن ذهنه أن الأستاذ سيكشف كل شيء ، وينقض عليه... وقد سببت له متعة السرقة بالنظر الى الكتاب مفتوحاً أمامه تنميلاً في جلده . لكنه كان مفعماً بالنفور ، وكان يغش متعمداً غشاً يجافيه الاتقان على قدر الامكان كي يكون الغش بذلك أقل حقارة ، ثم لزم الصمت وساد سكون لم يجرأ فيه على أن يرفع بصره ، وكان سكوناً مخيفاً . ذلك أنه كان مقتنعاً بأن الدكتور مانتلزاك رأى كل شيء ، فغاض الدم من شفتيه ، لكنه أخيراً تنهد الأستاذ وقال :

«آن يا بودنبروك* sitacuisses لعلك تغفر لي بصفة استثنائية أني لم أرفع معك الكلفة في الخطاب!... أتعرف ماذا فعلت ؟ لقد مرغت الجمال في التراب وسلكت مسلك الواندالي ، مسلك البربري! إنك مخلوق مسل يابودنبروك ، أعرف فيك هذا من أنفك! فإذا تساءلت هل كنت طيلة الوقت تسعل أو كنت تلقي شعراً رفيعاً ، ملت الى الأخذ بالرأي الأول . إن تيم لم يبد شعوراً كثيراً بالايقاع ، لكنه بالنسبة لك عبقري مذهل... اجلس أيها المنحوس لقد حفظت حقاً ، لقد حفظت . ولايسعني أن أعطيك شهادة سيئة... لقد أفرغت قصاراك... اسمع ، ألا يتحدث الناس بأنك موسيقي وأنك تعزف على البيان ؟ فكيف أمكن هذا ؟ . والآن لابأس عليك . اجلس فلعلك اجتهدت ولابأس!»

ودون له في مفكرته درجة مرضية ، وجلس هانو بودنبروك ، وكما كانت الحال من قبل مع العبقري المذهل تيم كانت الحال الآن . فإنه لم يتمالك نفسه من الشعور مخلصاً بأنه قد مس بهذا الثناء الذي تضمنته كلمات الدكتور مانتلزاك . وقد كان من رأيه في هذه اللحظة بصفة جدية أنه تلميذ غير موهوب كل الموهبة ، لكنه مجتهد ، خرج من ورطته سليم الشرف بصورة نسبية ، وشعر شعوراً جلياً بأن سائر رفاق الفصل وهانس هرمان كيليان بالمثل يرون نفس الرأي . وعاد يستشعر شيئاً كالغثيان ، لكنه كان منهوك القوى الى حد ألا يفكر فيما سلف ، فأغمض عينيه شاحباً ، مرتعشاً وأخذته سنة من النوم...

أما الدكتور مانتلزاك فقد تابع الدرس وانتقل الى الأبيات التي كانت معدة لهذا اليوم ونادى على بيترسن . فنهض بيترسن منعشاً ، طروباً ، واثقاً ، شجاعاً ، موطناً النفس على النضال ، مستعداً للمخاطرة ، ومع ذلك فقد كان سقوطه اليوم أمراً محققاً! ، فما كان ينبغي أن تمر الحصة من دون أن تقع كارثة أفدح من تلك التي وقعت لمومة المسكين القصير النظر...

---

* لو سكت

وتـرجم بـيترس وهو يلقي بين الحين والحين نظرة على الصفحة الأخرى من كتابه ، الجانب الذي لايبغى منه شيئاً . وكان يؤدي ذلك بمهارة ، يتظاهر بأن هناك مايزعجه ، ويمر يده فوق هذا الشيء الوهمي ، وينفخه كما لو كان هباءة تضايقه أو ماشاكل ذلك ، ومع هذا فقد وقع الشيء المرعب المخوف .

فقد صدرت بغتة عن الدكتور مانتلزاك حركة عنيفة أجاب عنها بيترسن بحركة مشابهة . وفي نفس اللحظة غادر الأستاذ المنصة مهرولاً قاصداً بيترسن بخطى واسعة لاسبيل الى وقفها...

قال لما أن وصل اليه :« إن في الكتاب حلاً هو ترجمة ما فيه » .

فتلعثم بيترسن وقال :« حلا...أنا...كلا... »

وكان فتى وسيماً ، غزير الشعر أشقره يتهدل على جبينه ، ذا عينين زرقاوين جميلتين ، تضطربان الآن من الخوف .

« ليس في كتابك حل ؟ »

« كلا ياحضرة المدرس الأول... ياحضرة الدكتور... حل ؟ ليس معي في الحق حلول... إنك مخطئ... إنك تستريب بي بلا حق... » وكان بيترسن يتكلم كما لم يعتد في الحقيقة الكلام . فقد كان من أثر خوفه ، أنه كان يتخير ألفاظه ، قاصداً بذك أن يهز الأستاذ ، قال في محنته الطاغية :« أني لاأغش... لقد كنت دائماً شريفاً... طوال حياتي! »

لكن الدكتور مانتلزاك كان واثقاً كل الثقة من هذا الأمر المحزن فقال في هدوء :« أعطني كتابك! »

فتشبث بيترسن بكتابه ورفعه متوسلاً بكلتا يديه ، ومضى يبين بلسان مفلوج :« صدقني... ياحضرة المدرس الأول... ياحضرة الدكتور... ليس في الكتاب شيء... ليس عندي حل... لم أغش... لقد كنت دائماً شريفاً... »

وأعاد الأستاذ وضرب الأرض بقدمه :« أعطني الكتاب! »

فتراخى بيترسن وحال لون وجهه أغبر وقال وهو يسلم الكتاب :« حسناً! هاهو ذا!نعم فيه حل!انظر بنفسك ، إنه فيه! لكني لم أستعمله » . صاح بهذا بغتة في الهواء .

غير أن الدكتور مانتلزاك لم يسمع هذه الأكذوبة السخيفة النادة عن يأسه . وأخرج الحل وتأمله ، ممسكاً إياه بوجه من يمسك شيئاً نتناً . ثم دفعه في جيبه ، وأعاد أوفيد الى بيترسن مزدرياً ، وطلب كراسة الفصل بصوت مكتوم . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأحضره اليه أودلف توتنهاوبت بهمة ، فأثبت فيه لوماً لبيترسن على محاولة الغش ، فقضى عليه لمدة طويلة آتية ، وحال دون نقله في عيد الفصح . وقال له الدكتور مانتلزاك فوق الذي قاله : « إنك سبّة للفصل » . وعاد الى المنصة . وجلس بيترسن وقد صدر عليه الحكم ورأى الفصل كيف انزاح جاره عنه قليلاً ، ورعاه الجميع بمزيج من الاشمئزاز والعطف والرعب . فقد أسقط وهجر وحيداً هجراناً تاماً ، لأنه ضُبط متلبساً . ولم يكن ثمة في بيترسن سوى رأي واحد هو أنه سبّة للفصل حقاً . وقد سلموا بحالته بلا اعتراض ، كما سلموا بنجاح تيم وبودنبروك وسوء حظ المسكين مومة بالضبط... وقد فعل هو أيضاً ذلك .

ومن كان بين هؤلاء الفتية الخمسة والعشرين فاضلاً ، قوياً ، كفئاً للحياة كما هي ، فقد سلّم في هذه اللحظة بهذا الأمر كما هو تماماً ، ولم يشعر باهانة منه ، ووجد كل شيء بدهياً ، وعلى مايرام . لكنه كانت هناك أيضاً عينان تركزتا في تفكير عابس على نقطة بعينها... فقد كان الصغير يوهان يحدق في ظهر هانس هرمان كيليان العريض ، وكانت عيناه العسليتان الذهبيتان اللتان تحيطهما ظلال زرقاء طافحتين بالنفور والصد والخوف... بيد أن الدكتور مانتلزاك مضى يواصل الدرس... فنادى على تلميذ آخر ، أي تلميذ ، أودلف توتنهاوبت ، ذلك أنه كره اليوم كل الكراهية أن يمتحن أحداً يشك في صلاحيته . ثم أنه قد جاء دور واحد كان معتدلاً في استعداده ، وكان لايدري حتى معنى Patula Jovis arbore glandes ولا لِمَ كان على بودنبروك أن يقولها ؛ وقد قالها مخافتاً ومن دون أن يرفع بصره ، لأن الدكتور مانتلزاك سأله ، وتلقى على اجابته هزة رأس .

ولما فرغ من اجابات التلاميذ كانت الحصة قد فقدت أيضاً كل أهمية . وقد ترك الدكتور مانتلزاك أحد الموهوبين يتابع الترجمة من تلقاء نفسه ولم يعره من سمع أكثر مما أعاره الأربعة والعشرون الباقون اياه وقد أخذوا يستعدون للحصة التالية . ذلك أن هذا لم يثر اهتمام أحد . فلم يكن في الامكان اعطاء شهادة لذلك ولا الحكم به على الاجتهاد المدرسي... كذلك كانت هذه الحصة على وشك الانتهاء . بل لقد انتهت . فقد دق الجرس . وعلى هذا النحو كان ينبغي أن تجرى الأمور لهانو ، فيتلقى هزة رأس .

وقال كاي وهما يسيران وسط الرفاق الى حجرة الكيمياء عبر الطرقات الغوطية :
« والآن ماذا تقول ياهانو!لو رأوا جبين قيصر يتحول... لقد أصبت حظاً عظيماً! »

فقال يوهان الصغير :« إن نفسي تغثى ياكاي . لاأريد هذا الحظ اطلاقاً ، إنه يشعرني بالغثيان... » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان كاي يعرف أنه كان خليقاً في موقف هانو أن يشعر شعوره بالضبط .

وكانت حجرة الكيمياء مقبوة مدرجة المقاعد ، ذات خوان كبير للاختبار ، وخزانتين مليئتين بالقوارير . وكان الهواء في الفصل الأخير ساخناً جداً ثم بات رديئاً . لكنه هنا كان مشبعاً بالهيدروجين والكبريت الذي كان يجري الاختبار عليه من هنيهة . كان كريه الرائحة إلى غير حد . وقد فتح كاي النافذة على مصراعيها . ثم سرق كراسة تبييض أودلف توتنهاوبت وأخذ ينقل منها المقرر الذي يقدم اليوم ، بسرعة كبيرة . وقد فعل هانو وسائر التلاميذ فعله مما استغرق فترة الاستراحة كلها حتى دق الجرس وظهر الدكتور ماروتسكة .

وكان هذا هو المدرس الأول العميق كما أسماه كاي وهانو . كان ربعة في الرجال قمحي اللون أصفره بصورة غير عادية ، على جبينه ورمان ، خشن اللحية قذرها ، وكذلك شعر رأسه . وكان يبدو عليه دائماً أنه من ساهري الليالي الذين لايغتسلون ، لكن هذا لم يكن صحيحاً. في الواقع ، كان يدرس العلوم الطبيعية ، لكن مادته الأصلية كانت الرياضة ، وكان في هذه المادة من أهم المفكرين . كان يحب الكلام عن المواضع الفلسفية في الانجيل ، وكان أحياناً يتواضع أمام تلاميذ الفرقتين الثانية والأولى ، حالما رضي النفس ، فيقدم اليهم تفسيرات عجيبة لمواضع مستسرة في الكتاب... هذا الى أنه كان ضابطاً احتياطياً عند المدير موليكة . وهو أكثر المدرسين تعلقاً بالدربة ومحافظة على النظام ، يعرض التلاميذ وقوفاً منتصبي القامة ، ويحدجهم بنظرة فاحصة ، ويطالبهم بالايجاز والدقة في الجواب ... وقد كان هذا المزيج من التصوف والصرامة منفراً منه بعض الشيء...

وقد قدمت التبييضات ، ودار الدكتور ماروتسكه بالتلاميذ يدق على كل كراسة باصبعه ، فكان بعض بعينه منهم ممن لم يكتبوا يقدمون له كراسات أخرى تماماً أو أعمالاً قديمة من دون أن يلحظ شيئاً .

ثم بدأ التدريس ، وكما كانت الحال من هنيهة مع أوفيد جعل الخمسة والعشرون فتى يظهرون الآن اجتهادهم المدرسي فيما يتعلق بالبورون والكلور والاسترونشيوم . وقد أثنى على هانس هرمان كيليان لأنه كان يعرف أن كبريتات الباريوم أكثر وسائط التزييف استخداماً . وقد كان خيرهم اطلاقاً لأنه كان يريد أن يصبح ضابطاً . ولم يكن هانو وكاي يعرفان شيئاً . فكان مارصده لهما الدكتور ماروتسكه في مفكرته من درجات رديئاً .

ولما فرغ من الاختبار والاستجواب واعطاء الشهادات كان اهتمام التلاميذ بحصة الكيمياء أيضاً قد زال من كل جانب . فأخذ الدكتور ماروتسكه يقوم ببضع تجارب ، ويسمع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التلاميذ بضع فرقعات ، وينشر أبخرة ملونة ، لكن هذا كان من قبيل ملء بقية الحصة . وأخيراً أملى النصاب الذي يجب أن يحفظ للمرة التالية ، ثم دق الجرس ومرت الحصة الثالثة أيضاً .

وابتهج الجميع حتى بيترسن الذي ساء حظه اليوم . ذلك أن الحصة التالية حصة مرحة ليس فيها مايخشى ولايرجى منها سوى العبث والتسلية . كانت حصة اللغة الانجليزية يعطيها مودرزون المدرس تحت التجربة في فقه اللغات ، وهو شاب يعمل بالمعهد منذ بضعة أسابيع . لكنه كما عبر الكونت كاي مولن يقدم حفلة ارتبط بها من دون أمل له في التعاقد معه ، فالأمور تجري في حصصه ميسرة مرحة...

وقد بقي بعض التلاميذ في قاعة الكيمياء ، وصعد البعض الآخر الى حجرة الفصل . لكنه لم يكن بأحد حاجة الآن إلى الارتعاش من البرد في الفناء . إذ كان للسيد مودرزون الاشراف في الطرقة أثناء فترة الاستراحة . وهو لم يكن ممن يجرؤون على انزال أحد . كذلك كان الأمر يقتضي اعداد العدة لاستقباله...

لم يحظ الفصل بأكثر من السكون الذي كان عندما دق الجرس للحصة الرابعة ، فكان الجميع يثرثرون ويضحكون ، مغتبطين بالرقص الذي كان ينتظرهم . وقد مضى الكونت مولن وهو يعتمد رأسه بين يديه في اشتغاله بروديريش أوزهر ، وجلس هانو ساكناً يشهد مايجري . وكان البعض يقلد أصوات الحيوان ، ويمزق صياح الديك الهواء . وكان ڤاسر فوجل يجلس الى الخلف ينخر كالخنزير بالضبط دون أن يدرك أحد أن هذا الصوت يصدر عن باطنه . وكان على السبورة رسم بالطباشير يمثل تصعيرة خد رسمها المدهش تيم . فلما دخل السيد مودرزون لم يستطع على الرغم مما بذل من جهد شديد أن يقفل الباب وراءه ، لأن خابورا غليظاً من خشب الزيزفون كان مدسوساً في الشق ، فكان على أودلف توتنهاوبت أن يزيله .

وكان المرشح للتدريس مودرزون رجلاً ضنيل الجسم ، عديم الهيبة ، يدفع كتفيه إلى الأمام موروباً حين يمشي ، ويقطب جبينه تقطيبة غليظة ، ويحمل لحية سوداء خفيفة ، وكان حين دخل الفصل يبدو عليه الارتباك الشديد ، يطرف دائماً بعينيه البراقتين ، ويتنفس ويفتح في تنفسه فمه كأنما يريد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يجد الكلام اللازم ، وبعد أن خطا من الباب ثلاث خطوات وطئ حمصة مما تقعقع ومن نوع نادر يحدث ضوضاء فكأنما داس على ديناميت . وقد ارتجف رجفة شديدة ثم ابتسم في ورطته وتظاهر كأنه لم يقع شيء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقف أمام الصف الأول من المقاعد منحرفاً في حدبة ، واضعاً راحة يده على قرصة الدرج الأمامي . بيد أن التلاميذ كانوا يعرفون منه هذه الوقفة الأثيرة عنده ، ومن ثم كانوا يلطخون هذا الموضع من الدرج بالمداد بحيث تتلوث يد السيد مودرزون الصغيرة الخرقاء كلها . وقد اصطنع أنه لم يلحظ شيئاً ووضع يده المبللة المسودة على ظهره وقال بصوت ناعم :« إن النظام في الفصل ليس على أتمه » .

وأحبه هانو بودونبروك في هذه اللحظة ، ونظر في جمود الى وجهه المقطب من قلة الحيلة ، غير أن نخير فاسر فوجل ازداد جهارة وأضحى أكثر مطابقة للطبيعة وفجأة انهمرت حفنة من الحمص على زجاج النافذة وارتدت عنه وسقطت في الحجرة تقعقع .

وقال أحدهم بصوت مرتفع واضح : « إنه البرد يتساقط » . وبدا كأنما صدّق السيد موردزون ذلك ، لأنه انسحب بلا ابطاء الى المنصة . وطلب كراسة الفصل ولم يفعل ذلك ليدون فيه اسم أحد ، ولكنه كان مضطراً إلى أن ينادي على الأسماء من البيان المكتوب كيفما اتفق ، إذ هو لم يكن يعرف بعد أسماء التلاميذ ، اللهم إلا القليل منهم ، مع أنه درّس في هذا الفصل خمس أو ست حصص الى الآن .

فقال :« فيدرمان . هل تتفضل بالقاء القصيدة ؟ »

فصاحت طائفة مختلفة من الأصوات :« غائب » . وهو جالس على مقعده بطوله وعرضه يقذف بالحمص في طول الحجرة وعرضها .

وطرف السيد مودرزون بعينيه وتهجى اسماً آخر قال : « فاسر فوجل » .

فصاح بيترسن الذي تمتلكه فكاهة الآيس :« مات » . وبين دبيب الأقدام ونخير الخنازير ونعيق الغربان وقهقة الاستهزاء أعاد التلاميذ جميعاً أن فاسر فوجل مات .

ورمش مودرزون كرة أخرى ، وتلفت حوله ، وزم فمه زمة مريرة ، ثم نظر ثانية في كراسة الفصل مشيراً بيده الصغيرة الخرقاء الى الاسم الذي أراد أن ينادي عليه .

قال غير واثق كثيراً :« بيرلمان » .

فقال الكونت مولن في وضوح وثبات :« أصيب بالجنون للأسف » وأكد التلاميذ ذلك أجمعين بين الهتاف المتزايد .

وهنا نهض السيد مودرزون وصاح بين الضجيج :« بودنبروك ، ستؤدي لي واجباً عقاباً لك . فإذا عدت الى الضحك فلن يكون بد من تعزيرك » .

ثم عاود مجلسه . والواقع أن بودنبروك كان قد ضحك . فقد أثارت نكتة كاي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنده ضحكاً شديداً خافتاً لم يستطع أن يكف عنه ، إذ وجد النكتة طريفة وهزته كلمة «للأسف» بنوع خاص ، فأغرق في الضحك . لكنه لما نهره السيد مودرزون هدأ ونظر الى المرشح في سكون وعبوس ، فتبين في تلك اللحظة كل شيء فيه ، كل شعيرة تافهة في لحيته التي كانت في كل موضع منها تنم عن بشرته ؟ رأى عينيه العسليتين البراقتين اللتين لايحدوهما أمل ، رأى كأنه يحمل على يديه الصغيرتين الخرقاوين زوجين من الأساور ، لأن أكمام قميصه كانت عند معصمه في طول الأساور الحقيقية وعرضها ، رأى شخصه الذي اكتمل هزاله مستولياً عليه اليأس... واطلع أيضاً على باطنه . فقد كان هانو بودنبروك هو تقريباً الوحيد الذي يعرفه مودرزون باسمه ، فكان ينتفع بهذه المعرفة على الدوام في حثه على النظام واستكتابه الواجبات عقاباً له ورسومه الخسف . وكان يعرف التلميذ بودنبروك بشيء واحد هو أنه يتميز بمسلكه الهادئ عن الآخرين . فاستغل هذه الدعة لاشعاره دائماً بسلطته التي لم يجرؤ على تقريرها عند من يرفعون عقائرهم ومن يتواقحون . وفكّر هانو! حتى العطف تجعله الحطة مستحيلاً على الإنسان فوق هذه الأرض ، إنني لاأشترك في تعذيبك واستغلالك أيها المرشح للتدريس مودرزون ، لأني أجد هذا وحشياً ، بغيضاً ، عادياً . فبِمَ ترد علي ؟ لكن هكذا تسير الأمور ، هكذا هي ، وهكذا ستكون دائماً وفي كل مكان . وعاد الخوف يساوره والغثيان يتملكه ، عاد يخاطب المدرس تحت التمرين مودرزون في نفسه : وأن استشفك فوق ذلك بغيضاً الى هذا الحد بهذا الوضوح!...

وأخيرا وجد واحد ، لاهو ميت ، ولاهو مجنون ، أراد أن يقوم بالقاء أبيات الشعر الانجليزي التي تحتويها قصيدة عنوانها «القرد» ، عمل صبياني يُكلف بحفظه هؤلاء الفتيان الذين تتوق أنفسهم الى البحر ، والأعمال ، والنشاط الجدي في الحياة .

أيها القرد الطروب أنت في الدنيا تهرج

وكانت ثمة عدة مقاطع تلاها التلميذ كاسباوم في كتابه . ولم يكن أحد بحاجة أمام السيد مودرزون الى أن يتكلف أقل زعم . هذا الى أن الضجيج كان يزداد شدة على الدوام وأن كل الأقدام كانت تتحرك وتنبش الأرض التربة . وكان الديك يصيح ، وينخر الخنزير ، ويتطاير الحمص ، والخمسة والعشرون تلميذاً منتشين من افلات الزمام . وقد تنبهت فيهم غرائز الفوضى التي تلازم سن السادسة عشرة والسابعة عشرة فرفعت أوراق

تحوي رسوماً بالقلم الرصاص هي أشد ماتكون بذاءة ، وأديرت عليهم فأثارت ضحكهم المتناهي...

ومرة واحدة ساد الصمت ، إذ كف المُلقي عن الإلقاء وانتصب السيد مودرزون نفسه واقفاً ، مرهفاً أذنيه ، حدث شيء لطيف ، تعالت نغمات رقيقة في صفاء رنين الأجراس من مؤخرة الحجرة وانسابت حلوة ، حنوناً ، ذات معنى في هذا السكون المفاجئ . كانت ساعة عازفة حملها أحد التلاميذ ، وكانت تعزف :«أنت ، أنت عزيزة علي» أثناء حصة الانجليزية . لكنه في نفس اللحظة التي تعالى فيها هذا اللحن الشجي وقع شيء مخيف... دهم الحضور جميعاً قاسياً ، طاغياً ، فالجاً ، لم يكن في الحسبان .

فقد فتح الباب دون طرق دفعة واحدة على سعته ، ودخلت قامة طويلة هائلة لفظت شفتاها صوتاً كالدمدمة ، ووقفت أمام المقاعد بخطوة جانبية واحدة... كانت هذه القامة للرب العزيز .

واكتسى وجه السيد مودرزون حمرة الدماء ، وجر الكرسي الساند من المنصة الى أسفل ومسحه بمنديل ، فهب التلاميذ وقوفاً رجلاً واحداً ، وضغطوا أذرعهم الى جوانبهم ، ووقفوا على أطراف أصابعهم ، وحنوا الرؤوس ، وعضوا الألسن من فرط الولاء . وساد سكون عميق لم يقطعه سوى تنهيدة من أحدهم أطلقها الجهد ثم عاد السكون .

وعرضها المدير موليكه الصفوف المحيية برهة من الزمان رفع بعدها ذراعيه بأساورهما القذرة التي تشبه القمع ، ثم أرخاهما بأصابعهما المتباعدة ، شأن المنقض على مفاتيح البيان . قال بصوت الكمان الأجهر رافعاً الكلفة في الخطاب :«اجلسوا» .

فهبط التلاميذ وقرّب السيد مودرزون الكرسي بيدين مرتعشتين ، وجلس المدير الى جانب المنصة وقال :«تفضل استمر» ورن هذا القول مرعباً كما لو كان قال :«سنرى ، والويل لمن...!»

كان جلياً لماذا حضر . فقد كان على السيد مودرزون أن يؤدي أمامه تجربة في التدريس ليرى ماذا أفاد تلاميذ الفرقة الثانية الثانوية من ست أو سبع حصص . والأمر هنا يتعلق بكيانه ومستقبله . وكان منظر المرشح للتدريس محزناً حين عاد الى الوقوف على المنصة ونادى أحد التلاميذ ليعيد القاء قصيدة «القرد» ، وإذ كان التلاميذ قبل ذلك قد امتحنوا وأبدى الرأي فيهم ، فكذلك كان المدرس في نفس الوقت قد أدى مهمته... لقد كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حظ الاثنين سيئاً! فقد كان ظهور المدير موليكه مفاجأة ، ولم يكن أحد مستعداً ، فيما عدا اثنين أو ثلاثة . لم يكن في مقدور السيد مودرزون أن يسأل أدولف توتنهاوبت وحده طيلة الحصة وهو الوحيد الذي كان ملماً بكل شيء . فلما لم يمكن القاء «القرد» في حضرة المدير ، نزل بالفصل الكرب ؛ ولما جاء دور «ايفانهو» لم يستطع في الحقيقة سوى الكونت مولن الصغير أن يترجم قليلاً ، ذلك أنه كان معنياً بالقصة عناية خاصة . أما البقية فكانوا ينبشون بين المفردات قليلي الحيلة يسعلون ، ونودي على هانو بودنبروك فلم يستطع أن يتجاوز سطراً ، فأخرج المدير موليكه صوتا كما لو كان القوس قد مسّ أعمق وتر في الكمان الأجهر ، فاعتصر السيد مودرزون يديه الصغيرتين الخرقاوين الملطختين بالمداد وأعاد نادباً قوله : مع أنه في العادة كانت الأمور تجري ميسرة! مع أنه في العادة كانت الأمور تجرى على مايرام!

وكان مايزال يكرر هذا حين دق الجرس ، موزعاً التفاته بين التلاميذ والمدير يتملكه القنوط . لكن الرب العزيز كان واقفاً منتصباً بشكل مخيف ، شابكاً ذراعيه أمام الكرسي ، متجاوزاً الفصل ببصره الجامد ، يهز رأسه في نفور... ثم أمر باحضار كراسة الفصل ورصد متمهلاً لكل أولئك الذين كانت معلوماتهم من هنيهة ناقصة أو صفراً ، تعزيراً على كسلهم . وكانوا ستة تلاميذ أو سبعة دفعة واحدة . ولم يكن في الامكان تسجيل اسم السيد مودرزون ، لكنه مع ذلك كان أسوأ حظاً من الجميع . كان واقفاً هناك شاحباً ، كسيراً ، عديم الشأن... وقد كان هانو بودنبروك كذلك من بين من حق عليهم اللوم... وقال المدير موليكه فوق ماقال : «سأقضي على أعمالكم» . وانصرف .

ودق الجرس ، وانتهت الحصة ، وكان لابد من وقوع هذا ، والحال دائماً هكذا . فإذا ازداد خوف المرء مرت الحال تقريباً بسلام ، كأن الأمر لم يكن جداً . أما إذا لم يتوقع الشر ، فالشر يقع . وقد بات محالاً بصورة نهائية أن ينتقل هانو بودنبروك في عيد الفصح . وقد نهض عن مكانه ، وخرج من الحجرة مجهد العينين ، يحرك لسانه على ضرسه المريض .

ووافاه كاي ، وطوقه بذراعه ، وهبط معه الى الفناء وسط الرفاق المنفعلين الذين كانوا يتجادلون في هذه الحوادث غير العادية . ونظر كاي وجلا متوددا الى وجه هانو وقال له : «المعذرة ياهانو من أني ترجمت وكنت حرياً أن ألزم الصمت ، وأدعه يرصد أسمى مع الملومين! لقد كان هذا حطة أي حطة...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجابه هانو :«ألم أقل أنا أيضاً من قبل معنى Patula Jovis Arbore glandes إن الأمر هكذا فعلاً ياكاي فلابأس عليك . ويجب أن ندع الأمور تجري» .

«نعم يجب ـ إذن يريد الرب العزيز أن يقضي على مستقبلك ، فلتسلم أمرك لله إذن ياهانو ، ذلك أنه إذا كانت إرادته التي لاترد ... المستقبل ، يالها من كلمة حبيبة! إن مستقبل السيد مودرزون قد ضاع أيضاً ، فلن يكون مدرساً أول ، فياله من مسكين! أجل ، يجب أن تعرف أن هناك مدرسين مساعدين ومدرسين أوائل ، لكنه ليس هناك مدرسون فقط . وليس هذا بالذي يمكن فهمه ، فهذا شأن الكبار وحدهم ، وأولئك الذين أنضجتهم الحياة . لقد كان يمكن أن يقال أن فلاناً مدرس ، وفلاناً غير مدرس ، أما أن يراد بهذا أن يكون هناك مدرس أول فهذا ما لا أفهمه ، وفي الوسع أن يتقدم المرء بهذا إلى الرب العزيز أو السيد ماروتسكه ويناقشهما فيه . فما الذي يمكن أن يحدث : سيعدان هذا إهانة منك ويحطمانك لخروجك على الطاعة على حين تكون أنت قد أبديت فهماً أعظم من فهمها لمهنتك... دعك منهما وتعال فهما يشبهان وحيد القرن » .

وسارا في الفناء يتنزهان ، وأصغى هانوا راضياً عن ذلك الذي كان كاي يبذل فيه قصاراه ليحمله على نسيان ماسجل له من ملام .

قال : «أنظر ، هنا باب ، باب فناء مفتوح ، وهناك الشارع ، فماذا لو خرجنا وجلنا قليلاً على الرصيف ؟ إنها فترة استراحة ، ولدينا بعد ست دقائق . ويمكننا أن نعود في الميعاد . لكن المسألة هي : إن هذا محال ، أفتفهم ذلك ؟ هنا الباب ، وهو مفتوح ، وليس أمامه سياج ، لاشيء ، لاعقبة تعترض ، وهذه هي العتبة ، ومع ذلك فهذا محال ، بل إن التفكير فيه محال ، ولو للخروج لثانية واحدة... فلنصرف نظراً عنه! لكن لنضرب مثلاً آخر . إنه ليكونن من الخطأ أن نقول أن الساعة الآن منتصف الثانية عشرة تقريباً . بل إن الحصة الآن هي حصة الجغرافيا ، وأنها ستنتهي على النحو السابق! وإني لأسأل كل واحد : أهذه حياة ؟ إن كل شيء معوج... آه ياالهي ، ألا يعفينا القدر من عناقه الحبيب ؟ »

«فليكن ، ثم ماذا بعد هذا ؟ كلا ، دعك ياكاي! فإن الأمر ليكونن عندئذ شبيهاً بذلك . فما الذي نبدأه ؟ هنا نحن مصونون في الاقل . فمنذ مات والدي والسيد ستيفان كستنماكر والقس برنجزهايم يسألانني كل يوم ماذا أريد أن أكون ، فلا أعرف الجواب ، ولاأستطيع أن أكون شيئاً . ذلك أني أخشى كل شيء... »

«كلا ، كيف يكون المرء بهذا الوجل ؟ أنت بموسيقاك...»

«ماهي موسيقاي ياكاي ؟ لاشيء . هل أجوب الأقطار وأعزف ؟ أولا لن يسمحوا لي بذلك ، وثانياً لن أستطيع في هذا أن أحصل على مايكفي . فأنا لاأحذق شيئاً تقريباً . كل ماأستطيع هو بعض التقاسيم إذا ماخلوت الى نفسي . ثم إني لاأتصور التجوال... إنك في هذا شيء آخر . إنك أشجع مني . إنك تجول هنا ، وتضحك من الكل ، وعندك ماتستطيع أن تقابلهم به جميعاً . إنك تريد الكتابة ، وتريد أن تقص على الناس ماهو جميل وغريب . حسن : هذا شيء وستشتهر لأنك بهذا الحذق ، فالام يرجع هذا ؟ إلى أنك أمرح نفساً . إننا أحياناًماينظر أحدنا الى الآخر في الحصة ، كما وقع لحظة من قبل ، والسيد مانتلزاك عندنا ، حين تلقى بيترسن ، من بين جميع من قرأوا ، تعزيراً ، نفكر جميعاً تفكيراً واحداً . فأما أنت فتصعر خدك وتزهى... أما أنا فلا أستطيع ذلك ، وسوف يتعبني منه ، أني أود أن أنام فلا أرى شيئاً بعد الآن . أود أن أموت ياكاي...لا ، لا إنني لايرجى مني ولاأستطيع أن أطلب شيئاً . لاأريد حتى أن أصبح مشهوراً ، فإني أخشى الشهرة ، كأنما فيها مايسيء الي . لن أصبح شيئاً ، ثق بي . من عهد قريب قال القس برنجزهايم بعد حصة التثبيت لاحدهم يجب أن يقطع الأمل مني لأني أنتمي الى أسرة عفنة...»

فقال كاي في اهتمام بالغ :«أقال ذلك ؟»

«نعم ، إنه يقصد به عمي كريستيان الذي ينزل في مصحة في هامبورج . ـ وهو محق بالتأكيد . ينبغي أن يقطع الأمل مني . وليدعون هذا الى امتناني! انني تنتابني هموم كثيرة ، وكل شيء شديد الوطأة علي . هب اني جرحت اصبعي ، إني تألمت في وضع ما من شيء ، إني جرحت جرحاً يلتئم عند غيري ثمانية أيام ، فإنه عندي ليستغرق أربعة أسابيع من دون أن يلتئم ، وليلتهبن ، ويسوءن ، ويسبب لي آلاماً مبرحة... وحديثاً قال لي السيد برشت أن منظر ماحول أسناني يدعو الى الأسف ، فجميعها تقريباً مقوضة نخرة فضلاً عما خلع منها . هذه حالها اليوم ، فبم أعض إذا بلغت الثلاثين أو الأربعين من عمري ألا أني لعديم الأمل» .

فقال كاي وقد أسرع في سيره :«كذا ، ألا ماقصصت علي شيئاً عن عزفك على البيان ، فإني أريد أن أكتب الآن شيئاً عجيباً ، شيئاً عجبياً... ربما شرعت في الكتابة في حصة الرسم . أو تعزف بعد الظهر ؟»

فلزم هانو الصمت لحظة . فقد ألم بنظرته شيء كدر ، مضطرب ، حاد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال :«نعم سأعزف وإن كنت خليقاً ألا أفعل . لاأستطيع إلا أن أعزف وأن ازداد به كل شيء سوءاً» .

«يزداد سوءاً ؟»

فسكت هانو .

وقال كاي :«إني أعلم مم تعزف» . وسكت كلاهما .

لقد كانا في سن عجيبة . فقد احمر وجه كاي جداً وغض بصره دون أن يطرق برأسه ، وبدا هانو شاحباً . وكان جاداً جداً ، يحول عينيه الغائمتين جانباً .

ثم دق السيد شليميل فصعدا الى فوق .

وجاءت حصة الجغرافيا ومعها الارتجال ، وكان ارتجالاً هاماً عن منطقة هسن - ناساو . ودخل رجل ذو لحية حمراء وسترة بنية فضفاضة ، شاحب اللون ، لاتكتسي يداه المتفتحا المسام جدا بشعرة واحدة . كان المدرس الأول السيد الأريب الدكتور ميسم ، وكان يعاني أحياناً من نزيف في الرئة ، ويتكلم دائماً بلهجة تنطوي على التهكم ، إذ كان يعتد نفسه فكها مريضاً معاً ، وكان يملك في بيته نوعاً من الوثائق يتعلق بهايني ، مجموعة من الأوراق والأشياء تتصل بالشاعر الجريء المريض ، وقد حدد الآن تخوم هسن - ناساو على السبورة ، ورجا التلاميذ بقوله :«ليتفضل السادة بأن يرسموا في كراساتهم مايعرض هذا القطر من أعلام!» مبتسماً ابتسامة ساخرة كئيبة في الوقت نفسه . ويظهر أنه كان يريد السخر من التلاميذ ومن ذلك القطر على السواء ، ومع ذلك فقد كان ماكلف التلاميذ به نوعاً هاماً من الارتجال كانوا يخشونه أجمعين .

أما هانو بودنبروك فلم يكن يعرف شيئاً عن هسن - ناساو ، ولايعرف الكثير ، أي لايعرف شيئاً . وقد أراد أن يختلس النظر الى كراسة أدولف توتنهاويت ، لكن «هينريش هايني» الذي كان على رغم تهكمه الفائق الناضح بالألم ، يراقب كل حركة بأشد انتباه لحظ مافعل هانو في الحال وقال : «ياسيد بودنبروك ، إن نفسي تسول لي أن أجعلك تقفل كراستك ، لكني أخشى كل الخشية أن أقدم لك بهذا خدمة ، فاستمر» .

وكانت هذه الملاحظة تنطوي على نكتتين : الأولى أن الدكتور ميسم خاطب هانو بالسيد والثانية «الخدمة» . بيد أن هانو بودنبروك استمر مستغرقاً في الفكر منكباً فوق كراسته ، ثم سلم آخر ورقة بيضاء تقريباً خرج بعد تقديمها مع كاي ثانية .

وقد مر في هذا اليوم كل شيء ، وطوبى لمن خرج منه موفقاً لم يثقل وعيه

تعزير . وقد أمكنه الآن أن يجلس عند السيد دريجيميلر حراً راضياً يرسم في القاعة النيرة .

وكانت قاعة الرسم رحبة مضيئة . وكان على حافة الحيطان نماذج مصبوبة من الجص على مثال قديم ، وفي خزانة كبيرة كتل منوعة من الخشب وأثاث عرائس تستخدم كذلك نماذج ، وكان السيد دريجيميلر رجلاً قصير القامة ، مستدير اللحية ، يضع على رأسه عارية شعر كستنائية ملساء رخيصة تفضح ماتحتها على القفا ، وكان يملك عاريتين واحدة طويلة الشعر وأخرى قصيرته فإذا قص شعر لحيته لبس القصيرة . وكان الى ذلك يتميز بخصائص مضحكة فبدلاً من «القلم الرصاص» يقول «الرصاص» ، تنتشر منه حيث وقف وحيث ذهب رائحة هي مزيج من الزيت والكحول . وكان البعض يقول عنه أنه يشرب بتروّلاً . وأجمل حصصه هي التي يدرس فيها بالنيابة عن غيره مادة غير مادة الرسم ، وعندئذ يحاضر في سياسة بسمارك محاضرة تصاحبها من أنفه وكتفه حركات دائرية ، نافذة ، لولبية ، يتناول فيها حاقداً حانقاً سياسة الديمقراطية الاشتراكية... اعتاد أن يقول للأدباء من التلاميذ وهو يقبض بيده على أذرعهم :«يجب أن نتضامن!إن الديمقراطية الاشتراكية على الأبواب!» كان به شيء تقلصي يشغله ، فيجلس الى جانب أحد التلاميذ تفوح منه رائحة كحولية شديدة ويضربه بخاتمه على جبينه ، ويلفظ كلمات مثل «المنظور» و«الظل في الضوء» و«الرصاص» و«الديمقراطية الاشتراكية» و«التضامن» ويمضي مسرعاً...

وقد أخذ كاي يكتب أدبه أثناء الحصة ، واشتغل هانو بادارة فاتحة أوركسترالية في ذهنه . وكان أيضاً أن أنزل التلاميذ أشياءهم ، وفتحت الطريق الى بوابة الفناء أمامهم ، وتوجهوا الى منازلهم .

وكان هانو وكاي يسلكان طريقاً واحدة ويتصاحبان حتى الفيلا الصغيرة الحمراء الكائنة هناك في الضاحية يحملان كتبهما تحت ابطهما ، ثم يكون على الكونت مولن أن يسير وحده شقة بعيدة الى مسكن أبيه لايرتدي معطفاً ولو مرة واحدة .

وقد حال الضباب الذي كان منتشراً في الصباح ثلجاً كان يتساقط هشائش ناعمة كبيرة ويتحول الى وحل ... وافترقا عند باب حديقة بودنبروك ، لكنه لما اجتاز هانو بالفعل نصف الحديقة الأمامية عاد كاي أدراجه وطوق بذراعيه رقبة هانو ، وقال له بصوت خافت :«لاتبتئس...... وخير ألا تعزف!» ثم اختفى شخصه النحيف الزري بين الثلج الهاطل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ترك هانو كتبه في الطرقة فوق الصحفة التي يمدها الرب أمامه ، وذهب الى حجرة الجلوس ليحيي أمه ، وكانت جالسة فوق الكرسي المديد تقرأ في كتاب أصفر الجلدة . وبينما كان يخطو فوق السجادة نظرت اليه بعينيها العسليتين المتقاربتين اللتين تحيط بمآقيها ظلال مزرقة . فلما وقف أمامها تناولت رأسه بين يديها وقبلته فوق جبينه .

وصعد الى غرفته حيث أعدت له الآنسة كليمانتين بعض الطعام فاغتسل وأكل . ولما فرغ تناول من درجه ربطة من تلك السجائر الصغيرة الروسية الحامية التي لم يعد يجهلها ، وجعل يدخن ثم جلس الى الهارمونيوم وعزف شيئاً عسيراً صارماً جداً ، شيئاً متسلسلاً لباخ ، وأخيراً شبك يديه خلف رأسه ونظر من النافذة الى الثلج المتساقط في سكون . ولم يكن هناك مايرى تحت نافذته غير ذلك ، لاحديقة منمقة ولانافورة متدفقة . وكان يقطع المنظر أمامه حائط جانبي أغبر للفيلا المجاورة .

وفي الساعة الرابعة قدم طعام الغداء . وكانت جيردا بودنبروك والصغير يوهان والآنسة كليمانتين كل من على المائدة . واتخذ هانو فيما بعد أهبته للعزف ، وانتظر أمه على البيان ، فعزفا السوناتا رقم ٢٤ لبيتهوفن وعند الأمهل شدت الكمان كالملائكة . ومع ذلك فقد سحبت جيردا الآلة من تحت ذقنها مستاءة وتأملتها غير راضية ، وقالت إنها غير موفقة ، وكفت عن العزف ، وصعدت الى الطابق الأعلى لتستريح .

وبقي هانو في الصالون فتقدم الى الباب الزجاجي المؤدي الى الشرفة المستطيلة ، وأرسل طرفه بضع دقائق الى الحديقة الأمامية الطرية . لكنه تراجع بغتة خطوة الى الوراء ، وجذب الستارة بعنف أمام الباب ، حتى باتت الغرفة في شبه ظلام مائل الى الصفرة ، وتوجه متأثراً الى البيان . وهناك تلبث لحظة مرة أخرى ، موجهاً نظرة الى نقطة حملق فيها من دون تركيز ، وجعلت نفسه تظلم رويداً رويداً ، وتغيم وتسبح... ثم جلس وأخذ يقسم على البيان .

كان ماعزفه موضوعاً في غاية البساطة ، عدما ، كسرا من لحن لم يوحد ، شكلاً مؤلفاً من ميزان ونصف ميزان ، فلما عزفه للمرة الأولى صوتاً واحداً في وضع عميق وبقوة ماكانت تعتقد فيه ، كأنما أريد بهذا الصوت أن تخرجه ترددات دفعة واحدة ، ليتحكم بوصفه مادة أصلية ويخرج ما يليه ، لم يكن هانو يدرك ماذا عنى به في الحقيقة . لكنه لما أعاده في الطبقة العليا في لون من النغم كرنين الفضة الباهتة وكرره منسجماً ، ظهر أنه في

جوهره يتألف من ختام فذ ، من تناه ينضح بالحنين والألم من نغمة إلى أخرى . . . وقد كان ابتكاراً هزيلاً ، قصير النفس ، اكتسب مع ذلك قيمة عجيبة ، مستسرة ، مهمة بذلك الحسم الدقيق الجليل الذي قدمه به وأداه... ثم بدأت جولات ، غدوات وروحات لترخيمات لاهوادة فيها ، مجاهدة ، تائهة ، تمزقها الصيحات كأنما هناك روح في أشد القلق مما تسمع وما لايريد أن يكف ، بل مايتكرر في انسجامات أخرى على الدوام ، متسائلاً ، شاكياً ، مجاهداً ، طالباً ، مبشراً . وكانت الترخيمات تزداد دواماً وعنفا ، تزحمها ثمانيات متعجلة لاحيلة لها معها ، وقد تشكلت مع ذلك صيحات الخوف التي تخللتها ، وتضامت ، وتحولت الى لحن . وحلت اللحظة التي تمت لها فيها السيادة قوية متواضعة كالغناء المتصاعد ملتاعاً متوسلاً من جوقة من العازفين النافخين . وقد صمت المندفع بلا توقف ، المتموج ، التائه ، المفلت ، وغلب فرن في ايقاع بسيط لاشك في بساطته ، وتوقيع كسير متعبد كأنه من أطفال... ثم انتهى بختام يشبه مايختم به في الكنائس . وجاءت القفلة وخيم السكون... وانظر ، لقد عادت الخطة الأولى ، في أتم خفوت ، وفي لون من رنين الفضة الباهتة ، هذا الابتكار الهزيل ، هذا الشكل السخيف أو المستسر ، هذا التهاوي الحلو الأليم من نغمة الى أخرى ، وهنا شبت ثورة هائلة ، وشغل حانق ، تسيطر عليه نبرات كقرع الطبول ، وتعبيرات عن تصميم قاطع . فماذا حدث ؟ ماذا كان يعد ؟ لقد رن مايشبه النفخ في البوق ايذاناً بالرحيل ، ثم حل شيء يشبه الاستنفار والتعبئة ، وتضامت ايقاعات أشد ثباتاً ، حل شكل جديد ، ارتجال جريء ، نوع من أغاني الصيد ، يشرع في شيء ويهب ، لكنه لم يكن شيئاً بهيجاً ، فقد كان في صميمه مفعماً بالتعالي ، وكانت النذر التي رنت فيه تشبه صيحات النصر ، تتكرر في ذلك الخطة الأولى الملغزة في انسجامات منحرفة ، غريبة ، معذبة ، مغيبة ، حلوة... ثم بدأ تغير متواصل لأحداث لايدرك معناه وماهيته ، هروب من مغامرات الصوت والايقاع والانسجام لم يسيطر هانو عليها ، بل كانت تتشكل تحت أصابعه ، وكان يحياها من دون أن يلم بها سلفاً... وقد جلس منحنياً قليلاً فوق المفاتيح مفتر الشفتين ، ناظراً نظرة بعيدة عميقة ، يتهدل شعره الكستنائي بخصله الناعمة حتى صدغيه . فماذا حدث ؟ ماذا خبر ؟ هل ذلل هنا عقبات كأداء ، هل صرع تنينا ، وتسلق صخراً ، وتغلب على التيارات سباحة واخترق لهباً ؟ وانسابت الخطة الأولى ، هذه الصورة العدمية ، هذا التهاوي من نغمة الى أخرى ، كالضحك المجلجل أو البشارة المسعدة بصورة غير مفهومة... أجل لقد كانت كأنما

تستحث دواما الى جهود جديدة عنيفة ، وكانت تتبعها اندفاعات خاطفة في قطاعات مثمنة تند عنها صيحات ، ثم بدأ انتفاخ وارتفاع بطيء ، متواصل ، صراع في الأعالي يحدوه شوق عنيف لايقاوم ، يقطعه بغتة بيانيسيمو مفاجيء ، مزعج حاث ، كأنه غوص الأرض تحت الأقدام أو وقوع في اشتهاء... وكان هذا في إحدى المرات كأنما تسمع من بعيد وفي خفوت الإئتلافات الأولى لصلاة فيها لوعة وفيها توسل . على أنه لم يلبث أن فاض على ذلك ، النشاز المصعد ، الذي كان عديده يتكور ، ويتدحرج الى الأمام ، ويتراجع ، ويتسلق ، ويهبط ، ثم يعود فيجاهد في سبيل غاية تنبو عن التعبير كان لابد لبلوغها ولابد من بلوغها الآن ، في هذه اللحظة ، عند هذه الذروة المخيفة ، إذ باتت هذه الشدة شيئاً لايطاق... وقد بلغت هذه الغاية ، ولم يمكن دفعها ، ولم يمكن إطالة اختلاجات الحنين . بلغت كما لو كانت استار مزقت ، وأبواب اقتحمت ، وأسيجة من شوك فتحت ، ولهب اطفئت... الحل ، الختام ، التحقق ، الإرتياح التام ـ كل هذا الحل ، وكل شيء راق وصفا ، فحال انسجاماً يفنى في انسجام ، حلواً ، شائقاً . . . لقد كان ما رنّ هو الخطة الأولى! ومابدأ الآن أيضاً ، نصراً ، لهواً مفلت الزمام من هذا الشكل الذي ارتفع في كل ظلال النغم ، وانخفض من كل الطرقات ، وانتحب ، وارتعد في النغمة الارتجافية ، وتمنى ، وهتف ، وشهق ، وظهر مصفراً في أبهة الجهاز الأوركسترالي الصاخب الرنان المتلألئ المزبد... لقد كان في عبادة هذا العدم ، تلك العبادة المنطوية على التعصب ، وفي هذه القطعة من اللحم ، وفي هذا الابتكار الوجيز الصبياني ، المنسجم ، المكون من إئتلاف ونصف إئتلاف شيء وحشي وبلادة ، وفي الوقت نفسه زهد ، ودين ، شيء كالإماء والتضحية... رذيلة في تجاوز الحد والنهم الذي ينعم به بهذا الإبتكار ويستغل ، وشيء من اليأس الأنكد ، شيء كإرادة المتعة والسقوط في الجشع الذي يمتص به منه آخر حلاوة حتى الإعياء وحتى الاشمئزاز والقرف ، حتى ينساب في النهاية بعد كل الإنحرافات إئتلاف طويل خافت في المفتاح الصغير فيرتفع نغمه وينحل في الكبير ويتلاشى في تردد آسٍ حزين .

وجلس هانو لحظة أخرى يسند ذقنه إلى صدره ، ويضع يديه في حجره ، ثم نهض واقفاً وطوى البيان . وكان شاحباً جداً ، تتخاذل ركبتاه وتلتهب عيناه ، فذهب الى الحجرة المجاورة واستلقى فوق المقعد المديد ، وبقى على هذه الحال أمداً طويلاً لا يحرك ساكناً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتناول فيما بعد طعام العشاء ، ولعب مع أمه بعد تناوله شوطاً في الشطرنج لم يكسبه أحد منهما ، لكنه بعد منتصف الليل كان مايزال جالساً في حجرته على ضوء شمعة أمام الهارمونيوم يعزف في فكره لأنه لم يكن يجوز له أن يحدث ضوضاء في ذلك الوقت ، وفي عزمه أن ينهض غداً من نومه في منتصف السادسة لينجز أهم أعماله المدرسية .

كان هذا يوماً من حياة يوهان الصغير .

الفصل الثالث

تتخذ حمى التيفوئيد المجرى التالي :

يشعر المرء بانحراف في مزاجه يتفاقم بسرعة ويحول قنوطاً واهناً . ويتملك المرء في الوقت نفسه وهن جسماني لا يلم بالعضلات وأطرافها فحسب ، بل يمتد أيضاً إلى وظائف الأعضاء الداخلية جميعاً ، ووظائف المعدة في جملتها فتأبى أن تتلقى الأطعمة ، كارهة ، ويحس المرء حاجة ملحة الى النوم ، لكن النوم على الرغم من التعب الخارجي يكون مضطرباً ، سطحياً ، وجلاً ، غير منعش . ويتصدع الدماغ فيخمد ويتولاه الارتباك ، كأنما يغشاه ضباب . ويصيبه دوار ، ويلم بجميع الأعضاء ألم لا يدرك كنهه ، ويسيل بين الحين والحين دم من الأنف دون مادا ع خاص . . هذه هي المقدمة .

ثم تحدث رعشة برد شديدة تهز الجسم كله وتصطك منها الأسنان ، ايذاناً بحلول الحمى التي لاتلبث أن ترتفع الى أعلى درجة . وتظهر على جلد الصدر والبطن عندئذ بقع حمراء في حجم العدس يمكن أن تختفي تحت ضغط الإصبع لكنها تعود في الحال متى ارتفع الضغط . ويسرع نبض القلب فيصل إلى مائة في الدقيقة . على هذا المنوال ينقضي الاسبوع الأول مع حرارة للجسم تبلغ الأربعين درجة .

وفي الأسبوع الثاني يتخلص المرء من وجع الرأس وألم الأطراف . ولقاء ذلك يشتد الدوار كثيراً ، ويتملك طنين وصخب يبلغ منهما أن يثقل سمع المريض ، وينم تعبير الوجه عن الغباء ، ويأخذ الفم في أن يبقى مفتوحاً ، والعينان في أن تطوف بهما غشاوة وتيه ، ويغيم الوعي ، ويرغب المريض في النوم .

وكثيراً مايقع في غيبوبة ثقيلة ، من دون أن ينام في حقيقة الأمر . وفي خلال ذلك يملأ

الحجرة هذيانه وتخيلاته المرتفعة المتفززة ، وتبلغ قلة حيلته وتراخيه مبلغاً يؤدي به إلى القذارة وإلى النفور ، وتغطي لثته واسنانه ولسانه طبقة مسودة توبئ نفسه . ويرقد على ظهره بلا حراك ، رافعاً جسمه الأسفل ، فهو غائر في فراشه منفرج الركبتين ، كل شيء فيه يجري مسرعاً ، منطلقاً ، سطحياً ، تنفسه ونبضه على السواء ، وهو الذي يدق مائة وعشرين دقة خافتة خاطفة في الدقيقة . وتكون جفونه نصف مطبقة ، ولايعود خداه يضطرمان كما كانا في البداية أحمرين من حرارة الحمى ، بل يتخذان لوناً يضرب الى الزرقة ، وتزداد البقع الحمراء التي في حجم العدس ، المنتشرة فوق الصدر والبطن ، وتصل حرارة الجسم الى إحدى وأربعين درجة...

وفي الأسبوع الثالث يبلغ الضعف أقصاه ، ويصمت الهذيان المرتفع ولايستطيع أحد أن يقول هل غابت حواس المريض في ليل خاو ، أو استغرق في أحلام قاصية ، عميقة ، ساكنة ، غير شاعر بالألم الذي ينتهبه ، غافلاً عنه . وهي أحلام لايدل عليها شيء من صوت أو إشارة . ويرقد الجسم عديم الاحساس الى غير حد . . وهذا وقت الفصل...

وتصعب التشخيص عند أشخاص بعينهم ظروف خاصة . فإذا فرضنا على سبيل المثال أن تكون الأعراض الأولى للمرض وانحراف المزاج والوهن وانعدام الشهية والنوم المضطرب والصداع قائمة في الغالب عندما يكون المريض ، أمل ذويه ، مايزال يتنقل في صحة تامة ، فلا تكاد تلاحظ هذه الأعراض على أنها شيء غير عادي حتى مع ظهورها بغتة بصورة أبرز - فالطبيب الماهر ، الراسخ العلم ، كالدكتور لانجهالز على سبيل المثال ، الدكتور لانجهالز الوسيم الطلعة ذي اليدين الصغيرتين المشعرتين سرعان مايكون في مقدوره مع ذلك أن يسمي الأشياء بأسمائها ، فظهور البقع الحمراء على الصدر والبطن حاسم في الأمر كل الحسم . ولن يساوره شك في الإجراءات التي تتخذ والوسائل التي يلجأ إليها . وسيعنى بأن تكون حجرة المريض كبيرة على قدر الامكان ، مهواة في الغالب ، بحيث لاتتجاوز درجة الحرارة فيها سبع عشرة درجة . وسيلح في أن تكون النظافة فيها تامة ويحمي الجسم ويقيه بترتيب الفراش بين الحين والحين على قدر الإمكان ، من التجرح في الرقاد. وإنْ تعذر هذا مع طول الوقت في بعض الحالات . وسيأمر بالتنظيف الدائم لسقف الحلق بخرقة مبللة من الكتان ، ويستخدم فيما يتعلق بالدواء مزيجا من اليود واليود كاليوم ويصف الكينين والانتيبيرين ، ويوصي قبل كل شيء بحمية خفيفة جداً ، مقوية جداً ، إذ تكون المعدة:

والأمعاء متأثرة كلتاهما من المرض تأثراً كبيراً . وسيقاوم الحمى المستعرة بحمامات ، حمامات كاملة ، يحمل اليها المريض غالباً كل ثلاث ساعات ، بلا انقطاع ، بالنهار وبالليل ، وتبرد ببطء عند موضع القدم في الحوض ، وبعد كل حمام يعطى المريض على عجل شيئاً مقوياً منشطاً كالكونياك والشمبانيا أيضاً .

لكنه كان يستخدم كل هذه الوسائل كيفما اتفق وفق حالة واحدة هي أن يكون لها تأثير ما ، غير أن استخدامها لايخلو من قيمة ومعنى وغاية . ذلك أنه لايعلم مايتعلق بأمر من الأمور بالذات ، فهو يتخبط في الظلام ويحوم في تردد تام حول «اما» و«أو» وحتى يحل الأسبوع الثالث ، وتتأزم الحالة ، ويتم الفصل ، لايعلم هل المرض الذي يسميه تيفوئيد يعني في هذه الحالة مصاباً غير خطير في أساسه ، ونتيجة سيئة لعدوى لعله كان يمكن تجنبها ، عدوى تعالج بالوسائل العلمية ، أو هو بكل بساطة شكل من أشكال الانحلال ، رداء الموت نفسه الذي يمكن أن يظهر كذلك في قناع آخر ولايجدي معه عشب ما .

ويجري التيفوئيد المجرى الآتي : يدعو الحياة في أحلام الحمى النائية ، في ذلك الضياع المضطرم ـ ضياع المريض ، وينادي عليها صوت بهيج لاسبيل الى انكاره ، ويدرك الروح في الطريق الغريب الحامي الذي تسير فيه قدماً ، والذي يفضي الى الظل ، والبرد ، والسلام ، قوياً منبهاً . ويصغي الإنسان إلى هذه المناشدة الصبوح البهيجة ، الساخرة شيئاً ما ، وهذه الدعوة الى العودة والرجوع تتناهى اليه من تلك الناحية التي كانت الشقة قد بعدت بينه وبينها ، والرجوع قد نسيها بالفعل . فهل تعتمل فيه كالشعور بنذالة اهمال الواجب ، وبالخجل ، وكالإحساس بالطاقة المتجددة والشجاعة ، والغبطة ، والحب ، والانتماء الى الحركة الساخرة الوحشية المتنوعة التي خلفها وراءه ، فيعود أدراجه ويعيش مهما بلغ تيهه وضلاله في الطريق الغريب الحامي . أما إذا ارتعد من الخوف ، ونفر من صوت الحياة الذي يسمعه ، وكان من أثر هذا التذكير ، وهذا الصوت المرح المتحدي أن يهز الانسان رأسه ويمد يده من خلفه رافضاً ، ممتنعاً ، ويفر قدماً يقطع الطريق الذي انفتح لهربه... كلا ، فالأمر بيّن وسيموت عندئذ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

وقالت الآنسة العجوز فيشبروت للمرة المتممة للمائة ، مهمومة ، لائمة : «لايجوز هذا ، لايصح ياجيردا!» لقد تبوأت الآن ، في مساء اليوم ، في حجرة جلوس تلميذاتها السابقة مكاناً على الأريكة ، في الدائرة التي اجتمعت حول المائدة المستديرة الوسطى من جيردا بودنبروك ومدام بيرمانيدر وابنتها ايريكا والمسكينة كلوتيلدة وسيدات بودنبروك الثلاث المقيمات في الشارع العريض . وكانت تتدلى من قلنسوتها أشرطة خضراء فوق كتفيها المشبهتين أكتاف الأطفال ، اللتين كانت لابد أن ترفع إحداهما لتستطيع تحريك زندها فوق «قرصة» المائدة ، فقد بلغت من الضآلة هذا الحد في سنها البالغة الخامسة والسبعين .

وعادت تقول بصوت مرتعش متحمس :«لايجوز هذا ، فدعيني أقول لك إن هذا ليس من الخير ياجيردا! إني أقف بإحدى قدمي في القبر ، فليس في الأجل الا ذماء ، وأنت تريدين أن تتركيني... أن تتركينا... تريدين أن تنفصلي عنا الى الأبد... وترحلي... فلو كان الأمر أمر سفر ، زيارة تؤدينها لامستردام ثم تعودين... لكنه رحيل الى الأبد!»

وهزت رأسها ، رأس الطائر العجوز ، بعينيها العسليتين الهيابتين الكدرتين واستطردت تقول :«حقاً إنك فقدت الكثير ...»

فقالت مدام بيرمانيدر :«كلا ، لقد فقدت كل شيء ، فلا يصح أن نكون أنانيين ياتيريزا . إن جيردا تريد الرحيل ، وسترحل ، فلا حيلة لنا في ذلك . لقد كان مجيئها من إحدى وعشرين سنة مضت مع توماس . وقد أحببنا كليهما ، وإن بقينا في عينها دائماً بغيضين... أجل كنا ذلك ياجيردا فلا تعترضي! لكن توماس لم يعد في قيد الحياة... لم يعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحد في قيد الحياة... فماذا نحن في رأيها ؟ لاشيء ، إننا لنألم ، لكن سافري في رعاية الله ياجيردا ، وشكراً لك على أنك لم تسافري قبل ذلك ، حين مات توماس... »

كان هذا في الخريف بعد طعام العشاء ، وكان يوهان الصغير (يوستوس ، يوهان ، كسبار) يرقد في قبره منذ ستة أشهر تقريباً يزوده القس برنجزهايم بالمباركات ، هناك على حافة الغابة ، تحت الصليب المقام من الحجر الرملي وتحت رنك الأسرة . وكان المطر يهطل أمام البيت بين أشجار الشارع العارية من الأوراق ، وتهب أحياناً رياح تلطم به ألواح النوافذ . وكانت السيدات الثماني جميعاً يرتدين ملابس الحداد .

كان اجتماعاً عائلياً صغيراً للوداع ، وداع جيردا بودنبروك التي كانت على وشك مبارحة المدينة والعودة الى امستردام لتعزف كسابق العهد عزفها الثناني مع أبيها الشيخ . لم يعد يستبقيها التزام ، ولم يعد عند مدام بيرمانيدر ما تعترض به على هذا القرار ، فرضخت له ، لكنها كانت في الصميم شديدة الابتئاس به . فلو أن أرملة السناتور بقيت في المدينة لبقي لها مكانها ومرتبتها في المجتمع ، ولتركت ثروتها في مكانها . وظل اسم الأسرة قائماً على شيء من المكانة ... وليبق اليوم ماكان على الدوام... فإن مدام بيرمانيدر راغبة في أن تظل مرفوعة الرأس مادامت فوق هذه الأرض ومادام الناس ينظرون اليها . فلقد كان جدها تجر مركبته وهو يجوب بها أنحاء البلاد أربعة من الجياد .

وعلى الرغم من الحياة المؤثرة التي استدبرتها ومن الضعف الملم بمعدتها كان الناس لايصدقون أنها بلغت الخمسين . حقاً لقد كانت بشرتها مزغبة قليلاً ، باهتة شيئاً ما ، وعلى شفتها العليا ـ شفة الحسناء توني بودنبروك العليا ـ يزداد نمو الشعرات ، لكنه لم يكن في مفرق شعرها خيط واحد أبيض يرى .

وقد قابلت ابنة عمها كلوتيلدة المسكينة رحيل جيردا كما يقابلها كل شيء في هذه الدار الفانية براحة بال وهدوء . وقد تناولت قبل ذلك من طعام العشاء قدراً هائلاً وهي ساكتة ، وكانت تجلس الآن غبراء بلون الرماد ، هزيلة كما هي على الدوام ، يخرج كلامها ممطوطاً ودوداً .

ولم تكن ايريكا فاينشنك ، وهي الآن في الثانية والثلاثين من عمرها ، لم تكن بالمثل المرأة التي تتأثر لوداع عمتها ، فقد خبرت الحياة وفوادحها ، وبات الاستسلام في كيانها قبل الأوان . ففي عينيها المتعبتين الزرقاوين زرقة الماء ، عيني السيد جرينليش ـ كان المرء

يقرأ الرضى بحياة فاشلة مسطوراً ، وفي صوتها الهادئ ، الشاكي أحياناً قليلاً كان يرن الشيء نفسه .

أما مايتعلق بسيدات بودنبروك الثلاث ، بنات العم جونهولد ، فقد كانت ملامحهن كالعادة جادة مفعمة بالنقد ، ازدادت منهن الكبريان فريدريكة وهنرييت هزالاً وحدة مع الأيام ، بينما كانت الصغرى فيفي البالغة من العمر الثالثة والخمسين يزداد مظهرها قصراً وبدانة ...

كذلك كانت القنصلة كروجر العجوز أرملة الخال يوستوس مدعوة ، لكنها لم تكن ممن ينسجمون مع الغير ، وكانت الى ذلك غير مكلفة بأن ترتدي ثوباً لائقاً . وهذا مما يتعذر انتقاده .

كان الحديث عن سفر جيردا وعن القطار الذي انتوت السفر به ، وعن بيع الڤيلا بما تحتويه من أثاث وهو ماأخذه السمسار جوش على عاتقه . ذلك أن جيردا لم تأخذ شيئاً معها وارتحلت على نحو ماجاءت .

وعرضت مدام بيرمانيدر للكلام عن الحياة ، فتناولتها من جانبها الأهم ، وتأملت الماضي والمستقبل ، وإن لم يكن ثمة مايقال عن المستقبل .

قالت : «أجل إنني إذا ذهبت الى رحمة الله فإن لايريكا إذا شاءت أن ترحل الى مكان آخر . لكني إذا بقيت في قيد الحياة فلن أتحمل الحياة في أي مكان آخر . ما دمت حية فأريد أن نبقى هنا متواصلين بوصفنا مخلوقين متخلفين ، تأتين إليَّ مرة في الاسبوع ونتناول الطعام... ثم نقرأ في أوراق الأسرة ـ» ولمست الحافظة الموضوعة أمامها وقالت : «أجل ياجيردا ، إني لأتولاها شاكرة ـ . اتفقنا... أتسمعين ياتيلدة ؟... لاحيلة لنا في ذلك . وإن كان يمكن أن تكوني أنت التي تدعيننا ، لأنك في الواقع لم تعودي أسوأ منا حالاً . نعم ، هكذا أمور الدنيا . نتعب ونتأهب ونكافح . . . وقد جلست هنا وصبرت في انتظار كل شيء . لكنك في ذلك كنت غبية ياتيلدة . لا تأخذي على خاطرك... »

فقالت كلوتيلده تبتسم : «أوه ياتوني!»

وقالت جيردا : «يؤسفني إني لاأستطيع أن أودع كريستيان» ، وبذا تناول الكلام كريستيان ، ولم يكن ثمة أمل في خروجه ثانية من المصحة التي ينزل بها ، وإن لم تكن حالته من السوء بحيث تمنع من إطلاق سراحه . لكن حالته الراهنة هذه كانت مؤاتية كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤاتاة لزوجه ، إذ كانت عما زعمت مدام بيرمانيدر حليفة للطبيب . ومن المنتظر أن يقضي كريستيان بقية أيامه في المصحة .

وسادت فترة من الصمت ثم اتجه الحديث متردداً خافتاً الى الأحداث التي وقعت أخيراً . فلما ذكر اسم يوهان الصغير ران الصمت ثانية على الحجرة ، ولم يسمع سوى صوت انهمار المطر أمام البيت أشد وقعاً مما كان .

لقد كان هناك سر باهظ يحوط بمرض هانو الأخير ، ولابدّ أنه جرى مجرى مخيفاً بصورة غير عادية ، فإن أحداً لم ينظر الى أحد أثناء الكلام عنه بصوت منخفض والتلميح اليه بعبارة مقتضبة . ثم تذكر الحضور تلك الحلقة الأخيرة... تذكروا زيارة الكونت الصغير الرث الملابس الذي شق طريقه بالقوة الى مخدع المريض... وقد ابتسم هانو لماسمع صوته ، مع أنه كان قد كف عن تعرف أحد ، وجعل كاي يقبل يديه بلا انقطاع .

وقالت سيدات بودنبروك : «لقد قبل يديه!»

«أجل ، مراراً» .

وفكر الجميع في ذلك برهة من الزمان .

وفجأة انخرطت مدام بيرمانيدر في البكاء .

قالت وهي تنتحب : «لقد أحببته حباً جماً... لاأعرف كم كنت أحبه... أكثر منكن جميعاً... غفرانك جيردا... فأنت أمه...آه ، لقد كان ملاكاً...»

وصححت زيزيمي : «إنه الآن ملك» .

ومضت مدام بيرمانيدر والدمع يجري على بشرة خديها المزغبة الباهتة : «هانو ، صغيري هانو! توم ، أبي ، جدي ، والآخرون ، الى أين ذهبتم! لم نعد نراكم . آه ، ماأقسى هذا! كم هو محزن!» .

وقالت فريديكه بودنبروك وهي تثبت يديها في حجرها ، وتخفض بصرها ، وتخز الهواء بأنفها : «إن هناك لقاء» .

«نعم ، هذا مايقال... هناك ساعات يافريدريكه لايتعزى فيها المرء ، وليجازني الله ، ساعات يضل فيها المرء ويخطىء في حق العدالة ، والطبيعة ، وكل شيء... والحياة كما تعرفن تحطم بعض مافي أنفسنا وتزعزع بعض إيماننا ... لقاء... ليته يكون...»

هنا هبت زيزيمي فيشبروت عن المائدة ووثبت الى أعلى مايمكن أن تثب ، ووقفت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أطراف أصابعها ، ومدت عنقها ، ودقت على قرصة المائدة ، وارتعشت قلنسوتها فوق رأسها ، وقالت بكل قوتها : «هو هذا!» ونظرت الى الجميع متحدية .

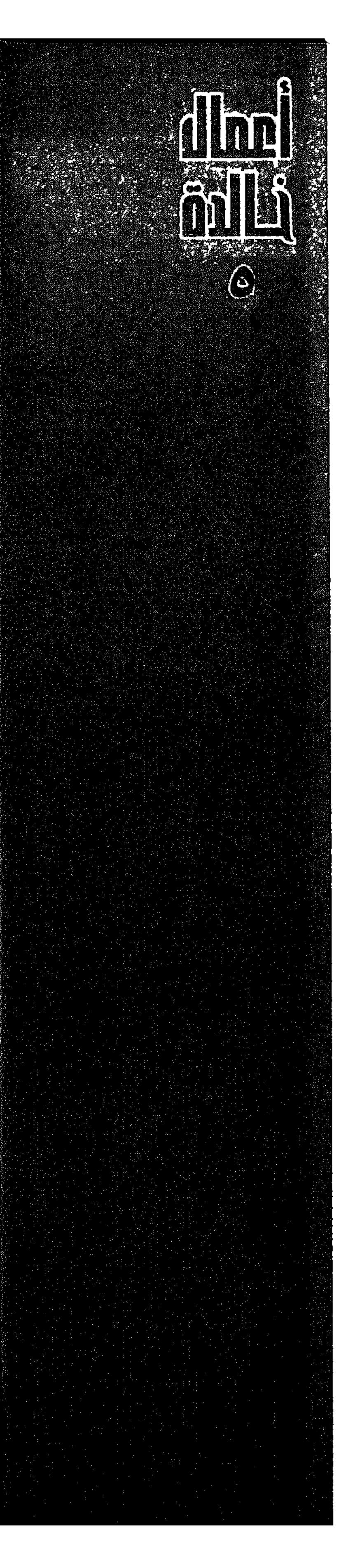
وقفت هناك منتصرة في الكفاح الطيب الذي أدارت رحاه خلال ماعاشته من الحياة على الحملات التي شنها العقل من جانب معلماتها ، حدباء ، عجفاء ، ترتجف بما تؤمن به ، نبية ، صغيرة ، متحمسة ، تكيل للخاطىء الجزاء...

تمت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

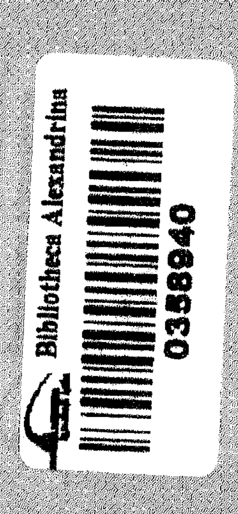
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



توماس مان

أعمال خالدة ٥

قصة آل بودنبروك تعالج موضوعات طالت حياة
توماس مان وتصف تداعي الطبقة الوسطى،
ورهافة حس فنانها الذي أقعده هذا الحس المرهف
عن مجابهة الحياة لما تبينه من تنافر الحياة
والفكر وما اتسما به من انقسام. وتوماس مان حين
يحكي يصدق، وحين يكتب يلطف ويسهب في يسر،
ويتهكم تهكمًا لذيذًا ينساب في كتابته ويمتع
قارئه. فهو مجتمع في «آل بودنبروك» بأكمله
منفتح لفن اللغة يغمرها بأمانته في التحليل
النفسي ويشيع فيها رصانته ويميزها بأمانته
ودقته في نقل الإيقاع وعرض السلوك.



ISBN --> 2-84305340-4
EAN --> 9782843053405